الميزان

في تفسير القرآن

ج/١٧

الجزء السابع عشر

من كتاب

الميزان في تفسير القرآن

لمؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

ملتزم الطبع والنشر

الشيخ محمد الآخوندي

مؤسس

دار الكتب الإسلامية

طهران - سوق السلطاني

١٣٨٨ ه‍ ق

مطبعة الحيدري بطهران

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاطر مكّيّة و هي خمس و أربعون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فاطِرِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلٰئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنىٰ وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مٰا يَشٰاءُ إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة بيان الاُصول الثلاثة : وحدانيّته تعالى في ربوبيّته و رسالة الرسول والمعاد إليه و تقرير الحجّة لذلك وقد توسّل لذلك بعدّ جمل من نعمه العظيمة السماويّة والأرضيّة والإشارة إلى تدبيره المتقن لأمر العالم عامّة والإنسان خاصّة .

و قد قدّم على هذا التفصيل الإشارة الإجماليّة إلى انحصار فتح الرحمة وإمساكها و هو إفاضة النعمة والكفّ عنها فيه تعالى بقوله : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » الآية .

و قدّم على ذلك الإشارة إلى وسائط هذه الرحمة المفتوحة والنعم الموهوبة و هم الملائكة المتوسّطون بينه تعالى وبين خلقه في حمل أنواع النعم من عنده تعالى وإيصالها إلى خلقه فافتتح السورة بذكرهم .

والسورة مكّيّة كما يدلّ عليه سياق آياتها ، و قد استثنى بعضهم آيتين و هما قوله تعالى : « إنّ الّذين يتلون آيات الله » الآية و قوله : « ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا » الآية وهو غير ظاهر من سياق الآيتين .

قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض » الفطر ـ على ما ذكره الراغب ـ هو الشقّ طولا فاطلاق الفاطر عليه تعالى بعناية استعاريّة كأنّه شقّ العدم فأخرج من بطنها السماوات والأرض فمحصّل معناه أنّه موجد السماوات والأرض إيجادا ابتدائيّا من غيرمثال سابق ، فيقرب معناه من معنى البديع والمبدع والفرق بين الابداع والفطر أنّ العناية في الابداع متعلّقة بنفي المثال السابق وفي الفطر بطردالعدم و إيجاد الشيء من رأس لا كالصانع الّذي يؤلّف موادّ مختلفة فيظهر به صورة جديدة لم تكن .

والمراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود فيشملهما وما فيهما من مخلوق فيكون من قبيل إطلاق معظم الأجزاء و إرادة الكلّ مجازا ، أو المراد نفس السماوات والأرض اعتناء بشأنهما لكبر خلقتهما و عجيب أمرهما كما قال : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ .

و كيف كان فقوله : « فاطر السماوات والأرض » من أسمائه تعالى اُجري صفة لله والمراد بالوصف الاستمرار دون الماضي فقط لأنّ الايجاد مستمرّ و فيض الوجود غير منقطع و لو انقطع لانعدمت الأشياء .

والاتيان بالوصف بعد الوصف للاشعار بأسباب انحصار الحمد فيه تعالى كأنّه قيل : الحمد لله على ما أوجد السماوات والأرض و على ما جعل الملائكة رسلا اُولي أجنحة فهو تعالى محمود ما أتى فيما أتى إلّا الجميل .

قوله تعالى : « جاعل الملائكة رسلاً اُولي أجنحة مثنى و ثلاث و رباع » الملائكة جمع ملك بفتح اللام و هم موجودات خلقهم الله و جعلهم وسائط بينه و بين العالم المشهود وكّلهم باُمور العالم التكوينيّة والتشريعيّة عباد مكرمون لايعصون الله فيما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون .

فقوله تعالى : « جاعل الملائكة رسلاً » يشعر بل يدلّ على كون جميع الملائكة ـ والملائكة جمع محلّى باللام مفيد للعموم ـ رسلاً ووسائط بينه و بين خلقه في إجراء أوامره التكوينيّة والتشريعيّة .

ولاموجب لتخصيص الرسل في الآية بالملائكة النازلين على الأنبياء عليهم السلام وقد أطلق القرآن الرسل على غيرهم من الملائكة كقوله تعالى : « حتّى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا » الأنعام : ٦١ ، وقوله : « إنّ رسلنا يكتبون ماتمكرون » يونس: ٢١ ، و قوله : « و لمّا جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنّامهلكوا أهل هذهالقرية» العنكبوت : ٣١ .

والأجنحة جمع جناح و هو من الطائر بمنزلة اليد من الإنسان يتوسّل به إلى الصعود إلى الجوّ والنزول منه والانتقال من مكان إلى مكان بالطيران .

فوجود الملك مجهّز بما يفعل به نظير ما يفعله الطائر بجناحه فينتقل به من السماء إلىالأرض بأمر الله ويعرج به منها إليها ومن أيّ موضع إلى أيّ موضع ، وقد سمّاه القرآن جناحا ولا يستوجب ذلك إلّا ترتّب الغاية المطلوبة من الجناح عليه و أمّا كونه من سنخ جناح غالب الطيرذاريش و زغب فلا يستوجبه مجرّد إطلاق اللفظ كما لم يستوجبه في نظائره كألفاظ العرش والكرسيّ واللوح والقلم و غيرها .

و قوله : « اُولي أجنحة مثنى و ثلاث و رباع » صفة للملائكة ، و مثنى وثلاث و رباع ألفاظ دالّة على تكرّر العدد أي اثنين اثنين و ثلاثة ثلاثة و أربعة أربعة كأنّه قيل : جعلالملائكة بعضهم ذا جناحين و بعضهم ذا ثلاثة أجنحة وبعضهم ذا أربعة أجنحة.

و قوله : « يزيد في الخلق ما يشاء » لا يخلو من إشعار بحسب السياق بأنّ منهم من يزيد أجنحته على أربعة .

وقوله : «إنّ الله على كلّ شيءقدير » تعليل لجميع ماتقدّمه أوالجملةالأخيرة والأوّل أظهر .

﴿ بحث روائی ﴾

في البحار عن الاختصاص بإسناده عن المعلّى بن محمّد رفعه إلى أبي عبدالله عليه السلام قال : إنّ الله عزّ وجلّ خلق الملائكة من نور ، الخبر .

و في تفسير القميّ قال الصادق عليه السلام : خلق الله الملائكة مختلفة وقد أتى رسول

الله صلى الله عليه وآله جبرئيل و له ستّمائة جناح على ساقه الدرّ مثل القطر على البقل قد ملأ ما بين السماء والأرض وقال إذا أمر الله عزّ وجلّ ميكائيل بالهبوط إلى الدنيا صارت رجله في السماء السابعة والأخرى في الأرض السابعة ، و إنّ لله ملائكة أنصافهم من برد و أنصافهم من نار يقولون : يا مؤلّفا بين البرد والنار ثبّت قلوبنا على طاعتك .

و قال : إنّ لله ملكا بعد ما بين شحمة أذنه إلى عينه مسيرة خمس مائة عام بخفقان الطير .

و قال : إنّ الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون و إنّما يعيشون بنسيم العرش ، و إنّ لله عزّ وجلّ ملائكة ركّعا إلى يوم القيامة و إنّ لله عزّ وجلّ ملائكة سجّدا إلى يوم القيامة .

ثمّ قال أبوعبدالله عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما من شيء ممّا خلق الله عزّ وجلّ أكثر من الملائكة و إنّه ليهبط في كلّ يوم أو في كلّ ليلة سبعون ألف ملك ، فيأتون البيت الحرام فيطوفون به ثمّ يأتون رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ يأتون أمير المؤمنين عليه السلام فيسلّمون ثمّ يأتون الحسين عليه السلام فيقيمون عنده فإذا كان عند السحر وضع لهم معراج إلى السماء ثمّ لا يعودون أبدا .

و قال أبو جعفر عليه السلام : إنّ الله عزّ وجلّ خلق إسرافيل و جبرئيل و ميكائيل من تسبيحة واحدة ، وجعل لهم السمع والبصر وجودة العقل و سرعة الفهم .

و قال أمير المؤمنين عليه السلام في خلقة الملائكة : و ملائكة خلقتهم و أسكنتهم سماواتك فليس فيهم فترة ، ولا عندهم غفلة ، ولا فيهم معصية ، هم أعلم خلقك بك و أخوف خلقك منك ، و أقرب خلقك منك ، و أعملهم بطاعتك ، لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ، ولا فترة الأبدان لم يسكنوا الأصلاب ، ولم تضمّهم الأرحام ، و لم تخلقهم من ماء مهين أنشأتهم إنشاء فأسكنتهم سماواتك و أكرمتهم بجوارك ، و ائتمنتهم على وحيك ، و جنّبتهم الآفات ، و وقيتهم البليّات ، و طهّرتهم من الذنوب ، و لو لا قوّتك لم تقووا ، و لو لا تثبيتك لم يثبتوا ، و لو لا رحمتك لم يطيعوا ، و لو لا أنت لم تكونوا .

أما إنّهم على مكانتهم منك و طاعتهم إيّاك و منزلتهم عندك وقلّة غفلتهم عن أمرك لو عاينوا ما خفي عنهم منك لاحتقروا أعمالهم ، و لأزروا على أنفسهم ، و لعلموا أنّهم لم يعبدوك حقّ عبادتك سبحانك خالقا و معبودا ما أحسن بلاءك عند خلقك .

و في البحار عن الدرّ المنثور عن أبي العلاء بن سعد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوما لجلسائه : أطّت السماء و حقّ لها أن تئطّ ليس منها موضع قدم إلّا عليه ملك راكع أو ساجد . ثمّ قرء « و إنّا لنحن الصافّون و إنّا لنحن المسبّحون » .

و عن الخصال بإسناده عن محمّد بن طلحة يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قال : الملائكة على ثلاثة أجزاء فجزء لهم جناحان وجزء لهم ثلاثة أجنحة و جزء لهم أربعة أجنحة .

اقول : و رواه في الكافي بإسناده عن عبدالله بن طلحة مثله ، و لعلّ المراد به وصف أغلب الملائكة حتّى لا يعارض سياق الآية والروايات الاُخر .

و عن التوحيد بإسناده عن أبي حيّان التيميّ عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : ليس أحد من الناس إلّا و معه ملائكة حفظة يحفظونه من أن يتردّى في بئر أو يقع عليه حائط أو يصيبه سوء فإذا حان أجله خلّوا بينه و بين ما يصيبه ـ الخبر .

و عن البصائر عن السيّاريّ عن عبدالله بن أبي عبدالله الفارسيّ و غيره رفعوه إلى أبي عبدالله عليه السلام قال : إنّ الكروبيّين قوم من شيعتنا من الخلق الأوّل جعلهم الله خلف العرش لو قسّم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم . ثمّ قال : إنّ موسى عليه السلام لمّا أن سأل ربّه ماسأل أمر واحدا من الكروبيّين فتجلّى للجبل فجعله دكا.

و عن الصحيفة السجّاديّة و كان من دعائه على حملة العرش و كلّ ملك مقرّب: اللّهمّ و حملة عرشك الذين لا يفترون من تسبيحك ، ولا يسأمون من تقديسك ، ولا يستحسرون عن عبادتك ، ولا يؤثرون التقصير على الجدّ في أمرك ، ولا يغفلون عن الوله إليك ، و إسرافيل صاحب الصور الشاخص الّذي ينتظر منك الإذن و حلول الأمر فينبّه بالنفخة صرعى رهائن القبور ، وميكائيل ذوالجاه عندك والمكان الرفيع من طاعتك و جبريل الأمين على وحيك المطاع في سماواتك المكين لديك المقرّب عندك ، والروح الذى هو على ملائكة الحجب والروح الّذي هو من أمرك .

اللّهمّ فصلّ عليهم و على الملائكة الّذين من دونهم من سكّان سماواتك و أهل الأمانة على رسالاتك ، والّذين لايدخلهم سأمة من دؤب ولا إعياء من لغوب ولا فتور ولا تشغلهم عن تسبيحك الشهوات ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو الغفلات ، الخشّع الأبصار فلا يرومون النظر إليك ، النواكس الأذقان الّذين قد طالت رغبتهم فيما لديك المستهترون بذكر آلائك والمتواضعون دون عظمتك وجلال كبريائك ، والّذين يقولون إذا نظروا إلى جهنّم تزفر على أهل معصيتك : سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك .

فصلّ عليهم و على الروحانيّين من ملائكتك و أهل الزلفة عندك و حمّال الغيب إلى رسلك و المؤتمنين على وحيك و قبائل الملائكة الّذين اختصصتهم لنفسك و أغنيتهم عن الطعام و الشراب بتقديسك و أسكنتهم بطون أطباق سماواتك ، و الّذين هم على أرجائها إذا نزل الأمر بتمام وعدك.

و خزّان المطر و زواجر السحاب و الّذي بصوت زجره يُسمَع زجل الرعود ، و إذا سبحت به حفيفة السحاب التمعت صواعق البروق ، و مشيّعي الثلج و البرد و الهابطين مع قطر المطر إذا نزل ، و القوّام على خزائن الرياح ، و الموكّلين بالجبال فلاتزول ، و الّذين عرّفتهم مثاقيل المياه وكيل مايحويه لواعج الأمطار و عوالجها و رسلك من الملائكة إلى أهل الأرض بمكروه ما ينزل من البلاء و محبوب الرخاء .

والسفرة الكرام البررة والحفظة الكرام الكاتبين ، وملك الموت وأعوانه ،ومنكر و نكير ، ومبشّر و بشير ، ورؤمان فتّان القبور ، والطائفين بالبيت المعمور ، و مالك و الخزنة ، و رضوان و سدنة الجنان ، و الّذين لايعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون ، و الّذين يقولون : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، و الزبانية الّذين إذا قيل لهم : « خذوه فغلّوه ثمّ الجحيم صلّوه » ابتدروه سراعا ولم ينظروه ، ومن أُلهمنا ذكره ولم نعلم مكانه منك وبأيّ أمر وكلته ، وسكان الهواء والأرض و الماء،ومن منهم على الخلق .

فصلّ عليهم يوم تأتي كلّ نفس معها سائق و شهيد وصلّ عليهم صلاة تزيدهم كرامة على كرامتهم وطهارة على طهارتهم . الدعاء .

و في البحار عن الدرّ المنثور عن ابن شهاب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سأل جبرئيل أن يتراآى له في صورته فقال جبرئيل : إنّك لن تطيق ذلك . قال : إنّي اُحبّ ذلك فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المصلّى في ليلة مقمرة فأتاه جبرئيل في صورته فغشي على رسول الله صلى الله عليه وآله حين رآه ثمّ أفاق و جبرئيل مسنده و واضع إحدى يديه على صدره و الاُخرى بين كتفيه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما كنت أرى أنّ شيأ ممّن يخلق هكذا فقال جبرئيل : فكيف لو رأيت إسرافيل إنّ له لاثني عشر جناحا جناح في المشرق و جناح في المغرب و إنّ العرش على كاهله ، و إنّه ليتضأل الأحيان لعظمة الله حتّى يصير مثل الوصع (١) حتّى ما يحمل عرشه إلّا عظمته .

وفي الصافي عن التوحيد باسناده عن أميرالمؤمنين عليه السلام في حديث قال : وقوله في آخر الآيات : « مازاغ البصر وماطغى لقدرآى من آيات ربّه الكبرى » رآى جبرئيل في صورته مرّتين هذه المرّة و مرّة اُخرى و ذلك أنّ خلق جبرئيل عظيم فهو من الروحانيّين الّذي لايدرك خلقهم وصفتهم إلّا الله .

وعن الخصال باسناده عن محمّد بن مروان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه و آله : إنّ جبرئيل أتاني فقال : إنّا معشر الملائكة لا ندخل بيتا فيه كلب ولاتمثال جسد ولاإناء يبال فيه .

أقول : وهناك روايات اُخرى في صفة الملائكة فوق حدّ الاحصاء واردة في باب المعاد و معراج النبيّ صلى الله عليه وآله و أبواب متفرّقة اُخرى ، و فيما أوردناه اُنموذج كاف في ذلك .

و في العيون في باب ماجاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المجموعة باسناده عنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : حسّنوا القرآن بأصواتكم فانّ الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً : وقرء « يزيد في الخلق مايشاء » .

و في التوحيد باسناده عن زرارة عن عبدالله بن سليمان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول : إنّ القضاء و القدر خلقان من خلق الله يزيد في الخلق مايشاء .

---

(١) بفتح الصاد و سكونها طائر أصغر من العصفور .

وفي المجمع في قوله تعالى : « يزيد في الخلق مايشاء » روى أبوهريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : هو الوجه الحسن و الصوت الحسن و الشعر الحسن .

أقول : و الروايات الثلاث الأخيرة من قبيل الجري والانطباق .

﴿كلام في الملائكة﴾

تكرّر ذكر الملائكة في القرآن الكريم ولم يذكر منهم بالتسمية إلّا جبريل و ميكال و ما عداهما مذكور بالوصف كملك الموت و الكرام الكاتبين و السفرة الكرام البررة و الرقيب و العتيد وغيرذلك .

و الّذي ذكره الله سبحانه في كلامه ـ و تشايعه الأحاديث السابقة ـ من صفاتهم و أعمالهم هو أوّلا أنّهم موجودات مكرمون هم وسائط بينه تعالى وبين العالم المشهود فما من حادثة أو واقعة صغيرة أو كبيرة إلّا و للملائكة فيها شأن و عليها ملك موكّل أو ملائكة موكّلون بحسب ما فيها من الجهة أو الجهات ، وليس لهم في ذلك شأن إلّا إجراء الأمر الإلهيّ في مجراه و تقريره في مستقرّه كما قال تعالى : « لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ .

و ثانيا أنّهم لايعصون الله فيما أمرهم به فليست لهم نفسيّة مستقلّة ذات إرادة مستقلّة تريد شيأ غير ما أراد الله سبحانه فلايستقلّون بعمل ولا يغيّرون أمرا حمّلهم الله إيّاه بتحريف أو زيادة أو نقصان قال تعالى : «لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون» التحريم : ٦ .

و ثالثا أنّ الملائكة على كثرتهم على مراتب مختلفة علوّا و دنوّا فبعضهم فوق بعض و بعضهم دون بعض فمنهم آمر مطاع و منهم مأمور مطيع لأمره ، و الآمر منهم آمر بأمر الله حامل له إلى المأمور و المأمور مأمور بأمر الله مطيع له ، فليس لهم من أنفسهم شيء البتّة قال تعالى : « و مامنّا إلّا له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ و قال : « مطاع ثمّ أمين » التكوير : ٢١ ، و قال : « قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحقّ » سبأ : ٢٣ .

و رابعا أنّهم غير مغلوبين لأنّهم إنّما يعملون بأمر الله و إرادته « و ما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات و لا في الأرض » فاطر : ٤٤ ، وقد قال الله : « والله غالب على أمره » يوسف : ٢١ ، و قال : « إنّ الله بالغ أمره » الطلاق : ٣ .

و من هنا يظهر أنّ الملائكة موجودات منزّهة في وجودهم عن المادّة الجسمانيّة الّتي هي في معرض الزوال و الفساد و التغيّر و من شأنها الاستكمال التدريجيّ الّذي تتوجّه به إلى غايتها ، و ربّما صادفت الموانع و الآفات فحرمت الغاية و بطلت دون البلوغ إليها .

و من هنا يظهر أنّ ما ورد في الروايات من صور الملائكة و أشكالهم و هيآتهم الجسمانيّة كما تقدّم نبذة منها في البحث الروائيّ السابق إنّما هو بيان تمثّلاتهم و ظهوراتهم للواصفين من الأنبياء و الأئمّة عليهم السلام ، و ليس من التصوّر و التشكّل في شيء ففرق بين التمثّل و التشكّل فتمثّل الملك إنسانا هو ظهوره لمن يشاهده في صورة الإنسان فهو في ظرف المشاهدة والإدراك ذو صورة الإنسان و شكله وفي نفسه والخارج من ظرف الإدراك ملك ذو صورة ملكية وهذا بخلاف التشكّل والتصوّر فإنّه لو تشكّل بشكل الإنسان و تصوّر بصورته صار إنسانا في نفسه من غير فرق بين ظرف الإدراك و الخارج عنه فهو إنسان في العين و الذهن معا ، و قد تقدّم كلام في معنى التمثّل في تفسير سورة مريم .

ولقد صدّق الله سبحانه ما تقدّم من معنى التمثّل في قوله في قصّة المسيح ومريم: « فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشرا سويا » مريم : ١٧ وقد تقدّم تفسيره .

و أمّا ما شاع في الألسن أنّ الملك جسم لطيف يتشكّل بأشكال مختلفة إلّا الكلب والخنزير ، و الجنّ جسم لطيف يتشكّل بأشكال مختلفة حتّى الكلب و الخنزير فممّا لادليل عليه من عقل و لا نقل من كتاب أو سنّة معتبرة ، و أمّا ما ادّعاه بعضهم من إجماع المسلمين على ذلك فمضافا إلى منعه لا دليل على حجّيّته في أمثال هذه المسائل الاعتقاديّة .

☆☆☆

مَا يَفْتَحِ اللّٰهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَ مَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) .

﴿ بيان ﴾

لمّا أشار إلى الملائكة و هم وسائط في وصول النعم إلى الخليقة أشار إلى نفس النعم إشارة كلّيّة فذكر أنّ عامّة النعم من الله سبحانه لا غير فهو الرازق لا يشاركه فيه أحد ، ثمّ احتجّ بالرازقيّة على الربوبيّة ثمّ على المعاد وأنّ وعده تعالى بالبعث وعذاب الكافرين و مغفرة المؤمنين الصالحين حقّ ، و في الآيات تسلية للنبيّ صلّى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده » الخ المعنى أنّ ما يؤتيه الله الناس من النعمة و هو الرزق فلا مانع عنه

و ما يمنع فلا مؤتي له فكان مقتضى الظاهر أن يقال : ما يرسل الله للناس الخ كما عبّر في الجملة الثانية بالإرسال لكنّه عدل عن الإرسال إلى الفتح لما وقع مكرّراً في كلامه أنّ لرحمته خزائن كقوله : « أم عندهم خزائن رحمة ربّك العزيز الوهّاب » ص : ٩ و قوله : « قل لوأنتم تملكون خزائن رحمة ربّي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق » أسرى: ١٠٠ والتعبير بالفتح أنسب من الإرسال في الخزائن ففيه إشارة إلى أنّ الرحمة الّتي يؤتاها الناس مخزونة في خزائن محيطة بالناس لا يتوقّف نيلهم منها إلّا إلى فتحها من غير مؤنة زائدة .

وقد عبّر عن الرزق الّذي هوالنعمة بالرحمة للدلالة على أنّ إفاضته تعالى لهذه النعم ناشئة من مجرّد الرحمة من غير توقّع لنفع يعود إليه أو كمال يستكمل به .

و قوله : « و ما يمسك فلا مرسل له من بعده » أي و ما يمنع من الرحمة فلا مرسل له من دونه ، و في التعبير بقوله : « من بعده » إشارة إلى أنّه تعالى أوّل في المنع كما أنّه أوّل في الإعطاء .

و قوله : « و هو العزيز الحكيم » تقرير للحكم المذكور في الآية الكريمة بالاسمين الكريمين فهو تعالى لكونه عزيزا لا يغلب إذاأعطى فليس لمانع أن يمنع عنه وإذا منع فليس لمعط أن يعطيه ، وهو تعالى حكيم إذا أعطى أعطى عن حكمة ومصلحة و إذا منع منع عن حكمة و مصلحة و بالجملة لا معطي إلّا الله ولا مانع إلّا هو ، و منعه و إعطاؤه عن حكمة .

قوله تعالى : « يا أيّها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض » الخ لمّا قرّر في الآية السابقة أنّ الإعطاء و المنع لله سبحانه لا يشاركه في ذلك أحد احتجّ في هذه الآية بذلك على توحّده في الربوبيّة .

و تقرير الحجّة أنّ الإله إنّما يكون إلها معبوداً لربوبيّته و هي ملكه تدبير أمرالناس وغيرهم ، والّذي يملك تدبيرالأمر بهذه النعم الّتي يتقلّب فيها الناس و غيرهم و يرتزقون بها هو الله سبحانه دون غيره من الآلهة الّتي اتّخذوها لأنّه سبحانه هو الّذي خلقها دونهم والخلق لاينفكّ عن التدبير ولا يفارقه فهو سبحانه إلهكم لا إله إلّا هو

لأنّه ربّكم الّذي يدبّر أمركم بهذه النعم الّتي تتقلّبون فيها وإنّما كان ربّاً مدبّرا بهذه النعم لأنّه خالقها و خالق النظام الّذي يجري عليها .

وبذلك يظهر أنّ المراد بالناس المخاطبين الوثنيّون وغيرهم ممّن اتّخذ لله شريكا.

و قوله : « اذكروا نعمة الله عليكم » المراد بالذكر ما يقابل النسيان دون الذكر اللفظيّ .

و قوله : « هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض » الرزق هو ما يمدّ به البقاء و مبدؤه السماء بواسطة الأشعّة والأمطار و غيرهما والأرض بواسطة النبات والحيوان و غيرهما .

و بذلك يظهر أيضا أنّ في الآية إيجازاً لطيفاً فقد بدّلت الرحمة في الاية السابقة نعمة في هذه الاية أوّلا ثمّ النعمة رزقاً ثانياً و كان مقتضى سياق الآيتين أن يقال : هل من رازق أو هل من منعم أو هل من راحم لكن بدّل ذلك من قوله : « هل من خالق» ليكون إشارة إلى برهان ثان ينقطع به الخصام ، فإنّهم يرون تدبير العالم لآلهتهم بإذن الله فلو قيل : هل من رازق أو منعم غير الله لم ينقطع الخصام وأمكن أن يقولوا نعم آلهتنا بتفويض التدبير من الله إليهم لكن لمّا قيل : « هل من خالق » اُشير بالوصف إلى أنّ الرازق والمدبّر هو خالق الرزق لا غير فانقطع الخصام ولم يمكنهم إلّا أن يجيبوا بنفي خالق غير الله يرزقهم من السماء والأرض .

و قوله : « لا إله إلّا هو » اعتراض بالتوحيد يفيد التعظيم نظير قوله : « و قالوا اتّخذ الله ولداً سبحانه » .

أي لا معبود بالحقّ إلّا هو لأنّ المستحقّ للعبادة هو الّذي ينعم عليكم ويرزقكم وليس إلّا الله .

و قوله : « فأنّى تؤفكون » توبيخ متفرّع على ماسبق من البرهان أي فإذا كان الأمر هكذا وأنتم تقرّون بذلك فإلى متى تصرفون عن الحقّ إلى الباطل ومن التوحيد إلى الإشرك .

و في إعراب الآية أعني قوله : « هل من خالق غير الله » الخ بين القوم مشاجرات

طويلة والّذي يناسب ما تقدّم من تقرير البرهان أنّ « من » زائدة للتعميم ، و قوله : « غير الله » صفة لخالق تابع لمحلّه ، وكذا قوله : « يرزقكم » الخ و« من خالق » مبتدء محذوف الخبر و هو موجود ، و قوله : « لا إله إلّا هو » اعتراض ، و قوله : « فأنّى تؤفكون » تفريع على ما تقدّمه .

قوله تعالى : « و إن يكذّبوك فقد كذّبت رسل من قبلك و إلى الله ترجع الاُمور » تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أي و إن يكذّبوك بعد استماع هذه البراهين الساطعة فلا تحزن فليس ذلك ببدع فقد كذّبت رسل من قبلك كذّبتهم اُممهم و أقوامهم و إلى الله ترجع عامّة الاُمور فيجازيهم بما يستحقّونه بتكذيبهم الحقّ بعد ظهوره فليسوا بمعجزين بتكذيبهم .

و من هنا يظهر أنّ قوله : « فقد كذّبت رسل من قبلك » من قبيل وضع السبب موضع المسبّب و أنّ قوله : « و إلى الله ترجع الاُمور » معطوف على قوله : « قد كذّبت » الخ .

قوله تعالى : « يا أيّها الناس إنّ وعد الله حقّ فلا تغرّنّكم الحياة الدنيا ولا يغرّنّكم بالله الغرور » خطاب عامّ للناس يذكّرهم بالمعاد كما كان الخطاب العامّ السابق يذكّرهم بتوحّده تعالى في الربوبيّة والاُلوهيّة .

فقوله : « إنّ وعد الله حقّ » أي وعده أنّه يبعثكم فيجازي كلّ عامل بعمله إن خيرا و إن شرّا حقّ أي ثابت واقع ، و قد صرّح بهذا الوعد في قوله الآتي : « الّذين كفروا لهم عذاب شديد والّذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة و أجر كبير » .

و قوله : « فلا تغرّنّكم الحياة الدنيا » النهي و إن كان متوجّها إلى الحياة الدنيا صورة لكنّه في الحقيقة متوجّه إليهم والمعنى إذا كان وعد الله حقّا فلا تغترّوا بالحياة الدنيا بالاشتغال بزينتها والتلهّي بما ينسيكم يوم الحساب من ملاذّها وملاهيها والاستغراق في طلبها والإعراض عن الحقّ .

و قوله : « ولا يغرّنّكم بالله الغرور » الغرور بفتح الغين صيغة مبالغة من الغرور

بالضمّ و هو الّذي يبالغ في الغرور و من عادته ذلك ، والظاهر ـ كما قيل ـ أنّ المراد به الشيطان و يؤيّده التعليل الواقع في الاية التالية « إنّ الشيطان لكم عدوّ » الخ .

و معنى غروره بالله توجيهه أنظارهم إلى مظاهر حلمه و عفوه تعالى تارة ومظاهر ابتلائه واستدراجه وكيده اُخرى فيرون أنّ الاشتغال بالدنياونسيانالآخرة والإعراض عن الحقّ والحقيقة لا يستعقب عقوبة ولا يستتبع مؤاخذة ، و أنّ أبناء الدنيا كلّما أمعنوا في طلبهم و توغّلوا في غفلتهم و استغرقوا في المعاصي و الذنوب زادوا في عيشهم طيبا و في حياتهم راحة و بين الناس جاهاً و عزّة فيلقي الشيطان عند ذلك في قلوبهم أن لا كرامة إلّا في التقدّم فيالحياة الدنيا ، ولا خبر عمّا وراءها و ليس ما تتضمّنه الدعوة الحقّة من الوعد و الوعيد و تخبر به النبوّة من البعث والحساب والجنّة والنار إلّا خرافة . فالمراد بغرور الشيطان الإنسان بالله اغترار الإنسان بما يعامل به الله الإنسان على غفلته و ظلمه .

و ربّما قيل : إنّ المراد بالغرور الدنيا الغارّة للإنسان و إنّ قوله : « ولا يغرّنّكم بالله الغرور » تأكيد لقوله : فلا تغرّنّكم الحياة الدنيا » بتكراره معنى .

قوله تعالى : « إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّا » الخ تعليل للنهي المتقدّم فيقوله : « ولا يغرّنّكم بالله الغرور » والمرادبعداوة الشيطان أنّه لا شأن لهإلّا إغواء الإنسان و تحريمه سعادة الحياة وحسن العاقبة ، والمراد باتّخاذ الشيطان عدوّا التجنّب من اتّباع دعوته إلى الباطل وعدم طاعته فيما يشير إليه في وساوسه وتسويلاته و لذلك علّل عداوته بقوله : « إنّما يدعو حزبه » .

فقوله : « إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير» في مقام تعليل ماتقدّمه والحزب هوالعدّة من الناس يجمعهم غرض واحد ، واللّامفي «ليكونوا» للتعليل فكونهم من أصحاب السعير علّة غائيّة لدعوته ، و السعير النار المسعّرة و هو من أسماء جهنّم في القرآن .

قوله تعالى : « الّذين كفروا لهم عذاب شديد والّذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة و أجر كبير » هذاهو الوعدالحقّ الّذي ذكره الله سبحانه ، و تنكير العذاب

للدلالة على التفخيم على أنّ لهم دركات و مراتب مختلفة من العذاب باختلاف كفرهم و فسوقهم فالابهام أنسب و يجري نظير الوجهين في قوله : « مغفرة وأجر » .

قوله تعالى : « أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسنا فإنّ الله يضلّ من يشاء و يهدي من يشاء » تقرير وبيان للتقسيم الّذي تتضمّنه الآية السابقة أعني تقسيم الناس إلى كافر له عذاب شديد و مؤمن عامل بالصالحات له مغفرة و أجر كبير و المراد أنّهما لايستويان فلاتستوي عاقبةأمرهما .

فقوله : «أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسنا» مبتدء خبره محذوف أي كمن ليس كذلك ، والفاء لتفريع الجملة على معنى الآية السابقة ، والاستفهام للإنكار ، والمراد بمن زيّن له سوء عمله فرآه حسنا الكافر و يشير به إلى أنّه منكوس فهمه مغلوب على عقله يرى عمله علىغير ماهو عليه والمعنى أنّه لا يستوي من زيّن له عمله السيّىء فرآه حسنا و الّذي ليس كذلك بل يرى السيّىء سيّأ .

و قوله : « فإنّ الله يضلّ من يشاء و يهدي من يشاء » تعليل للإنكار السابق في قوله : « أفمن زيّن لهسوء عمله فرآه حسنا » أي الكافر الّذي شأنه ذلك و المؤمن الّذي بخلافه لايستويان لأنّ الله يضلّ أحدهما بمشيّته وهو الكافر الّذي يرى السيّئة حسنة و يهدي الآخر بمشيّته و هو المؤمن الّذي يعمل الصالحات ويرى السيّئة سيّئة .

وهذا الإضلال إضلال على سبيل المجازاة وليس إضلالا ابتدائيّا فلاضيرفي انتسابه إلى الله سبحانه .

و بالجملة اختلاف الكافر و المؤمن في عاقبتهما بحسب الوعد الإلهيّ بالعذاب و الرحمة لاختلافهما بالإضلال و الهداية الإلهيّين و اختلافهما بالإضلال و الهداية باختلافهما في رؤية السيّئة حسنة و عدمها .

و قوله : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » الحسرات جمع حسرة و هي الغمّ لمافات و الندم عليه ، و هي منصوبة لأنّها مفعول لأجله و المراد بذهاب النفس عليهم هلاكها فيهم لأجل الحسرات الناشئة من عدم إيمانهم .

و الجملة متفرّعة على الفرق السابق أي إذا كانت الطائفتان مختلفتين بالإضلال

و الهداية من جانب الله فلاتهلك نفسك حسرات عليهم إذ كذّبوك و كفروا بك فإنّ الله هو الّذي يضلّهم جزاء لكفرهم و رؤيتهم السيّئة حسنة وهو عليم بما يصنعون فلايختلط عليه الأمر ولا يفعل بهم إلّا الحقّ و لايجازيهم إلّا بالحقّ .

و من هنا يظهر أنّ قوله : « إنّ الله عليم بما يصنعون » في موضع التعليل لقوله: «فلاتذهب نفسك عليهم حسرات» فلاينبغي للرسول صلّى الله عليه وآله أن يهلك نفسه عليهم حسرات حيث ضلّوا و حقّت عليهم كلمة العذاب فإنّ الله هو الّذي يضلّهم لصنعهم و هو عليم بما يصنعون .



☆ ☆ ☆

وَ اللّٰهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيٰاحَ فَتُثِيرُ سَحٰاباً فَسُقْنٰاهُ اِلىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنٰا بِهِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا كَذٰلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً اِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئٰاتِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ اُولٰئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوٰاجاً وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ اُنْثىٰ وَ لٰا تَضَعُ اِلّٰا بِعِلْمِهِ وَ مٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لٰا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ اِلّٰا فِى كِتٰابٍ اِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ (١١) وَمٰا يَسْتَوِى الْبَحْرٰانِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ سٰائِغٌ شَرٰابُهُ وَ هٰذٰا مِلْحٌ اُجٰاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهٰا وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوٰاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهٰارِ وَ يُولِجُ النَّهٰارَ فِى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِاَجَلٍ مُسَمًّى ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) اِنْ تَدْعُوهُمْ لٰا يَسْمَعُوا دُعٰاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجٰابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيٰامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلٰا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) .

﴿ بيان ﴾

احتجاجات على وحدانيّته تعالى في اُلوهيّته بعدّ جملة من النعم السماويّة والأرضيّة الّتي يتنعّم بها الإنسان ولاخالق لهاولامدبّر لأمرها إلّا الله سبحانه ،وفيها بعض الإشارة إلى البعث .

قوله تعالى : « و الله الّذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميّت » الخ العناية في المقام بتحقّق وقوع الأمطار و إنبات النبات بها ، و لذلك قال : « الله الّذي أرسل الرياح » وهذا بخلاف ما في سورة الروم منقوله : «الله الّذي يرسلالرياح فتثير سحابا » الروم : ٤٨ .

و قوله : « فتثير سحابا » عطف على « أرسل » و الضمير للرياح و الإتيانبصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية و الإثارة إفعال من ثار الغبار يثور ثورانا إذا انتشر ساطعا .

و قوله : « فسقناه إلى بلدميّت » أي إلى أرض لانبات فيها « فأحيينا به الأرض بعد موتها » و أنبتنا فيها نباتا بعد مالم تكن ، و نسبة الإحياء إلى الأرض و إن كانت مجازيّة لكن نسبته إلى النبات حقيقيّة و أعمال النبات من التغذية و النموّ و توليد المثل و مايتعلّق بذلك أعمال حيويّة تنبعث من أصل الحياة.

و لذلك شبّه البعث و إحياء الأموات بعد موتهم بإحياء الأرض بعد موتهاأي إنبات النبات بعد توقّفه عن العمل و ركوده في الشتاء فقال : « كذلك النشور » أي البعث فالنشور بسط الأموات يوم القيامة بعد إحيائهم و إخراجهم من القبور .

و في قوله : « فسقناه إلى بلدميّت » الخ التفات من الغيبة إلى التكلّم مع الغير فهو تعالى في قوله : « والله أرسل » بنعت الغيبة وفي قوله : « فسقناه » الخ بنعت التكلّم مع الغير و لعلّ النكتة في ذلك هي أنّه لمّا قال : « و الله أرسل الرياح » أخذ لنفسه نعت الغيبة ويتبعه فيه الإرسال فإنّ فعل الغائب غائب ، ثمّ لمّا قال : « فتثير سحابا »

على نحو حكاية الحال الماضية صار المخاطب كأنّه يرى الفعل و يشاهد الرياح وهي تثير السحاب و تنشره في الجوّ فصار كأنّه يرى من يرسل الرياح لأنّ مشاهدة الفعل كادت أن لاتنفكّ عن مشاهدة الفاعل فلمّا ظهر تعالى بنعت الحضور غيّر سياق كلامه من الغيبة إلى التكلّم و اختار لفظ التكلّم مع الغير للدلالة على العظمة .

و قوله : « فأحيينا به الأرض » و لم يقل : فأحييناه مع كفايته و كذا قوله : « بعد موتها » مع جواز الاكتفاء بما تقدّمه للأخذ بصريح القول الّذي لا ارتياب دونه.

قوله تعالى : « من كان يريد العزّة فللّه العزّة جميعا» قال الراغب في المفردات: العزّة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم : أرض عزاز أي صلبة قال تعالى : « أيبتغون عندهم العزّة فإنّ العزّة لله جميعا » انتهى .

فالصلابة هو الأصل في معنى العزّة ثمّ توسّع فاستعمل العزيز فيمن يقهر و لا يُقهر كقوله تعالى : « يا أيّها العزيز مسّنا » يوسف : ٨٨ . و كذا العزّة بمعنى الغلبة قال تعالى : « وعزّني في الخطاب » صٓ : ٢٣ و العزّة بمعنى القلّة و صعوبة المنال قال تعالى : « و إنّه لكتاب عزيز » حمٓ السجدة : ٤١ و العزّة بمعنى مطلق الصعوبة قال تعالى : « عزيز عليه ما عنتّم » التوبة : ١١٨ و العزّة بمعنى الأنفة و الحميّة قال تعالى : « بل الّذين كفروا في عزّة و شقاق » صٓ : ٣ إلى غير ذلك .

ثمّ إنّ العزّة بمعنى كون الشيء قاهرا غير مقهور أو غالباً غير مغلوب تختصّ بحقيقة معناها بالله عزّوجلّ إذ غيره تعالى فقير في ذاته ذليل في نفسه لايملك لنفسه شيأ إلّا أن يرحمه الله و يؤتيه شيأ من العزّة كما فعل ذلك بالمؤمنين به قال تعالى : « و لله العزّة و لرسوله وللمؤمنين » المنافقون : ٨ .

و بذلك يظهر أنّ قوله : « من كان يريد العزّة فللّه العزّة جميعا » ليس بمسوق لبيان اختصاص العزّة بالله بحيث لاينالها غيره و أنّ من أرادها فقد طلب محالا و أراد مالايكون بل المعنى من كان يريد العزّة فليطلبها منه تعالى لأنّ العزّة له جميعاً لاتوجد عند غيره بالذات .

فوضع قوله : « فللّه العزّة جميعا » في جزاء الشرط من قبيل وضع السبب موضع

المسبّب و هو طلبها من عنده أي اكتسابها منه بالعبوديّة الّتي لا تحصل إلّا بالإيمان و العمل الصالح .

قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيّب و العمل الصالح يرفعه » الكلم ـ كما قيل ـ اسم جنس جمعي يذكّر و يؤنّث ، و قال في المجمع : و الكلم جمع كلمة يقال : هذا كلم و هذه كلم فيذكّر و يؤنّث ، وكلّ جمع ليس بينه و بين واحده إلّا الهاء يجوز فيه التذكير و التأنيث انتهى .

و المراد بالكلم على أيّ حال ما يفيد معنى تامّا كلاميّا و يشهد به توصيفه بالطيّب فطيب الكلم هو ملاءمته لنفس سامعه و متكلّمه بحيث تنبسط منه و تستلذّه و تستكمل به و ذلك إنّما يكون بإفادته معنى حقّا فيه سعادة النفس و فلاحها .

و بذلك يظهر أنّ المراد به ليس مجرّد اللفظ بل بما أنّ له معنى طيّباً فالمراد به الاعتقادات الحقّة الّتي يسعد الإنسان بالإذعان لها و بناء عمله عليها والمتيقّن منها كلمة التوحيد الّتي يرجع إليها سائر الاعتقادات الحقّة و هي المشمولة لقوله تعالى : « ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت و فرعها في السماء تؤتي اُكلها كلّ حين بإذن ربّها » إبراهيم : ٢٤ و تسمية الاعتقاد قولا و كلمة أمر شائع بينهم .

و صعود الكلم الطيّب إليه تعالى هو تقرّبه منه تعالى اعتلاء و هو العليّ الأعلى رفيع الدرجات ، و إذ كان اعتقادا قائما بمعتقده فتقرّبه منه تعالى تقرّب المعتقد به منه ، و قد فسّروا صعود الكلم الطيّب بقبوله تعالى له و هو من لوازم المعنى .

ثمّ إنّ الاعتقاد و الإيمان إذا كان حقّ الاعتقاد صادقا في نفسه صدّقه العمل و لم يكذّبه أي يصدر عنه العمل على طبقه فالعمل من فروع العلم وآثاره الّتي لا تنفكّ عنه ، و كلّما تكرّر العمل زاد الاعتقاد رسوخا و جلاء و قوي في تأثيره فالعمل الصالح و هو العمل الحريّ بالقبول الّذي طبع عليه بذلّ العبوديّة و الإخلاص لوجهه الكريم يعين الاعتقاد الحقّ في ترتّب أثره عليه وهو الصعود إليه تعالى و هو المعزّي إليه بالرفع فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيّب .

فقد تبيّن بما مرّ معنى قوله: «إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه» و أنّ ضمير « إليه » لله سبحانه و المراد بالكلم الطيّب الاعتقاد الحقّ كالتوحيد ، و بصعوده تقرّبه منه تعالى ، و بالعمل الصالح ما كان على طبق الاعتقاد الحقّ و يلائمه و أنّ الفاعل في «يرفعه» ضمير مستكنّ راجع إلى العمل الصالح وضمير المفعول راجع إلى الكلم الطيّب .

و لهم في الآية أقوال اُخر :

فقد قيل : إنّ المراد بصعود الكلم الطيّب قبوله و الإثابة عليه كما تقدّمت الإشارة إليه ، و قيل: المراد صعود الملائكة بما كتب من الإيمان و الطاعات إلى الله سبحانه ، و قيل : المراد صعودهم به إلى السماء فسمّي الصعود إلى السماء صعوداً إلى الله مجازا .

و قيل : إنّ فاعل «يرفعه » ضمير عائدإلى الكلم الطيّب و ضمير المفعول للعمل الصالح و المعنى أنّ الكلم الطيّب يرفع العمل الصالح أي أنّ العمل الصالح لا ينفع إلّا إذا صدر عن التوحيد ، و قيل : فاعل « يرفعه » ضمير مستكنّ راجع إليه تعالى و المعنى العمل الصالح يرفعه الله .

و جملة هذه الوجوه لا تخلومن بعد والأسبق إلى الذهن ما قدّمناه من المعنى .

قوله تعالى : « و الّذين يمكرون السيّآت لهم عذاب شديد و مكر اُولئك هو يبور » ذكروا أنّ « السيّآت» وصف قائم مقام موصوف محذوف و هو المكرات،و وضع اسم الإشارة موضع الضمير في « مكر اُولئك » للدلالة على أنّهم متعيّنون لامختلطون بغيرهم و المعنى و الّذين يمكرون المكرات السيّآت لهم عذاب شديد و مكر اُولئك الماكرين هو يبور و يهلك فلا يستعقب أثراً حيّاً فيه سعادتهم و عزّتهم .

و قد بان أنّ المراد بالسيّآت أنواع المكرات و الحيل الّتي يتّخذهاالمشركون وسائل لكسب العزّة ، والآية مطلقة، و قيل: المراد المكرات الّتي اتّخذتها قريش على رسول الله صلّى الله عليه وآله في دارالندوة و غيرها من إثبات أو إخراج أو قتل فردّ الله كيدهم إليهم و أخرجهم إلى بدر وقتلهم و أثبتهم في القليب فجمع عليهم الإثبات و الإخراج والقتل

و هذا وجه حسن لكنّ الآية مطلقة .

و وجه اتّصال ذيل الآية بصدرها أعني اتّصال قوله : « إليه يصعد » إلى آخر الآية بقوله : « من كان يريد العزّة فللّه العزّة جميعاً » أنّ المشركين كانوا يعتزّون بآلهتهم كما قال تعالى : « و اتّخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّاً » مريم : ٨١ فدعاهم الله سبحانه و هم يطلبون العزّ إلى نفسه بتذكيرهم أنّ العزّة لله جميعا و بيّن تعالى ذلك بأنّ توحيده يصعد إليه و العمل الصالح يرفعه فيكتسب الإنسان بالتقرّب منه عزّة من منبع العزّة وأمّا الّذين يمكرون كلّ مكر سيّىء لاكتساب العزّة فلهم عذاب شديد و ما مكروه من المكر بائر هالك لا يصعد إلى محلّ و لا يكسب لهم عزّاً .

قوله تعالى : « و الله خلقكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ جعلكم أزواجا » الخ يشير تعالى إلى خلق الإنسان فابتدء خلقه من تراب و هو المبدء البعيد الّذي تنتهي إليه الخلقة ثمّ من نطفة و هي مبدء قريب تتعلّق به الخلقة .

و قيل المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإنّ الشيء يضاف إلى أصله و قيل : بل المراد خلق آدم نفسه و قيل : بل المراد خلقهم خلقا إجماليا من تراب في ضمن خلق آدم من تراب و الخلق التفصيلي هو من نطفة كما قال : ثمّ من نطفة .

و الفرق بين الوجوه الثلاثة أنّ في الأوّل نسبة الخلق من تراب إليهم على طريق المجاز العقليّ ، وفي الثاني المراد بخلقهم خلق آدم ولا مجاز في النسبة ، و في الثالث المراد خلق كلّ واحد من الأفراد من التراب حقيقة من غير مجاز إلّا أنّه خلق إجماليّ لا تفصيلي و بهذا يفارق ما قدّمناه من الوجه .

و يمكن تأييد القول الأوّل بقوله تعالى : «خلق الإنسان من صلصال كالفخّار» الرحمان :١٤ ،والثاني بنحو قوله : « وبدء خلق الإنسان من طين ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين » السجدة : ٨ ، و الثالث بقوله : « و لقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » الأعراف : ١١ و لكلّ وجه .

وقوله : « ثمّ جعلكم أزواجا» أي ذكورا وإناثا ، وقيل: أي قدّر بينكم الزوجيّة و زوّج بعضكم من بعض ، وهو كما ترى ، و قيل : أي أصنافا وشعوبا . وهو كسابقه .

و قوله : « و ما تحمل من اُنثى و لا تضع إلّا بعلمه » من زائدة لتأكيد النفي ، و الباء في «بعلمه» للمصاحبة و هو حال من الحمل و الوضع و المعنى ما تحمل و لا تضع اُنثى إلّا و علمه يصاحب حمله و وضعه ، و ذكر بعضهم أنّه حال من الفاعل و أنّ كونه حالا من الحمل و الوضع و كذا من مفعوليهما أي المحمول و الموضوع خلاف الظاهر و هو ممنوع .

و قوله : « و ما يعمّر من معمّر و لا ينقص من عمره إلّا في كتاب » أي و ما يمدّ و يزاد في عمر أحد فيكون معمّرا و لا ينقص من عمره أي عمر أحد إلّا في كتاب .

فقوله : «و ما يعمّر من معمّر » من قبيل قوله : « إنّي أراني أعصر خمرا » يوسف : ٣٦ فوضع معمّر موضع نائب الفاعل وهو أحد بعناية أنّه بعد تعلّق التعمير به يصير معمّرا و إلّا فتعمير المعمّر لا معنى له .

و قوله : « و لا ينقص من عمره » الضمير في « عمره» راجع إلى « معمّر » باعتبار موصوفه المحذوف و هو أحد و المعنى ولا ينقص من عمر أحد و إلّا فنقص عمر المفروض معمّرا تناقض خارق للفرض .

و قوله : « إلّا في كتاب » و هو اللّوح المحفوظ الّذي لا سبيل للتغيير إليه فقد كتب فيه أنّ فلانا يزاد في عمره كذا لسبب كذا و فلانا ينقص من عمره كذا لسبب كذا و أمّا كتاب المحو و الإثبات فهو مورد التغيّر و سياق الآية يفيد وصف العلم الثابت و لهم في قوله : « و ما يعمّر من معمّر و لا ينقص من عمره » وجوه اُخر ضعيفة لا جدوى في التعرّض لها .

و قوله : « إنّ ذلك على الله يسير » تعليل و تقرير لما في الآية من وصف خلق الإنسان و كيفيّة إحداثه و إبقائه و المعنى أنّ هذا التدبير الدقيق المتين المهيمن على كلّيّات الحوادث و جزئيّاتها المقرّر لكلّ شيء في مقرّه على الله يسير لأنّه الله العليم القدير المحيط بكلّ شيء بعلمه وقدرته فهو تعالى ربّ الإنسان كما أنّه ربّ كلّ شيء.

قوله تعالى : « و ما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه و هذا ملح اُجاج » إلى آخر الآية قيل : العذب من الماء طيّبه ، و الفرات الماء الّذي يكسر

العطش أو الباردكما في المجمع ، و السائغ هو الّذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته و الاُجاج الّذي يحرق لملوحته أو المرّ .

و قوله : « و من كلّ تأكلون لحماطرياً و تستخرجون حلية تلبسونها » اللحم الطريّ الغضّ الجديد ، و المراد لحم السمك أو السمك و الطير البحريّ ، و الحلية المستخرجة من البحر اللّؤلؤ و المرجان و الأصداف قال تعالى: « يخرج منهما اللّؤلؤ و المرجان » الرحمن : ٢٢ .

و في الآية تمثيل للمؤمن و الكافر بالبحر العذب و المالح يتبيّن به عدم تساوي المؤمن و الكافر في الكمال الفطريّ و إن تشاركا في غالب الخواصّ الإنسانيّة و آثارها فالمؤمن باق على فطرته الأصليّة ينال بها سعادة الحياة الدائمة و الكافر منحرف فيها متلبّس بمالاتستطيبه الفطرة الإنسانيّة وسيعذّب بأعماله فمثلهما مثل البحرين المختلفين عذوبة و ملوحة فهما مختلفان من حيث البقاء على فطرة الماء الأصليّة و هي العذوبة و الخروج عنها بالملوحة و إن اشتركا في بعض الآثار الّتي ينتفع بها ، فمن كلّ منهما تأكلون لحما طريّا و هو لحم السمك و الطير المصطاد من البحر و تستخرجون حلية تلبسونها كاللؤلؤ و المرجان و الأصداف .

فظاهر الآية أنّ الحلية المستخرجة مشتركه بين البحر العذب و البحر المالح لكنّ جمعا من المفسّرين استشكلوا ذلك بأنّ اللؤلؤ و المرجان إنّما يستخرجان من البحر المالح دون العذب ، و قد أجابوا عنه بأجوبة مختلفة .

منها أنّ الآية مسوقة لبيان اشتراك البحرين فيمطلق الفائدة وإن اختصّ بعضها كأنّه قيل : و من كلّ تنتفعون و تستفيدون كما تأكلون منهما لحما طريّا و تستخرجون من البحر المالح حلية تلبسونها و ترى الفلك فيه مواخر .

و منها أنّه شبّه المؤمن والكافر بالعذب و الاجاج ثمّ فضّل الأجاج على الكافر بأنّ في الاُجاج بعض النفع و الكافر لا نفع في وجوده فالآية على طريقة قوله تعالى : « ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة » ثمّ قال : « و إنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار و إنّ منها لما يشّقّق فيخرج منه الماء و إنّ

منها لما يهبط من خشية الله » البقرة : ٧٤ .

ومنها أنّ قوله : « و تستخرجون حلية تلبسونها » من تتمّة التمثيل على معنى أنّ البحرين و إن اشتركا في بعض المنافع تفاوتا فيما هو المقصود بالذات لأنّ أحدهما خالطه ما خرج به عن صفاء فطرته و المؤمن و الكافر وإن اتّفقا أحيانا في بعض المكارم كالشجاعة و السخاوة متفاوتان فيما هو الأصل لبقاء أحدهما على صفاء الفطرة الأصليّة دون الآخر .

و منها أنّه لا مانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة و إن لم نره فالإشكال باختصاص الحلية بالماء المالح ممنوع .

و منها منع أصل الدعوى و هوكون الآية « و ما يستوي البحران » الخ تمثيلا للمؤمن و الكافر بل هي واقعة في سياق تعداد النعم لإثبات الربوبيّة كقوله قبلا : « و الله الّذي أرسل الرياح » و قوله بعدا : « يولج الليل فيالنهار » الخ فالاية مسوقةلبيان نعمة البحر واختلافه بالعذوبة و الملوحة و ما فيهما منالمنافع المشتركة و المختصّة .

و يؤيّد هذا الوجه أنّ نظير الاية في سورة النحل واقعة فيسياق الآيات العادّة لنعم الله سبحانه وهوقوله : «وهو الّذي سخّر البحرلتأ كلوا منه لحماطريّا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها و ترى الفلك مواخر فيه و لتبتغوا من فضله و لعلّكم تشكرون » النحل : ١٤ .

و الحقّ أنّ أصل الاستشكال في غير محلّه و أنّ البحرين يشتركان في وجود الحلية فيهما كما هو مذكور في الكتب الباحثة عن هذه الشؤن مشروح فيها [١] .

قوله تعالى : « و ترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله و لعلّكم تشكرون » ضمير « فيه » للبحر ، و مواخر جمع ماخرة من المخر بمعنى الشقّ عدّت السفينةماخرة لشقّها الماء بجؤجئتها .

---

(١) وقد ذكر وجودالحلية في الماء العذب فيمادة صدف من دائرة المعارفللبستاني وذكر أيضا في آمريكانا Encyclopœdia و بريطانيكا Encyclopœdia وجودها فيه و سميت عدة من الانهار العذبة في امريكا و اوربا و آسيا يستخرج منها اللؤلؤ .

قيل : إنّما اُفرد ضمير الخطاب في قوله : « ترى » بخلاف الخطابات المتقدّمة و المتأخّرة لأنّ الخطاب لكلّ أحد يتأتّى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط .

و قوله : « لتبتغوا من فضله و لعلّكم تشكرون » أي سخر الفلك البحر بتسخيره لتطلبوا من عطائه وهو الرزق ورجاء أن تشكروا الله سبحانه ، وقد تقدّم أنّ الترجّي الّذي تفيده « لعلّ » في كلامه تعالى قائم بالمقام دون المتكلّم .

وقد قيل في هذه الآية : « و ترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله » و في سورة النحل : « و ترى الفلك مواخر فيه و لتبتغوا من فضله » فاختلفت الآيتان في تقديم « فيه » على « مواخر » و تأخيره منه و عطف « لتبتغوا » و عدمه .

و لعلّ النكتة في ذلك أنّ آية النحل مصدّرة بكلمة التسخير فهي مسوقة لبيان كيفيّة التسخير و الأنسب لذلك تأخير « فيه » ليتعلّق بمواخر و يشير إلى مخر البحر فيصرّح بالتسخير بخلاف ماههنا ثمّ التسخير له غايات كثيرة منها ابتغاء الفضل والأنسب لذلك عطف « لتبتغوا » على محذوف ليدلّ على عدم انحصار الغاية في ابتغاء الفضل بخلاف ماههنا فإنّ الغرض بيان أنّه الرازق المدبّر ليرتدع المكذّبون ـ و قد تقدّم ذكر تكذيبهم ـ عن تكذيبهم و يكفي في ذلك بيان ابتغائهم الفضل غاية من غير حاجة إلى العطف . والله أعلم .

و قال في روح المعاني في المقام : و الّذي يظهر لي في ذلك أنّ آية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها ولواحقها و تعقيب الآيات بقوله سبحانه : «وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها » فكان الأهمّ هناك تقديم ماهو نعمة وهو مخر الفلك للماء بخلاف ماهنا فإنّه إنّما سيق استطرادا أو تتمّة للتمثيل كما علمت آنفا فقدّم فيه«فيه» إيذانا بأنّه ليس المقصود بالذات ذلك ، و كان الاهتمام بما هناك اقتضى أن يقال في تلك الاية : «ولتبتغوا» بالواو و مخالفة ماهنا لذلك اقتضت ترك الواو في قوله :«لتبتغوا» انتهى .

قوله تعالى : « يوُلج الليل في النهار و يولج النهار في اللّيل و سخّر الشمس و القمر كلّ يجري لأجل مسمّى » الخ إيلاج الليل في النهار قصر النهار بطول الليل

و إيلاج النهار في الليل قصر الليل بطول النهار ، و المراد بالجملتين الإشارة إلى اختلاف الليل و النهار في الطول و القصر المستمرّ في أيّام السنة بتغيّر الأيّام و لذا عبّر بقوله : «يولج» الدالّ على استمرار التغيير بخلاف جريان الشمس و القمرفإنّه ثابت على حاله و لذا عبّر فيه بقوله : « و سخّر الشمس و القمر كلّ يجري لأجل مسمّى » و العناية صوريّة مسامحيّة .

و قوله : « ذلكم الله ربّكم » بمنزلة النتيجة لما تقدّم أي إذا كان أمر خلقكم و تدبيركم برّا و بحرا و أرضا و سماء منتسبا إليه مدبّرا بتدبيره فذلكم الله ربّكم الّذي يملككم ويدبّر أمركم .

و قوله : « له الملك» مستنتج ممّاقبله و توطئة وتمهيد لما بعده من قوله :«والّذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير».

و قوله : « و الّذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير » القطمير علىماقاله الراغب الأثر على رأس النواة و ذلك مثل للشيء الطفيف ، و في المجمع : القطمير لفافة النواة .

و قيل : الحبّة في بطن النواة انتهى و الكلام على أيّ حال مبالغة في نفي أصل الملك .

و المراد بالّذين تدعون من دون الله آلهتهم الّذين كانوا يدعونها من الأصنام و أربابها .

قوله تعالى : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم و لو سمعوا ما استجابوا لكم » الخ بيان و تقرير لماتقدّم من قوله : « والّذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير» أى تصديق كونهم لا يملكون شيأ أنّكم إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم لأنّ الأصنام جمادات لاشعور لها ولاحسّ و أرباب الأصنام كالملائكة و القدّيسين من البشر في شغل شاغل من ذلك على أنّهم لايملكون سمعا من عند أنفسهم فلايسمعون إلّا بإسماعه .

و قوله : « واو سمعوا ما استجابوالكم » إذلا قدرة لهم على الاستجابة قولا و لا فعلا أمّا الأصنام فظاهر وأمّا أرباب الأصنام فقدرتهم من اللهسبحانه و لن يأذن اللهلأحد

أن يستجيب أحداً يدعوه بالربوبيّة قال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله و لا الملائكة المقرّبون ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم إليه جميعا » النساء : ١٧٢ .

وقوله : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم »أي يردّون عبادتكم إليكم ويتبرّؤن منكم بدلا من أن يكونوا شفعاء لكم « إذ تبرّء الّذين اتّبعوا من الّذين اتّبعوا » البقرة : ١٦٦ .

فالآية في نفي الاستجابة وكفر الشركاء يوم القيامة في معنى قوله : « و من أضلّ ممّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة و هم عن دعائهم غافلون حتّى إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء و كانوا بعبادتهم كافرين » الأحقاف : ٦ .

و قوله : « ولا ينبّئك مثل خبير » أي لا يخبرك عن حقيقة الأمر مخبر مثل مخبر خبير وهو خطاب خاصّ بالنبيّ صلى الله عليه وآله بعد الإعراض عن خطابهم لعدم تفقّههم بالبيان الحقّ أو خطاب عامّ في صورة الخطاب الخاصّ خوطب به السامع أيّ من كان كقوله : « و ترى الفلك فيه مواخر » الآية السابقة ، و قوله : « و ترى الشمس إذا طلعت» الاية الكهف : ١٧ ، وقوله : « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود » الكهف :١٨.

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : «كذلك النشور » حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل بن درّاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحا فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم .

اقول : و في هذا المعنى عدّة روايات اُخر .

و في الدّرّ المنثور أخرج الطيالسيّ و أحمد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقيّ في الأسماء و الصفات عن أبي رزين العقيليّ قال : قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : أما مررت بأرض مجدبة ثمّ مررت

بها مخصبة تهتزّ خضراء ؟ قال : بلى . قال : كذلك يحيي الله الموتى و كذلك النشور.

و في تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إنّ لكلّ قول مصداقا من عمل يصدّقه أو يكذّبه فإذا قال ابن آدم و صدّق قوله بعمله رفع قوله بعمله إلى الله ، و إذا قال وخالف عمله قوله ردّ قوله على عمله الخبيث وهوى به في النار .

و في التوحيد بإسناده عن زيد بن عليّ عن أبيه عليه السلام في حديث قال : وإنّ لله تبارك وتعالى بقاعا في سماواته فمن عرج به إلى بقعة منها فقد عرج به إليه . ألا تسمع الله عزّ وجلّ يقول : « تعرج الملائكة و الروح إليه » و يقول في قصّة عيسى بن مريم عليهما السلام « بل رفعه الله » و يقول عزّ و جلّ : « إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه».

اقول : و عن الفقيه مثله .

و في نهج البلاغة : ولولا إقرارهنّ [(١)] له بالربوبيّة و إذعانهنّ له بالطواعية [(٢)] لما جعلهنّ موضعا لعرشه و لا مسكنا لملائكته ولامصعداً للكلم الطيّب و العمل الصالح من خلقه .

و في تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « و ما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه و هذا ملح اُجاج » الاُجاج المرّ .

و فيه في قوله : « والّذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » قال : الجلدة الرقيقة الّتي على ظهر النوى .

---

(١) الضمير للسماوات .　(٢) الطاعة .

☆ ☆ ☆

يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله و الله هو الغني الحميد (١٥) ان يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد (١٦) و ما ذلك على الله بعزيز (١٧) ولا تزر وازرة وزر اخرى و ان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء و لو كان ذا قربى انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوٰة و من تزكى فانما يتزكى لنفسه و الى الله المصير (١٨) و ما يستوى الاعمى و البصير (١٩) و لا الظلمات و لا النور (٢٠) ولا الظل و لا الحرور (٢١) و ما يستوى الاحياء و لا الاموات ان الله يسمع من يشاء و ما أنت بمسمع من فى القبور (٢٢) ان أنت الا نذير (٢٣) انا أرسلناك بالحق بشيراً و نذيراً و ان من امة الا خلا فيها نذير (٢٤) و ان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات و بالزبر و بالكتاب المنير (٢٥) ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير (٢٦) .

﴿ بيان ﴾

لمّا بيّن لهم أنّ الخلق و التدبير إليه تعالى فهو ربّهم له الملك دون الّذين يدعون من دونه فهم لايملكون شيأ حتّى يقوموا بتدبيره ، أخذ يبيّن ذلك ببيان آخر

مشوب بالوعيد و التهديد و هو أنّه تعالى غنيّ عنهم و هم فقراء إليه فله أن يذهبهم و يأت بخلق جديد إن شاء جزاء بما كسبوا .

ثمّ وجّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله بما حاصله أنّ هذه المؤاخذة و الإهلاك لا يشمل إلّا هؤلاء المكذّبين دون المؤمنين الّذين يؤثّر فيهم إنذار النبيّ صلى الله عليه وآله فبينهما فرق ظاهر و هو صلى الله عليه وآله نذير كالنذر الماضين و حاله كحال من قبله من المنذرين و إن يكذّبوه فقدكذّبت الأنبياء الماضين مكذّبوا اُممهم فأخذهم الله أخذاً شديداً وسيأخذ المكذّبين من هذه الاُمّة .

قوله تعالى : « يا أيّها الناس أنتم الفقراء إلى الله و الله هو الغنيّ الحميد » لا ريب أنّ في الآية نوع تمهيد بالنسبة إلى الآيتين التاليتين يتبيّن بها مضمونهما وهي مع ذلك مستقلّة في مفادها .

بيان ذلك أنّ السياق يشعر بأنّ أعمال هؤلاء المكذّبين كانت تكشف عن أنّهم كانوا يتوهّمون أنّ لهم أن يستغنوا عن الله سبحانه بعبادة آلهتهم وأنّ لله إليهم حاجة و لذلك يدعوهم إلى نفسه بالدعوة الإلهيّة الّتي يقوم بها رسله فهناك غنى و فقر و لهم نصيب من الغنى و لله نصيب من الفقر تعالى عن ذلك .

فردّ الله سبحانه زعمهم ذلك بقوله : « يا أيّها الناس أنتم الفقراء إلى الله و الله هو الغنيّ » فقصّر الفقر فيهم و قصّر الغنى فيه سبحانه فكلّ الفقر فيهم و كلّ الغنى فيه سبحانه ، و إذ كان الغنى و الفقر و هما الوجدان و الفقدان متقابلين لا يرتفعان عن موضوعهما كان لازم القصر السابق قصر آخر و هو قصر هم في الفقر و قصره تعالى في الغنى فليس لهم إلّا الفقر و ليس له تعالى إلّا الغنى .

فالله سبحانه غنيّ بالذات له أن يذهبهم و يستغني عنهم و هم فقراء بالذات ليس لهم أن يستغنوا عنه بغيره .

و الملاك في غناه تعالى عنهم و فقرهم أنّه تعالى خالقهم و مدبّر أمرهم و إليه الإشارة بأخذ لفظ الجلالة في بيان فقرهم وبيان غناه ، و الإشارة إلى الخلق و التدبير في قوله : « إن يشأيذهبكم و يأت بخلق جديد » و كذا توصيفه تعالى بالحميد و هو

المحمود في فعله الّذي هو خلقه و تدبيره .

فيعود معنى الكلام إلى نحو من قولنا : يا أيّها الناس أنتم بما أنّكم مخلوقون مدبّرون لله الفقراء إلى الله فيكم كلّ الفقر و الحاجة و الله بما أنّه الخالق المدبّر ، الغنيّ لا غنيّ سواه .

و على هذا لا ضير في قصر الفقر في الناس سواء اُريد به المكذّبون خاصّة أو عامّة الناس مع كون غيرهم من المخلوقات فقراء إلى الله كمثلهم و ذلك أنّ عموم علّة الحكم يعمّم الحكم فكأنّه قيل : أنتم معاشر الخليقة الفقراء إلى خالقكم المدبّر لأمركم و هو الغنيّ الحميد .

و قد اُجيب عن إشكال قصر الفقر في الناس مع عمومه لغيرهم بوجوه من الجواب:

منها أنّ في قصر الفقر في الناس مبالغة في فقرهم كأنّهم لكثرة افتقارهم و شدّة احتياجهم هم الفقراء فحسب و أنّ افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم و لذلك قال تعالى : « خلق الإنسان ضعيفا » و لا يرد الجنّ لأنّهم لا يحتاجون في المطعم و الملبس و غيرهما كما يحتاج الإنسان .

و منها أنّ المراد الناس و غيرهم و هو على طريقة تغليب الحاضر على الغائب و اُولي العلم على غيرهم .

و منها أنّ الوجه حمل اللّام في النّاس على العهد و في الفقراء على الجنس لأنّ المخاطبين في الآية هم الّذين خوطبوا في قوله : « ذلكم الله ربّكم له الملك » الاية أي ذلكم المعبود هو الّذي وصف بصفات الجلال لا الّذين تدعون من دونه و أنتم أشدّ الخلائق احتياجا إليه .

و منها أنّ القصر إضافيّ بالنسبة إليه تعالى لا حقيقيّ .

و غير خفيّ عليك أنّ مفاد الآية و سياقها لا يلائم شيأ من هذه الأجوبة نعم يمكن توجيه الجواب الأخير بما يرجع إلى ما قدّمناه من الوجه .

و تذييل الآية بصفة الحميد للإشارة إلى أنّه غنيّ محمود الأفعال إن أعطى و إن منع لأنّه إذا أعطى لم يعطه لبدل لغناه عن الجزاء و الشكر و كلّ بدل مفروض

و إن منع لم يتوجّه إليه لائمة إذ لا حقّ لأحد عليه و لا يملك منه شيء .

قوله تعالى : « إن يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد و ما ذلك على الله بعزيز » أي إن يرد إذهابكم يذهبكم أيّها الناس لأنّه غنيّ عنكم لا يستضرّ بذهابكم ويأت بخلق جديد يحمدونه و يثنون عليه لا لحاجة منه إليهم بل لأنّه حميد و مقتضاه أن يجود فيحمد و ليس ذلك على الله بصعب لقدرته المطلقة لأنّه الله عزّ اسمه .

فقد بان أنّ مضمون الآية متفرّعة على مضمون الآية السابقة فقوله : «إن يشأ يذهبكم» متفرّع على كونه تعالى غنيّاً ، و قوله : « ويأت بخلق جديد » متفرّع على كونه تعالى حميداً ، وقد فرّع مضمون الجملتين في موضع آخر على غناه و رحمته قال تعالى : « و ربّك الغنيّ ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم و يستخلف من بعدكم ما يشاء » الأنعام : ١٣٣ .

قوله تعالى : « و لا تزر وازرة و زر اُخرى » الخ قال الراغب : الوزر ـ بفتحتين ـ الملجأ الّذي يلتجأ إليه من الجبل قال تعالى: «كلّا لا وزر» و الوزر ـ بالكسر فالسكون ـ الثقل تشبيها بوزر الجبل ويعبّر به عن الاثم كما يعبّر عنه بالثقل قال تعالى: « ليحملوا أوزارهم كاملة » الآية كقوله : « ليحملوا أثقالهم و أثقالا مع أثقالهم » . انتهى فالمعنى لا تحمل نفس حاملة للإثم إثم نفس اُخرى و لازم ذلك أن لا تؤاخذ نفس إلّا بما حملت من إثم نفسها و اكتسبته من الوزر .

و الآية كأنّها دفع دخل يشعر به آخرها كأنّه لمّا قال : إن يشأ يذهبكم و يأت بآخرين ، فهدّدهم بالإهلاك و الإفناء قيل : هؤلاء المكذّبون اُخذوا بوزرهم فما حال المؤمنين ؟ أيؤاخذون بوزر غيرهم ؟

فأجيب أن لا تزر وازرة وزر اُخرى و لا تحمل نفس حمل غيرها الّذي أثقلها و إن كانت ذات قربى .

فهؤلاء المكذّبون هم المعنيّون بالتهديد ولا تنفع فيهم دعوتك و إنذارك لأنّهم مطبوع على قلوبهم ، و إنّما ينفع إنذارك الّذين يخشون ربّهم بالغيب و يقيمون الصلاة و الفريقان لا يستويان لأنّ مثلهم مثل الأعمى و البصير، و الظلمات و النور ، و الظلّ

و الحرور ، و الأحياء و الأموات .

فقوله : « و لا تزر وازرة وزر اُخرى » أي لا تحمل نفس حاملة للوزر و الإثم إثم نفس اُخرى حاملة .

و قوله : « و إن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » أي و إن تدع نفس مثقلة أثقلها حملها من الإثم غيرها إلى ما حملته من الإثم ليحمله عنها لا يستجاب لها و لا يحمل من حملها شيء ولو كان المدعوّ ذا قربى للداعي كالأب و الاُمّ و الأخ و الأخت .

و قوله : « إنّما تنذر الّذين يخشون ربّهم بالغيب و أقاموا الصلاة » أي هؤلاء المكذّبون لا ينتفعون بالإنذار ولاتتحقّق معهم حقيقة الإنذار لأنّهم مطبوع على قلوبهم إنّما تنذر و ينفع إنذارك الّذين يخشون ربّهم بالغيب و يقيمون الصلاة الّتي هي أفضل العبادات و أهمّها و بالجملة يؤمنون بالله و يعبدونه أي الّذين يخشون ربّهم بالغيب ويقيمون الصلاة إثر إنذارك لا أنّهم يخشون ربّهم و يصلّون ثمّ ينذرون بعد ذلك حتّى يلزم تحصيل الحاصل فالآية كقوله : « إنّي أراني أعصر خمرا » يوسف : ٣٦ .

و قوله : « و من تزكّى فإنّما يتزكّى لنفسه » بدّل الخشية و إقامة الصلاة من التزكّي للإشارة إلى أنّ المطلوب بالدعوة والإنذار هو التزكّي و تزكية النفس تلبّسها بالخشية من الله على الغيب و إقامة الصلاة .

و فيه تقرير و تأكيد لما تقدّم من كونه تعالى غنيّا حميدا فهو تعالى لا ينتفع بما يدعو إليه من التزكّي بل الّذي تزكّى فإنّما يتزكّى لنفع نفسه .

و قد ختم الآية بقوله : « و إلى الله المصير » للدلالة على أنّ تزكية من تزكّى لا يذهب سدى ، فإنّ كلاّ من الفريقين صائرون إلى ربّهم لا محالة و هو يحاسبهم و يجازيهم فيجازي هؤلاء المتزكّين أحسن الجزاء .

قوله تعالى : « و ما يستوي الأعمى و البصير » الظاهر أنّه عطف على قوله : « و إلى الله المصير » تعليل في صورة التمثيل لعدم مساواة هؤلاء المتزكّين لاُولئك المكذّبين ، و قيل : عطف على قوله السابق : « و ما يستوي البحران » .

قوله تعالى : « و لا الظلمات و لا النور » تكرار حروف النفي مرّة بعد مرّة في الاية و ما يليها لتأكيد النفي .

قوله تعالى : « و لا الظلّ و لا الحرور » الحرور شدّة حرّ الشمس على ما قيل و قيل : هو السموم و قيل : السموم يهبّ نهارا و الحرور يهبّ ليلا ونهارا .

قوله تعالى : « و ما يستوي الأحياء و لا الأموات » إلى آخر الآية عطف على قوله : « و ما يستوي الأعمى و البصير » و إنّما كرّر قوله : « ما يستوي » و لم يعطف « الأحياء و لا الأموات » على قوله : « الأعمى و البصير » كرابعته لطول الفصل فاُعيد « ما يستوي » لئلاّ يغيب المعنى عن ذهن السامع فهو كقوله : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله و رسوله ـ إلى أن قال ـ كيف و إن يظهروا عليكم » الخ التوبة : ٨ .

و الجمل المتوالية المترتّبة أعني قوله : « و ما يستوي الأعمى و البصير ـ إلى قوله ـ و ما يستوي الأحياء و لا الأموات » تمثيلات للمؤمن و الكافر و تبعات أعمالهما.

و قوله : « إنّ الله يسمع من يشاء » و هو المؤمن كان ميتا فأحياه الله فأسمعه لما في نفسه من الاستعداد لذلك قال تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نورا » الأنعام : ١٢٢ ، و أمّا النبيّ صلى الله عليه وآله فإنّما هو وسيلة و الهدى هدى الله .

و قوله : « و ما أنت بمسمع من في القبور » أي الأموات و المراد بهم الكفّار المطبوع على قلوبهم .

قوله تعالى : « إن أنت إلّا نذير » قصر إضافيّ أي ليس لك إلّا إنذارهم وأمّا هداية من اهتدى منهم وإضلال من ضلّ ولم يهتد جزاءله بسيّىء عمله فإنّما ذلك لله سبحانه. ولم يذكر البشير مع النذير مع كونه صلى الله عليه وآله متلبّسا بالوصفين معا لأنّ المقام مقام الإنذار فالمناسب هو التعرّض لوصف الانذار مع أنّه مذكور في الآية التالية .

قوله تعالى : « إنّا أرسلناك بالحقّ بشيرا و نذيراً و إن من اُمّة إلّا خلا فيها نذير » المفاد على ما يقتضيه السياق إنّا أرسلناك بالتبشير والإنذار و ليس ببدع مستغرب فما من اُمّة من الاُمم إلّا وقد خلا ومضى فيها نذير فذلك من سنن الله الجارية في خلقه .

و ظاهر السياق أنّ المراد بالنذير الرسول المبعوث من عندالله و فسّر بعضهم النذير بمطلق من يقوم بالعظة و الإنذار من نبيّ أو عالم غير نبيّ و هو خلاف ظاهر الآية .

نعم ليس من الواجب أن يكون نذير كلّ اُمّة من أفرادها فقد قال تعالى : « خلافيها » و لم يقل : «خلا منها » .

قوله تعالى : « و إن يكذّبوك فقد كذّب الّذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبيّنات و بالزبر و بالكتاب المنير» البيّنات هي الآيات المعجزة الّتي تشهد على حقّيّة الرسل ، و الزبر جمع زبور ولعلّ المراد بها بقرينة مقابلتها للكتاب الصحائف والكتب الّتي فيها ذكرالله تعالى من غير أن تتضمّن الأحكام والشرائع ، والكتاب المنير الكتاب المنزل من السماء المتضمّن للشرائع ككتاب نوح و إبراهيم و توراة موسى و إنجيل عيسى عليه السلام ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « ثمّ أخذت الّذين كفروا فكيف كان نكير » الأخذ كناية عن التعذيب ، و النكير الإنكار ، و الباقي ظاهر .

﴿ كلام في معنى عموم الانذار ﴾

قد تقدّم في أبحاث النبوّة في الجزء الثاني و في قصص نوح عليه السلام في الجزء العاشر من الكتاب ما يدلّ من طريق العقل على عموم النبوّة و يؤيّده الكتاب .

فلا تخلو اُمّة من الاُمم الإنسانيّة عن ظهور مّا للدعوة الحقّة النبويّة فيها و أمّاكون نبيّ كلّ اُمّة من نفس تلك الاُمّة فلا دليل عليه ، و قد عرفت أنّ قوله تعالى: « و إن من اُمّة إلّا خلا فيها نذير » الآية مفاده ذلك .

وأمّا فعليّة الإنذار ـ بحيث يبلغ كلّ فردفرد من الاُمّة مضافا إلى أصل الاقتضاء ـ و اطّراد الدعوة في كلّ واحد واحد فحكومة العلل و الأسباب المتزاحمة في هذه النشأة المادّيّة لاتوافقه كما لاتوافق سائر المقتضيات العامّة الّتي قدّرها الصنع كما أنّ في بنية

كلّ مولود إنسانيّ أن يعمّر عمرا طبيعيّا و الحوادث تحول بين أكثر الأفراد و بين ذلك ، وكلّ مولود إنسانيّ مجهّز بجهاز التناسل للاستيلاد والإيلاد و كثير من الأفراد يموت قبل بلوغه فلا يبلغ ذلك إلى غير ذلك من النظائر .

فالنبوّة و الإنذار عامّ لكلّ اُمّة و لا يستلزم استلزاما ضروريّا أن تبلغ الدعوة كلّ شخص من أشخاصها بل من الجائز أن تبلغ بلاواسطة أو معها بعض الاُمّة وتتخلّف عن بعض لحيلولة علل و أسباب مزاحمة بينه وبين البلوغ فمن توجّهت منهم إليه الدعوة و بلغته تمّت عليه الحجّة و من توجّهت إليه ولم تبلغه لم تتمّ عليه الحجّة وكان من المستضعفين و كان أمره إلى الله قال تعالى : « إلّا المستضعفين من الرجال و النساء و الولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا » النساء : ٩٨ .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدرّ المنثور في قوله تعالى : « و لا تزر وازرة وزر اُخرى » أخرج أحمد و الترمذيّ و صحّحه و النسائيّ و ابن ماجه عن عمرو بن الأحوص أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال في حجّة الوداع : ألا لايجني جان إلّا على نفسه لايجني والد على ولده و لامولود على والده .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « إنّ الله يسمع من يشاء و ما أنت بمسمع من في القبور » قال : هؤلاء الكفّار لا يسمعون منك كما لايسمع أهل القبور .

و في الدرّ المنثور أخرج أبو سهل السريّ بن سهل الجنديسابوريّ الخامس من حديثه من طريق عبد القدّوس عن أبي صالح عن ابن عبّاس في قوله : « إنّك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من في القبور » قال : كان النبيّ صلى الله عليه وآله يقف على القتلى يوم بدر ويقول : هل وجدتم ماوعد ربّكم حقّا يا فلان بن فلان ألم تكفر بربّك ؟ ألم تكذّب نبيّك ؟ ألم تقطع رحمك ؟ فقالوا : يا رسول الله أيسمعون ماتقول ؟ قال : ما أنتم بأسمع منهم لما أقول فأنزل الله : « إنّك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من في القبور » ومثل ضربه الله للكفّار أنّهم لا يسمعون لقوله .

اقول : و في الرواية مالايخفى من لوائح الوضع فساحة النبيّ صلّى الله عليه وآله أجلّ من أن يقول ماليس له به علم من ربّه حتّى ينزّل الله عليه آية تكذّبه فيما يدّعيه ويخبر به.

على أنّ مانقله من الآية لايطابق المصحف فصدره مأخوذ من سورة النمل الآية ٨٠ و ذيله مأخوذ من سورة فاطر الآية ٢٢ .

على أنّ سياق الآية مكّيّ في سياق آيات سابقة ولاحقة مكّيّة .

و في الاحتجاج في احتجاج الصادق عليه السلام : قال السائل : فأخبرني عن المجوس أفبعث إليهم نبيّاً ؟ فإنّي أجدلهم كتبا محكمة و مواعظ بليغة و أمثالا شافية ،ويقرّون بالثواب و العقاب ، و لهم شرائع يعملون بها . قال : ما من اُمّة إلّا خلافيها نذير ،وقد بعث إليهم نبيّ بكتاب من عندالله فأنكروه وجحدوا كتابه .



☆☆☆

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ

يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰوٰاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) .

﴿ بيان ﴾

رجوع إلى ذكر آيات اُخر من آيات التوحيد وفيها انتقال إلى حديث الكتاب و أنّه حقّ نازل من عندالله تعالى وقد انجرّ الكلام في الفصل السابق من الآيات إلى ذكر النبوّة و الكتاب حيث قال : « إنّا أرسلناك بالحقّ بشيرا و نذيرا » و قال : «جاؤا بالبيّنات و بالزبر و بالكتاب المنير » فكان من الحريّ أن يتعرّض لصفة الكتاب و ما تستتبعه من الآثار .

قوله تعالى : « ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » الخ حجّة اُخرى على التوحيد و هو أنّ الله سبحانه ينزّل الماء من السماء بالإمطار وهو أقوى العوامل المعينة لخروج الثمرات ، و لو كان خروجها عن مقتضى طباع هذا العامل وهو واحد لكان جميعها ذا لون واحد فاختلاف الألوان يدلّ على وقوع التدبير الإلهيّ .

والقول بأنّ اختلافها منوط باختلاف العوامل المؤثّرة فيها ومنها اختلاف العناصر الموجودة فيها نوعا وقدرا وخصوصيّة التأليف .

مدفوع بأنّ الكلام منقول حينئذ إلى اختلاف نفس العناصر و هي منتهية إلى المادّة المشتركة الّتي لا اختلاف فيها فاختلاف العناصر المكوّنة منها يدلّ على عامل آخر وراء المادّة يدبّر أمرها و يسوقها إلى غايات مختلفة .

و الظاهر أنّ المراد باختلاف ألوان الثمرات اختلاف نفس ألوانها و يلزمه

اختلافات اُخر من حيث الطعم و الرائحة و الخواصّ ، وقيل المراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع فكثيراً ما يطلق اللون في الفواكه و الأطعمة على النوع كما يقال : قدّم فلان ألوانا من الطعام و الفاكهة فهو من الكناية ، و قوله بعد : « و من الجبال جدد بيض و حمر » لايخلو من تأييد للوجه الأوّل .

وفي قوله : « فأخرجنا به » الخ التفات من الغيبة إلى التكلّم . قيل : إنّ ذلك لكمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة و الحكمة .

و نظير الوجه يجري في قوله السابق : « إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً و نذيراً » و أمّا ما في الآية السابقة من قوله : « ثمّ أخذت الّذين كفروا فكيف كان نكير » فلعلّ الوجه فيه أنّ أمرهم إلى الله لا يتخلّل بينه و بينهم أحد حتّى يشفع لهم أو ينصرهم فينجو من العذاب .

وقوله : «ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » الجدد بالضمّ فالفتح جمع جدّة بضمّ الجيم و هي الطريقة و الجادّة ، و البيض و الحمر جمع أبيض و أحمر ، والظاهر أنّ قوله : « مختلف ألوانها » صفة لجدد و « ألوانها » فاعل « مختلف» ولو كانت الجملة مبتدء وخبراً لقيل : مختلفة ألوانها كما قيل ؛ والغرابيب جمع غربيب وهو الأسود الشديد السواد و منه الغراب و « سود » بدل أوعطف بيان لغرابيب .

والمعنى ألم تر أنّ من الجبال طرائق بيض و حمر وسود مختلف ألوانها ، والمراد إمّا الطرق المسلوكة في الجبال و لها ألوان مختلفة ، و إمّا نفس الجبال الّتي هي خطوط مختلفة ممدودة على وجه الأرض بيض وحمر وسود مختلف ألوانها .

قوله تعالى : « و من الناس والدوابّ والأنعام مختلف ألوانه كذلك » أيومن الناس و الدوابّ الّتي تدبّ في الأرض و الأنعام كالإبل و الغنم و البقر بعض مختلف ألوانه بالبياض و الحمرة والسواد كاختلاف الثمرات و الجبال في ألوانها .

وقيل : قوله : « كذلك » خبر لمبتدء محذوف و التقدير الأمر كذلك فهوتقرير إجماليّ للتفصيل المتقدّم من اختلاف الثمرات والجبال و الناس و الدوابّ والأنعام .

وقيل : « كذلك » متعلّق بقوله : « يخشى » في قوله : « إنّما يخشى اللهمن عباده

العلماء » والإشارة إلى ماتقدّم من الاعتبار بالثمرات والجبال و غيرهما و المعنى إنّما يخشى الله كذلك الاعتبار بالآيات من عباده العلماء ، وهو بعيد لفظاً ومعنى .

قوله تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » استئناف يوضح أنّ الاعتبار بهذه الآيات إنّما يؤثّر أثره و يورث الإيمان بالله حقيقة و الخشية منه بتمام معنى الكلمة في العلماء دون الجهّال ، وقد مرّ أنّ الإنذار إنّما ينجح فيهم حيث قال : « إنّما تنذر الّذين يخشون ربّهم بالغيب وأقاموا الصلاة » فهذه الآية كالموضحة لمعنى تلك تبيّن أنّ الخشية حقّ الخشية إنّما توجد في العلماء .

والمراد بالعلماء العلماء بالله وهم الّذين يعرفون الله سبحانه بأسمائه و صفاته و أفعاله معرفة تامّة تطمئنّ بها قلوبهم و تزيل وصمة الشكّ و القلق عن نفوسهم و تظهر آثارها في أعمالهم فيصدّق فعلهم قولهم ، و المراد بالخشية حينئذ حقّ الخشية و يتبعها خشوع في باطنهم وخضوع في ظاهرهم . هذا ما يستدعيه السياق في معنى الآية .

و قوله : « إنّ الله عزيز غفور » يفيد معنى التعليل فلعزّته تعالى و كونه قاهراً غير مقهور وغالباً غير مغلوب من كلّ جهة يخشاه العارفون ، ولكونه غفوراً كثيرالمغفرة للآثام والخطيئات يؤمنون به و يتقرّبون إليه و يشتاقون إلى لقائه .

قوله تعالى : « إنّ الّذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة و أنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً وعلانية يرجون تجارة لن تبور » تلاوة الكتاب قراءة القرآن وقد أثنى عليها الله سبحانه ، وإقامة الصلاة إدامة إتيانها و حفظها من أن تترك ، و الإنفاق من الرزق سرّاً و علانية بذل المال سرّاً تحذّرا من الرياء و زوال الإخلاص في الإنفاق المسنون ، و بذل المال علانية ليشيع بين الناس كما في الإنفاق الواجب .

وقوله : « يرجون تجارة لن تبور »أي لن تهلك بالخسران ، وذكر بعضهمأنّ قوله : «يرجون» الخ خبر إنّ فيصدرالآية وعند بعضهم الخبر مقدّر يتعلّق به قوله:«ليوفّيهم» الخ أي فعلوا ما فعلوا ليوفّيهم أُجورهم » الخ .

قوله تعالى : « ليوفّيهم أُجورهم ويزيدهم من فضله إنّه غفور شكور » متعلّق بقوله : « يتلون » وما عطف عليه في الآية السابقة أي أنّهم عملو ماعملوا لأن يوفّيهم

ويؤتيهم إيتاء تامّاً كاملا اُجورهم و ثوابات أعمالهم .

وقوله : « ويزيدهم من فضله » يمكن أن يراد بهذه الزيادة تضعيف الثواب أضعافاً كما في قوله : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الأنعام : ١٦٠ وقوله : «مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة والله يضاعف لمن يشاء » البقرة : ٢٦١ ، و يمكن أن يراد بها زيادة ليست من سنخ ثواب الأعمال كما في قوله : « لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ .

و قوله : «إنّه غفور شكور» تعليل لمضمون الآية وزيادة فهو تعالى لكونه غفورا يغفر زلاّتهم و لكونه شكوراً يثيبهم و يزيد من فضله .

قوله تعالى : « و الّذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحقّ » ضمير الفصل و اللاّم في قوله : « هو الحقّ » للتأكيد لا للقصر أي هو حقّ لا يشوبه باطل .

قوله تعالى : « ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا من عبادنا » إلى آخر الآية. يقال : أورثه مالا كذا أي تركه فيهم يقومون بأمره بعده و قد كان هو القائم بأمره المتصرّف فيه ، و كذا إيراث العلم و الجاه و نحوهما تركه عند الغير يقوم بأمره بعد ما كان عند غيره ينتفع به فايراث القوم الكتاب تركه عندهم يتناولونه خلفا عن سلف و ينتفعون به .

و تصحّ هذه النسبة و إن كان القائم به بعض القوم دون كلّهم قال تعالى : « و لقد آتينا موسى الهدى و أورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى و ذكرى لاُولي الألباب » المؤمن : ٥٤ ، و قال : « إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيّون الّذين أسلموا للّذين هادوا و الربّانيّون و الأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » المائدة :٤٤، و قال : « و إنّ الّذين اُورثوا الكتاب من بعدهم لفي شكّ منه مريب » الشورى : ١٤ . فبنو إسرائيل اُورثوا الكتاب و إن كان المؤدّون حقّه القائمون بأمره بعضهم لا جميعهم .

والمراد بالكتاب في الآية على ما يعطيه السياق هو القرآن الكريم كيف ؟ وقوله في الآية السابقة : « و الّذي أوحينا إليك من الكتاب » نصّ فيه ، فاللام في الكتاب

للعهد دون الجنس فلا يعبأ بقول من يقول : إنّ اللاّم للجنس و المراد بالكتاب مطلق الكتاب السماويّ المنزل على الأنبياء .

و الاصطفاء أخذ صفوة الشيء و يقرب من معنى الاختيار و الفرق أنّ الاختيار أخذ الشيء من بين الأشياء بما أنّه خيرها و الاصطفاء أخذه من بينها بما أنّه صفوتها و خالصها .

و قوله : « من عبادنا » يحتمل أن يكون «من » للتبيين أو للابتداء أو التبعيض الأقرب إلى الذهن أن يكون بيانيّة و قد قال تعالى : « و سلام على عباده الّذين اصطفى » النمل : ٥٩ .

و اختلفوا في هؤلاء المصطفين من عباده من هم؟ فقيل : هم الأنبياء ، و قيل : هم بنو إسرائيل الداخلون في قوله : « إنّ الله اصطفى آدم و نوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » آل عمران :٣٣ ، وقيل : هم اُمّة محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله فقد اُورثوا القرآن من نبيّهم إليه يرجعون و به ينتفعون علماؤهم بلا واسطة وغيرهم بواسطتهم ، و قيل : هم العلماء من الاُمّة المحمديّة .

و قيل : ـ و هو المأثور عن الصادقين عليهما‌السلام في روايات كثيرة مستفيضة ـ أنّ المراد بهم ذرّيّة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله من أولاد فاطمة عليها‌السلام و هم الداخلون في آل إبراهيم في قوله : « إنّ الله اصطفى آدم و نوحا وآل إبراهيم »آل عمران :٣٣ ، و قد نصّ النبيّ صلّى الله عليه و آله على علمهم بالقرآن و إصابة نظرهم فيه و ملازمتهم إيّاه بقوله في الحديث المتواتر المتّفق عليه : « إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض » .

و على هذا فالمعنى بعد ما أوحينا إليك القرآن ـ ثمّ للتراخي الرتبيّ ـ أورثنا ذرّيّتك إيّاه و هم الّذين اصطفينا من عبادنا إذ اصطفينا آل إبراهيم و إضافة العباد إلى نون العظمة للتشريف .

و قوله : « فمنهم ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهم سابق بالخيرات » يحتمل أن يكون ضمير « منهم » راجعا إلى « الّذين اصطفينا » فيكون الطوائف الثلاث الظالم

لنفسه و المقتصد و السابق بالخيرات شركاء في الوراثة و إن كان الوارث الحقيقيّ العالم بالكتاب و الحافظ له هو السابق بالخيرات .

و يحتمل أن يكون راجعاً إلى عبادنا ـ من غير إفادة الإضافة للتشريف ـ فيكون قوله : « فمنهم » مفيدا للتعليل و المعنى إنّما أورثنا الكتاب بعض عبادنا و هم المصطفون لا جميع العباد لأنّ من عبادنا من هو ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهم سابق و لا يصلح الكلّ للوراثة .

و يمكن تأييد أوّل الاحتمالين بأن لا مانع من نسبة الوراثة إلى الكلّ مع قيام البعض بها حقيقة كما نجد نظيره في قوله تعالى: « و أورثنا بني إسرائيل الكتاب » المؤمن : ٥٤ .

و ما في الآية من المقابلة بين الظالم لنفسه و المقتصد و السابق بالخيرات يعطي أنّ المراد بالظالم لنفسه من عليه شيء من السيّآت وهو مسلم من أهل القرآن لكونه مصطفى و وارثا ، و المراد بالمقتصد المتوسّط الّذي هو في قصد السبيل و سواء الطريق و المراد بالسابق بالخيرات بإذن الله من سبق الظالم و المقتصد إلى درجات القرب فهو أمام غيره بإذن الله بسبب فعل الخيرات قال تعالى : « و السابقون السابقون اُولئك المقرّبون» الواقعة : ١١ .

و قوله تعالى : « ذلك هو الفضل الكبير » أي ما تقدّم من الإيراث هو الفضل الكبير من الله لا دخل للكسب فيه .

هذا ما يعطيه السياق وتفيده الأخبار من معنى الآية وفيها للقوم اختلاف عجيب فقد اختلف في « ثمّ » فقيل : هي للتراخي بحسب الإخبار ، و قيل : للتراخي الرتبي، و قيل : للتراخي الزماني . ثمّ العطف على « أوحينا » أو على « الّذي أوحينا » .

و اختلف في « أورثنا » فقيل : هو على ظاهره ، و قيل : معناه حكمنا بإيراثه و قدّرناه ، و اختلف في الكتاب فقيل : المراد به القرآن ، و قيل : جنس الكتب السماويّة ، و اختلف في « الّذين اصطفينا » فقيل : المراد بهم الأنبياء ، و قيل : بنو

إسرائيل ، و قيل : اُمّة محمّد ، و قيل : العلماء منهم ، و قيل : ذرّيّة النبيّ من ولد فاطمة عليها السلام .

و اختلف في « من عبادنا » فقيل : من للتبعيض أو للابتداء أو للتبيين و يختلف المراد من العباد بحسب اختلاف معنى «من» وكذا إضافة « عبادنا » للتشريف على بعض الوجوه و لغيره على بعضها .

و اختلف في « فمنهم » فقيل : مرجع الضمير « الّذين » و قيل : « عبادنا » و اختلف في الظالم لنفسه و المقتصد والسابق فقيل : الظالم من كان ظاهره خيراً من باطنه و المقتصد من استوى ظاهره و باطنه و السابق من كان باطنه خيرا من ظاهره ، و قيل : السابق هم السابقون الماضون في عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله من أصحابه و المقتصد من تبع أثرهم و لحق بهم من الصحابة و الظالم لنفسه غيرهم ، و قيل : الظالم من غلبت عليه السيّئة و المقتصد المتوسّط حالا و السابق هو المقرّب إلى الله السابق في الدرجات .

و هناك أقوال متفرّقة اُخر تركنا إيرادها ولو ضربت الاحتمالات بعضها في بعض جاوز الاُلف .

قوله تعالى : « جنّات عدن يدخلونها يحلّون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤا و لباسهم فيها حرير» التحلية هي التزيين والأساور جمع أسورة و هي جمع سوار بكسر السين قال الراغب : سوار المرأة معرّب و أصله دستواره . انتهى .

و قوله : « جنّات عدن » الخ ظاهره أنّه بيان للفضل الكبير قال في المجمع : هذا تفسير للفضل كأنّه قيل : ما ذلك الفضل ؟ فقال : هي جنّات أي جزاء جنّات أو دخول جنّات ويجوز أن يكون بدلا من الفضل كأنّه قال : ذلك دخول جنّات . انتهى . و الباقي ظاهر .

قوله تعالى :«وقالوا الحمدلله الّذي أذهب عنّا الحزن إنّ ربّنا لغفور شكور» قيل : المراد بالحزن الّذي يحمدون الله على إذهابه بإدخالهم الجنّة الحزن الّذي كان يتوجّه إليهم في الحياة الدنيا و ما يحفّ بها من الشدائد و النوائب .

و قيل : المراد به الحزن الّذي كان قد أحاط بهم بعد الارتحال من الدنيا و قبل

الدخول في جنّة الآخرة إشفاقا ممّا اكتسبوه من السيّآت .

و على هذا فالقول قول الظالم لنفسه منهم أو قوله و قول المقتصد و أمّا السابق بالخيرات منهم فلاسيّئة في صحيفة أعماله حتّى يعذّب بها . و هذا الوجه أنسب لقولهم في آخر حمدهم : «إنّ ربّنا لغفور شكور » .

قوله تعالى : « الّذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسّنا فيها نصب و لا يمسّنا فيها لغوب » المقامة الإقامة ، و دار المقامة المنزل الّذي لا خروج منه و لا تحوّل .

و النصب بفتحتين التعب والمشقّة ، و اللغوب بضمّ اللام : العيّ و التعب في طلب المعاش و غيره .

و المعنى الّذي جعلنا حالّين في دار الخلود من فضله من غير استحقاق منّا عليه لا يمسّنا في هذه الدار و هي الجنّة مشقّة و تعب و لا يمسّنا فيها عيّ و لاكلال في طلب ما نريد أى إنّ لنا فيها ما نشاء .

و في قوله: « من فضله» مناسبة خاصّة معقوله السابق:«ذلك هو الفضل الكبير».

قوله تعالى : « و الّذين كفروا لهم نارجهنّم » إلى آخر الآية اللام في « لهم » للاختصاص و يفيدكون النار جزاء لهم لا ينفكّ منهم ، و قوله : « لا يقضى عليهم فيموتوا » أي لا يحكم عليهم بالموت حتّى يموتوا فهم أحياء على ما هم فيه من شدّة العذاب و لا يخفّف عنهم من عذاب النار كذلك نجزي كلّ كفور شديد الكفران أو كثيره .

قوله تعالى : « وهم يصطرخون فيهاربّنا أخرجنا » إلىآخرالآية في المجمع : الاصطراخ الصياح و النداء بالاستغاثة افتعال من الصراخ انتهى .

و قوله : « ربّنا أخرجنا » الخ بيان لاصطراخهم ، و قوله : « أولم نعمّركم ما يتذكّرفيه من تذكّر » الخ جواب اصطراخهم وقوله : «فذوقوا» وقوله : « فما للظالمين من نصير » كلّ منهما متفرّع على ما قبله .

و المعنى و هؤلاء الّذين في النار من الكفّار يصطرخون و يصيحون بالاستغاثة

فيها قائلين : ربّنا أخرجنا من النار نعمل صالحا غير سيّىء غير الّذي كنّا نعمل فيقال لهم ردّا عليهم : ـ كلّا ـ أولم نعمّركم عمرا يتذكّر فيه من تذكّر و جاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكّروا و لم تؤمنوا ؟ فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصرهم ليتخلّصوا من العذاب .

قوله تعالى : «إنّ الله عالم غيب السماوات و الأرض إنّه عليم بذات الصدور» فيعاملكم بما في باطنكم من الاعتقاد و آثار الأعمال و يحاسبكم عليه سواء وافق ظاهركم باطنكم أو خالف قال تعالى : « إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة : ۲۸۴ ، و قال : « يوم تبلى السرائر » الطارق : ۹ .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء » الآية روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : يعني بالعلماء من صدّق قوله فعله ، ومن لم يصدّق فعله قوله فليس بعالم . و في الحديث أعلمكم بالله أخوفكم لله .

أقول : و في روضة الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن عليّ بن الحسين عليه السلام ما في معناه .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة و الترمذيّ والحاكم عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : العلم علمان : علم في القلب فذاك العلم النافع ، و علم على اللسان فذاك حجّة الله على خلقه .

و في المجمع روى ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال في قوله : « و يزيدهم من فضله » : هو الشفاعة لمن وجبت له النار ممّن صنع إليه معروفا في الدنيا .

و في الكافي بإسناده عن أحمد بن عمر قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ و جلّ : « ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا من عبادنا » الآية قال : فقال : ولد فاطمة عليها السلام ، و السابق بالخيرات الإمام و المقتصد العارف بالإمام و الظالم لنفسه الّذي لا يعرف الإمام .

و عن كتاب سعدالسعود لابن طاوس في حديث لأبي إسحاق السبيعيّ عن الباقر عليه السلام في الآية قال: هي لنا خاصّة يا أبا إسحاق أماالسابق بالخيرات فعليّ بن أبي طالب و الحسن والحسين و الشهيد منّا ، وأمّا المقتصد فصائم بالنهار وقائم بالليل ، و أمّا الظالم لنفسه ففيه ما في الناس و هو مغفور له .

أقول : المراد بالشهيد بقرينة الروايات الاُخر الإمام .

وفي معاني الأخبار مسندا عن الصادق عليه السلام في الآية قال:الظالم يحوم حوم نفسه و المقتصد يحوم حوم قلبه و السابق بالخيرات يحوم حوم ربّه .

أقول : الحوم و الحومان الدوران ، و دوران الظالم لنفسه حوم نفسه اتّباعه أهواءها وسعيه في تحصيل ما يرضيها،و دوران المقتصد حوم قلبه اشتغاله بما يزكّي قلبه و يطهّره بالزهد و التعبّد ، و دوران السابق بالخيرات حوم ربّه إخلاصه له تعالى فيذكره و ينسى غيره فلا يرجو إلّا إيّاه و لا يقصد إلّا إيّاه .

و اعلم أنّ الروايات من طرق الشيعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في كون الآية خاصّة بولد فاطمة عليها السلام كثيرة جدّا .

و في الدّر المنثور أخرج الفاريابيّ و أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبرانيّ والحاكم و ابن مردويه و البيهقيّ عن أبي الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : قال الله تعالى : « ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » فأمّا الّذين سبقوا فاُولئك يدخلون الجنّة بغير حساب ، و أمّا الّذين اقتصدوا فاُولئك الّذين يحاسبون حسابا يسيرا ، و أمّا الّذين ظلموا أنفسهم فاُولئك يحبسون في طول المحشر ثمّ هم الّذين يلقاهم الله برحمة فهم الّذين يقولون : الحمدلله الّذي أذهب عنّا الحزن إنّ ربّنا لغفور شكور الّذي أحلّنا دارالمقامة من فضله لا يمسّنا فيها نصب و لا يمسّنا فيها لغوب .

أقول : و رواه في المجمع عن أبي الدرداء عنه صلى الله عليه وآله و في معناه أحاديث اُخر، و هناك ما يخالفها و لا يعبأ به كما فيه عن ابن مردويه عن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في

قوله : « و منهم ظالم لنفسه » قال : الكافر .

و في تفسير القمي ّ في قوله تعالى : «لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسّنا فيها لغوب » قال : النصب العناء و اللغوب الكسل و الضجر .

و في نهج البلاغة ، و قال : العمر الّذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستّون سنة .

أقول : و رواه عنه عليه السلام في المجمع و رواه في الدرّ المنثور عن ابن جرير عنه عليه السلام .

و في الدرّ المنثور أخرج الحكيم الترمذيّ في نوادر الاُصول و البيهقيّ في سننه و ابن جرير و ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيّ و ابن مردويه و البيهقيّ في شعب الايمان عن ابن عبّاس أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستّين و هو المعمّر الّذي قال الله : «أو لم نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكّر » .

أقول : و روى ذلك بطرق اُخرى عن سهل بن سعد و أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله .

و في المجمع : و قيل : هو توبيخ لابن ثماني عشر سنة و روي ذلك عن الباقر عليه السلام .

أقول : و رواه في الفقيه عنه عليه السلام مضمرا .

☆☆☆

هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوٰاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً (٤٠) إِنَّ اللّٰهَ يُمْسِكُ السَّمٰوٰاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١) وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً (٤٢) اسْتِكْبَاراً فِى الْأَرْضِ وَ مَكْرَ السَّيِّىءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ مَا كَانَ اللّٰهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَىْءٍ فِى السَّمٰوٰاتِ وَ لَا فِى الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّٰهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً (٤٥) .

﴿ بيان ﴾

احتجاج على توحيد الربوبيّة كقوله : « هو الّذي جعلكم خلائف في الأرض » الآية ، و قوله : « إنّ الله يمسك السماوات و الأرض أن تزولا » الآية ، و على نفي ربوبيّة شركائهم « قل أرأيتم شركاءكم الّذين تدعون من دون الله » الآية و توبيخ و تهديد لهم على نقضهم ما أبرموه باليمين و مكرهم السيّء .

ثمّ تسجيل أنّ الله لايعجزه شيء و إنّما يمهل من أمهله من هؤلاء الظالمين إلى أجل مسمّى فإذا جاء أجلهم جازاهم ما يستحقّونه و بذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « هو الّذي جعلكم خلائف في الأرض » الخ الخلائف جمع خليفة ، و كون الناس خلائف في الأرض هو قيام كلّ لاحق منهم مقام سابقه و سلطته على التصرّف و الانتفاع منها كما كان السابق مسلّطا عليه ، وهم إنّما نالوا هذه الخلافة من جهة نوع الخلقة و هو الخلقة من طريق النسل و الولادة فإنّ هذا النوع من الخلقة يقسّم المخلوق الى سلف وخلف .

فجعل الخلافة الأرضيّة نوع من التدبير مشوب بالخلق غير منفكّ منه ولذلك استدلّ به على توحّده تعالى في ربوبيّته لأنّه مختصّ به تعالى لا مجال لدعواه لغيره.

فقوله : « هو الّذي جعلكم خلائف في الأرض » حجّة على توحّده تعالى في ربوبيّته و انتفائها عن شركائهم : تقريره أنّ الّذي جعل الخلافة الأرضيّة في العالم الإنساني هو ربّهم المدبّر لأمرهم ، و جعل الخلافة لا ينفكّ عن نوع الخلقة فخالق الإنسان هو ربّ الإنسان لكن الخالق هو الله سبحانه حتّى عند الخصم فالله هو ربّ الإنسان .

و قوله : « فمن كفر فعليه كفره » أي فالله سبحانه هو ربّ الإنسان فمن كفر و ستر هذه الحقيقة و نسب الربوبيّة إلى غيره تعالى فعلى ضرره كفره .

و قوله : « ولايزيد الكافرين كفرهم عند ربّهم إلّا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم

إلّا خسارا » بيان لكون كفرهم عليهم وهو أنّ كفرهم يورث لهم مقتا عند ربّهم والمقت شدّة البغض لأنّ فيه إعراضا عن عبوديّته و استهانة بساحته ، و يورث لهم خسارا في أنفسهم لأنّهم بدّلوا السعادة الإنسانيّة شقاء و وبالاً سيصيبهم في مسيرهم و منقلبهم إلى دار الجزاء .

و إنّما عبّر عن أثر الكفر بالزيادة لأنّ الفطرة الإنسانيّة بسيطة ساذجة واقعة في معرض الاستكمال و الازدياد فإن أسلم الإنسان زاده ذلك كمالا و قربا من الله وإن كفر زاده ذلك مقتا عند الله و خسارا .

و إنّما قيّد المقت بقوله : « عند ربّهم » دون الخسار لأنّ الخسار من تبعات تبديل الإيمان كفرا و السعادة شقاء و هو أمر عند أنفسهم و أمّا المقت و شدّة البغض فمن عند الله سبحانه .

والحبّ و البغض المنسوبان إلى الله سبحانه من صفات الأفعال وهي معان خارجة عن الذات غير قائمة بها ، و معنى حبّه تعالى لأحد انبساط رحمته عليه و انجذابها إليه و بغضه تعالى لأحد انقباض رحمته منه و ابتعادها عنه .

قوله تعالى : «قل أرأيتم شركاءكم الّذين تدعون من دون الله » إلى آخر الآية إضافة الشركاء إليهم بعناية أنّهم يدّعون أنّهم شركاء لله فهي إضافة لاميّة مجازيّة .

و في الآية تلقين النبيّ ﷺ الحجّة على نفي ربوبيّة آلهتهم الّذين كانوا يعبدونهم وتقرير الحجّة أنّهم لو كانوا أربابا آلهة من دون الله لكان لهم شيء من تدبير العالم فكانوا خالقين لما يدبّرونه لأنّ الخلق و التدبير لا ينفكّ أحدهما عن الآخر ولو كانوا خالقين لدلّ عليه دليل والدليل إمّا من العالم أومن قبل الله سبحانه أمّا العالم فلا شيء منه يدلّ على كونه مخلوقا لهم ولو بنحو الشركة وهو قوله : « أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ».

و أمّا من قبله تعالى فلو كان لكان كتابا سماويّا نازلا من عنده سبحانه يعترف بربوبيّتهم ويجوّز للناس أن يعبدوهم ويتّخذوهم آلهة ، ولم ينزل كتاب على هذه الصفة و هم معترفون بذلك وهو قوله : « أم آتيناهم كتابا فهم على بيّنة منه » .

وإنّما عبّر عن نفي خالقيّتهم في الأرض بقوله : «أروني ماذا خلقوا من الأرض» ولم يقل : أنبئوني ألهم شرك في الأرض ؟ و عبّر في السماوات بقوله : « أم لهم شرك في السماوات » ولم يقل : أم ماذا خلقوا من السماوات .

لأنّ المراد بالأرض ـ على ما يدلّ عليه سياق الاحتجاج ـ العالم الأرضيّ وهو الأرض بما فيها وما عليها والمراد بالسماوات العالم السماويّ المشتمل على السماوات و ما فيها وما عليها فقوله : « ماذا خلقوا من الأرض » في معنى ألهم شرك في الأرض ولا يكون إلّا بخلق شيء منها ، وقوله : «أم لهم شرك في السماوات » في معنى أم ماذا خلقوا من السماوات ، و قد اكتفي بذكر الخلق في جانب الأرض إشارة إلى أنّ الشرك في الربوبيّة لا يكون إلّا بخلق .

و قوله : « أم آتيناهم كتابا فهم على بيّنة منه » أي بل ءآتيناهم كتابا فهم على بيّنة منه أي على حجّة ظاهرة من الكتاب أنّ لشركائهم شركة معنا و ذلك بدلالته على أنّهم شركاء لله .

وقد قال : « أم آتيناهم كتابا » ولم يقل : أم لهم كتاب ونحو ذلك ليتأكّد النفي و الإنكار فإنّ قولنا : أم لهم كتاب و نحو ذلك إنكار لوجود الكتاب لكن قوله : « أم آتيناهم كتابا » إنكار لوجود الكتاب ممّن ينزّل الكتاب لو نزّل .

وقد تبيّن بما تقدّم أنّ ضمير الجمع في «آتيناهم» وفي « فهم على بيّنة» للمشركين فلا يعبأ بما قيل : إنّ الضميرين للشركاء .

و قوله : « بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلّا غرورا » إضراب عمّا تقدّم من الاحتجاج بأنّ الّذي حملهم على الشرك ليس هو حجّة تحملهم عليه و يعتمدون عليها بل غرور بعضهم بعضا بوعد الشفاعة و الزلفى فأسلافهم يغرّون أخلافهم و رؤساؤهم وأئمّتهم يغرّون مرؤسيهم وتابعيهم ويعدونهم شفاعة الشركاء عند الله سبحانه ولا حقيقة لها .

و حجّة الآية عامّة على المشركين عبدة الأصنام و هم الّذين يعبدون الملائكة و الجنّ و قدّيسي البشر ويتّخذون لهم أصناما يتوجّهون إليها ، وعلى الّذين يعبدون روحانيّي الكواكب ويتوجّهون إلى الكواكب ثمّ يتّخذون للكواكب أصناما ، وعلى

الّذين يعبدون الملائكة و العناصر من غير أن يتّخذوا لها أصناما كما ينقل عن الفرس القدماء، و على الّذين يعبدون بعض البشر كالنصارى للمسيح عليه‌السلام .

قوله تعالى : « إنّ الله يمسك السماوات و الأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » الخ قيل : إنّ الآية استئناف مقرّر لغاية قبح الشرك و هوله أي إنّ الله تعالى يحفظ السماوات والأرض كراهة أن تزولا أولئلّا تزولا وتضمحلّا لأنّ الممكن كما يحتاج إلى الواجب حال إيجاده يحتاج إليه حال بقائه . انتهى .

و الظاهر أنّه تعالى لمّا استدلّ على توحّده في الربوبيّة بجعل الخلافة في النوع الإنسانيّ بقوله : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » الاية ثمّ نفى الشركة مطلقا بالحجّة عمّم الحجّة بحيث تشمل الخلق كلّه أعني السماوات و الأرض فاحتجّ على توحّده بإبقاء الخلق بعد إحداثه فإنّ من البيّن الّذي لا يرتاب فيه أنّ حدوث الشيء و أصل تلبّسه بالوجود بعد العدم غير بقائه و تلبّسه بالوجود بعد الوجود على نحو الاستمرار فبقاء الشيء بعد حدوثه يحتاج إلى إيجاد بعد إيجاد على نحو الاتّصال والاستمرار.

و إبقاء الشيء بعد إحداثه كما أنّه إيجاد بعد الإيجاد كذلك هو تدبير لأمره فإنّك إن دقّقت النظر وجدت أنّ النظام الجاري في الكون إنّما يجري بالإحداث و الإبقاء فقط ، و الموجد و الخالق هو الله سبحانه حتّى عند الخصم فالله سبحانه هو الخالق المدبّر للسماوات والأرض وحده لاشريك له .

فقوله : «إنّ الله يمسك السماوات و الأرض أن تزولا » الإمساك بمعناه المعروف و قوله : « أن تزولا » ـ و تقديره كراهة أن تزولا أولئلّا تزولا ـ متعلّق به ، و قيل : الإمساك بمعنى المنع أو بمعنى الحفظ و على أيّ حال فالإمساك كناية عن الإبقاء و هو الإيجاد بعد الإيجاد على سبيل الاتّصال و الاستمرار ، و الزوال هو الاضمحلال و البطلان .

و نقل عن بعضهم أنّه فسّر الزوال بالانتقال المكانيّ ، و المعنى أنّ الله يمنع السماوات و الأرض من أن ينتقل شيء منهما عن مكانه الّذي استقرّ فيه فيرتفع أو ينخفض انتهى و الشأن في تصوّر مراده تصوّرا صحيحا .

و قوله : « ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » السياق يعطي أنّ المراد بالزوال ههنا الإشراف على الزوال إذ نفس الزوال لا يجتمع معه الإمساك و المعنى واُقسم لئن أشرفتا على الزوال لم يمسكهما أحد من بعد الله سبحانه إذ لا مفيض للوجود غيره ويمكن أن يكون المراد بالزوال معناه الحقيقيّ والمراد بالإمساك القدرة على الإمساك وقد تبيّن أنّ « من » الاُولى زائدة للتأكيد و الثانية للابتداء ، و ضمير « من بعده » راجع إليه تعالى ، و قيل راجع إلى الزوال .

و قوله : « إنّه كان حليما غفورا » فهو لحلمه لا يعجل إلى أمر و لمغفرته يستر جهات العدم في الأشياء ، ومقتضى الاسمين أن يمسك السموات و الأرض أن تزولا إلى أجل مسمّى .

و قال في إرشاد العقل السليم : إنّه كان حليما غفورا غير معاجل بالعقوبة الّتي تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما و كانتا جديرتين بأن تهدّا هدّا حسبما قال تعالى : « تكاد السماوات يتفطّرن منه و تنشقّ الأرض » انتهى .

قوله تعالى : « و أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدى من إحدى الاُمم فلمّا جاءهم نذير ما زادهم إلّا نفورا » قال الراغب : الجهد ـ بفتح الجيم ـ والجهد ـ بضمّها ـ الطاقة والمشقّة ـ إلى أن قال ـ و قال تعالى : «وأقسموا بالله جهد أيمانهم » أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم . انتهى . و قال : النفر الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء كالفزع إلى الشيء و عن الشيء يقال : نفر عن الشيء نفورا قال تعالى : « ما زادهم إلّا نفورا » . انتهى .

قيل [1] : بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذّبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكوننّ أهدى من إحدى الاُمم انتهى ، و سياق الآية يصدّق هذا النقل ويؤيّده .

فقوله : « و أقسموا بالله جهد أيمانهم » الضمير لقريش وقد حلفوا هذا الحلف قبل بعثة النبيّ صلّى الله عليه وآله بدليل قوله بعد : « فلمّا جاءهم نذير » ، و المقسم به قوله:«لئن

(۱) رواه فى الدر المنثور عن ابى هلال و عن ابن جريح .

جاءهم نذير » الخ .

و قوله : « لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الاُمم » أي إحدى الاُمم الّتي جاءهم نذير كاليهود و النصارى و إنّما قال : « ليكونن أهدى من إحدى الاُمم» و لم يقل : أهدى منهم لأنّ المعنى أنّهم كانوا اُمّة ماجاءهم نذير ثمّ لوجاءهم نذير كانوا اُمّة ذات نذير كإحدى تلك الاُمم المنذرة ثمّ بتصديق النذير يصيرون أهدى من الّتي ماثلوها وهو قوله : « أهدى من إحدى الاُمم » فافهمه .

و قيل : إنّ مقتضى المقام العموم ، و قوله : « إحدى الاُمم » عامّ وإن كان نكرة في سياق الإثبات و اللّام في « الاُمم » للعهد ، و المعنى ليكونن أهدى من كلّ واحدة من تلك الاُمم الّتي كذّبوا رسلهم من اليهود و النصارى و غيرهم .

و قيل : المعنى ليكونن أهدى من اُمّة يقال فيها : إحدى الاُمم تفضيلالها على غيرها من الاُمم كما يقال : هو واحد القوم و واحد عصره . انتهى .

ولايخلو الوجه الأخير عن تكلّف و بعد .

و قوله : « فلمّا جاءهم نذير مازادهم إلّا نفورا » المراد بالنذير النبيّ صلّى الله عليه وآله و النفور التباعد و الهرب .

قوله تعالى : « استكبارا في الأرض و مكر السيّىء و لا يحيق المكر السيّىء إلّا بأهله » قال الراغب : المكر صرف الغير عمّا يقصده بحيلة ، و ذلك ضربان : مكر محمود و ذلك أن يتحرّى بذلك فعل جميل وعلى ذلك قال تعالى : « و الله خير الماكرين» و مذموم و هو أن يتحرّى به فعل قبيح قال تعالى :« لا يحيق المكر السيّىء إلّا بأهله » انتهى .

و قال أيضاً : قال عزّ و جلّ : « ولا يحيق المكر السيّىء إلّا بأهله » أي لاينزل ولايصيب . قيل : وأصله حقّ فقلب نحوزلّ و زال وقد قرىء فأزلّهما الشيطان وأزالهما و على هذا ذمّه و ذامه . انتهى .

و قوله : « استكبارا في الأرض » مفعول لأجله لقوله : « نفورا » أي نفروا عنه و تباعدوا للاستكبار في الأرض و قوله : « ومكر السيّىء » معطوف على « استكبارا »

و مفعول لأجله مثله ، وقيل : معطوف على « نفورا » والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة بدليل قوله ثانيا : « ولا يحيق المكر السيّىء » الخ .

وقوله : «ولا يحيق المكر السيّىء إلّا بأهله » أي لا يصيب ولا ينزل المكر السيّىء إلّا بأهله ولا يستقرّ إلّا فيه ، فانّ المكر السيّىء وإن كان ربما أصاب به مكروه للممكور به ، لكنّه سيزول ولا يدوم إلّا أنّ أثره السيّىء بما أنّه مكر سيّىء يبقى في نفس الماكر و سيظهر فيه و يجزى به إمّا في الدنيا و إمّا في الآخرة البتّة ، و لهذا فسّر الآية في مجمع البيان بقوله : و المعنى لا ينزل جزاء المكر السيّىء إلّا بمن فعله .

و الكلام مرسل إرسال المثل كقوله تعالى: «إنّما بغيكم على أنفسكم» يونس:۲۳ « و من نكث فإنّما ينكث على نفسه » الفتح : ۱ .

و قوله : « فهل ينظرون إلّا سنّة الأوّلين » النظر و الانتظار بمعنى التوقّع و الفاء للتفريع و الجملة استنتاج ممّا تقدّمها و الاستفهام للإنكار و المعنى و إذ مكروا المكر السيّىء و المكر السيّىء يحيق بأهله فهم لا ينتظرون إلّا السنّة الجارية في الاُمم الماضين و هي العذاب الإلهيّ النازل بهم إثر مكرهم و تكذيبهم بآيات الله .

و قوله : «فلن تجد لسنّة الله تبديلا ولن تجد لسنّة الله تحويلا » تبديل السنّة أن توضع العافية والنعمة موضع العذاب، و تحويلها أن ينقل العذاب من قوم يستحقّونه إلى غيرهم ، و سنّة الله لا تقبل تبديلا و لا تحويلا لأنّه تعالى على صراط مستقيم لا يقبل حكمه تبعيضا و لا استثناء .

وقد أخذ الله بالعذاب هؤلاء المشركين الماكرين يوم بدر فقتل عامّتهم. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله أو لكلّ سامع .

قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم و كانوا أشدّ منهم قوّة » استشهاد على سنّته الجارية في الاُمم الماضية و قد كانوا أشدّ قوّة من مشركي مكّة فأخذهم الله بالعذاب لمّا مكروا و كذّبوا .

قوله تعالى : « و ما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات و الأرض إنّه كان عليما قديرا » تتميم لسابق البيان لمزيد إنذارهم و تخويفهم ، و المحصّل ليتّقوا الله و

ليؤمنوا به و لا يمكروا به و لا يكذّبوا فإنّ سنّة الله في ذلك هي العذاب كما يشهد به ماجرى في الاُمم السابقة من الإهلاك و التعذيب و قد كانوا أشدّ قوّة منهم و الله سبحانهُ لا يعجزه شيء في السماوات و الأرض بقوّة أو مكر فإنّه عليم على الإطلاق لا يغفل و لا يجهل حتّى ينخدع بمكر أو حيلة قدير على الإطلاق لا يقادمه شيء .

قوله تعالى : « و لو يؤاخذ الله الناس بماكسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة » الخ المراد بالمؤاخذة المؤاخذة الدنيويّة كما يدلّ عليه قوله الآتي : «و لكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى » الخ و المراد بالناس جميعهم فإنّ الآية مسبوقة بذكر مؤاخذة بعضهم و هم الماكرون المكذّبون بآيات الله ، و المراد بماكسبوا المعاصي الّتي اكتسبوها بقرينة المؤاخذة التي هو العذاب و قد قال في نظيرة الآية من سورة النحل : « ولو يؤاخذ الله النّاس بما ظلموا ما ترك عليها من دابّة » النحل : ٦١ .

و المراد بظهرها ظهر الأرض لأنّ الناس يعيشون عليه على أنّ الأرض تقدّم ذكرها في الآية السابقة .

و المراد بالدابّة كلّ ما يدبّ في الأرض من إنسان ذكر أو اُنثى أوكبير أوصغير و احتمل أن يكون المراد كلّ ما يدبّ في الأرض من حيوان و إهلاك غير الإنسان من أنواع الحيوان إنّما هولكونها مخلوقة للانسان كما قال تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعا » البقره : ٢٩ .

و قول بعضهم : ذلك لشؤم المعاصي و قد قال تعالى : « و اتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة » مدفوع بأنّ شؤم المعصية لا يتعدّى العاصي إلى غيره وقد قال تعالى : « و لا تزر وازرة وزر اُخرى » فاطر : ١٨ ، و أمّا الآية أعني قوله : « و اتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة » الأنفال: ٢٥ فمدلولها على ما تقدّم من تفسيرها اختصاص الفتنة بالّذين ظلموا منهم خاصّة لا عمومها لهم و لغيرهم فراجع.

و قوله : « و لكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى » و هو الموت أو القيامة و قوله : « فإذا جاء أجلهم فإنّ الله كان بعباده بصيرا » أي فيجازي كلّا بما عمل فإنّه بصير بهم عليم بأعمالهم لأنّهم عباده وكيف يمكن أن يجهل الخالق خلقه و الربّ عمل عبده ؟

و قد بان بما تقدّم أنّ قوله : « فإنّ الله كان بعباده بصيرا » من وضع السبب موضع المسبّب الّذي هو الجزاء .

و الآية أعني قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس » الخ واقعة موقع الجواب عن سؤال مقدّر ناش عن الآية السابقة فإنّه تعالى لمّا أنذر أهل المكر و التكذيب من المشركين بالمؤاخذة و استشهد بما جرى في الاُمم السابقة و ذكر أنّه لا يعجزه شيء في السماوات و الأرض كأنّه قيل : فإذا لم يعجزه شيء في السماوات و الأرض فكيف يترك سائر الناس على ما هم عليه من المعاصي ؟ و ما ذا يمنعه أن يؤاخذهم بماكسبوا؟ فأجاب أنّه لو يؤاخذ جميع الناس بما كسبوا من المعاصي كما يؤاخذ هؤلاء الماكرين المكذّبين ما ترك على ظهر الأرض أحداً منهم يدبّ و يتحرّك ـ و قد قضى سبحانه أن يعيشوا في الأرض و يعمروها إذ قال : « و لكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين» البقرة : ٣٦ فلا يؤاخذهم ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى و هو الموت أو البعث فإذا جاء أجلهم عاملهم بما عملوا إنّه كان بعباده بصيرا .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم من طريق سفيان عن أبي زكريّا الكوفيّ عن رجل حدّثه أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : إيّاكم و المكر السيّئ فإنّه لا يحيق المكر السيّئ إلّا بأهله ولهم من الله طالب .

وفي تفسير القمّي حدّثني أبي عن النوفليّ عن السكونيّ عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : سبق العلم ، و جفّ القلم ، و مضى القضاء و تمّ القدر بتحقيق الكتاب ، و تصديق الرسل ، و بالسعادة من الله لمن آمن و اتّقى و بالشقاء لمن كذّب و كفر ، و بالولاية من الله عزّ و جلّ للمؤمنين ، و بالبراءة منه للمشركين .

ثمّ قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : إنّ الله عزّ و جلّ يقول : يابن آدم بمشيّتي كنت

أنت الّذي تشاء لنفسك ماتشاء ، وبإرادتي كنت أنت الّذي تريد لنفسك ماتريد ،وبفضل نعمتي عليك قويت على معصيتي ، و بقوّتي و عصمتي و عافيتي أدّيت إليّ فرائضي و أنا أولى بحسناتك منك ، و أنت أولى بذنبك منّي ، الخير منّي إليك واصل بما أوليتك به ، و الشرّ منك إليك بماجنيت جزاء ، و بكثير من تسلّطي لك انطويت على طاعتي ، و بسوء ظنّك بي قنطت من رحمتي .

فلي الحمد و الحجّة عليك بالبيان ، ولي السبيل عليك بالعصيان ، ولك الجزاء الحسن عندي بالإحسان ، لم أدع تحذيرك ،ولم آخذك عند غرّتك وهو قوله عزّوجلّ : « و لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة » ، لم اُكلّفك فوق طاقتك ، ولم أحملك من الأمانة إلّا ما أقررت بها على نفسك ، و رضيت لنفسي منك بما رضيت به لنفسك منّي ثمّ قال عزّوجلّ : « ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى فإذا جاء أجلهم فإنّ الله كان بعباده بصيرا » .

سورة يس مكيّة و هي ثلاث و ثمانون آية

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ يٰسٓ (١) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) اِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (۵) لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا اُنْذِرَ آبٰاؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (٧) اِنّٰا جَعَلْنٰا فِي أَعْنٰاقِهِمْ أَغْلاٰلاً فَهِيَ اِلَى الْأَذْقٰانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ (٩) وَ سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (١٠) اِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) اِنّٰا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتىٰ وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي اِمٰامٍ مُبِينٍ (١٢) .

﴿بيان﴾

غرض السورة بيان الاُصول الثلاثة للدين فهي تبتدىء بالنبوّة و تصف حال الناس في قبول الدعوة وردّها و أنّ غاية الدعوة الحقّة إحياء قوم بركوبهم صراط السعادة و تحقيق القول على آخرين و بعبارة اُخرى تكميل الناس في طريقي السعادة و الشقاء ,

ثمّ تنتقل السورة إلى التوحيد فتعدّ جملة من آيات الوحدانيّة ثمّ تنتقل إلى ذكر المعاد فتذكر بعث الناس للجزاء و امتياز المجرمين يومئذمن المتّقين وتصف ماتؤل إليه حال كلّ من الفريقين .

ثمّ ترجع إلى مابدأت فتتلخّص القول في الاُصول الثلاثة وتستدلّ عليها و عند ذلك تختتم السورة .

و من غرر الآيات فيها قوله تعالى : « إنّما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيء و إليه ترجعون » فالسوّرة عظيمة الشأن تجمع اُصول الحقائق و أعراقها وقد ورد من طرق العامّة و الخاصّة أنّ لكلّ شيءقلبا و قلب القرآن يس (١) .

و السورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « يس و القرآن الحكيم ـ إلى قوله ـ فهم غافلون » إقسام منه تعالى بالقرآن الحكيم على كون النبيّ صلى الله عليه وآله من المرسلين ، و قد وصف القرآن بالحكيم لكونه مستقرّا فيه الحكمة وهي حقائق المعارف وما يتفرّع عليها من الشرائع و العبر والمواعظ .

وقوله : « إنّك لمن المرسلين » مقسم عليه كما تقدّم .

وقوله : « على صراط مستقيم » خبر بعد خبر لقوله : « إنّك » ، وتنكير الصراط ـ كما قيل ـ للدلالة على التفخيم وتوصيفه بالمستقيم للتوضيح فإنّ الصراط هوالطريق الواضح المستقيم ، والمراد به الطريق الّذي يوصل عابريه إلى الله تعالى أي إلى السعادة الإنسانيّة الّتي فيها كمال العبوديّة لله و القرب ، و قد تقدّم في تفسير الفاتحة بعض ماينفع في هذا المقام من الكلام .

و قوله : « تنزيل العزيز الرحيم » وصف للقرآن مقطوع عن الوصفيّة منصوب على المدح ، و المصدر بمعنى المفعول و محصّل المعنى أعني بالقرآن ذاك المنزل الّذى

(١) رواه الصدوق فى ثواب الاعمال عن ابى عبدالله عليه السلام و السيوطى فى الدرالمنثور عن أنس و أبي هريرة و معقل بن يسار عن النبى صلى الله عليه وآله.

أنزله الله العزيز الرحيم الّذي استقرّ فيه العزّة و الرحمة .

والتذييل بالوصفين للإشارةإلى أنّه قاهر غيرمقهور وغالب غير مغلوبفلايعجزه إعراض المعرضين عن عبوديّته ولايستذلّه جحود الجاحدين وتكذيب المكذّبين ،وأنّه نورحمة واسعة لمن يتّبع الذكر و يخشاه بالغيب لا لينتفع بإيمانهم بل ليهديهم إلى ما فيه سعادتهم و كمالهم فهو بعزّتد و رحمته أرسل الرسول و أنزل عليه القرآن الحكيم لينذر الناس فيحقّ كلمة العذاب على بعضهم ويشمل الرحمة منهم آخرين .

و قوله : « لتنذر قوما ما اُنذر آباؤهم فهم غافلون » تعليل للإرسال و التنزيل و « ما » نافية و الجملة صفة لقوله : «قوما » و المعنى إنّما أرسلك و أنزل عليك القرآن لتنذر و تخوّف قوما لم ينذر آباؤهم فهم غافلون .

و المراد بالقوم إن كان هو قريش ومن يلحق بهم فالمراد بآبائهم آباؤهم الأدنون فإنّ الأبعدين من آبائهم كان فيهم النبيّ إسماعيل ذبيح الله ، وقد اُرسل إلى العرب رسل آخرون كهود و صالح و شعيب عليهم السلام ، و إن كان المراد جميع الناس المعاصرين نظرا إلى عموم الرسالة فكذلك أيضا فآخر رسول معروف بالرسالة قبله صلى الله عليه وآله هو عيسى عليه السلام و بينهما زمان الفترة .

و اعلم أنّ ما ذكرناه في تركيب الآيات هو الّذي يسبق منها إلى الفهم و قد أوردوافي ذلك وجوها اُخر بعيده من الفهم تركناها من أرادها فليراجع المطوّلات.

قوله تعالى : « لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » اللاّم للقسم أي اُقسم لقد ثبت ووجب القول على أكثرهم ، والمراد بثبوت القول عليهم صيرورتهم مصاديق يصدق عليهم القول .

و المراد بالقول الّذي حقّ عليهم كلمة العذاب الّتي تكلّم بها الله سبحانه في بدء الخلقة مخاطبا بها إبليس : « الحقّ و الحقّ أقول لأملأنّ جهنّم منك و ممّن تبعك منهم أجمعين » صٓ : ٨٥ و المراد بتبعيّة إبليس طاعته فيما يأمربه بالوسوسة والتسويل بحيث تثبت الغواية و ترسخ في النفس كمايشير إليه قوله تعالى خطاباً لإبليس : «إنّ

عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتّبعك من الغاوين و إنّ جهنّم لموعدهم أجمعين » الحجر : ٤٣ .

و لازمه الطغيان والاستكبار على الحقّ كما يشير إليه ما يحكيه الله من تساؤل المتبوعين و التابعين في النار : « بل كنتم قوما طاغين فحقّ علينا قول ربّنا إنّا لذائقون فأغويناكم إنّا كنّا غاوين » الصافات :٣٢ ، و قوله : « و لكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبّرين» الزمر : ٧٢.

و لازمه الانكباب على الدنيا و الإعراض عن الآخرة بالمرّة و رسوخ ذلك في نفوسهم قال تعالى : « و لكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة وإنّ الله لا يهدي القوم الكافرين اُولئك الّذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم واُولئك هم الغافلون» النحل:١٠٨ فيطبع الله على قلوبهم و من آثاره أن لا سبيل لهم إلى الإيمان قال تعالى : «إنّ الّذين حقّت عليهم كلمة ربّك لا يؤمنون » يونس : ٩٦ .

و بما تقدّم ظهر أنّ الفاء في قوله : « فهم لا يؤمنون » للتفريع لا للتعليل كما احتمله بعضهم .

قوله تعالى : « إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون » الأعناق جمع عنق بضمّتين و هو الجيد ، و الأغلال جمع غلّ بالكسر و هي على ما قيل ما تشدّ به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، ومقمحون اسم مفعول من الإقماح و هو رفع الرأس كأنّهم قد ملأت الأغلال ما بين صدورهم إلى أذقانهم فبقيت رؤسهم مرفوعة إلى السماء لا يتأتّى لهم أن ينكسوها فينظروا إلى ما بين أيديهم من الطريق فيعرفوها و يميّزوها من غيرها .

و تنكير قوله : « أغلالا » للتفخيم و التهويل .

و الآية في مقام التعليل لقوله السابق : « فهم لا يؤمنون » .

قوله تعالى : « و جعلنا من بين أيديهم سدّا و من خلفهم سدّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » السدّ الحاجز بين الشيئين ، و قوله : « من بين أيديهم و من خلفهم»

كناية عن جميع الجهات ، و الغشي و الغشيان التغطية يقال : غشيه كذا أي غطّاه و أغشى الأمر فلانا أي جعل الأمر يغطّيه ، و الآية متمّمة للتعليل السابق و قوله : « جعلنا » معطوف على « جعلنا » المتقدّم .

وعن الرازيّ في تفسيره في معنى التشبيه في الآيتين أنّ المانع عن النظر في الآيات قسمان : قسم يمنع عن النظر في الأنفس فشبّه ذلك بالغلّ الّذي يجعل صاحبه مقمحا لا يرى نفسه و لا يقع بصره على بدنه ، و قسم يمنع عن النظر في الآفاق فشبّه ذلك بالسدّ المحيط فإنّ المحاط بالسدّ لا يقع نظره على الآفاق فلا يظهر له ما فيها من الآيات فمن ابتلي بهما حرم عن النظر بالكلّيّة .

و معنى الآيتين أنّهم لا يؤمنون لأنّا جعلنا في أعناقهم أغلا لا نشدّ بها أيديهم على أعناقهم فهي إلى الأذقان فهم مرفوعة رؤسهم باقون على تلك الحال و جعلنا من جميع جهاتهم سدّا فجعلناه يغطّيهم فهم لا يبصرون فلا يهتدون .

ففي الآيتين تمثيل لحالهم في حرمانهم من الاهتداء إلى الإيمان وتحريمه تعالى عليهم ذلك جزاء لكفرهم و غوايتهم و طغيانهم في ذلك .

و قد تقدّم في قوله تعالى : « إنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلا » البقرة : ٢٦ في الجزء الأوّل من الكتاب أنّما وقع في القرآن الكريم من هذه الأوصاف و نظائرها الّتي وصف بها المؤمنون و الكفّار يكشف عن حياة اُخرى للإنسان في باطن هذه الحياة الدنيويّة مستورة عن الحسّ المادّي ستظهر له إذا انكشفت الحقائق بالموت أو البعث ، و عليه فالكلام في أمثال هذه الآيات جار في مجرى الحقيقة دون المجاز كما عليه القوم .

قوله تعالى : « وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » عطف تفسير و تقرير لما تتضمّنه الآيات الثلاث المتقدّمة و تلخيص للمراد و تمهيد لما يتلوه من قوله: « إنّما تنذر من اتّبع الذكر » الآية .

و احتمل أن يكون عطفا على قوله : « لا يبصرون » و المعنى فهم لا يبصرون و يستوي عليهم إنذارك و عدم إنذارك لا يؤمنون والوجه الأوّل أقرب إلى الفهم .

قوله تعالى : « إنّما تنذر من اتّبع الذكر و خشي الرحمان بالغيب فبشّره بمغفرة و أجر كريم » القصر للإفراد ، و المراد بالإنذار الإنذار النافع الّذي له أثر ، و بالذكر القرآن الكريم ، و باتّباعه تصديقه و الميل إليه إذا تليت آياته ، و التعبير بالماضي للإشارة إلى تحقّق الوقوع ، و المراد بخشية الرحمان بالغيب خشيته تعالى من وراء الحجاب و قبل انكشاف الحقيقة بالموت أو البعث ، و قيل : أي حال غيبته من النّاس بخلاف المنافق وهو بعيد .

و قد علّقت الخشية على اسم الرحمان الدالّ على صفة الرحمة الجالبة للرجاء للإشعار بأنّ خشيتهم خوف مشوب برجاء و هو الّذي يقرّ العبد في مقام العبوديّة فلا يأمن و لا يقنط .

و تنكير « مغفرة » و « أجر كريم » للتفخيم أي فبشّره بمغفرة عظيمة من الله و أجر كريم لا يقادر قدره و هو الجنّة ، و الدليل على جميع ما تقدّم هو السياق .

و المعنى إنّما تنذر الإنذار النافع الّذي له أثر ، من اتّبع القرآن إذا تليت عليه آياته و مال إليه و خشي الرحمان خشية مشوبة بالرجاء فبشّره بمغفرة عظيمة وأجر كريم لا يقادر قدره .

قوله تعالى : « إنّا نحن نحيي الموتى و نكتب ما قدّموا و آثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين » المراد بإحياء الموتى إحياؤهم للجزاء .

و المراد بما قدّموا الأعمال الّتي عملوها قبل الوفاة فقدّموها على موتهم ،والمراد بآثارهم ما تركوها لما بعد موتهم من خير يعمل به كتعليم علم ينتفع به أو بناء مسجد يصلّى فيه أو ميضاة يتوضّأ فيها ، أو شرّ يعمل به كوضع سنّة مبتدعة يستنّ بهاأوبناء مفسقة يعصىالله فيها .

وربّما قيل : إنّ المراد بما قدّموا النيّات و بآثارهم الأعمال المترتّبة المتفرّعة عليها وهو بعيدمن السياق .

والمراد بكتابة ما قدّموا و آثارهم ثبتها فيصحائف أعمالهم و ضبطها فيها بواسطة كتبة الأعمال من الملائكة و هذه الكتابة غير كتابة الأعمال و إحصائها في الامام المبين

الّذي هو اللّوح المحفوظ و إن توهّم بعضهم أنّ المراد بكتابة ما قدّموا و آثارهم هو إحصاؤها في الكتاب المبين و ذلك أنّه تعالى يثبت في كلامه كتابا يحصي كلّ شيء ثمّ لكلّ اُمّة كتابا يحصي أعمالهم ثمّ لكلّ إنسان كتابا يحصي أعماله كما قال :«ولا رطب و لا يابس إلا في كتاب مبين » الأنعام : ٥٩ ، و قال : « كلّ اُمّة تدعى إلى كتابها » الجاثية : ٢٨ ، و قال : « و كلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه و نخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا » أسرى : ١٣ ، و ظاهر الآية أيضا يقضي بنوع من البينونة بين كتاب الأعمال والإمام المبين حيث فرّق بينهما بالخصوص والعموم واختلاف التعبير بالكتابة و الإحصاء .

وقوله : «وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين » هو اللّوح المحفوظ من التغيير الّذي يشتمل على تفصيل قضائه سبحانه في خلقه فيحصي كلّ شيء و قد ذكر في كلامه تعالى بأسماء مختلفة كاللّوح المحفوظ و اُمّ الكتاب و الكتاب المبين و الإمام المبين كلّ منها بعناية خاصّة .

و لعلّ العناية في تسميته إماما مبينا أنّه لاشتماله على القضاء المحتوم متبوع للخلق مقتدى لهم و كتب الأعمال كما سيأتي في تفسير سورة الجاثية مستنسخة منه قال تعالى : «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون »الجاثية:٢٩.

و قيل : المراد بالإمام المبين صحف الأعمال و ليس بشيء ، و قيل : علمه تعالى وهو كسابقه نعم لو اُريد به العلم الفعلي كان له وجه .

و من عجيب القول في هذا المقام ما ذكره بعضهم أنّ الّذي كتب في اللّوح المحفوظ هو ما كان و ما يكون إلى يوم القيامة لا حوادث العالم إلى أبد الآبدين و ذلك أنّ اللّوح عند المسلمين جسم و كلّ جسم متناهي الأبعاد كما يشهد به الأدلّة و بيان كلّ شيء فيه على الوجه المعروف عندنا دفعة مقتض لكون المتناهي ظرفا لغير المتناهي وهو محال بالبديهة فالوجه تخصيص عموم كلّ شيء و القول بأنّ المراد به الحوادث إلى يوم القيامة هذا . و هو تحكّم و سنتعرّض له تفصيلا .

و الآية في معنى التعليل بالنسبة إلى ما تقدّمها كأنّه تعالى يقول : ما أخبرنا به

و وصفناه من حال اُولئك الّذين حقّ عليهم القول و هؤلاء الّذين يتّبعون الذكر ويخشون ربّهم بالغيب هوكذلك لأنّ أمر حياة الكلّ إلينا وأعمالهم وآثارهم محفوظة عندنا فنحن على علم وخبرة بماتؤل إليه حال كلّ من الفريقين .

﴿بحث روائى﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « فهم مقمحون » قال : قدرفعوا رؤسهم .

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله تعالى : « و جعلنا من بين أيديهم سدّا و من خلفهم سدّا فأغشيناهم فهم لايبصرون » الهدى ، أخذالله سمعهم و أبصارهم وقلوبهم وأعمالهم عن الهدى .

نزلت في أبي جهل بن هشام ونفرمن أهل بيته و ذلك أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله قام يصلّي وقد حلف أبوجهل لعنه الله لئن رآه يصلّي ليدمغه [1] فجاءه و معه حجر و النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله قائم يصلّي فجعل كلّما رفع الحجر ليرميه أثبت الله عزّ وجلّ يده إلى عنقه و لا يدور الحجر بيده فلمّا رجع إلى أصحابه سقط الحجر من يده .

ثمّ قام رجل آخر وهو رهطه أيضاً فقال : أناأقتله فلمّا دنامنه فجعل يسمع قراءة رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فأرعب فرجع إلى أصحابه فقال : حال بيني و بينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه فخفت أن أتقدّم .

و قوله تعالى : « وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » فلم يؤمن من اُولئك الرهط من بني مخزوم أحد .

أقول : و روى نحواً منه في الدرّ المنثور عن البيهقيّ في الدلائل عن ابن‌عبّاس و فيه أنّ ناسامن بني مخزوم تواطؤا بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ليقتلوه منهم أبوجهل و الوليد بن المغيرة فبينا النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله قائم يصلّي يسمعون قراءته فأرسلوا إليه الوليد ليقتله فانطلق حتّى أتى المكان الّذي يصلّي فيه فجعل يسمع قراءته ولايراه فانطلق إليهم فأعلمهم ذلك

---

(١) دمغه اى شجه حتى بلغت الشجة دماغه .

فأتوه فلمّا انتهوا إلى المكان الّذي يصلّي فيه سمعوا قراءته فيذهبون إليه فيسمعون أيضا من خلفهم فانصرفوا فلم يجدوا إليه سبيلا . فذلك قوله : « و جعلنا من بين أيديهم سدّا و من خلفهم سدّا » الآية .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه و أبو نعيم في الدلائل عن ابن عبّاس قال: كان النبيّ صلى الله عليه وآله يقرء في المسجد فيجهر بالقراءة حتّى تأذّى به ناس من قريش حتّى قاموا ليأخذوه وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم لا يبصرون فجاؤا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقالوا : ننشدك الله و الرحم يا محمّد و لم يكن بطن من بطون قريش إلّا و للنبيّ صلى الله عليه وآله فيهم قرابة فدعا النبيّ صلى الله عليه وآله حتّى ذهب ذلك عنهم فنزلت : يس و القرآن الحكيم ـ إلى قوله ـ أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . قال : فلم يؤمن من ذلك النفر أحد .

اقول : و قد رووا القصّة بأشكال مختلفة في بعضها أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قرء الآيات فاحتجب منهم فلم يروه ودفع الله عنه شرّهم وكيدهم ، و في بعضها أنّ الآيات ـ من أوّل السورة إلى قوله : « فهم لا يؤمنون » ـ نزلت في القصّة فقوله : « إنّا جعلنا» إلى آخر الآيتين يقصّ صنع الله بهم في ستر النبيّ صلى الله عليه وآله عن أبصارهم و قوله :«و سواء عليهم » الخ يخبر عن عدم إيمان ذاك النفر .

و أنت خبير بأنّ سياق الآيات يأبى الانطباق على هذه الروايات بما فيها من القصّة فهو سياق متناسق منسجم يصف حال طائفتين من الناس وهم الّذين حقّ عليهم القول فهم لا يؤمنون و الّذين يتّبعون الذكر و يخشون ربّهم بالغيب .

و أين ذلك من حمل قوله : «لقد حقّ القول على أكثرهم» على الناس المنذرين و حمل قوله : « إنّا جعلنا في أعناقهم » و « جعلنا من بين أيديهم سدّا » الآيتين على قصّة أبي جهل و رهطه ، و حمل قوله : « و سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم » على رهطه و أضف إلى ذلك حمل قوله : « و نكتب ما قدّموا وآثارهم » على قصّة قوم من الأنصار بالمدينة و سيوافيك خبره فيختلّ بذلك السياق و تنثلم وحدة النظم .

فالحقّ أنّ الآيات نازلة دفعة ذات سياق واحد تصف حال الناس وتفرّقهم عند بلوغ الدعوة ووقوع الإنذار على فرقتين،ولا مانع من وقوع القصّة واحتجاب النبيّ صلى الله عليه وآله

من أعدائه بالآيات .

وفيه أخرج عبدالرزّاق و الترمذيّ و حسّنه و البزّاز و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صحّحه و ابن مردويه و البيهقيّ في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدريّ قال : كان بنوسلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله : « إنّا نحن نحيي الموتى و نكتب ما قدّموا و آثارهم » فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : إنّه يكتب آثاركم ثمّ قرء عليهم الآية فتركوا .

وفيه أخرج الفاريابيّ وأحمد في الزهد وعبد بن حميد و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانيّ و ابن مردويه عن ابن عبّاس قال : كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد فأرادوا أن ينتقلوا قريبا من المسجد فنزلت « و نكتب ما قدّموا و آثارهم » فقالوا : بل نمكث مكاننا .

اقول : و الكلام في الروايتين كالكلام فيما تقدّمهما .

و فيه أخرج ابن أبي‌حاتم عن‌جرير بن عبدالله البجليّ قال:قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من‌سنّ سنّة حسنة فله‌أجرها وأجر من عمل بها من بعده‌من‌غير أن ينقص‌من اُجورهم شيء . و من سنّ سنّة سيّئة كان عليه وزرها و وزر من عمل بها من بعده لا ينقص‌من أوزارهم شيء . ثمّ تلا هذه الآية « و نكتب ما قدّموا وآثارهم » .

و في تفسير القميّ في قوله تعالى : «وكلّ شيء أحصيناه في‌إمام مبين» أي في‌كتاب مبين و هو محكم ، و ذكر ابن عبّاس عن أميرالمؤمنين عليه السلام : أنا و الله الإمام المبين اُبين الحقّ من الباطل ورثته من رسول الله صلى الله عليه وآله .

و في معاني الأخبار بإسناده إلى أبي الجارود عن أبي جعفر عن أبيه عن جدّه عليهم السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله في‌حديث أنّه قال في‌عليّ عليه السلام أنّه الإمام الّذي أحصى الله تبارك و تعالى فيه علم‌كلّ شيء .

اقول : الحديثان لوصحّا لم يكونا من التفسير في شيء بل مضمونهما من بطن القرآن و إشاراته، و لا مانع من أن يرزق الله عبداً وحّده و أخلص العبوديّة له العلم بما في الكتاب المبين و هو عليه السلام سيّد الموحّدين بعد النبيّ صلى الله عليه وآله .

✩ ✩ ✩

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَ مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَ مَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَلِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) .

﴿ بيان ﴾

مثل مشتمل على الإنذار و التبشير ضربه الله سبحانه لعامّة القوم يشير فيه إلى الرسالة الإلهيّة و ما تستتبعه الدعوة الحقّة من المغفرة و الأجر الكريم لمن آمن بها و اتّبع الذكر و خشي الرحمان بالغيب ، ومن العذاب الأليم لمن كفر و كذّب بها فحقّ عليه القول ، و فيه إشارة إلى وحدانيّته تعالى و معاد الناس إليه جميعا .

و لا منافاة بين إخباره بأنّهم لايؤمنون سواء اُنذروا أم لم ينذروا وبين إنذارهم لأنّ في البلاغ إتماماً للحجّة و تكميلا للسعاوة أو الشقاوة قال تعالى : « ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيى من حيّ عن بيّنة » الأنفال :٤٢،و قال : و ننزّل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين إلّا خسارا » أسرى : ٨٢ .

قوله تعالى : « و اضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون » المثل كلام أو قصّة يمثّل به مقصد من المقاصد فيتّضح للمخاطب ، و لمّا كانت قصّتهم توضح ما تقدّم من الوعد و الوعيد أمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يضربها مثلا لهم .

و الظاهر أنّ « مثلا » مفعول ثان لقوله : « اضرب » و مفعوله الأوّل قوله : « أصحاب القرية » و المعنى و اضرب لهم أصحاب القرية و حالهم هذه الحال مثلا و قد قدّم المفعول الثاني تحرّزا عن الفصل المخلّ .

قوله تعالى :«إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما فعزّزنا بثالث فقالوا إنّا إليكم مرسلون » التعزيز من العزّة بمعنى القوّة والمنعة ، و قوله : « إذ أرسلنا إليهم » بيان تفصيليّ لقوله : « إذ جاءها المرسلون » .

و المعنى و اضرب لهم مثلا أصحاب القرية و هم في زمان أرسلنا إليهم رسولين اثنين من رسلنا فكذّبوهما أي الرسولين فقوّيناهما برسول ثالث فقالت الرسل إنّا إليكم مرسلون من جانب الله .

قوله تعالى : « قالوا إن أنتم إلّا بشر مثلنا و ما أنزل الرحمان من شيء إن أنتم إلّا تكذبون » كانوا يرون أنّ البشر لا ينال النبوّة و الوحي ، و يستدلّون على ذلك

بأنفسهم حيث لا يجدون من أنفسهم شيأ من ذاك القبيل فيسرون الحكم إلى نفوس الأنبياء مستندين إلى أنّ حكم الأمثال واحد .

و على هذا التقرير يكون معنى قوله : « و ما أنزل الرحمان من شيء » لم ينزل الله وحيا ولو نزّل شيأ على بشر لنلناه من نفوسنا كما تدّعون أنتم ذلك ، وتعبيرهم عن الله سبحانه بالرحمان إنّما هو لكونهم كسائر الوثنيّين معترفين بالله سبحانه و اتّصافه بكرائم الصفات [1] كالخلق والرحمة و الملك غير أنّهم يرون أنّه فوّض أمر التدبير إلى مقرّبي خلقه كالملائكة الكرام فهم الأرباب المدبّرون و الآلهة المعبودون ، وأمّا الله عزّ اسمه فهو ربّ الأرباب و إله الآلهة .

ومن الممكن أن يكون ذكراسم الرحمان في الحكايةدون المحكيّ فيكونالتعبير به لحلمه و رحمته تعالى قبال إنكارهم و تكذيبهم للحقّ الصريح .

و قوله : « إن أنتم إلّا تكذبون » بمنزلة النتيجة لصدر الآية ، و محصّل قولهم أنّكم بشرمثلنا و لانجد نحن على بشريّتنا في نفوسناشيأ من الوحي النازل الّذي تدّعونه و أنتم مثلنا فما أنزل الرحمان شيأ من الوحي فدعواكم كاذبة و إذ ليس لكم إلّا هذه الدعوى فا ن أنتم إلّا تكذبون .

و يظهر بما تقدّم نكتة الحصرفى قوله : « إن أنتم إلّا تكذبون » و كذا الوجه في نفي الفعل ولم يقل:إن أنتم إلّاكاذبون لأنّ المراد نفي الفعل فيالحال دون الاستمرار و الاستقبال .

قوله تعالى : «قالوا ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون و ما علينا إلّا البلاغ المبين» لم يحك الله سبحانه عن هؤلاء الرسل جوابا عن حجّة قومهم « ما أنتم إلّا بشر مثلنا » الخ كما نقل عن الرسل المبعوثين إلى الاُمم الدارجة لمّا احتجّت اُممهم بمثل هذه الحجّة « إن أنتم إلّا بشر مثلنا » فردّتها رسلهم بقولهم : « إن نحن إلّا بشر مثلكم و لكنّ الله يمنّ على من يشاء من عباده » إبراهيم : ١١ و قدمرّ تقريره .

---

(١) لكنهم مختلفون فى تفسيرها و الصابئون يفسرونها بالنفى فمعنى العالم و القادر عندهم من ليس بجاهل و عاجز .

بل حكى عنهم أنّهم ذكروا للقوم أنّهم مرسلون إليهم مأمورون بتبليغ الرسالة ليس عليهم إلّا ذلك و أنّهم في غنى عن تصديقهم لهم و إيمانهم بهم و يكفيهم فيه أن يعلم ربّهم بأنّهم مرسلون لاحاجة لهم إلى أزيد من ذلك .

فقوله : « قالوا ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون » إخبار عن رسالتهم و قد اُكّد الكلام بإنّ المشدّدة المكسورة واللّام ، و الاستشهاد بعلم ربّهم بذلك ، وقوله :«ربّنا يعلم » معترض بمنزلة القسم ، و المعنى إنّا مرسلون إليكم صادقون في دعوى الرسالة ويكفينا في ذلكم علم ربّنا الّذي أرسلنا بها و لا حاجة لنا فيه إلى تصديقكم لنا و لا نفع لنا فيه من أجر ونحوه ولايهمّنا تحصيله منكم بل الّذي يهمّنا هو تبليغ الرسالةوإتمام الحجّة .

وقوله : «وما علينا إلّا البلاغ المبين» البلاغ هو التبليغ و المراد به تبليغالرسالة أي لم نؤمر ولم نكلّف إلّا بتبليغ الرسالة و **إتمام الحجّة** .

قوله تعالى « قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسنّكم منّا عذاب أليم » القائلون أصحاب القرية و المخاطبون هم الرسل ، و التطيّر هو التشاؤم و قولهم : « لئن لم تنتهوا » الخ تهديد منهم للرسل .

و المعنى قالت أصحاب القرية لرسلهم : إنّا تشاءمنا بكم و نقسم لئن لم تنتهوا عن التبليغ ولم تكفّوا عن الدعوة لنرجمنّكم بالحجارة وليصلنّ إليكم وليقعنّ بكم منّا عذاب أليم .

قوله تعالى : « قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قوم مسرفون »القائلون هم الرسل يخاطبون به أصحاب القرية .

وقوله : « طائركم معكم » الطائر في الأصل هو الطير وكان يتشاءم به ثمّ توسّع و استعمل في كلّ مايتشاءم به ، و ربّما يستعمل فيما يستقبل الإنسان من الحوادث ، و ربّما يستعمل فيالبخت الشقيّ الّذي هوأمر موهوم يرونه مبدءلشقاء الإنسان وحرمانه من كلّ خير .

و كيف كان فقوله : « طائركم معكم » ظاهر معناه أنّ الّذي ينبغي أن تتشاءموا

به هو معكم و هو حالة إعراضكم عن الحقّ الّذي هو التوحيد وإقبالكم إلى الباطل الّذيهو الشرك .

وقيل : المعنى طائركم أي حظّكم ونصيبكم من الخير والشرّ معكم من أفعالكم إن خيراً فخير و إن شرّاً فشرّ ، هذا و هو أخذ الطائر بالمعنى الثاني لكن قوله بعد : « أئن ذكّرتم بل أنتم قوم مسرفون » أنسب بالنسبة إلى المعنى الأوّل .

و قوله : « أئن ذكّرتم » استفهام توبيخيّ و المراد بالتذكير تذكيرهم بالحقّ من وحدانيّته تعالىورجوع الكلّ إليه ونحوهما وجزاء الشرط محذوف في الكلام تلويحا إلى أنّه ممّا لاينبغي أن يذكر أويتفوّه به و التقديرء إن ذكّرتم بالحقّ قابلتموه بمثل هذا الجحود الشنيع و الصنيع الفظيع من التطيّر و التوعّد .

و قوله : « بل أنتم قوم مسرفون » أي مجاوزون للحدّ في المعصية و هو إضراب عمّا تقدّم والمعنى بل السبب الأصلي فيجحودكموتكذيبكم للحقّ أنّكم قومتستمرّون على الإسراف و مجاوزة الحدّ .

قوله تعالى : « و جاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتّبعواالمرسلين» أقصى المدينة أبعد مواضعها بالنسبةإلىمبدء مفروض ، وقدبدّلت القرية في أوّلالكلام مدينة هنا للدلالة على عظمها و السعي هو الإسراع في المشي .

و وقع نظير هذا التعبير في قصّة موسى و القبطيّ و فيه « و جاء رجل من أقصى المدينة يسعى » فقدّم « رجل » هناك و اُخّر ههنا و لعلّ النكتة في ذلك أنّ الاهتمام هناك بمجيىء الرجل و إخباره موسى بائتمار الملاء لقتله فقدّم الرجل ثمّ اُشير إلى اهتمام الرجل نفسه بإيصال الخبر و إبلاغه فجيىء بقوله : « يسعى » حالاً مؤخّرا بخلاف ماههنا فالاهتمام بمجيئه من أقصى المدينة ليعلم أن لاتواطؤ بينه وبين الرسل في أمر الدعوة فقدّم « من أقصى المدينة » و اُخّر الرجل وسعيه .

و قد اشتدّ الخلاف بينهم في اسم الرجل و اسم أبيه و حرفته و شغله و لا يهمّنا الاشتغال بذلك في فهم المراد ولوتوقّف عليه الفهم بعض التوقّف لأشار سبحانهفيكلامه إليه و لم يهمله .

و إنّما المهمّ هو التدبّر في حظّه من الايمان في هذا الموقف الّذي انتهض فيه لتأييد الرسل عليهم السلام و نصرتهم فقد كان على مايعطيه التدبّر في المنقول من كلامه رجلا نوّر الله سبحانه قلبه بنور الايمان يؤمن بالله إيمان إخلاص يعبده لا طمعا في جنّة أو خوفا من نار بل لأنّه أهل للعبادة و لذلك كان من المكرمين و لم يصف الله سبحانه في كلامه بهذا الوصف إلّا ملائكته المقرّبين و عباده المخلصين ، وقد خاصم القوم فخصمهم و أبطل ما تعلّق به القوم من الحجّة على عدم جواز عبادة الله سبحانه و وجوب عبادة آلهتهم و أثبت وجوب عبادته وحده و صدّق الرسل في دعواهم الرسالة ثمّ آمن بهم .

قوله تعالى : « اتّبعوا من لايسألكم أجراوهم مهتدون » بيان لقوله :«اتّبعوا المرسلين » و في وضع قوله : « من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » في هذه الآية موضع قوله : « المرسلين » في الآية السابقة إشعار بالعلّيّة و بيانها أنّ عدم جواز اتّباع قائل في قوله إنّما يكون لأحد أمرين : إمّا لكون قوله ضلالا و القائل به ضالّا و لا يجوز اتّباع الضالّ في ضلاله ، و إمّا لأنّ القول وإن كان حقّا والحقّ واجب الاتّباع لكن لقائله غرض فاسد يريد أن يتوسّل إليه بكلمة الحقّ كاقتناء المال و اكتساب الجاه و المقام و نحو ذلك ، و أمّا إذا كان القول حقّا و كان القائل بريئا من الغرض الفاسد منزّها من الكيد و المكر و الخيانة كان من الواجب اتّباعه في قوله ، و هؤلاء الرسل مهتدون في قولهم : لا تعبدوا إلّا الله ، و هم لا يريدون منكم أجرا من مال أوجاه فمن الواجب عليكم أن تتّبعوهم في قولهم :

أمّا أنّهم مهتدون فلقيام الحجّة على صدق ما يدعون إليه من التوحيد و كونه حقّا ، و الحجّة هي قوله : « و مالي لا أعبد » إلى تمام الآيتين .

و أمّا أنّهم لا يريدون منكم أجرا فلمادلّ عليه قولهم : « ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون » و قد تقدّم تقريره .

وبهذا البيان يتأيّد ما قدّمناه منكون قولهم : «ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون» مسوقا لنفي إرادتهم من القوم أجرا أو غير ذلك .

قوله تعالى : « و مالي لا أعبد الّذي فطرني و إليه ترجعون ءأتّخذ من دونه

آلهة ـ إلى قوله ـ و لا ينقذون » شرع في استفراغ الحجّة على التوحيد و نفي الآلهة في آيتين و اختار لذلك سياق التكلّم وحده إلّا في جملة اعترض بها في خلال الكلام و هي قوله : « و إليه ترجعون » و ذلك بإجراء الحكم في نفسه بما أنّه إنسان أوجده الله و فطره حتّى يجري في كلّ إنسان هو مثله و الأفراد أمثال فقوله : « و مالي لا أعبد » الخ في معنى و ما للإنسان لا يعبد الخ أيتّخذ الإنسان من دونه آلهة الخ .

و قد عبّر عنه تعالى بقوله : «الّذي فطرني » للإشعار بالعلّيّة فإنّ فطره تعالى للانسان وإيجاده له بعد العدم لازمه رجوع كلّ ما للإنسان من ذات و صفات و أفعال إليه تعالى و قيامه به و ملكه له فليس للإنسان إلّا العبوديّة محضة فعلى الإنسان أن ينصب نفسه في مقام العبوديّة و يظهرها بالنسبة إليه تعالى و هذا هو العبادة فعليه أن يعبده تعالى لأنّه أهل لها .

و هذا هو الّذي أشرنا إليه آنفا أنّ الرجل كان يعبد الله بالإخلاص له لا طمعا في جنّة و لا خوفا من نار بل لأنّه أهل للعبادة .

و إذكان الإيمان به تعالى وعبادته هكذا أمرا لاينالهعامّة الناس فإنّ الأكثرين منهم إنّما يعبدون خوفا أو طمعاً أو لكليهما التفت الرجل بعد بيان حال نفسه إلى القوم فقال : « وإليه ترجعون» يريد به إنذارهم بيوم الرجوع وأنّه تعالى سيحاسبهم على ما عملوا فيجازيهم بمساوي أعمالهم فقوله : « و إليه ترجعون » كالمعترضة الخارجة عن السياق أوهي هي .

ثمّ إنّ الآيتين حجّتان قائمتان على إبطال ما احتجّ به الوثنيّة و بنوا على ذلك عبادة الأصنام و أربابها .

توضيح ذلك أنّهم قالوا : إنّ الله سبحانه أجلّ من أن يحيط به حسّ أو خيال أو عقل لا يناله شيء من القوى الإدراكيّة فلا يمكن التوجّه إليه بالعبادة فسبيل العبادة أن نتوجّه إلى مقرّبي حضرته و الأقوياء من خلقه كالملائكة الكرام و الجنّ و القدّيسين من البشر حتّى يكونوا شفعاء لنا عندالله في إيصال الخيرات ودفع الشرور و المكاره .

و الجواب عن اُولى الحجّتين بما حاصله أنّ الا نسان و إن كان لا يحيط علما بالذات المتعالية لكنّه يعرفه تعالى بصفاته الخاصّة به مثل كونه فاطراً له موجداً إيّاه فله أن يتوجّه إليه من طريق هذه الصفات و إنكار إمكانه مكابرة ، و هذا الجواب هو الّذي أشار إليه بقوله : « و ما لي لا أعبد الّذي فطرني » .

و عن الثانية أنّ هؤلاء الآلهة إن كانت لهم شفاعة كانت ممّا أفاضه الله عليهم و الله سبحانه لا يعطيهم ذلك إلّا فيما لا تتعلّق به منه إرادة حاتمة و لازمه أنّ شفاعتهم فيما أذن الله لهم فيه كما قال : « ما من شفيع إلّا من بعد إذنه » يونس : ٣ أمّا إذا أراد الله شيأ إرادة حتم فلا تنفع شفاعتهم شيأ في المنع عن نفوذها فاتّخاذهم آلهة و عدمه سواء في عدم التأثير لجلب خير أو دفع شرّ ، و إلى ذلك أشار بقوله : « ءأتّخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضرّ لا تغن عنّي شفاعتهم شيأ و لا ينقذون » .

و تعبيره عنه تعالى بالرحمان إشارة إلى سعة رحمته و كثرتها و أنّ النعم كلّها من عنده و تدبير الخير و الشرّ إليه و يتحصّل من هنا برهان آخر على وحدانيّته تعالى في الربوبيّة ، إذ لمّا كان جميع النعم و كذا النظام الجاري فيها ، من رحمته و قائمة به من غير استقلال في شيء منها كان المستقلّ بالتدبير هو تعالى حتّى أنّ تدبير الملائكة لو فرض تدبيرهم لشيء من رحمته و تدبيره تعالى و كانت الربوبيّة له تعالى وحده و كذا الاُلوهيّة .

قوله تعالى « إنّي إذا لفي ضلال مبين » تسجيل للضلال على اتّخاذ الآلهة .

قوله تعالى : « إنّي آمنت بربّكم فاسمعون » من كلام الرجل خطابا للرسل و قوله : « فاسمعون » كناية عن الشهادة بالتحمّل ، و قوله : « إنّي آمنت بربّكم » الخ تجديد الشهادة بالحقّ و تأكيد للإيمان فانّ ظاهر السياق أنّه إنّما قال : « إنّي آمنت بربّكم » بعد محاجّته خطابا للرسل ليستشهدهم على إيمانه و ليؤيّدهم بإيمانه بمرئى من القوم و مسمع .

و قيل : إنّه خطاب للقوم تأييداً للرسل و المعنى إنّي آمنت بالله فاسمعوا منّي فإنّي لا اُبالي بما يكون منكم على ذلك أو المعنى إنّي آمنت بالله فاسمعوا منّي و آمنوا

به أو أنّه أراد به أن يغضبهم و يشغلهم عن الرسل بنفسه حيث إنّه رآى أنّهم بصدد الإيقاع بهم . هذا .

و فيه أنّه لا يلائمه التعبير عن الله سبحانه بقوله « ربّكم » فإنّ القوم ما كانوا يتّخذونه تعالى ربّالهم و إنّما كانوا يعبدون الأرباب من دون الله سبحانه .

ورد ّ بأنّ المعنى إنّي آمنت بربّكم الّذي قامت الحجّة على ربوبيّته لكم وهو الله سبحانه . و فيه أنّه تقييد من غير مقيّد .

قوله تعالى : « قيل ادخل الجنّة قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين » الخطاب للرجل وهو ـ كما يفيده السياق ـ يلوّح إلى أنّ القوم قتلوه فنودي من ساحة العزّة أن ادخل الجنّة كما يؤيّده قوله بعد : « وما أنزلنا على قومه من بعده » الخ فوضع قوله : « قيل ادخل الجنّة » موضع الإخبار عن قتلهم إيّاه إشارة إلى أنّه لم يكن بين قتله بأيديهم و بين أمره بدخول الجنّة أيّ فصل و انفكاك كأنّ قتله بأيديهم هو أمره بدخول الجنّة .

و المراد بالجنّة على هذا جنّة البرزخ دون جنّة الآخرة ، و قول بعضهم : إنّ المراد بها جنّة الآخرة والمعنى سيقال له : ادخل الجنّة . يوم القيامة و التعبير بالماضي لتحقّق الوقوع تحكّم من غير دليل كما قيل : إنّ الله رفعه إلى السماء فقيل له ادخل الجنّة فهو حيّ يتنعّم فيها إلى قيام الساعة ، و هو تحكّم كسابقه .

و قيل : إنّ القائل : « ادخل الجنّة » هو القوم قالوا له ذاك حين قتله استهزاء و فيه أنّه لايلائم ما أخبرالله سبحانه عنه بقوله بعد : « قال يا ليت قومي يعلمون »الخ فإنّ ظاهره أنّه تمنّى علم قومه بما هو فيه بعد استماع نداء « ادخل الجنّة » و لم يسبق من الكلام ما يصحّ أن يبتني عليه قوله ذاك .

و قوله : « قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي و جعلني من المكرمين » استئناف كسابقه كالجواب عن سؤال مقدّر كأنّه قيل : فما ذا كان بعد تأييده للرسل ؟ فقيل : «قيل ادخل الجنّة » ثمّ قيل :فماذاكان بعد ؟ فقيل : «قال ياليت قومي يعلمون» الخ و هو نصح منه لقومه ميّتا كما كان ينصحهم حيّا .

و « ما » في قوله : « بما غفر لي » الخ مصدريّة ، و قوله : « و جعلني » عطف على « غفر » و المعنى بمغفرة ربّي لي و جعله إيّاي من المكرمين .

و موهبة الإكرام و إن كانت وسيعة ينالها كثيرون كالإكرام بالنعمة كما في قوله: « فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه و نعّمه فيقول ربّي أكرمن » الفجر : ١٥ ، وقوله : « إنّ أكرمكم عندالله أتقاكم » الحجرات: ١٣ فإنّ كرامة العبد عندالله إكرام منه له لكنّه لم يعدّ من المكرمين بوصف الإطلاق إلّا طائفتين من خلقه : الملائكة الكرام كما في قوله : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ ، و الكاملين في إيمانهم من المؤمنين سواء كانوا من المخلصين بكسر اللّام كما في قوله : « اُولئك في جنّات مكرمون » المعارج : ٣٥ ، أو من المخلصين بفتح اللّام كما في قوله : « إلّا عبادالله المخلصين ـ إلى أن قال ـ وهم مكرمون » الصافات : ٤٢.

و الاية من أدلّة وجود البرزخ .

قوله تعالى : « و ما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء و ما كنّا منزلين » الضميران للرجل ، و « من بعده » أي من بعد قتله ، و « من » الاُولى والثالثة لابتداء الغاية ، و الثانية مزيدة لتأكيد النفي .

و الآية توطئة للآية التالية ، وهي مسوقة لبيان هوان أمر القوم و الانتقام منهم بإهلاكهم على الله سبحانه و أنّه لايحتاج في إهلاكهم إلى عدّة و عدّة حتّى ينزّل من السماء جندا من الملائكة يقاتلونهم فيهلكونهم فلم يفعل ذلك فيهم و لا فعل ذلك في إهلاك من أهلك من الاُمم الماضين و إنّما أهلكهم بصيحة واحدة تقضي عليهم .

قوله تعالى : « إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذاهم خامدون » أي ما كان الأمر الّذي كان سبب إهلاكهم بمشيّتنا إلّا صيحة واحدة ، وتأنيث الفعل لتأنيث الخبر ، وتنكير « صيحة » و توصيفها بالوحدة للاستحقار ، و الخمود السكون ، و استئناف الجملة لكونها كالجواب لسؤال مقدّر كأنّه قيل : فماذا كان سبب إهلاكهم ؟ فقيل : إن كانت إلّا صيحة واحدة .

والمعنى كان سبب هلاكهم أيسر أمر وهي صيحة واحدة ففاجأهم السكون فصاروا

ساكنين لا يسمع لهم حسّ وهم عن آخرهم موتى لا يتحرّكون .

قوله تعالى : « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلّا كانوا به يستهزؤن » أي يا ندامة العباد و نداء الحسرة عليهم أبلغ من إثباتها لهم ، وسبب الحسرة ما يتضمّنه قوله : « ما يأتيهم من رسول » الخ .

و من هذا السياق يستفاد أنّ المراد بالعباد عامّة الناس و تتأكّد الحسرة بكونهم عبادا فإنّ ردّ العبد دعوة مولاه و تمرّده عنه أشنع من ردّ غيره نصيحة الناصح .

و بذلك يظهر سخافة قول من قال : إنّ المراد بالعباد الرسل أو الملائكة أوهما جميعا . و كذا قول من قال : إنّ المراد بالعباد الناس لكنّ المتحسّر هو الرجل .

و ظهر أيضاً أنّ قوله : « يا حسرة على العباد » الخ من قول الله تعالى لا من تمام قول الرجل .

قوله تعالى : « ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنّهم إليهم لا يرجعون » توبيخ لاُولئك الّذين نودي عليهم بالحسرة ، و « من القرون » بيان لكم ، و القرون جمع قرن و هو أهل عصر واحد .

و قوله : « أنّهم إليهم لا يرجعون » بيان لقوله : «كم أهلكنا قبلهم من القرون» ضمير الجمع الأوّل للقرون و الثاني و الثالث للعباد .

و المعنى ألم يعتبروا بكثرة المهلكين بأمر الله من القرون الماضية و أنّهم مأخوذون بأخذ إلهيّ لا يتمكّنون من الرجوع إلى ما كانوا يترفون فيه ؟

وللقوم في مراجع الضمائر وفي معنى الآية أقوال اُخر بعيدة عن الفهم تركنا إيرادها .

قوله تعالى : « و إن كلّ لمّا جميع لدينا محضرون » لفظة « إن » حرف نفي و « كلّ » مبتدء تنوينه عوض عن المضاف إليه ، و « لمّا » بمعنى إلّا ، و جميع بمعنى مجموع ، و لدينا ظرف متعلّق به ، و محضرون خبر بعد خبر و هو جميع ، و احتمل بعضهم أن يكون صفة لجميع .

و المعنى و ما كلّهم إلّا مجموعون لدينا محضرون للحساب و الجزاء يوم القيامة فالآية في معنى قوله : « ذلك يوم مجموع له الناس و ذلك يوم مشهود » هود : ١٠٣ .

﴿ بحث روائی ﴾

في المجمع قالوا : بعث عيسى رسولين من الحواريّين إلى مدينة أنطاكيّة فلمّا قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له و هو حبيب صاحب يس فسلّما عليه فقال الشيخ لهما : من أنتما ؟ قالا : رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمان فقال : أمعكما آية ؟ قالا نعم نحن نشفي المريض و نبريء الأكمه و الأبرص بإذن الله تعالى فقال الشيخ : إنّ لي ابنا مريضاً صاحب فراش منذ سنين قالا : فانطلق بنا إلى منزلك نتطلّع حاله فذهب بهما فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحا ففشى الخبر في المدينة و شفى الله على أيديهما كثيرا من المرضى .

و كان لهم ملك يعبد الأصنام فاُنهي الخبر إليه فدعاهما فقال لهما : من أنتما؟ قالا : رسولا عيسى جئنا ندعوك من عبادة ما لا يسمع و لا يبصر إلى عبادة من يسمع و يبصر . قال الملك : و لنا إله سوى آلهتنا ؟ قالا : نعم من أوجدك و آلهتك . قال : قوما حتّى أنظر في أمركما فأخذهما الناس في السوق و ضربوهما .

قال وهب بن منبّه : بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكيّة فأتياها و لم يصلا إلى ملكها و طالت مدّة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبّرا و ذكرا الله فغضب الملك و أمر بحبسهما و جلد كلّ واحد منهما مائة جلدة .

فلمّا كذّب الرسولان و ضربا بعث عيسى شمعون الصفا رأس الحواريّين على أمرهما لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكّرا فجعل يعاشر حاشية الملك حتّى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه و رضي عشرته و أنس به و أكرمه . ثمّ قال له ذات يوم : أيّها الملك بلغني أنّك حبست رجلين في السجن و ضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما ؟ قال الملك : حال الغضب بيني و بين ذلك . قال : فإن رأى الملك دعاهما حتّى نتطلّع ما عندهما .

فدعاهما الملك فقال لهما شمعون : من أرسلكما إلى ههنا ؟ قالا : الله الّذي خلق كلّ شيء لا شريك له . قال : و ما آتاكما ؟ قالا : ما تتمنّاه ، فأمر الملك حتّى جاؤا

بغلام مطموس العينين و موضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان الله حتّى انشقّ موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعا في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجّب الملك ثمّ قال شمعون للملك : أرأيت لوسألت إلهك حتّى يصنع صنيعا مثل هذا ؟ فيكون لك و لإلهك شرفا . فقال الملك : ليس لي عنك سرّ إنّ إلهنا الّذي نعبده لا يضرّ و لا ينفع .

ثمّ قال الملك للرسولين : إن قدر إلهكما على إحياء ميّت آمنّا به و بكما . قالا : إلهنا قادر على كلّ شيء ؛ فقال الملك : إنّ ههنا ميّتا مات منذ سبعة أيّام لم ندفنه حتّى يرجع أبوه و كان غائبا فجاؤا بالميّت و قد تغيّر و أروح فجعلا يدعوان ربّهما علانية و جعل شمعون يدعو ربّه سرّا فقام الميّت و قال لهم : إنّي قدمت منذ سبعة أيّام و اُدخلت في سبعة أودية من النار و أنا اُحذّركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله فتعجّب الملك ، فلمّا علم شمعون أنّ قوله أثّر في الملك دعاه إلى الله فآمن و آمن من أهل مملكته قوم وكفر آخرون .

قال : و قد روى مثل ذلك العيّاشيّ بإسناده عن الثماليّ و غيره عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام إلّا أنّ في بعض الروايات : بعث الله الرسولين إلى أهل أنطاكيّة ثمّ بعث الثالث ، و في بعضها أنّ عيسى أوحى الله إليه أن يبعثهما ثمّ بعث وصيّه شمعون ليخلّصهما ، و أنّ الميت الّذي أحياه الله بدعائهما كان ابن الملك و أنّه قدخرج من قبره ينفض التراب عن رأسه فقال له : يا بنيّ ما حالك ؟ قال : كنت ميّتا فرأيت رجلين ساجدين يسألان الله تعالى أن يحييني . قال : يا بنيّ فتعرفهما إذا رأيتهما ؟ قال : نعم فأخرج الناس إلى الصحراء فكان يمرّ عليه رجل بعد رجل فمرّ أحدهما بعد جمع كثير فقال : هذا أحدهما . ثمّ مرّ الآخر فعرفهما و أشار بيده إليهما فآمن الملك و أهل مملكته .

و قال ابن إسحاق : بل كفر الملك و أجمع هو و قومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيبا وهو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكّرهم و يدعوهم إلى طاعة الرسل.

اقول : سياق آيات القصّة لا يلائم بعض هذه الروايات.

وفي الدرّ المنثور أخرج أبوداود و أبونعيم و ابن عساكر والديلميّ عن أبي ليلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الصدّيقون ثلاثة : حبيب النجّار مؤمن آلياسين الّذي قال : يا قوم اتّبعوا المرسلين ، وحزقيل مؤمن آل فرعون الّذي قال : أتقتلون رجلاأن يقول ربّي الله ، وعليّ بن أبي طالب وهو أفضلهم .

اقول : و رواه أيضاً عن البخاريّ في تاريخه عن ابن عبّاس عنه صلى الله عليه وآله ولفظه : الصدّيقون ثلاثة : حزقيل مؤمن آل فرعون و حبيب النجّار صاحب آل ياسين و عليّ ابن أبي طالب .

و في المجمع عن تفسير الثعلبيّ بالإسناد عن عبد الرحمان بن أبي ليلى عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين عليّ بن أبي طالب و صاحب يس و مؤمن آل فرعون فهم الصدّيقون و عليّ أفضلهم .

اقول : و روى هذا المعنى في الدرّ المنثور عن الطبرانيّ وابن مردويه وضعّفه عن ابن عبّاس عنه صلى الله عليه وآله و لفظه : السبّق ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون و السابق إلى عيسى صاحب يس و السابق إلى محمّد صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب .



✡ ✡ ✡

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) .

﴿ بيان ﴾

بعد ماقصّ عليهم قصّة أصحاب القرية وما آل إليه أمرهم في الشرك و تكذيب الرسل ووبّخهم على الاستهانة بأمر الرسالة ، و أنذرهم بنزول العذاب عليهم كما نزل على المكذّبين من القرون الاُولى ، و بأنّهم جميعا محضرون للحساب والجزاء .

أوردآيات من الخلق والتدبير تدلّ على ربوبيّته واُلوهيّته تعالىوحدهلاشريك له ثمّ وبّخهم على ترك النظر فيآيات الوحدانيّة والمعاد و الإعراض عنها والاستهزاء بالحقّ و الإمساك عن الإنفاق للفقراء والمساكين .

قوله تعالى : « و آية لهم الأرض الميتة أحييناها و أخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون » يذكر سبحانه في الآية و اللّتين بعدها آية من آيات الربوبيّة وهي تدبير أمر أرزاق الناس و تغذيتهم من أثمار النبات من الحبوب والتمر والعنب وغيرها .

فقوله : « و آية لهم الأرض الميتة أحييناها » و إن كان ظاهره أنّ الآية هي الأرض إلّا أنّ الجملتين توطئتان لقوله : « و أخرجنا منها حبّاً » الخ و مسوقتان للإشارة إلى أنّ هذه الأغذية النباتيّة من آثار نفخ الحياة في الأرض الميتة و تبديلها حبّاً و تمرا يأكلون من ذلك فالآية بنظر هي الأرض الميتة من حيث ظهور هذه الخواصّ فيها و تمام تدبير أرزاق الناس بها .

وقوله : « و أخرجنا منها حبّاً » أي و أخرجنا من الأرض بإنبات النبات حبّاً كالحنطة و الشعير و الاُرز و سائر البقولات .

وقوله : « فمنه يأكلون» تفريع علىإخراج الحبّ وبالأكل يتمّ التدبير،وضمير « فمنه » للحبّ .

قوله تعالى : « و جعلنا فيها جنّات من نخيل وأعناب وفجّرنافيها منالعيون » قال الراغب : الجنّة كلّ بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض انتهى و النخيل جمع نخل و هو معروف والأعناب جمع عنب يطلق على الشجرة و هي الكرم و على الثمرة .

و قال الراغب : العين الجارحة ـ إلى أن قال ـ و يستعار العين لمعان هي موجودة في الجارحة بنظرات مختلفة ـ إلى أن قال ـ و يقال لمنبع الماء عين تشبيها بها لما فيها من الماء انتهى ، والتفجير في الأرض شقّها لإخراج المياه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ليأكلوا من ثمره و ما عملته أيديهم أفلا يشكرون » اللّام لتعليل ما ذكر في الآية السابقة أي جعلنا فيها جنّات وفجّرنا فيها العيون بشقّها ليأكل الناس من ثمره .

وقوله : « من ثمره » قيل : الضمير للمجعول من الجنّات و لذا اُفرد و ذكّر ولم يقل : من ثمرها أي من ثمرالجنّات ، أومن ثمرهما أي من ثمر النخيل والأعناب .

و قيل : الضمير للمذكور وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة كما في قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد و بلق كأنّه في الجلد توليع البهق

فقد روي أنّ أبا عبيدةسأله عن قوله « كأنّه » فقال : كأنّ ذاك .

و في مرجع ضمير « من ثمره » أقوال اُخر رديئة كقول بعضهم : إنّ الضمير للنخيل فقط ، و قول آخر : إنّه للماء لدلالة العيون عليه أو بحذف مضاف والتقدير ماء العيون ، و قول آخر : إنّ الضمير للتفجير المفهوم من « فجّرنا » والمراد بالثمر على هذين الوجهين الفائدة ، و قول آخر : إنّ الضمير له تعالى و إضافته إليه لأنّه خلقه و ملكه .

و قوله : « و ما عملته أيديهم » العمل هو الفعل و الفرق بينهما ـ على ما ذكره الراغب ـ أنّ أكثر ما يستعمل العمل في الفعل المقارن للقصد و الإرادة ، و لذلك يشذّ استعماله في الحيوان والجماد ، و لذلك أيضا يتّصف العمل بالصلاح و خلافه فيقال . عمل صالح و عمل طالح ولا يتّصف بهما مطلق الفعل .

و « ما » في « و ما عملته » نافية والمعنى ولم يعمل الثمر أيديهم حتّى يشاركونا في تدبير الأرزاق بل هو ممّا اختصصنا بخلقه و تتميم التدبير به من دون أن نستعين بهم

فما بالهم لا يشكرون ؟

و يؤيّد هذا المعنى قوله تعالى في أواخر السورة و هو يمتنّ عليهم بخلق الأنعام لتدبير أمر رزقهم و حياتهم : « أولم يروا أنّا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا أنعاما ـ إلى أن قال ـ ومنها يأكلون ولهم فيها منافع و مشارب أفلا يشكرون » .

و احتمل بعضهم كون « ما » في « و ما عملته » موصولة معطوفة على « ثمره » والمعنى ليأكلوا من ثمره و من الّذي عملته أيديهم من ثمره كالخلّ والدبس المأخوذين من التمر و العنب وغير ذلك .

و هذا الوجه و إن عدّه بعضهم أوجه من سابقه ليس بذاك فإنّ المقام مقام بيان آيات دالّة على ربوبيّته تعالى بذكر اُمور من التدبير يخصّه تعالى ولا يناسبه ذكر شيء من تدبير الغير معه و تتميم الحجّة بذلك ، و لو كان المراد ذكر عملهم بما أنّه منته إلى خلقه تعالى و جزء من التدبير العامّ كان الأنسب أن يقال : وماهديناهم إلى عمله أو مايؤدّي معناه لينتفي به توهّم الشركة في التدبير .

و احتمل بعضهم كون « ما » نكرة موصوفة معطوفة على « ثمره » و المعنى ليأكلوا من ثمره ومن شيء عملته أيديهم . هذا و يرد عليه ما يرد على سابقه .

و قوله : « أفلا يشكرون » توبيخ و استقباح لعدم شكره ، و شكره تعالى منهم على هذا التدبير إظهارهم جميل نعمه بذكره قولا و فعلا أي إظهارهم أنّهم عباد له مدبّرون بتدبيره وهو العبادة فشكره تعالى هو الاعتراف بربوبيّته و إتّخاذه إلها معبودا.

قوله تعالى : « سبحان الّذي خلق الأزواج كلّها ممّا تنبت الأرض و من أنفسهم و ممّا لا يعلمون » إنشاء لتنزيهه تعالى ، لمّا ذكر عدم شكرهم له على ما خلق لهم من أنواع النبات و رزقهم من الحبوب و الأثمار ، و إنّما عمل ذلك بتزويج بعض النبات بعضا كما قال : « و أنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج » ق : ٧ أشار إلى ما هو أعظم و أوسع من خلق أزواج النبات وهو خلق الأزواج كلّها وتنظيم العالم المشهود باستيلاد كلّ شيء من فاعل و منفعل قبله هما أبواه كالذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات ، و كلّ فاعل ومنفعل يتلاقيان فينتجان بتلاقيهما أمراً ثالثا ، أشار

تعالى إلى ذلك فنزّه نفسه بقوله : « سبحان الّذي خلق الأزواج كلّها » الخ فقوله : « سبحان الّذي خلق الأزواج كلّها » إنشاء تسبيح على ما يعطيه السياق لا إخبار .

و قوله : « ممّا تنبت الأرض » هو و ما بعده بيان للأزواج والّذي تنبت الأرض هو النبات ولا يبعد شموله الحيوان وقد قال تعالى في الإنسان وهو من أنواع الحيوان « والله أنبتكم من الأرض نباتا » نوح : ١٧ ويؤيّد ذلك أنّ ظاهر سياق البيان استيعابه للمبيّن مع عدم ذكر الحيوان في عداد الأزواج .

و قوله : « و من أنفسهم » أي الناس ، و قوله : « و ممّا لا يعلمون » و هو الّذي يجهله الإنسان من الخليقة أو يجهل كيفيّة ظهوره أو ظهور الكثرة فيه .

و ربّما قيل في الآية : إنّ المراد بالأزواج الأنواع و الأصناف ، و لا يساعد عليه الآيات الّتي تذكر خلق الأزواج كقوله تعالى : « و من كلّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون » الذاريات : ٤٩ والمقارنة و نوع من التألّف والتركّب من لوازم مفهوم الزوجيّة .

قال الراغب : يقال لكلّ واحد من القرينين من الذكر و الاُنثى في الحيوانات المتزاوجة : زوج ، و لكلّ قرينين فيها و في غيرها : زوج كالخفّ و النعل ، و لكلّ مايقترن بآخر مماثلاله أو مضادّا : زوج ، قال : و قوله : « خلقنا زوجين » فبيّن أنّ كلّ ما في العالم زوج من حيث إنّ له ضدّا مّا أومثلا مّا أو تركيبا مّا بل لاينفكّ بوجه من تركيب . انتهى .

فزوجيّة الزوج هي كونه مفتقرا في تحقّقه إلى تألّف و تركّب و لذلك يقال لكلّ واحد من القرينين من حيث هما قرينان : زوج لافتقاره إلى قرينه ، و كذا يقال لمجموع القرينين : زوج لافتقاره في تحقّقه زوجا إلى التألّف و التركّب فكون الأشياء أزواجا مقارنة بعضها بعضا لإنتاج ثالث أوكونه مولّدا من تألّف اثنين .

قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » آية اُخرى من آيات الربوبيّة الدالّة على وقوع التدبير العامّ السماويّ للعالم الإنسانيّ مذكورة في أربع آيات .

و لا شكّ أنّ الآية تشير إلى مفاجأة الليل عقيب ذهاب النهار ، و السلخ في الآية بمعنى الإخراج و لذلك عدّي بمن ولو كان بمعنى النزع كما في قولنا : سلخت الإهاب عن الشاة تعيّن تعدّيه بعن دون من .

و يؤيّد ذلك أنّه تعالى عبّر في مواضع من كلامه عن ورود كلّ من الليل و النهار عقيب الآخر بإيلاجه فيه فقال في مواضع من كلامه : « يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل » الحجّ : ٦١ فإذا كان ورود النهار بعد الليل إيلاجا للنهار في الليل اعتبارا كان مفاجأة الليل بعد النهار إخراجا للنهار من الليل اعتبارا .

كأنّ الليل أطبق عليهم و أحاطت بهم ظلمته ثمّ ولج فيه النهار فوسعهم نوره و ضياؤه ثمّ خرج منه ففاجأهم الليل ثانيا بانطباق الظلام و إحاطته بما أضاءه النهار ففي الكلام نوع من الاستعارة بالكناية .

و لعلّ فيما ذكرناه من الوجه كفاية عمّا أطنبوا فيه من البحث في معنى سلخ النهار من الليل ثمّ مفاجأة الليل .

قوله تعالى : « و الشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم » جريها حركتها ، و قوله : « لمستقرّ لها » اللاّم بمعنى إلى أو للغاية ، و المستقرّ مصدر ميميّ أو اسم زمان أو مكان و المعنى أنّها تتحرّك نحو مستقرّها أوحتّى تنتهي إلى مستقرّها أي استقرارها و سكونها بانقضاء أجلها أوزمن استقرارها أو محلّه .

و أمّا جريها وهو حركتها فظاهر النظر الحسّيّ يثبت لها حركة دوريّة حول الأرض لكنّ الأبحاث العلميّة تقضي بالعكس و تكشف أنّ لها مع سيّاراتها حركة انتقاليّة نحوالنسر الواقع.

و كيف كان فمحصّل المعنى أنّ الشمس لا تزال تجري مادام النظام الدنيويّ على حاله حتّى تستقرّ وتسكن بانقضاء أجلها فتخرب الدنيا و يبطل هذا النظام ،وهذا المعنى يرجع بالمآل إلى معنى القراءة المنسوبة إلى أهل البيت وغيرهم:« والشمس تجري لامستقرّ لها » كماقيل .

و أمّا حمل جريها على حركتها الوضعيّة حول مركزها فهو خلاف ظاهر الجري

الدالّ على الانتقال من مكان إلى مكان .

وقوله : « ذلك تقدير العزيز العليم » أي الجري المذكور تقدير و تدبير ممّن لايغلبه غالب في إرادته ولايجهل جهات الصلاح في أفعاله .

قوله تعالى : « و القمر قدّرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم » المنازل جمع منزل اسم مكان من النزول و الظاهر أنّ المراد به المنازل الثمانية والعشرون الّتي تقطعها القمر في كلّ ثمانية و عشرين يوما وليلة تقريبا .

و العرجون عود عذق النخلة من بين الشمراخ الى منبته وهو عود أصفر مقوّس يشبه الهلال ، و القديم العتيق .

وقد اختلفت الأنظار في معنى الآية للاختلاف في تركيبها ، و أقرب التقديرات من الفهم قول من قال : إنّ التقدير والقمر قدّرناه ذا منازل أوقدّرنا له منازل حتّى عاد هلالا يشبه العرجون العتيق المصفرّ لونه .

تشير الآية إلى اختلاف مناظر القمر بالنسبة إلى أهل الأرض فإنّ نوره مكتسب من الشمس يستنير بها نصف كرته تقريبا و ما يقرب من النصف الآخر غير المسامت للشمس مظلم ثمّ يتغير موضع الاستنارة ولا يزال كذلك حتّى يعود إلى الوضع الأوّل و يعرض ذلك أن يظهر لأهل الأرض في صورة هلال ثمّ لا يزال ينبسط عليه النور حتّى يتبدّر ثمّ لايزال ينقص حتّى يعود إلى ما كان عليه أوّلا .

ولاختلاف صوره آثار بارزة في البرّ والبحر وحياة الناس على ما بيّن في الأبحاث المربوطة .

فالآية الكريمة تذكر من آية القمر أحواله الطارئة له بالنسبة إلى الأرض و أهلها دون حاله في نفسه ودون حاله بالنسبة إلى الشمس فقط .

و من هنا لا يبعد أن يقال في قوله تعالى : « و الشمس تجري لمستقرّ لها » أنّ المراد بقوله : « تجري » الإشارة إلى ما يعطيه ظاهر الحسّ من حركتها اليوميّة و الفصليّة و السنويّة وهي حالها بالنسبة إلينا ، و بقوله : « لمستقرّ لها » حالها في نفسها و هي سكونها بالنسبة إلى سيّاراتها المتحرّكة حولها كأنّه قيل :وآية لهم أنّ الشمس

على استقرارها تجري عليهم و قد دبّر العزيز العليم بذلك كينونة العالم الأرضيّ و حياة أهله و الله أعلم .

قوله تعالى : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون » لفظة ينبغي تدلّ على الترجّح ونفي ترجّح الإدراك من الشمس نفي وقوعه منها ، والمراد به أنّ التدبير ليس ممّا يجري يوما ويقف آخر بل هو تدبير دائم غير مختلّ و لا منقوض حتّى ينقضي الأجل المضروب منه تعالى لذلك .

فالمعنى أنّ الشمس و القمر ملازمان لما خطّ لهما من المسير فلا تدرك الشمس القمر حتّى يختلّ بذلك التدبير المعمول بهما و لا الليل سابق النهار و هما متعاقبان في التدبير فيتقدّم الليل النهار فيجتمع ليلتان ثمّ نهاران بل يتعاقبان .

و لم يتعرّض لنفي إدراك القمر للشمس و لا لنفي سبق النهار الليل لأنّ المقام مقام بيان انحفاظ النظم الإلهيّ عن الاختلال والفساد فنفى إدراك ما هو أعظم وأقوى و هو الشمس لما هو أصغر و أضعف و هو القمر . و يعلم منه حال العكس و نفى سبق الليل الّذي هو افتقاد للنهار الّذي هو ليله و الليل مضاف إليه متأخّر طبعا منه و يعلم به حال العكس .

و قوله : « و كلّ في فلك يسبحون » أي كلّ من الشمس و القمر و غيرهما من النجوم و الكواكب يجرون في مجرى خاصّ به كما يسبح السمكة في الماء فالفلك هو المدار الفضائيّ الّذي يتحرّك فيه الجرم العلويّ ، و لا يبعد حينئذ أن يكون المراد بالكلّ كلّ من الشمس و القمر و الليل و النهار و إن كان لا يوجد في كلامه تعالى ما يشهد على ذلك .

و الإتيان بضمير الجمع الخاصّ بالعقلاء في قوله : « يسبحون » لعلّه للإشارة إلى كونها مطاوعة لمشيّته مطيعة لأمره تعالى كالعقلاء كما في قوله : «ثمّ استوى إلى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » حمٓ السجدة : ١١ .

و للمفسّرين في جمل الآية آراء اُخر مضطربة أضربنا عنها من أراد الوقوف

عليها فليراجع المفصّلات .

قوله تعالى : « و آية لهم أنّا حملنا ذرّيّتهم في الفلك المشحون» قال الراغب: الذرّيّة أصلها الصغار من الأولاد ، و تقع في التعارف على الصغار و الكبار معا ، و يستعمل للواحد و الجمع و أصله للجمع.انتهى ، والفلك السفينة ، والمشحون المملوء.

آية اُخرى من آيات ربوبيّته تعالى و هو جريان تدبيره في البحر حيث يحمل ذرّيّتهم في الفلك المشحون بهم و بأمتعتهم يجوزون به من جانب إلى جانب للتجارة و غيرها ، و لا حامل لهم فيه و لا حافظ لهم عن الغرق إلّا هو تعالى و الخواصّ الّتي يستفيدون منها في ركوب البحر اُمور مسخّرة له تعالى منتهية إلى خلقه على أنّ هذه الأسباب لو لم تنته إليه تعالى لم تغن طائلا .

و إنّما نسب الحمل إلى الذرّيّة دونهم أنفسهم فلم يقل : إنّا حملناهم لإثارة الشفقة و الرحمة .

قوله تعالى : « و خلقنا لهم من مثله ما يركبون » المراد به ـ على ما فسّروه ـ الأنعام قال تعالى : « و جعل لكم من الفلك و الأنعام ما تركبون » الزخرف : ١٢ و قال : « و عليها وعلى الفلك تحملون » المؤمن : ٨٠ .

و فسّر بعضهم الفلك المذكور في الآية السابقة بسفينة نوح عليه‌السلام و ما في هذه الآية بالسفن و الزوارق المعمولة بعدها و هو تفسير رديء ومثله تفسيرما في هذه الآية بالإبل خاصّة .

و ربّما فسّر ما في هذه الآية بالطيّارات و السفن الجوّيّة المعمولة في هذه الأعصار و التعميم أولى .

قوله تعالى : « و إن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم و لا هم ينقذون » الصريخ هو الّذي يجيب الصراخ و يغيث الاستغاثة ، و الإنقاذ هو الإنجاء من الغرق .

والآية متّصلة بقوله السابق : « أنّا حملنا ذرّيّتهم في الفلك المشحون » أي إنّ الأمر إلى مشيّتنا فإن نشأ نغرقهم فلا يغيثهم مغيث ولا ينقذهم منقذ .

قوله تعالى : « إلّا رحمة منّا و متاعاً إلى حين » استثناء مفرّغ و التقدير

لا ينجون بسبب من الأسباب و أمر من الاُمور إلّا لرحمة منّا تنالهم و لتمتّع إلى حين الأجل المسمّى قدّرناه لهم .

قوله تعالى : « و إذا قيل لهم اتّقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلّكم ترحمون» لمّا ذكر الآيات الدالّة على الربوبيّة ذمّهم على عدم رعايتهم حقّها و عدم إقبالهم عليها و عدم ترتيبهم عليها آثارها فإذا قيل لهم هذه الآيات البيّنات ناطقة أنّ ربّكم الله فاتّقوا معصيته في حالكم الحاضرة وماقدّمتم من المعاصي ، أوعذاب الشرك والمعاصي الّتي أنتم مبتلون بها و ما خلّفتم وراءكم ، أواتّقوا ما بين أيديكم من الشرك والمعاصي في الحياة الدنيا و ما خلفكم من العذاب في الآخرة ، أعرضوا عنه ولم يستجيبوا له على ما هو دأبهم في جميع الآيات الّتي ذكّروا بها .

و من هنا يظهر أوّلا أنّ المراد بما بين أيديهم و ما خلفهم الشرك و المعاصي الّتي هم مبتلون بها في حالهم الحاضرة و ما كانوا مبتلين به قبل ، أو العذاب الّذي استوجبوه بذلك ، والمآل واحد ، أوالشرك والمعاصي في الدنيا والعذاب في الآخرة وهو أوجه الوجوه .

و ثانيا أنّ حذف جواب إذا للدلالة على أنّ حالهم بلغت من الجرأة على الله والاستهانة بالحقّ مبلغا لايستطاع معها ذكر ما يجيبون به داعي الحقّ إذا دعاهم إلى التقوى فيجب أن يترك أسفا ولا يذكر ، وقد دلّ عليه بقوله : « و ما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلّا كانوا عنها معرضين » .

قوله تعالى : « و ما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلّا كانوا عنها معرضين » المراد بإتيان الآيات موافاتها لهم بالمشاهدة أوبالتلاوة والذكر ، و أيضاً هي أعمّ من أن تكون آية آفاقيّة أو أنفسيّة ، أو تكون آية معجزة كالقرآن ، فهم معرضون عنها جميعا .

قوله تعالى : « و إذا قيل لهم أنفقوا ممّا رزقكم الله » إلى آخر الآية كان قوله : « و إذا قيل لهم اتّقوا ما بين أيديكم و ما خلفكم » متعرّضا لجوابهم إذا دعوا إلى عبادة الله و هي أحد ركني الدين الحقّ ، و هذه الآية تعرّضت لجوابهم إذا دعوا إلى

الشفقة على خلق الله و هو الركن الآخر و معلوم أنّ جوابهم الردّ دون القبول .

فقوله : « و إذا قيل لهم أنفقوا ممّا رزقكم الله » يتضمّن دعوتهم إلى الإنفاق على الفقراء و المساكين من أموالهم و في التعبير عن الأموال بما رزقهم الله إشعار بأنّ المالك لها حقيقة هو الله الّذي رزقهم بها و سلّطهم عليها ، وهو الّذي خلق الفقراء و المساكين و أقام حاجتهم إلى ما عند هؤلاء من فضل المؤن الّذي لايفتقرون إليه فلينفقوا عليهم و ليحسنوا و ليجملوا و الله يحبّ الإحسان و جميل الفعل .

و قوله : « قال الّذين كفروا للّذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » جوابهم للدعوة إلى الإنفاق ، و إنّما أظهر القائل ـ الّذين كفروا ـ و مقتضى المقام الإضمار للإشارة إلى أنّ كفرهم بالحقّ و إعراضهم عنه باتّباع الشهوات هو الذي دعاهم إلى الاعتذار بمثل هذا العذر المبنيّ على الإعراض عمّا تدعو إليه الفطرة من الشفقة على خلق الله و إصلاح ما فسد في المجتمع كما أنّ الإظهار في قوله : « للّذين آمنوا » للإشارة إلى أنّ قائل « أنفقوا ممّا رزقكم الله » هم الّذين آمنوا .

وفي قولهم : « أنطعم من لويشاء الله أطعمه » إشعار بأنّ المؤمنين إنّما قالوالهم: « أنفقوا ممّا رزقكم الله » بعنوان أنّه ممّا يشاؤه الله و يريده حكما دينيّا فردّوه بأنّ إرادة الله لا تتخلّف عن مراده فلوشاء أن يُطعمهم أطعمهم أي وسّع في رزقهم و جعلهم أغنياء .

و هذه مغالطة منهم خلطوا فيه بين الإرادة التشريعيّة المبنيّة على الابتلاء و الامتحان و هداية العباد إلى ما فيه صلاح حالهم في دنياهم و آخرتهم و من الجائز أن تتخلّف عن المراد بالعصيان ، و بين الإرادة التكوينيّة الّتي لا تتخلّف عن المراد و من المعلوم أنّ مشيّة الله و إرادته المتعلّقة بإطعام الفقراء و الإنفاق عليهم من المشيّة التشريعيّة دون التكوينيّة فتخلّفها في مورد الفقراء إنّما يدلّ على عصيان الّذين كفروا و تمرّدهم عمّا اُمروا به لا على عدم تعلّق الإرادة به وكذب مدّعيه .

وهذه مغالطة بنوا عليها جلّ ما افتعلوه من سنن الوثنيّة وقد حكى الله سبحانه ذلك عنهم في قوله : « و قال الّذين أشركوا لوشاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن

و لا آباؤنا و لا حرّمنا من دونه من شيء » النحل : ٣٥ ، و قوله : « سيقول الّذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا و لاآباؤنا و لا حرّمنا من شيء » الأنعام :١٤٨ ، و قوله: « و قالوا لوشاء الرحمان ما عبدناهم » الزخرف : ٢٠ .

و قوله : « إن أنتم إلّا في ضلال مبين » من تمام قول الّذين كفروا يخاطبون به المؤمنين أي إنّكم في ضلال مبين في دعواكم أنّ الله أمرنا بالإنفاق و شاء منّا ذلك .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع و روي عن عليّ بن الحسين زين العابدين و أبي جعفر الباقر وجعفر الصادق عليهم السلام « لا مستقرّ لها » بنصب الراء .

و في الدرّ المنثور أخرج سعيد بن منصور و أحمد و البخاريّ و مسلم و أبوداود و الترمذيّ و النسائيّ و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقي عن أبي ذرّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله : « و الشمس تجري لمستقرّ لها » قال : مستقرّها تحت العرش .

أقول : و قد روي هذا المعنى عن أبي ذرّ عنه صلى الله عليه وآله من طرق الخاصّة والعامّة مختصرة و مطوّلة ، و في بعضها أنّها بعد الغروب تصعد سماء سماء حتّى تصل إلى مادون العرش فتسجد و تستأذن في الطلوع و تبقى على ذلك حتّى تكسى نورا و يؤذن لها في الطلوع .

و الرواية إن صحّت فهي مؤوّلة .

و في روضة الكافي بإسناده عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّ الله عزّ و جلّ خلق الشمس قبل القمر و خلق النور قبل الظلمة .

و في المجمع روى العياشيّ في تفسيره بالإسناد عن الأشعث بن حاتم قال :كنت بخراسان حيث اجتمع الرضا و الفضل بن سهل و المأمون في الأيوان بمرو فوضعت المائدة فقال الرضا عليه السلام : إنّ رجلا من بني إسرائيل سألني بالمدينة فقال : النهار خلق قبل أم اليل ؟ فما عندكم ؟ قال : و أداروا الكلام فلم يكن عندهم في ذلك شيء .

فقال الفضل للرضا : أخبرنا بها أصلحك الله. قال: نعم من القرآن أم من الحساب؟ قال له الفضل من جهة الحساب فقال : قد علمت يا فضل أنّ طالع الدنيا السرطان و الكواكب في مواضع شرفها فزحل في الميزان والمشتري في السرطان والمرّيخ في الجدي و الشمس في الحمل و الزهرة في الحوت و عطارد في السنبلة و القمر في الثور فتكون الشمس في العاشر وسط السماء فالنهار قبل الليل ، و من القرآن قوله تعالى : « و لا الليل سابق النهار » أي الليل قد سبقه النهار .

اقول : نقل الآلوسيّ في روح المعاني هذا الحديث ثمّ قال : و في الاستدلال بالآية بحث ظاهر ، و أمّا بالحساب فله وجه في الجملة و رآى المنجّمون أنّ ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكر والّذي يغلب على الظنّ عدم صحّة الخبر من مبتدئه فالرضا أجلّ من أن يستدلّ بالآية على ماسمعت من دعواه انتهى .

وقد اختلط عليه الأمر في تحصيل حقيقة معنى الليل و النهار:

توضيحه أنّ الليل و النهار متقابلان تقابل العدم و الملكة كالعمى والبصر فكما أنّ العمى ليس مطلق عدم البصر حتّى يكون الجدار مثلا أعمى لعدم البصر فيه بل هو عدم البصر ممّا من شأنه أن يتّصف بالبصر كالإنسان كذلك الليل ليس هو مطلق عدم النور بل هو زمان عدم استضاءة ناحية من نواحي الأرض بنور الشمس و من المعلوم أنّ عدم الملكة يتوقّف في تحقّقه على تحقّق الملكة المقابلة له قبله حتّى يتعيّن بالإضافة إليه فلولا البصر لم يتحقّق عمى ولولا النهار لم يتحقّق الليل .

فمطلق الليل بمعناه الّذي هو به ليل مسبوق الوجود بالنهار و قوله : « ولا الليل سابق النهار » و إن كان ناظراً إلى الترتيب المفروض بين النهر و الليالي و أنّ هناك نهارا وليلا ونهارا وليلا وأنّ واحدا من هذه الليالي لا يسبق النهار الّذي بجنبه .

لكنّه تعالى أخذ في قوله : « ولا الليل سابق النهار » مطلق الليل ونفى تقدّمه على مطلق النهار ولم يقل : إنّ واحدا من الليالي الواقعة في هذا الترتيب لا يسبق النهار الواقع في الترتيب قبله .

فالحكم في الآية مبنيّ على مايقتضيه طبيعة الليل و النهار بحسب التقابل الّذي

أودعه الله بينهما وقد استفيد منه الحكم بانحفاظ الترتيب في تعاقب الليل و النهار فإن كلّ ليل هو افتقاد النهار الّذي هو يتلوه فلا يتقدّم عليه و إلى هذا يشير عليه السلام بعد ذكر الآية بقوله : «أي الليل قد سبقه النهار » يعني أنّ سبق النهار الليل هو خلقه قبله وليس كما يتوهّم أنّ هناك نهراً وليالي موجودة ثمّ يتعيّن لكلّ منها محلّه .

و قول المعترض : « و أمّا بالحساب فله وجه في الجملة » لا يدرى وجه قوله : في الجملة وهو وجه تامّ مبنيّ على تسليم اُصول التنجيم صحيح بالجملة على ذلك التقدير لا في الجملة .

وكذا قوله : « ورآى المنجّمون أنّ ابتداء الدورة دائرة نصف النهار و لهموافقة لما ذكر » لا محصّل له لأنّ دائرة نصف النهار وهي الدائرة المارّة على القطبين و نقطة ثالثة بينهما غير متناهية في العدد لا تتعيّن لها نقطة معيّنة في السماء دون نقطة اُخرى فيكون كون الشمس في إحداهما نهاراً للأرض دون الاُخرى .

و في المجمع في قوله تعالى : « و إذا قيل لهم اتّقوا ما بين أيديكم و ما خلفكم» روى الحلبيّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : معناه اتّقوا ما بين أيديكم من الذنوب و ما خلفكم من العقوبة .

☆☆☆

وَ يَقُولُونَ مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ اِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لَا اِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَ نُفِخَ فِى الصُّورِ فَاِذَاهُمْ مِنَ الْاَجْدَاثِ اِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) اِنْ كَانَتْ اِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَاِذَاهُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْأً وَ لَا تُجْزَوْنَ اِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) اِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَ أَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَالٍ عَلَى الْاَرَائِكِ مُتَّكِؤُنَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧)سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ اِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ اَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ اِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَ أَنِ اعْبُدُونِي هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً اَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) .

﴿ بيان ﴾

لمّا فرغ من تفصيل آيات التوحيد المشار إليه إجمالا في أوّل الكلام شرع في تفصيل خبر المعاد و ذكر كيفيّة قيام الساعة و إحضارهم للحساب و الجزاء و ما يجزى به أصحاب الجنّة و ما يجازى به المجرمون كلّ ذلك تبييناً لما تقدّم من إجمال خبر المعاد .

قوله تعالى : « و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » كلام منهم وارد مورد الاستهزاء مبنيّ على الإنكار ، و لعلّه لذلك جيىء باسم الإشارة الموضوعة للقريبة و لأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله والمؤمنين كثيرا مّا كانوا يسمعونهم حديث يوم القيامة و ينذرونهم به ، و الوعد يستعمل في الخير و الشرّ إذا ذكر وحده و إذا قابل الوعيد تعيّن الوعد للخير والوعيد للشرّ .

قوله تعالى : « ما ينظرون إلّا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون » النظر بمعنى الانتظار ، والمراد بالصيحة نفخة الصور الاُولى باعانة السياق ، وتوصيف الصيحة بالوحدة للاشارة إلى هوان أمرهم على الله جلّت عظمته فلا حاجة إلى مؤنة زائدة ، و « يخصّمون» أصله يختصمون من الاختصام بمعنى المجادلة والمخاصمة .

والآية جواب لقولهم : « متى هذا الوعد » مسوقة سوق الاستهزاء بهم والاستهانة بأمرهم كما كان قولهم كذلك ، والمعنى ما ينتظر هؤلاء القائلون : متى هذا الوعد في سؤالهم عن وقت الوعد المنبىء عن الانتظار إلّا صيحة واحدة ـ يسيرة علينا بلا مؤنة ولا تكلّف ـ تأخذهم فلا يسعهم أن يفرّوا وينجوا منها والحال أنّهم غافلون عنها يختصمون فيما بينهم .

قوله تعالى : « فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » أي يتفرّع على هذه الصيحة بما أنّها تفاجئهم ولا تمهلهم أن يموتوا من فورهم فلا يستطيعوا توصية ـ على أنّ الموت يعمّهم جميعا دفعة فلا يترك منهم أحداً يوصي إليه ـ ولا أن يرجعوا إلى أهلهم إذا كانوا في الخارج من بيوتهم مثلا .

قوله تعالى : «و نفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون » هذه هي نفخة الصور الثانية الّتي بهاالإحياء والبعث ، والأجداث جمع جدث و هو القبر والنسل الإسراع في المشي وفي التعبير عنه بقوله : « إلى ربّهم» تقريع لهم لأنّهم كانوا ينكرون ربوبيّته والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمان و صدق المرسلون » البعث الإقامة ، و المرقد محلّ الرقاد و المراد به القبر ، و تعبيرهم عنه تعالى بالرحمان نوع استرحام وقد كانوا يقولون في الدنيا : « و ما الرحمان » الفرقان: ٦٠ ، و قوله : «وصدق المرسلون » عطف على قوله : « هذا ما وعد الرحمان » والجملة الفعليّة قد تعطف على الاسميّة .

و قولهم : ياويلنا من بعثنا من مرقدنا مبنيّ على إنكارهم البعث وهم في الدنيا و رسوخ أثر الإنكار والغفلة عن يوم الجزاء في نفوسهم وهم لايزالون مستغرقين في الأهواء فإذا قاموا من قبورهم مسرعين إلى المحشر فاجأهم الورود في عالم لايستقبلهم فيه إلّا توقّع الشرّ فأخذهم الفزع الأكبر والدهشة الّتي لا تقوم لها الجبال و لذا يتبادرون أوّلا إلى دعوة الويل والهلاك كما كان ذلك دأبهم في الدنيا عند الوقوع في المخاطر ثمّ سألوا عمّن بعثهم من مرقدهم لأنّ الّذي أحاط بهم من الدهشة أذهلهم من كلّ شيء .

ثمّ ذكروا ما كانت الرسل عليهم السلام يذكّرونهم به من الوعد الحقّ بالبعث والجزاء فشهدوا بحقّيّة الوعد واستعصموا بالرحمة فقالوا : « هذا ما وعد الرحمان » على ما هو دأبهم في الدنيا حيث يكيدون عدوّهم إذا ظهر عليهم بالتملّق وإظهار الذلّة و الاعتراف بالظلم والتقصير ثمّ صدّقوا الرسل بقولهم : « وصدق المرسلون » .

و بما تقدّم ظهر أوّلا وجه دعوتهم بالويل إذا بعثوا .

و ثانيا وجه سؤالهم عمّن بعثهم من مرقدهم الظاهر في أنّهم جاهلون به أوّلا ثمّ إقرارهم بأنّه الّذي وعده الرحمان و تصديقهم المرسلين فيما بلّغوا عنه تعالى .

و يظهر أيضاً أنّ قوله : « من بعثنا من مرقدنا » الخ و قوله : « هذا ما وعد الرحمان » الخ من قولهم .

و قيل : قوله : « و صدق المرسلون » عطف على مدخول « ما » و « ما » موصولة أو مصدريّة و « هذا ما وعد الرحمان » الخ جواب من الله أو من الملائكة أو من المؤمنين لقولهم : « من بعثنا من مرقدنا » ؟

و غير خفيّ أنّه خلاف الظاهر و خاصّة على تقدير كون « ما » مصدريّة ولو كان قوله : « هذا ما وعد الرحمان » الخ جوابا من الله أو الملائكة لقولهم : « من بعثنا من مرقدنا » لاُجيب بالفاعل دون الفعل لأنّهم سألوا عن فاعل البعث ! و ما قيل : إنّ العدول إليه لتذكير كفرهم وتقريعهم عليه مع تضمّنه الإشارة إلى الفاعل هذا . لا يغني طائلا .

و ظهر أيضا أنّ قوله : « هذا ما وعد الرحمان » مبتدء و خبر ، و قيل : « هذا » صفة لمرقدنا بتأويل اسم الإشارة إلى المشتقّ و « ما » مبتدء خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمان حقّ و هو بعيد عن الفهم .

قوله تعالى : « إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون » اسم كان محذوف و التقدير إن كانت الفعلة أو النفخة إلّا نفخة واحدة تفاجئهم أنّهم مجموع محضرون لدينا من غير تأخير و مهلة .

و التعبير بقوله : « لدينا » لأنّ اليوم يوم الحضور لفصل القضاء عند الله سبحانه.

قوله تعالى : « فاليوم لا تظلم نفس شيأ ولا تجزون إلّا ما كنتم تعملون » أي في هذا اليوم يقضي بينهم قضاء عدلا و يحكم حكماً حقّاً فلا تظلم نفس شيأ .

و قوله : « ولا تجزون إلّا ما كنتم تعملون » عطف تفسير لقوله : « فاليوم لا تظلم نفس شيأ » و هو في الحقيقة بيان برهانيّ لانتفاء الظلم يومئذ لدلالته على أنّ جزاء أعمال العاملين يومئذ نفس أعمالهم ، ولا يتصوّر مع ذلك ظلم لأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه و تحميل العامل عمله وضع الشيء في موضعه ضرورة .

و خطاب الآية من باب تمثيل يوم القيامة و إحضاره و إحضار من فيه بحسب العناية الكلاميّة ، و ليس ـ كما توهّم ـ حكاية عمّا سيقال لهم أو يخاطبون به من جانب الله سبحانه أو الملائكة أو المؤمنين يوم القيامة فلا موجب له من جهة السياق .

و المخاطب بقوله : « و لا تجزون إلّا ما كنتم تعملون » السعداء و الأشقياء جميعاً .

و ما قيل عليه أنّ الحصر يأبى التعميم فإنّه تعالى يوفّي المؤمنين اُجورهم و يزيدهم من فضله أضعافا مضاعفة مدفوع بأنّ الحصر في الآية ناظر إلى جزاء العمل و أجره و ما يدلّ من الآيات على المزيد كقوله : « لهم مايشاؤن فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ أمروراء الجزاء و الأجر خارج عن طور العمل .

و ربّما اُجيب عنه بأنّ معنى الآية أنّ الصالح لاينقص ثوابه و الطالح لايزاد عقابه فإنّ الحكمة تنافيه أمّا زيادة الثواب و نقص العقاب فلامانع منه أو أنّ المراد بقوله : « لا تجزون إلّا ماكنتم تعملون » أنّكم لاتجزون إلّا من جنس عملكم إن خيراً فخير و إن شرّاً فشرّ .

و فيه أنّ مدلول الآية لو كان ما ذكر اندفع الاشكال لكنّ الشأن في دلالتها على ذلك .

قوله تعالى : « إنّ أصحاب الجنّة اليوم في شغل فاكهون » الشغل الشأن الّذي يشغل الإنسان ويصرفه عمّا عداه ، والفاكه من الفكاهة وهي التحدّث بمايسرّ أوالتمتّع والتلذّذ ولافعل له من الثلاثيّ المجرّد على ماقيل .

و قيل : « فاكهون » معناه ذوو فاكهة نحو لابن و تامر و يبعّده أنّ الفاكهة مذكورة في السياق ولاموجب لتكرارها .

والمعنى أنّ أصحاب الجنّة في هذا اليوم في شأن يشغلهم عن كلّ شيء دونه وهو التنعّم في الجنّة متمتّعون فيها .

قوله تعالى : « هم و أزواجهم في ظلال على الأرائك متّكؤن » الظلال جمع ظلّ و قيل جمع ظلّة بالضمّ وهي السترة من الشمس من سقف أو شجر أو غير ذلك ، و الأريكة كلّ مايتّكى عليه من وسادة أو غيرها .

و المعنى هم أي أصحاب الجنّة و أزواجهم من حلائلهم المؤمنات في الدنيا أو من الحور العين في ظلال أو أستار من الشمس و غيرها متّكؤن على الأرائك اتّكاء الأعزّة .

قوله تعالى : «لهم فيها فاكهة ولهم مايدّعون» الفاكهة مايتفكّه بهمن الثمرات كالتفّاح و الاُترجّ ونحوهما ، و قوله : «يدّعون» من الادّعاء بمعنى التمنّي أي لهم في الجنّة فاكهة ولهم فيها ما يتمنّونه و يطلبونه .

قوله تعالى : « سلام قولا من ربّ رحيم » سلام مبتدء محذوف الخبر والتنكير للتفخيم و التقدير سلام عليهم أو لهم سلام ، و « قولا » مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدير أقوله قولا من ربّ رحيم .

والظاهر أنّ السلام منه تعالى وهو غير سلام الملائكة المذكور في قوله :«والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب سلام عليكم بماصبرتم فنعم عقبى الدار » الرعد : ٢٤ .

قوله تعالى : « و امتازوا اليوم أيّها المجرمون » أي و نقول اليوم للمجرمين امتازوامن أصحاب الجنّة وهو تمييزهم منهم يوم القيامة و إنجاز لما في قوله في موضع آخر : « أم نجعل الّذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار » صٓ : ٢٨ ، و قوله : « أم حسب الّذين اجترحوا السيّآت أن نجعلهم كالّذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم » الجاثية : ٢١ .

قوله تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين » العهد الوصيّة ، و المراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس و يأمر به إذلا طاعة إلّا لله أو من أمر بطاعته ، وقد علّل النهي عن طاعته بكونه عدوّا مبينا لأنّ العدوّ لا يريد بعدوّه خيرا .

وقيل : المراد بعبادته عبادة الآلهة من دون الله وإنّما نسبت إلى الشيطان لكونها بتسويله و تزيينه ، و هو تكلّف من غير موجب .

و إنّما وجّه الخطاب إلى المجرمين بعنوان أنّهم بنو آدم لأنّ عداوة الشيطان إنّما نشبت أوّل ما نشبت بآدم حيث أمر أن يسجد له فأبى و استكبر فرجم ثمّ عادى ذرّيّته بعداوته و أوعدهم كما حكاه الله تعالى إذقال : « قال أرأيتك هذا الّذي كرّمت عليّ لئن أخّرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذرّيّته إلّا قليلا » أسرى : ٦٢ .

و أمّا عهده تعالى و وصيّته إلى بني آدم أن لا يطيعوه فهو الّذي وصّاهم به بلسان

رسله و أنبيائه و حذّرهم عن اتّباعه كقوله تعالى : « يا بني آدم لايفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة » الأعراف : ٢٧ : و قوله : « و لا يصدّنّكم الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين » الزخرف : ٦٢ .

و قيل : المراد بالعهد عهده تعالى إليهم في عالم الذّر حيث قال : ألست بربّكم قالوا بلى . وقد عرفت ممّا قدّمناه في تفسير آية الذرّ أنّ العهد الّذي هناك هو بوجه عين العهد الّذي وجّه إليهم في الدنيا .

قوله تعالى : « و أن اعبدوني هذا صراط مستقيم » عطف تفسير لماسبقه ، وقد تقدّم كلام في معنى الصراط المستقيم في تفسير قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » من سورة الفاتحة .

قوله تعالى : « و لقد أضلّ منكم جبلّا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون » الجبلّ الجماعة و قيل : الجماعة الكثيرة و الكلام مبنيّ على التوبيخ و العتاب.

قوله تعالى : « هذه جهنّم الّتي كنتم توعدون » أي كان يستمرّ عليكم الايعاد بها مرّة بعد مرّة بلسان الأنبياء و الرسل عليهم السلام و أوّل ما أوعد الله سبحانه بها حين قال لابليس : « إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين و إنّ جهنّم لموعدهم أجمعين » الحجر : ٤٣ و في لفظ الآية إشارة إلى إحضار جهنّم يومئذ .

قوله تعالى : « اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون » الصلا اللزوم و الاتّباع ، و قيل : مقاساة الحرارة ، و يظهر بقوله : « بما كنتم تكفرون » أنّ الخطاب للكفّار و هم المراد بالمجرمين .

قوله تعالى : « اليوم نختم على أفواههم و تكلّمنا أيديهم و تشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » أي يشهد كلّ منها بما كانوا يكسبونه بواسطته فالأيدى بالمعاصي الّتي كسبوها و الأرجل بالمعاصي الخاصّة بها على ما يعطيه السياق .

و من هنا يظهر أنّ كلّ عضو ينطق بما يخصّه من العمل و أنّ ذكر الأيدي و الأرجل من باب الاُنموذج و لذا ذكر في موضع آخر السمع و البصر و الفؤاد كما في سورة أسرى الآية ٣٦ . وفي موضع آخر الجلود كما في سورة حم السجدة الآية ٢٠ ، و

سيأتي بعض ما يتعلّق به من الكلام في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله .

﴿ بحث روائی ﴾

في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « ما ينظرون إلّا صيحة واحدة » الآية قال : ذلك في آخر الزمان يصاح فيهم صيحة و هم في أسواقهم يتخاصمون فيموتون كلّهم في مكانهم لا يرجع أحد منهم إلى منزله و لا يوصي بوصيّة ، و ذلك قوله عزّ و جلّ : « فلا يستطيعون توصية و لا إلى أهلهم يرجعون » .

و في المجمع في الحديث تقوم الساعة و الرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعان فما يطويانه حتّى تقوم الساعة، والرجل يرفع اُكلته إلى فيه حتّى تقوم الساعة، و الرجل يليط[1] حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتّى تقوم .

اقول : و روى هذا المعنى في الدرّ المنثور عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله و كذا عن قتادة عنه صلّى الله عليه وآله مرسلا .

و في تفسير القمّيّ و قوله عزّ و جلّ : « و نفخ في الصور فإذاهم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون » قال : من القبور . و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا » فإنّ القوم كانوا في القبور فلمّا قاموا حسبوا أنّهم كانوا نياما و قالوا : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا . قالت الملائكة : هذا ما وعد الرحمان و صدق المرسلون .

و في الكافي بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : كان أبو ذرّ رحمه الله يقول في خطبته : و ما بين الموت و البعث إلّا كنومة نمتها ثمّ استيقظت منها .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « إنّ أصحاب الجنّة اليوم في شغل فاكهون » قال : يفاكهون النساء و يلاعبونهنّ .

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّ و جلّ : «في ظلال على الأرائك متّكؤن » الأرائك السرر عليها الحجال .

(١) لاطه اى ملاه .

و فيه في قوله عزّ و جلّ : « سلام قولا من ربّ رحيم » قال : السلام منه هو الأمان . و قوله : « و امتازوا اليوم أيّها المجرمون » قال : إذا جمع الله الخلق يوم القيامة بقوا قياما على أقدامهم حتّى يلجمهم العرق فينادون : يا ربّ حاسبنا ولو إلى النار قال : فيبعث الله رياحا فتضرب بينهم و ينادي مناد : « و امتازوا اليوم أيّها المجرمون » فيميّز بينهم فصار المجرمون في النّار ، و من كان في قلبه الإيمان صار إلى الجنّة .

أقول : و قدورد في بعض الروايات أنّ الله سبحانه يتجلّى لهم فيشتغلون به عن كلّ من سواه مادام التجلّي و المراد به ارتفاع كلّ حجاب بينهم و بين ربّهم دون الرؤية البصريّة الّتي لا تتحقّق إلّا بمقارنة الجهات و الأبعاد فإنّها مستحيلة في حقّه تعالى .

وفي اعتقادات الصدوق قال عليه السلام :من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله ، و إن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس .

و في الكافي بإسناده عن محمّد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : وليست تشهد الجوارح على مؤمن إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب فأمّا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه قال الله عزّ و جلّ : « فأمّا من اُوتي كتابه بيمينه فاُولئك يقرؤن كتابهم و لا يظلمون فتيلا » أسرى : ٧١ .

و في تفسير العيّاشيّ عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمّد عن جدّه قال : قال أميرالمؤمنين عليه السلام في خطبة يصف هول يوم القيامة : ختم الله على الأفواه فلا تكلّم وتكلّمت الأيدي وشهدت الأرجل ونطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون الله حديثا» .

اقول : و في هذا المعنى روايات اُخر يأتي بعضها في ذيل تفسير قوله تعالى : « شهد عليهم سمعهم و أبصارهم و جلودهم » الاية حم السجدة : ٢٠ ، و تقدّم بعضها في الكلام على قوله تعالى : « إنّ السمع و البصرو الفؤاد كلّ اُولئك كان عنه مسؤلا » أسرى : ٣٦ .

☆☆☆

وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا على اَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَاَنّٰى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ على مَكانَتِهِمْ فما اسْتَطاعُوا مُضِيّاً ولا يَرْجِعُونَ(٦٧) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ اَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ اِنْ هُوَ اِلّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (٧٠) اَوَ لَمْ يَرَوْا اَنّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمّا عَمِلَتْ اَيْدِينا اَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (٧١) وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَاْكُلُونَ (٧٢) وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ اَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ اِنّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (٧٦) اَوَ لَمْ يَرَ الْاِنْسانُ اَنّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَاِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي اَنْشَاَها اَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْاَخْضَرِ ناراً فَاِذا اَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) اَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰواتِ وَ الْاَرْضَ بِقادِرٍ عَلى اَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) اِنَّما اَمْرُهُ اِذا

أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) .

﴿بيان﴾

بيان تلخيصي للمعاني السابقة في سياق آخر ففيه تهديد لهم بالعذاب ، والإشارة إلى أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله رسول وأنّ كتابه ذكر و قرآن و ليس بشاعر ولا كتابه بشعر ، والإشارة إلى خلق الأنعام آية للتوحيد ، والاحتجاج على المعاد .

قوله تعالى : « و لو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنّى يبصرون» قال في مجمع البيان : الطمس محو الشيء حتّى يذهب أثره فالطمس على العين كالطمس على الكتاب و مثله الطمس على المال و هو إذهابه حتّى لا يقع عليه إدراك ، و أعمى مطموس و طميس و هو أن يذهب الشقّ الّذي بين الجفنين ، انتهى .

فقوله : « و لو نشاء لطمسنا على أعينهم » أي لو أردنا لأذهبنا أعينهم فصارت ممسوحة لا أثر منها فذهبت به أبصارهم و بطل إبصارهم .

و قوله :« فاستبقوا الصراط »أي أرادوا السبق إلى الطريق الواضح الّذي لا يخطىء قاصده ولا يضلّ سالكه فلم يبصروه و لن يبصروه فالاستبعاد المفهوم من قوله : « فأنّى يبصرون » كناية عن الامتناع .

و قول بعضهم : إنّ المراد باستباق الصراط مبادرتهم إلى سلوك طريق الحقّ و عدم اهتدائهم إليها ، لا يخلو من بعد .

قوله تعالى : « ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيّاً ولا يرجعون» قال في المجمع : و المسخ قلب الصورة إلى خلقة مشوّهة كما مسخ قوم قردة و خنازير وقال : والمكانة والمكان واحد . انتهى والمراد بمسخهم على مكانتهم تشويه خلقهم وهم قعود في مكانهم الّذي هم فيه من غير أن يغيّرهم عن حالهم بعلاج و تكلّف بل بمجرّد المشيّة فهو كناية عن كونه هيّنا سهلا عليه تعالى من غير أيّ صعوبة .

و قوله : « فما استطاعوا مضيّا ولا يرجعون » أي مضيّاً في العذاب ولا يرجعون إلى حالهم قبل العذاب والمسخ فالمضيّ والرجوع كنايتان عن الرجوع إلى حال السلامة والبقاء على حال العذاب والمسخ .

و قيل : المراد مضيّهم نحو مقاصدهم و رجوعهم إلى منازلهم و أهليهم ولا يخلو من بعد .

قوله تعالى : « و من نعمّره ننكّسه في الخلق أفلا يعقلون » التعمير التطويل في العمر ، والتنكيس تقليب الشيء بحيث يعود أعلاه أسفله ويتبدّل قوّته ضعفا وزيادته نقصا والإنسان في عهد الهرم منكّس الخلق يتبدّل قوّته ضعفا و علمه جهلا و ذكره نسيانا .

والآية في مقام الاستشهاد بتنكيس الخلق على إمكان مضمون الآيتين السابقتين والمراد أنّ الّذي ينكّس خلق الإنسان إذا عمّره قادر على أن يطمس على أعينهم و على أن يمسخهم على مكانتهم .

و في قوله : « أفلا يعقلون » توبيخهم على عدم التعقّل وحثّهم على التدبّر في هذه الأمور والاعتبار بها .

قوله تعالى : « و ما علّمناه الشعر و ما ينبغي له إن هو إلاّ ذكر و قرآن مبين» عطف و رجوع إلى ما تقدّم في صدر السورة من تصديق رسالة النبي صلّى الله عليه وآله و كون كتابه تنزيلا من عنده تعالى .

فقوله : « و ما علّمناه الشعر » نفي أن يكون علّمه الشعر ولازمه أن يكون بحيث لا يحسن قول الشعر لا أن يحسنه و يمتنع من قوله لنهي من الله متوجّه إليه ، ولا أنّ النازل من القرآن ليس بشعر و إن أمكنه صلّى الله عليه وآله أن يقوله .

و به يظهر أنّ قوله : « و ما ينبغي له » في مقام الامتنان عليه بأنّه نزّهه عن أن يقول شعرا فالجملة في مقام دفع الدخل و المحصّل أنّ عدم تعليمنا إيّاه الشعر ليس يوجب نقصا فيه و لا أنّه تعجيز له بل لرفع درجته و تنزيه ساحته عمّا يتعاوره العارف بصناعة الشعر فيقع في معرض تزيين المعاني بالتخيّلات الشعريّة الكاذبة

الّتي كلّما أمعن فيها كان الكلام أوقع في النفس ، و تنظيم الكلام بأوزان موسيقيّة ليكون أوقع في السمع ، فلا ينبغي له صلّى الله عليه وآله أن يقول الشعر وهو رسول من الله و آية رسالته ومتن دعوته القرآن المعجز في بيانه الّذي هو ذكر و قرآن مبين .

و قوله : « إن هو إلّا ذكر و قرآن مبين » تفسير و توضيح لقوله : « و ما علّمناه الشعر و ما ينبغي له » بما أنّ لازم معناه أنّ القرآن ليس بشعر فالحصر المستفاد من قوله : « إن هو إلّا ذكر » الخ من قصر القلب و المعنى ليس هو بشعر ما هو إلّا ذكر و قرآن مبين .

و معنى كونه ذكرا و قرآنا أنّه ذكر مقروّ من الله ظاهر في ذلك .

قوله تعالى : « لينذر من كان حيّا و يحقّ القول على الكافرين» تعليل متعلّق بقوله : « و ما علّمناه الشعر » و المعنى و لم نعلّمه الشعر لينذر بالقرآن المنزّه من أن يكون شعرا من كان حيّا الخ أو متعلّق بقوله :«إن هو إلّا ذكر » الخ و المعنى ليس ما يتلوه على الناس إلّا ذكرا و قرآنا مبينا نزّلناه إليه لينذر من كان حيّا الخ و مآل الوجهين واحد .

و الآية ـ كما ترى ـ تعدّ غاية إرسال الرسول و إنزال القرآن إنذار من كان حيّا ـ و هو كناية عن كونه يعقل الحقّ و يسمعه ـ و حقّيّة القول و وجوبه على الكافرين فمحاذاة الآية لما في صدر السورة من الآيات في هذا المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « أو لم يروا أنّا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون » ذكر آية من آيات التوحيد تدلّ على ربوبيّته تعالى وتدبيره للعالم الإنساني و هي نظيرة ما تقدّم في ضمن آيات التوحيد السابقة من إحياء الأرض الميتة بإخراج الحبّ و الثمرات و تفجير العيون .

والمراد بكون الأنعام ممّا عملته أيديه تعالى عدم إشراكهم في خلقها و اختصاصه به تعالى فعمل الأيدي كناية عن الاختصاص .

و قوله : « فهم لها مالكون » تفريع على قوله : «خلقنا لهم» فإنّ المعنى خلقنا لأجلهم فهي مخلوقة لأجل الإنسان و لازمه اختصاصها به و ينتهي الاختصاص إلى

الملك فإنّ الملك الاعتباري الّذي في المجتمع من شعب الاختصاص .

و بذلك يظهر ما في قول بعضهم : إنّ في تفرّع قوله : « فهم لها مالكون » على قوله : « خلقنا لهم » خفاء ، و الظاهر تفرّعها على مقدّر و التقدير خلقناها لهم فهم لها مالكون ، و أنت خبير بعدم خفاء تفرّعها على « خلقنا لهم » و عدم الحاجة إلى تقدير .

و قيل : الملك بمعنى القدرة و القهر ، و فيه أنّه مفهوم من قوله بعد : « و ذلّلناها لهم » و التأسيس خير من التأكيد .

قوله تعالى : « و ذلّلناها لهم فمنها ركوبهم و منها يأكلون » تذليل الأنعام جعلها منقادة لهم غير عاصية و هو تسخيرها لهم ، و الركوب بفتح الراء الحمولة كالإبل و البقر ، و قوله : « و منها يأكلون » أي من لحمها يأكلون .

قوله تعالى : « و لهم فيها منافع و مشارب أفلا يشكرون » المراد بالمنافع ما ينتفعون به من شعرها و وبرها و جلودها و غير ذلك ، و المشارب جمع مشرب - مصدر ميميّ بمعنى المفعول - و المراد بها الألبان ، و الكلام في معنى الشكر كالكلام فيما تقدّم في قوله : « و ما عملته أيديهم أفلا يشكرون » .

و معنى الآيات الثلاث : أو لم يعلموا أنّا خلقنا لأجلهم و لتدبير أمر حياتهم الدنيا أنعاما من الإبل والبقر و الغنم فتفرّع على ذلك أنّهم مالكون لها ملكا يصحّح لهم أنواع تصرّفاتهم فيها من غير معارض، و ذلّلناها لهم بجعلها مسخّرة لهم منقادة غير عاصية فمنها ركوبهم الّذي يركبونه، و منها أي من لحومها يأكلون ، و لهم فيها منافع ينتفعون بأشعارها و أوبارها و جلودها و مشروبات من ألبانها يشربونها أفلا يشكرون الله على هذا التدبير الكامل الّذي يكشف عن ربوبيّته لهم؟أولا يعبدونه شكراً لأنعمه؟

قوله تعالى : « و اتّخذوا من دون الله آلهة لعلّهم ينصرون » ضمائر الجمع للمشركين ، و المراد بالآلهة الأصنام أو الشياطين و فراعنة البشر دون الملائكة المقرّبين و الأولياء من الإنسان لعدم ملاءمة ذيل الكلام : «وهم لهم جند محضرون » لذلك .

و إنّما اتّخذوهم آلهة رجاء أن ينصروا من ناحيتهم لأنّ عامّتهم تتّخذ إلها زعما منهم أنّ تدبير أمره مفوّض إلى من اتّخذه إلها من خير أو شرّ فيعبده العابد منهم ليرضيه بعبادته فلا يسخط فيقطع النعمة أو يرسل النقمة .

قوله تعالى : « لا يستطيعون نصرهم و هم لهم جند محضرون » أي لا يستطيع هؤلاء الآلهة الّذين اتّخذوهم آلهة نصر هؤلاء المشركين لأنهم لا يملكون شيأ من خير أو شرّ .

و قوله : « و هم لهم جند محضرون » الظاهر أنّ أوّل الضميرين للمشركين و ثانيهما للآلهة من دون الله و المراد أنّ المشركين جند للآلهة و ذلك أنّ من لوازم معنى الجنديّة التبعيّة و الملازمة و المشركون هم المعدودون أتباعاً لآلهتهم مطيعين لهم دون العكس .

و المراد بالإحضار في قوله : « محضرون » الإحضار للجزاء يوم القيامة قال تعالى : «و جعلوا بينه و بين الجنّة نسبا ولقد علمت الجنّة إنّهملمحضرون» الصافّات: ١٥٨ و قال : « ولو لا نعمة ربّي لكنت من المحضرين » الصافّات : ٥٧ . و محصّل المعنى لايستطيعالآلهة المتّخذون نصر المشركين وهمأيالمشركون لهمأيلآلهتهم أتباع مطيعون محضرون معهم يوم القيامة .

و أمّا قول القائل : إنّ المعنى أنّ المشركين جند لآلهتهم معدّون للذبّ عنهم في الدنيا ، أو أنّ المعنى و هم أي الآلهة لهم أي للمشركين جند محضرون لعذاب المشركين يومالقيامة لأنّهم وقود النار الّتي يعذّب بهاالمشركون ، أومحضرون لعذابهم إظهاراً لعجزهم عن النصر أولإقناط المشركين عن شفاعتهم فهي معان رديئة .

قوله تعالى :«فلا يحزنك قولهم إنّا نعلم مايسرّون و ما يعلنون» الفاء لتفريع النهي عن الحزن على حقيقة اتّخاذهم الآلهة من دون الله رجاء للنصر أي إذا كان هذا حقيقة حالهم أنّ الّذين استنصروهم لا يستطيعون نصرهم أبداً و أنّهم سيحضرون معهم للعذاب فلا يحزنك قولهم ما قالوا به من الشرك فإنّا لسنا بغافلين عنهم حتّى يعجزونا أويفسدوا علينا بعض الأمر بل نعلم ما يسرّون من أقوالهم و ما يعلنون ، و في تركيب

الآية بعض أقوال رديئة أضربنا عنه .

قوله تعالى : « أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » رجوع إلى ما تقدّم من حديث البعث و الاحتجاج عليه إثر إنكارهم ، و لا يبعد أن يكون بيانا تفصيليّا لقولهم المشار إليه في قوله : « فلا يحزنك قولهم » الخ و المراد بالرؤية العلم القطعيّ أي أو لم يعلم الإنسان علما قاطعا أنّا خلقناه من نطفة،و تنكير نطفة للتحقير ، و الخصيم المصرّ على خصومته و جداله .

و الاستفهام للتعجيب و المعنى من العجيب أنّ الإنسان يعلم أنّا خلقناه من نطفة مهينة فيفاجؤه أنّه خصيم مجادل مبين .

قوله تعالى : « و ضرب لنا مثلا و نسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم » الرميم البالي من العظام ، و « و نسي خلقه » حال من فاعل ضرب ، و قوله : « قال من يحيي العظام و هي رميم » بيان للمثل الّذي ضربه الإنسان ، و لذلك جيىء به مفصولا من غير عطف لأنّ الكلام في معنى أن يقال : فماذا ضرب مثلا؟ فقيل : قال من يحيي العظام و هي رميم .

و المعنى و ضرب الإنسان لنا مثلا و قد نسي خلقه من نطفة لأوّل مرّة ، ولو كان ذاكره لم يضرب المثل الّذي ضربه و هو قوله : « من يحيي العظام و هي بالية ؟ » لأنّه كان يردّ على نفسه و يجيب عن المثل الّذي ضربه بخلقه الأوّل كما لقّنه الله تعالى لنبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله جوابا عنه .

قوله تعالى : « قل يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة و هو بكلّ خلق عليم » تلقين الجواب للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله .

الإنشاء هو الإيجاد الابتدائيّ و تقييده بقوله : « أوّل مرّة» للتأكيد ، وقوله: « وهو بكلّ خلق عليم » إشارة إلى أنّه تعالى لا ينسى و لا يجهل شيأ من خلقه فإذا كان هو خالق هذه العظام لأوّل مرّة و هو لا يجهل شيأ ممّا كانت عليه قبل الموت و بعده فإحياؤه ثانيا بمكان من الإمكان لثبوت القدرة و انتفاء الجهل و النسيان .

قوله تعالى : «الّذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون»

بيان لقوله : « الّذي أنشأها أوّل مرّة » و الإيقاد إشعال النار .

و الآية مسوقة لرفع استبعاد جعل الشيء الموات شيأ ذا حياة و الحياة و الموت متنافيان ، و الجواب أنّه لا استبعاد فيه فإنّه هو الّذي جعل لكم من الشجر الأخضر الّذي يقطر ماء نارا فإذا أنتم منه توقدون و تشعلون النار ، و المراد به على المشهور بين المفسّرين شجر[1] المرخ و العفار كانوا يأخذون منهما على خضرتهما فيجعل العفار زندا أسفل و يجعل المرخ زنداً أعلى فيسحق الأعلى على الاسفل فتنقدح النار بإذن الله فحصول الحيّ من الميّت ليس بأعجب من انقداح النار من الشجرة الخضراء و هما متضادّان .

قوله تعالى : « أو ليس الّذي خلق السماوات و الأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلّاق العليم» الاستفهام للإنكار و الآية بيان للحجّة السابقة المذكورة في قوله : « قل يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة » الخ ببيان أقرب إلى الذهن و ذلك بتبديل إنشائهم أوّل مرّة من خلق السماوات و الأرض الّذي هو أكبر من خلق الإنسان كما قال تعالى : « لخلق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ .

فالآية في معنى قولنا : و كيف يمكن أن يقال : إنّ الله الّذي خلق عوالم السماوات و الأرض بما فيها من سعة الخلقة البديعة و عجيب النظام العامّ المتضمّن لما لا يحصى من الأنظمة الجزئيّة المدهشة للعقول المحيّرة للألباب والعالم الإنسانيّ جزء يسير منها ، لا يقدر أن يخلق مثل هؤلاء الناس ؟ بلى و إنّه خلّاق عليم .

و المراد بمثلهم قيل: هم و أمثالهم و فيه أنّه مغاير لمعنى مثل على ما يعرف من اللغة و العرف .

و قيل : المراد بمثلهم هم أنفسهم بنحو الكناية على حدّ قولهم : مثلك غنيّ عن كذا أي أنت غنيّ عنه ، و فيه أنّه لو كان كناية لصحّ التصريح به لكن لا وجه لقولنا:

---

(١) المرخ بالفتح فالسكون و الخاء المعجمة ، والعفار بعين مفتوحة ثم الفاء ثم الراء المهملة شجرتان تشتعلان بسحق أحدهما على الاخر .

أو ليس الّذي خلق السماوات و الأرض بقادر على أن يخلقهم فإنّ الكلام في بعثهم لا في خلقهم و المشركون معترفون بأنّ خالقهم هو الله سبحانه .

وقيل : ضمير « مثلهم » للسماوات والأرض فإنّهما تشملان مافيهما من العقلاء فاُعيد إليهما ضمير العقلاء تغليبا فالمراد أنّ الله الخالق للعالم قادر على خلق مثله .

و فيه أنّ المقام مقام إثبات بعث الإنسان لا بعث السماوات و الأرض . على أنّ الكلام في الإعادة و خلق مثل الشيء ليس إعادة لعينه بالضرورة .

فالحقّ أن يقال : إنّ المراد بخلق مثلهم إعادتهم للجزاء بعد الموت كما يستفاد من كلام الطبرسيّ رحمه الله في مجمع البيان .

بيانه أنّ الإنسان مركّب من نفس و بدن ، و البدن في هذه النشأة في معرض التحلّل و التبدّل دائما فهو لا يزال يتغيّر أجزاؤه و المركّب ينتفي بانتفاء أحد أجزائه فهو في كلّ آن غيره في الآن السابق بشخصه و شخصيّة الإنسان محفوظة بنفسه ـ روحه ـ المجرّدة المنزّهة عن المادّة والتغيّرات الطارئة من قبلها المأمونة من الموت و الفساد .

و المتحصّل من كلامه تعالى أنّ النفس لا تموت بموت البدن و أنّها محفوظة حتّى ترجع إلى الله سبحانه كما تقدّم استفادته من قوله تعالى : « و قالوا ءإذا ضللنا في الأرض ءإنّا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربّهم كافرون قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي و كّل بكم ثمّ إلى ربّكم ترجعون » الم السجدة : ١١ .

فالبدن اللاحق من الإنسان إذا اعتبر بالقياس إلى البدن السابق منه كان مثله لا عينه لكنّ الإنسان ذا البدن اللاحق إذا قيس إلى الإنسان ذي البدن السابق كان عينه لا مثله لأنّ الشخصيّة بالنفس وهي واحدة بعينها .

و لمّا كان استبعاد المشركين في قولهم : « من يحيي العظام و هي رميم » راجعا إلى خلق البدن الجديد دون النفس أجاب سبحانه بإثبات إمكان خلق مثلهم و أمّا عودهم بأعيانهم فهو إنّما يتمّ بتعلّق النفوس و الأرواح المحفوظة عند الله بالأبدان المخلوقة جديداً ، فتكون الأشخاص الموجودين في الدنيا من الناس بأعيانهم كما قال

تعالى : « أو لم يروا أنّ الله الّذي خلق السماوات و الأرض و لم يعي بخلقهنّ بقادر على أن يحيي الموتى » الأحقاف : ٣٣ فعلّق الإحياء على الموتى بأعيانهم فقال : على أن يحيي الموتى ولم يقل : على أن يحيي أمثال الموتى .

قوله تعالى : « إنّما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون » الآية من غرر الآيات القرآنيّة تصف كلمة الايجاد و تبيّن أنّه تعالى لا يحتاج في إيجاد شيء ممّا أراده إلى ماوراء ذاته المتعالية من سبب يوجد له ماأراده أو يعينه في إيجاده أويدفع عنه مانعا يمنعه .

وقد اختلف تعبيره تعالى عن هذه الحقيقة في كلامه فقال : « إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » النحل : ٤٠ ، و قال : « و إذا قضى أمرا فإنّما يقول له كن فيكون » البقرة : ١١٧ .

فقوله : « إنّما أمره » الظاهر أنّ المراد بالأمر الشأن ، وقوله في آية النحل المنقولة آنفا : « إنّما قولنا لشيء إذا أردناه » و إن كان يؤيّد كون الأمر بمعنى القول وهو الأمر اللفظيّ بلفظة كن إلّا أنّ التدبّر في الآيات يعطي أنّ الغرض فيها وصف الشأن الإلهيّ عند إرادة خلق شيء من الأشياء لا بيان أنّ قوله تعالى عند خلق شيء من الأشياء هذا القول دون غيره ، فالوجه حمل القول على الأمر بمعنى الشأن بمعنى أنّه جيء به لكونه مصداقا للشأن لا حمل الأمر على القول بمعنى مايقابل النهي .

و قوله : « إذا أراد شيأ » أي إذا أراد إيجاد شيء كما يعطيه سياق الآية و قد ورد في عدّة من الآيات القضاء مكان الإرادة كقوله : « إذا قضى أمرا فإنّما يقول له كن فيكون [1] » ولاضير فالقضاء هو الحكم و القضاء و الحكم و الإرادة من الله شيء واحد وهو كون [2] الشيء الموجود بحيث ليس له من الله سبحانه إلّا أن يوجد فمعنى إذا أردناه إذا أوقفناه موقف تعلّق الإرادة .

و قوله : « أن يقول له كن » خبر إنّما أمره أي يخاطبه بكلمة كن و من المعلوم

---

(١) البقرة : ١١٧ ، آل عمران : ٤٧ ، مريم : ٣٥ ، المؤمن : ٦٨ .

(٢) فان هذه الارادة صفة فعلية خارجة عن الذات منتزعة عن مقام الفعل .

أن ليس هناك لفظ يتلفّظ به وإلّا احتاج في وجوده إلى لفظ آخروهلمّ جرّا فيتسلسل و لا أنّ هناك مخاطبا ذاسمع يسمع الخطاب فيوجدبه لا دائه إلى الخلف فالكلام تمثيل لا فاضته تعالى وجود الشيء من غير حاجة إلى شيء آخر وراء ذاته المتعالية و من غير تخلّف ولامهل .

و به يظهر فساد ما ذكره بعضهم حيث قال : الظاهر أنّ هناك قولا لفظيّا هو لفظ كن وإليه ذهب معظم السلف وشؤن الله تعالى وراء ماتصل إليه الأفهام فدعنك الكلام و الخصام . انتهى .

و ذلك أنّ ما ذكره من كون شؤنه تعالى وراء طور الأفهام لو أبطل الحجّة العقليّة القطعيّة بطلت بذلك المعارف الدينيّة من أصلها فصحّة الكتاب مثلا بمايفيده من المعارف الحقيقيّة إنّما تثبت بالحجّة العقليّة فلو بطلت الحجّة العقليّة بكتاب أو سنّة أو شيء آخر ممّا يثبت هو بها لكان ذاك الدليل المبطل مبطلا لنفسه أوّلا فلا تزلّ قدم بعد ثبوتها .

و من المعلوم أن ليس هناك إلّا الله عزّ اسمه والشيء الّذي يوجده لا ثالث بينهما و إسناد العلّيّة و السببيّة إلى إرادته دونه تعالى ـ و الإرادة صفة فعليّة منتزعة من مقام الفعل كما تقدّم ـ يستلزم انقطاع حاجة الأشياء إليه تعالى من رأس لاستيجابه استغناء الأشياء بصفة منتزعة منها عنه تعالى و تقدّس .

و من المعلوم أن ليس هناك أمر ينفصل عنه تعالى يسمّى إيجادا أو وجودا ثمّ يتّصل بالشيء فيصير به موجودا و هو ظاهر فليس بعده تعالى إلّا وجود الشيء فحسب .

و من هنا يظهر أنّ كلمة الايجاد وهي كلمة كن هي وجود الشيء الّذي أوجده لكن بما أنّه منتسب إليه قائم به و أمّا من حيث انتسابه إلى نفسه فهو موجود لا إيجاد ومخلوق لاخلق .

و يظهر أيضاً أنّ الّذي يفيض منه تعالى لا يقبل مهلة و لا نظرة و لا يتحمّل تبدّلا و لا تغيّرا ، و لا يتلبّس بتدريج و مايترا آى في الخلق من هذه الاُمور إنّما يتأتّى في الأشياء في ناحية نفسها لا من الجهة الّتي تلي ربّها سبحانه و هذا باب ينفتح

منه ألف باب .

و في الآيات للتلويح إلى هذه الحقائق إشارات لطيفة كقوله تعالى : «كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون » آل عمران : ٥٩ ، و قوله تعالى : « و ما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر » القمر : ٥٠ ، و قوله تعالى : « و كان أمر الله قدرا مقدورا » الأحزاب : ٣٨ إلى غير ذلك .

و قوله في آخر الآية : « فيكون » بيان لطاعة الشيء المراد له تعالى و امتثاله لأمر «كن» ولبسه الوجود .

قوله تعالى : «فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيء وإليه ترجعون »الملكوت مبالغة في معنى الملك كالرحموت و الرهبوت في معنى الرحمة والرهبة .

و انضمام الآية إلى ماقبلها يعطي أنّ المراد بالملكوت الجهة التالية له تعالى من وجهي وجود الأشياء ، و بالملك الجهة التالية للخلق أو الأعمّ الشامل للوجهين . وعليه يحمل قوله تعالى : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ . و قوله : « أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض » الأعراف : ١٨٥ : و قوله : « قل من بيده ملكوت كلّ شيء » المؤمنون : ٨٨ .

و جعل الملكوت بيده تعالى للدلالة على أنّه متسلّط عليها لا نصيب فيها لغيره .

و مآل المعنى في قوله : « فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيء » تنزيهه تعالى عمّا استبعدوا منكرين للمعاد لغفلتهم عن أنّ ملكوت كلّ شي بيده و في قبضته .

و قوله : « و إليه ترجعون» خطاب لعامّة الناس من مؤمن ومشرك، وبيان لنتيجة البيان السابق بعد التنزيه .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « و ما علّمناه الشعر وما ينبغي له » الآية قال: كانت قريش تقول : إنّ هذا الّذي يقوله محمّد شعر فردّ الله عليهم فقال : « و ما علّمناه الشعر و ما ينبغي له إن هو إلّا ذكر و قرآن مبين » ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله شعراقطّ .

و في المجمع روي عن الحسن أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتمثّل بهذا البيت : كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا فقال له أبوبكر : يارسول الله إنّما قال : كفى الشيب و الإسلام للمرء ناهيا و أشهد أنّك رسول الله وما علّمك الله الشعر وماينبغي لك .

و فيه عن عائشة أنّها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتمثّل ببيت أخي بني قيس:

ستبدي لك الأيّام ماكنت جاهلا　　　و يأتيك بالأخبار من لم تزوّد

فجعل يقول : و يأتيك من لم تزوّد بالأخبار فيقول أبوبكر : ليس هكذا يا رسول الله فيقول : إنّي لست بشاعر ولاينبغي لي .

اقول : و روى في الدرّ المنثور الخبرين عن الحسن و عائشة كما رواه وروى في الدرّ المنثور غير ذلك ممّا تمثّل به صلى الله عليه وآله .

و قال في المجمع : فأمّا قوله :

أنا النبيّ لا كذب　　　أنا ابن عبد المطّلب

فقد قال قوم : إنّ هذا ليس بشعر ، و قال آخرون : إنّما هو اتّفاق منه و ليس يقصد إلى شعر انتهى . والبيت منقول عنه صلى الله عليه وآله وقد أكثروا من البحث فيه وطرح الرواية أهون من نفي كونه شعرا أو شعرا مقصوداً إليه .

و فيه في قوله تعالى : « لينذر من كان حيّا » الآية ويجوز أن يكون المراد بمن كان حيّا عاقلا و روى ذلك عن عليّ عليه السلام .

و في تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « و اتّخذوا من دون الله ـ إلى قوله ـ محضرون » يقول : لا تستطيع الآلهة لهم نصرا وهم للآلهة جند محضرون .

و عن تفسير العيّاشيّ عن الحلبيّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : جاء اُبيّ بن خلف فأخذ عظما باليا من حائط ففتّه ثمّ قال : إذا كنّا عظاما ورفاتا ءإنا لمبعوثون خلقا ؟ فأنزل الله : قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة وهو بكلّ خلق عليم » .

اقول : و روى مثله في الدرّ المنثور بطرق كثيرة عن ابن عبّاس و عروة بن الزبير

و عن قتادة و السدّي و عكرمة و روى أيضاً عن ابن عبّاس أنّ القائل هو العاص بن وائل و بطريق آخر عنه أنّ القائل هو عبدالله بن اُبيّ.

و في الاحتجاج : : في احتجاج أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال السائل : أفيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق ؟ قال عليه السلام : بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور فعند ذلك تبطل الأشياء و تفنى فلا حسّ و لا محسوس ثمّ اُعيدت الأشياء كما بدأها مدبّرها و ذلك أربعمائة سنة يسبت فيها الخلق وذلك بين النفختين.

قال : و أنّى له بالبعث و البدن قد بلى و الأعضاء قد تفرّقت فعضو ببلدة تأكله سباعها و عضو باُخرى تمزّقه هوامّها وعضو قد صارترابا يبنى به مع الطين في حائط . قال عليه السلام : إنّ الّذي أنشاه من غير شيء وصوّره على غير مثال كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه .

قال : أوضح لي ذلك . قال عليه السلام : إنّ الروح مقيمة في مكانها روح المحسن في ضياء و فسحة و روح المسيء في ضيق و ظلمة و البدن يصير ترابا كما منه خلق و ما تقذف به السباع و الهوامّ من أجوافها فما أكلته و مزّقته كلّ ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرّة في ظلمات الأرض و يعلم عدد الأشياد و وزنها و إنّ تراب الروحانيّين بمنزلة الذهب في التراب .

فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور فتربو الأرض ثمّ تمخض مخض السقاء فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء و الزبد من اللبن إذا مخض فيجتمع تراب كلّ قالب إلى قالبه فينتقل بإذن الله القادر إلى حيث الروح فتعود الصور بإذن المصوّر كهيئتها و يلج الروح فيها فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيأ .

و في نهج البلاغة : يقول لما أراد كونه : كن فيكون ، لا بصوت يقرع و لانداء يسمع و إنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه و مثله لم يكن من قبل ذلك كائنا ولو كان قديما لكان إلها ثانيا .

و فيه : يقول و لا يلفظ و يريد و لا يضمر .

و في الكافي باسناده عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الارادة من الله و من الخلق قال: فقال: الارادة من الخلق الضمير و ما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، و أمّا من الله فارادته إحداثه لا غير ذلك لأنّه لا يروّي و لا يهمّ و لا يتفكّر، و هذه الصفات منفيّة عنه و هي صفات الخلق.

فارادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له: كن فيكون بلا لفظ و لا نطق بلسان و لا همّة و لا تفكّر و لا كيف لذلك كما أنّه لا كيف له.

اقول: و الروايات عنهم عليهم السلام في كون إرادته من صفات الفعل مستفيضة.



سورة الصافّات مكيّة و هي مائة و اثنان و ثمانون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَ الصّٰافّٰاتِ صَفّاً (١) فَالزّٰاجِرٰاتِ زَجْراً (٢) فَالتّٰالِيٰاتِ ذِكْراً (٣) اِنَّ اِلٰهَكُمْ لَوٰاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمٰوٰاتِ وَ الْاَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ رَبُّ الْمَشٰارِقِ (٥) اِنّٰا زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِزِينَةٍ الْكَوٰاكِبِ (٦) وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ مٰارِدٍ (٧) لاٰ يَسَّمَّعُونَ اِلَى الْمَلَاءِ الْاَعْلٰى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جٰانِبٍ (٨) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ وٰاصِبٌ (٩) اِلاّٰ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ ثٰاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنٰا اِنّٰا خَلَقْنٰاهُمْ مِنْ طِينٍ لاٰزِبٍ (١١) .

﴿ بيان ﴾

في السورة احتجاج على التوحيد ، و إنذار للمشركين و تبشير للمخلصين من المؤمنين ، و بيان ما يؤل إليه حال كلّ من الفريقين ثمّ ذكر عدّة من عباده المؤمنين ممّن منّ الله عليهم و قضى أن ينصرهم على عدوّهم ، و في خاتمة السورة ما هو بمنزلة محصّل الغرض منها وهو تنزيهه و السلام على عباده المرسلين و تحميده تعالى فيما فعل و السورة مكيّة بشهادة سياقها .

قوله تعالى : « و الصافّات صفّا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا » الصافّات ـ على ما قيل ـ جمع صافّة و هي جمع صافّ ، و المراد بها على أيّ حال الجماعة الّتي تصطفّ أفرادها والزاجرات من الزجر وهو الصرف عن الشيء بالتخويف بذمّ أو عقاب والتاليات من التلاوة بمعنى القراءة .

و قد أقسم الله تعالى بهذه الطوائف الثلاث : الصافّات و الزاجرات و التاليات و قد اختلفت كلماتهم في المراد بها :

فأمّا الصافّات فقيل : إنّ المراد بها الملائكة تصفّ أنفسها في السماء صفوفا كصفوف المؤمنين في الصلاة ، و قيل : إنّها الملائكة تصفّ أجنحتها في الهواء إذا أرادت النزول إلى الأرض واقفة في انتظار أمر الله تعالى، و قيل : إنّها الجماعة من المؤمنين يقومون في الصلاة أو في الجهاد مصطفّين .

و أمّا الزاجرات فقيل : إنّها الملائكة تزجر العباد عن المعاصي فيوصله الله إلى قلوب الناس في صورة الخطرات كما يوصل وساوس الشياطين ، و قيل : إنّها الملائكة الموكّلة بالسحاب تزجرها و تسوقها إلى حيث أراد الله سبحانه ، و قيل : هي زواجر القرآن وهي آياته الناهية عن القبائح ، وقيل : هم المؤمنون يرفعون أصواتهم بالقرآن عند قراءته فيزجرون الناس عن المنهيّات .

وأمّا التاليات فقيل : هم الملائكة يتلون الوحي على النبيّ الموحى إليه، وقيل: هي الملائكة تتلو الكتاب الّذي كتبه الله و فيها ذكر الحوادث ، و قيل : جماعة قرّاء القرآن يتلونه في الصلاة .

و يحتمل ـ والله العالم ـ أن يكون المراد بالطوائف الثلاث المذكورة في الآيات طوائف الملائكة النازلين بالوحي المأمورين بتأمين الطريق و دفع الشياطين عن المداخلة فيه و إيصاله إلى النبيّ مطلقا أو خصوص محمّد صلّى الله عليه وآله كما يستفاد من قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلّا من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم و أحاط بما لديهم » الجنّ :٢٨.

و عليه فالمعنى اُقسم بالملائكة الّذين يصفّون في طريق الوحي صفّا فبالّذين يزجرون الشياطين و يمنعونهم عن المداخلة في الوحي فبالّذين يتلون على النبيّ الذكر و هو مطلق الوحي أو خصوص القرآن كما يؤيّده التعبير عنه بتلاوة الذكر .

ويؤيّد ما ذكرنا وقوع حديث رمي الشياطين بالشهب بعد هذه الآيات ، و كذا قوله بعد : « فاستفتهم أهم أشدّ خلقا أم من خلقنا » الآية كما سنشير إليه .

و لا ينافي ذلك إسناد النزول بالقرآن إلى جبريل وحده في قوله : « من كان عدوّاً لجبريل فإنّه نزّله على قلبك » البقرة : ٩٧ و قوله : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٣ لأنّ الملائكة المذكورين أعوان جبريل فنزولهم به نزوله به وقد قال تعالى : « في صحف مكرّمة مرفوعة مطهّرة بأيدي سفرة كرام بررة » عبس : ١٥ ، و قال حكاية عنهم : « و ما نتنزّل إلّا بأمر ربّك » مريم : ٦٤ ، و قال : « و إنّا لنحن الصافّون و إنّا لنحن المسبّحون» الصافّات : ١٦٦ و هذا كنسبة التوفّي إلى الرسل من الملائكة في قوله : « حتّى إذا جاء أحدهم الموت توفّته رسلنا » الأنعام: ٦١ وإلى ملك الموت وهو رئيسهم في قوله : « قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم» السجدة : ١١ .

ولا ضير في التعبير عن الملائكة بلفظ الإناث : الصافّات والزاجرات و التاليات لأنّ موصوفها الجماعة ، و التانيث لفظيّ .

و هذه أوّل سورة في القرآن صدّرت بالقسم وقد أقسم الله سبحانه في كلامه بكثير من خلقه كالسماء و الأرض و الشمس و القمر و النجم و الليل و النهار و الملائكة و الناس و البلاد والأثمار ، وليس ذلك إلّا لما فيها من الشرف باستناد خلقها إليه تعالى وهو قيّومها المنبع لكلّ شرف و بهاء .

قوله تعالى : « إنّ إلهكم لواحد » الخطاب لعامّة الناس وهو مقسم به ، و هو كلام مسوق بدليل كما سيأتي .

قوله تعالى : « ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما و ربّ المشارق » خبر بعد خبر لأنّ ، أو خبر لمبتدء محذوف والتقدير هو ربّ السماوات الخ أو بدل من واحد.

و في سوق الأوصاف إشعار بعلّة كون الإله واحداً كما أنّ خصوصيّة القسم مشعر بعلّة كونه ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما .

كأنّه قيل إنّ إلهكم لواحد لأنّ الملاك في اُلوهيّة الإله و هي كونه معبوداً بالحقّ أن يكون ربّاً يدبّر الأمر على ما تعترفون وهو سبحانه ربّ السماوات والأرض و ما بينهما الّذي يدبّر أمرها و يتصرّف في جميعها .

و كيف لا ؟ و هو تعالى يوحي إلى نبيّه فيتصرّف في السماء و سكّانها بإرسال ملائكة يصطفّون بينها و بين الأرض و هناك مجال الشياطين فيزجرونهم و هو تصرّف منه فيما بين السماء و الأرض و في الشياطين ثمّ يتلون الذكر على نبيّه و فيه تكميل للناس و تربية لهم سواء صدّقوا أم كذّبوا ففي الوحي تصرّف منه في السماوات والأرض و ما بينهما فهو على وحدانيّته ربّ الجميع المدبّر لأمرها و الإله الواحد .

و قوله : « وربّ المشارق » أي مشارق الشمس باختلاف الفصول أو المراد مشارق مطلق النجوم أو مطلق المشارق ، و في تخصيص المشارق بالذكر مناسبة لطلوع الوحي بملائكته من السماء وقد قال تعالى : « ولقد رآه بالأفق المبين » التكوير : ٢٣ ،وقال: « وهو بالأفق الأعلى » النجم : ٧.

قوله تعالى : « إنّا زيّنّا السماء الدنيا بزينة الكواكب » **المراد بالزينة** ما يزيّن به ، و الكواكب بيان أو بدل من الزينة وقد تكرّر حديث تزيين السماء الدنيا بزينة الكواكب في كلامه كقوله : «و زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح » حمٓ السجدة:١٢ وقوله : « ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح » الملك : ٥ ، وقوله : « أولم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها و زيّنّاها » ق : ٦ .

و لا يخلو من ظهور في كون السماء الدنيا من السماوات السبع الّتي يذكرها القرآن هو عالم الكواكب فوق الأرض و إن وجّهه بعضهم بما يوافق مقتضى الهيئة القديمة أو الجديدة .

قوله تعالى : « و حفظا من كلّ شيطان مارد » حفظا مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدير و حفظناها حفظا من كلّ شيطان مارد ، و المراد بالشيطان الشرير من الجنّ و المارد الخبيث العاري من الخير.

قوله تعالى : « لا يسّمّعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كلّ جانب » أصل «لا يسّمّعون» لا يتسمّعون والتسمّع الإصغاء، و هو كناية عن كونهم ممنوعين مدحورين و بهذه العناية صار وصفا لكلّ شيطان ولو كان بمعنى الإصغاء صريحا أفاد لغوا من الفعل إذ لو كانوا لا يصغون لم يكن وجه لقذفهم .

و الملأ من الناس الأشراف منهم الّذين يملؤن العيون ، و الملأ الأعلى هم الّذين يريد الشياطين التسمّع إليهم و هم الملائكة الكرام الّذين هم سكنة السماوات العلى ـ على ما يدلّ عليه كلامه تعالى كقوله : « لنزّلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » أسرى : ٩٥ ـ .

و قصدهم من التسمّع إلى الملاء الأعلى الاطّلاع على أخبار الغيب المستورة عن هذا العالم الأرضيّ كالحوادث المستقبلة و الأسرار المكنونة كما يشير إليه قوله تعالى: « و ما تنزّلت به الشياطين و ما ينبغي لهم و ما يستطيعون إنّهم عن السمع لمعزولون » الشعراء : ٢١٢ ، و قوله حكاية عن الجنّ : « و أنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا و شهبا و أنّا كنّا نقعد مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » الجنّ : ٩ .

و قوله : « و يقذفون من كلّ جانب » القذف الرمي و الجانب الجهة .

قوله تعالى : « دحوراً و لهم عذاب واصب » الدحور الطرد و الدفع ، و هو مصدر بمعنى المفعول منصوب حالا أي مدحورين أو مفعول له أو مفعول مطلق ، والواصب الواجب اللاّزم .

قوله تعالى : « إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » الخطفة الاختلاس و الاستلاب، و الشهاب مايرى في الجوّ كالكوكب المنقضّ ، و الثقوب الركوز و سمّي الشهاب ثاقبا لأنّه لا يخطيء هدفه و غرضه .

و المراد بالخطفة اختلاس السمع و قد عبّر عنه في موضع آخر باستراق السمع قال تعالى : « إلّا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » الحجر : ١٨ ، و الاستثناء من ضمير الفاعل في قوله : « لايسّمّعون » و جوّز بعضهم كون الاستثناء منقطعا .

و معنى الآيات الخمس : إنّا زيّنّا السماء الّتي هي أقرب السماوات منكم ـ أو السماء السفلى ـ بزينة و هي الكواكب ، و حفظناها حفظا من كلّ شيطان خبيث عار من الخير ممنوعين من الإصغاء إلى الملاء الأعلى ـ للاطّلاع إلى ما يلقون بين أنفسهم

من أخبار الغيب ـ ويرمون من كلّ جهة حال كونهم مطرودين و لهم عذاب لازم لا يفارقهم إلّا من اختلس من أخبارهم الاختلاسة فأتبعه شهاب ثاقب لا يخطىء غرضه .

﴿ كلام فى معنى الشهب ﴾

أورد المفسّرون أنواعا من التوجيه لتصوير استراق السمع من الشياطين و رميهم بالشهب و هي مبنيّة على ما يسبق إلى الذهن من ظاهر الآيات و الأخبار أنّ هناك أفلاكا محيطة بالأرض تسكنها جماعات الملائكة ولها أبواب لا يلج فيها شيء إلّا منها و أنّ في السماء الاُولى جمعاً من الملائكة بأيديهم الشهب يرصدون المسترقين للسمع من الشياطين فيقذفونهم بالشهب .

و قد اتّضح اليوم اتّضاح عيان بطلان هذه الآراء و يتفرّع على ذلك بطلان الوجوه الّتي أوردوها في تفسير الشهب و هي وجوه كثيرة أودعوها في المطوّلات كالتفسير الكبير للرازيّ و روح المعاني للآلوسيّ و غيرهما .

و يحتمل ـ و الله العالم ـ أنّ هذه البيانات في كلامه تعالى من قبيل الأمثال المضروبة تصوّر بها الحقائق الخارجة عن الحسّ في صورة المحسوس لتقريبها من الحسّ و هو القائل عزّ و جلّ : « و تلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلّا العالمون » العنكبوت :٤٣ . و هو كثير في كلامه تعالى و منه العرش و الكرسيّ و اللّوح والكتاب و قد تقدّمت الإشارة إليها و سيجيء بعض منها .

و على هذا يكون المراد من السماء الّتي تسكنها الملائكة عالماً ملكوتيّاً ذا اُفق أعلى نسبته إلى هذا العالم المشهود نسبة السماء المحسوسة بأجرامها إلى الأرض، والمراد باقتراب الشياطين من السماء و استراقهم السمع و قذفهم بالشهب اقترابهم من عالم الملائكة للاطّلاع على أسرار الخلقة و الحوادث المستقبلة و رميهم بما لا يطيقونه من نور الملكوت، أو كرّتهم على الحقّ لتلبيسه و رمي الملائكة إيّاهم بالحقّ الّذي يبطل أباطيلهم .

و إيراده تعالى قصّة استراق الشياطين للسمع و رميهم بالشهب عقيب الإقسام بملائكة الوحي و حفظهم إيّاه عن مداخلة الشياطين لا يخلو من تأييد لما ذكرناه و الله أعلم .

قوله تعالى : «فاستفتهم أهم أشدّ خلقا أم من خلقنا إنّا خلقناهم من طين لازب» اللاّزب الملتزق بعضه ببعض بحيث يلزمه ما جاوره ، و قال في مجمع البيان : اللاّزب واللاّزم بمعنى . انتهى .

و المراد بقوله : « من خلقنا » إمّا الملائكة المشار إليهم في الآيات السابقة وهم حفظة الوحي و رماة الشهب ، و إمّا غير الناس من الخلق العظيم كالسماوات و الأرض و الملائكة ، و التعبير بلفظ اُولي العقل للتغليب .

و المعنى فإذا كان الله هو ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما و الملائكة فاسألهم أن يفتوا أهم أشدّ خلقا أم غيرهم ممّن خلقنا فهم أضعف خلقا لأنّا خلقناهم من طين ملتزق فليسوا بمعجزين لنا .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و الصافّات صفّا» قال : الملائكة و الأنبياء .

و فيه عن أبيه و يعقوب بن يزيد عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه‌السلام : إنّ هذه النجوم الّتي في السماء مدائن مثل المدائن الّتي في الأرض . الحديث .

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : « عذاب واصب » أي دائم موجع قد وصل إلى قلوبهم .

و فيه عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله في حديث المعراج : قال : فصعد جبرئيل و صعدت معه إلى سماء الدنيا و عليها ملك يقال له : إسماعيل وهو صاحب الخطفة الّتي قال الله عزّ وجلّ : « إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » وتحته سبعون ألف ملك تحت

كلّ ملك سبعون ألف ملك . الحديث .

اقول : و الروايات في هذا الباب كثيرة أوردنا بعضا منها في تفسير قوله تعالى: «إلّا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » الحجر : ١٨ و سيأتى بعضها في تفسيرسورتي الملك و الجنّ إن شاء الله تعالى .

و في نهج البلاغة : ثمّ جمع سبحانه من حزن الأرض و سهلها و عذبها و سبخها تربة سنّها بالماء حتّى خلصت ، ولاطها بالبلّة حتّى لزبت .



☆ ☆ ☆

بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ (١٢) وَ اِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَ اِذَا رَاَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَ قَالُوا اِنْ هٰذَا اِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) ءَاِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً ءَاِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) اَوَ آبَاؤُنَا الْاَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَاِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَاِذَاهُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَ قَالُوا يَاوَيْلَنَا هٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) اُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمْ وَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَاهْدُوهُمْ اِلٰى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ اِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (٢٤) مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلٰى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا اِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا اِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ اِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَاِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) اِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) اِنَّهُمْ كَانُوا اِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا اِلٰهَ اِلَّا اللّٰهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَ قَالُوا أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) اِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْاَلِيمِ (٣٨) وَ مَا تُجْزَوْنَ اِلَّا

ما كنتم تعملون (٣٩) الا عباد الله المخلصين (٤٠) اولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكاس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول و لا هم عنها ينزفون (٤٧) و عندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩) فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) قال قائل منهم اني كان لي قرين (٥١) يقول ء انك لمن المصدقين (٥٢) ءاذا متنا وكنا ترابا و عظاما ءانا لمدينون (٥٣) قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥) قال تالله ان كدت لتردين (٥٦) ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) افما نحن بميتين (٥٨) الا موتتنا الأولى و ما نحن بمعذبين (٥٩) ان هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١) أذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم (٦٢) انا جعلناها فتنة للظالمين (٦٣) انها شجرة تخرج في أصل الجحيم (٦٤) طلعها كأنه رءوس الشياطين (٦٥) فانهم لآكلون منها فمالؤن منها البطون (٦٦) ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم (٦٧) ثم ان مرجعهم لالى الجحيم (٦٨) انهم الفوا آباءهم ضالين (٦٩) فهم على آثارهم يهرعون (٧٠) .

﴿ بيان ﴾

حكاية استهزائهم بآيات الله و بعض أقاويلهم المبنيّة على الكفر و إنكار المعاد و الردّ عليهم بتقرير أمر البعث و ما يجري عليهم فيه من الشدّة و ألوان العذاب و ما يكرم الله به عباده المخلصين من النعمة و الكرامة .

وفيها ذكر تخاصم أهل النار يوم القيامة ، وذكر محادثة بين أهل الجنّة واُخرى بين بعضهم و بعض أهل النار .

قوله تعالى : « بل عجبت و يسخرون و إذا ذكّروا لايذكرون » أي بل عجبت يا محمّد من تكذيبهم إيّاك مع دعوتك إيّاهم إلى كلمة الحقّ وهم يسخرون ويهزؤن من تعجّبك منهم أو من دعائك إيّاهم إلى الحقّ ، و إذا ذكّروا بآيات الله الدالّة على التوحيد و دين الحقّ لا يذكرون و لا يتنبّهون .

قوله تعالى : « و إذا رأوا آية يستسخرون » في مجمع البيان : سخر و استسخر بمعنى واحد . انتهى .

و المعنى و إذا رأوا هؤلاء المشركون آية معجزة من آيات الله المعجزة كالقرآن و شقّ القمر يستهزؤن بها .

قوله تعالى : « و قالوا إن هذا إلّا سحر مبين » في إشارتهم إلى الآية بلفظة هذا إشعار منهم أنّهم لا يفقهون منها إلّا أنّها شيء مّا من غير زيادة وهو من أقوى الإهانة و الاستسخار .

قوله تعالى : « وإذا متنا و كنّا ترابا وعظاما ءإنّا لمبعوثون أوآباؤنا الأوّلون» إنكار منهم للبعث مبنيّ على الاستبعاد فمن المستبعد عند الوهم أن يموت الإنسان فيتلاشى بدنه و يعود ترابا و عظاما ثمّ يعود إلى صورته الاُولى .

ومن الدليل على أنّ الكلام مسوق لإفادة الاستبعاد تكرارهم الاستفهام الإنكاريّ بالنسبة إلى آبائهم الأوّلين فإنّ استبعاد الوهم لبعثهم و قد انمحت رسومهم و لم يبق منهم إلّا أحاديث أشدّ وأقوى من استبعاده بعثهم أنفسهم .

ولو كان إنكارهم البعث مبنيا على أنّهم ينعدمون بالموت فتستحيل إعادتهم كان الحكم فيهم و في آبائهم على نهج واحد و لم يحتج إلى تجديد استفهام بالنسبة إلى آبائهم .

قوله تعالى : « قل نعم و أنتم داخرون فإنّما هي زجرة واحدة فإذاهم ينظرون » أمر تعالى نبيّه صلّى الله عليه وآله أن يجيبهم بأنّهم مبعوثون .

وقوله : « و أنتم داخرون » أي صاغرون مهانون أذلّاء ، و هذا في الحقيقة احتجاج بعموم القدرة و نفوذ الإرادة من غير مهلة ، فإنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون و لذا عقّبه بقوله : « فإنّما هي زجرة واحدة فإذاهم ينظرون » وقد قال تعالى : « و لله غيب السماوات و الأرض و ما أمر الساعة إلّا كلمح البصر أو هو أقرب إنّ الله على كلّ شيء قدير » النحل : ٧٧ .

و قوله : « فإنّما هي زجرة واحدة » الخ الفاء لإفادة التعليل و الجملة تعليل لقوله : « و أنتم داخرون » و في التعبير بزجرة إشعار باستذلالهم .

قوله تعالى : « و قالوا ياويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الّذي كنتم به تكذّبون » معطوف على قوله : « ينظرون » المشعر بأنّهم مبهوتون مدهوشون متفكّرون ثمّ يتنبّهون بكونه يوم البعث فيه الدين والجزاء وهم يحذرون منه بما كفروا وكذّبوا ولذا قالوا : يوم الدين ، ولم يقولوا : يوم البعث ، والتعبير بالماضي لتحقّق الوقوع .

و قوله : « هذا يوم الفصل الّذي كنتم به تكذّبون » قيل : هو كلام بعضهم لبعض و قيل : كلام الملائكة أو كلامه تعالى لهم ، و يؤيّده الآية التالية ، و الفصل هو التمييز بين الشيئين وسمّي يوم الفصل لكونه يوم التمييز بين الحقّ والباطل بقضائه و حكمه تعالى أو التمييز بين المجرمين و المتّقين قال تعالى : « و امتازوا اليوم أيّها المجرمون » يس : ٥٩ .

قوله تعالى : « احشروا الّذين ظلموا و أزواجهم و ما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم » من كلامه تعالى للملائكة و المعنى و قلنا للملائكة : احشروهم ، و قيل : هو من كلام الملائكة بعضهم لبعض .

و الحشر ـ على ما ذكره الراغب ـ إخراج الجماعة عن مقرّهم و إزعاجهم عنه إلى الحرب و نحوها .

و المراد بالّذين ظلموا على ما يؤيّده آخر الآية المشركون و لاكلّ المشركين بل المعاندون للحقّ الصادّون عنه منهم قال تعالى : « فأذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الّذين يصدّون عن سبيل الله و يبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون » الأعراف: ٤٥، و التعبير بالماضي في المقام يفيد فائدة الوصف فليس المراد بالّذين ظلموا من تحقّق منه ظلم مّا ولو مرّة واحدة بل تعريف لهم بحاصل ما اكتسبوا في حياتهم الدنيا كما لو قيل : ماذا فعل فلان في حياته فيقال ظلم، فالفعل يفيد فائدة الوصف، و في كلامه تعالى من ذلك شيء كثير كقوله تعالى : «وسيق الّذين اتّقوا إلى الجنّة زمرا » الزمر : ٧٣ وقوله : «وسيق الّذين كفروا إلى جهنّم زمرا » الزمر : ٧١ وقوله : « للّذين أحسنوا الحسنى و زيادة » يونس : ٢٦ .

و قوله : « و أزواجهم » الظاهر أنّ المراد به قرناؤهم من الشياطين قال تعالى : « و من يعش عن ذكر الرحمان نقيّض له شيطانا فهو له قرين ـ إلى أن قال ـ حتّى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » الزخرف : ٣٨ .

و قيل : المراد بالأزواج الأشباه و النظائر فأصحاب الزنا يحشرون مع أصحاب الزنا و أصحاب الخمر مع أصحاب الخمر و هكذا .

و فيه أنّ لازمه أن يراد بالّذين ظلموا طائفة خاصّة من أصحاب كلّ معصية و اللفظ لا يساعد عليه على أنّ ذيل الآية لا يناسبه .

و قيل : المراد بالأزواج نساؤهم الكافرات و هو ضعيف كسابقه .

و قوله : « و ما كانوا يعبدون من دون الله » الظاهر أنّ المراد به الأصنام الّتي يعبدونها نظرا إلى ظاهر لفظة « ما » فالآية نظيرة قوله: « إنّكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنّم » الأنبياء : ٩٨ .

ويمكن أن يكون المراد بلفظة «ما» ما يعمّ اُولي العقل من المعبودين كالفراعنة و النماردة، و أمّا الملائكة المعبودون و المسيح عليه السلام فيخرجهم من العموم قوله تعالى:

« إنّ الّذين سبقت لهم منّا الحسنى اُولئك عنها مبعدون » الأنبياء : ١٠١ .

و قوله : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » الجحيم من أسماء جهنّم في القرآن و هو من الجحمة بمعنى شدّة تأجّج النار على ما ذكره الراغب .

و المراد بهدايتهم إلى صراطها إيصالهم إليه و إيقاعهم فيه بالسوق ، و قيل : تسمية ذلك بالهداية من الاستهزاء،و قال في مجمع البيان:إنّما عبّر عن ذلك بالهداية من حيث كان بدلا من الهداية إلى الجنّة كقوله : « فبشّرهم بعذاب أليم » من حيث إنّ هذه البشارة وقعت لهم بدلا من البشارة بالنعيم . انتهى .

قوله تعالى : «وقفوهم إنّهم مسؤلون ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون» قال في المجمع يقال : وقفت أنا و وقفت غيري ـ أي يعدّي و لا يعدّى ـ و بعض بني تميم يقول : أوقفت الدابّة و الدار . انتهى .

فقوله : « وقفوهم إنّهم مسؤلون » أي احبسوهم لأنّهم مسؤلون أي حتّى يسأل عنهم . و السياق يعطي أنّ هذا الأمر بالوقوف والسؤال إنّما يقع في صراط الجحيم .

و اختلفت كلماتهم فيما هو السؤال عنه فقيل : يسألون عن قول لا إله إلّا الله ، و قيل : عن شرب الماء البارد استهزاء بهم ، و قيل : عن ولاية علي عليه السلام .

و هذه الوجوه لو صحّت فإنّما تشير إلى بعض مصاديق ما يسأل عنه و السياق يشهد أنّ السؤال هو ما يشتمل عليه قوله : « ما لكم لا تناصرون » أي لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم تفعلونه في الدنيا فتستعينون به على حوائجكم و مقاصدكم ، و ما يتلوه من قوله : « بل هم اليوم مستسلمون » أي مسلّمون لا يستكبرون يدلّ على أنّ المراد بقوله : «ما لكم لا تناصرون» السؤال عن استكبارهم عن طاعة الحقّ كما كانوا يستكبرون في الدنيا .

فالسؤال عن عدم تناصرهم سؤال عن سبب الاستكبار الّذي كانوا عليه في الدنيا فقد تبيّن به أنّ المسؤل عنه هو كلّ حقّ أعرضوا عنه في الدنيا من اعتقاد حقّ أو عمل صالح استكبارا على الحقّ تظاهراً بالتناصر .

قوله تعالى : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ـ إلى قوله ـ إنّا كنّا غاوين»

تخاصم واقع بين الأتباع و المتبوعين يوم القيامة ، و التعبير عنه بالتساؤل لأنّه في معنى سؤال بعضهم عن بعض تلاوماً و تعاتباً يقول التابعون لمتبوعيهم : لم أضللتمونا ؟ فيقول المتبوعون : لم قبلتم عنّا ولاسلطان لناعليكم ؟

فقوله : « و أقبل بعضهم على بعض يتساءلون » البعض الأوّل هم المعترضون و البعض الثاني المعترض عليهم كما يعطيه سياق التساؤل و تساؤلهم تخاصمهم .

و قوله : « قالوا إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين » أي من جهة الخير و السعادة فاستعمال اليمين فيها شائع كثير لقوله : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين »الواقعة: ٢٧ و المعنى أنّكم كنتم تأتوننا من جهة الخير و السعادة فتقطعون الطريق و تحولون بيننا وبين الخير و السعادة و تضلّوننا .

و قيل : المراد باليمين الدين و هو قريب من الوجه السابق ، و قيل : المراد باليمين القهر و القوّة كما في قوله تعالى : « فراغ عليهم ضربا باليمين » الصافّات:٩٣ ولايخلو من وجه نظراً إلى جواب المتبوعين .

و قوله : « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين و ما كان لنا عليكم من سلطان ـ إلى قوله ـ غاوين » جواب المتبوعين بتبرئة أنفسهم من إشقاء التابعين و أنّ جرمهم مستند إلى سوء اختيار أنفسهم .

فقالوا : بل لم تكونوا مؤمنين أي لم نكن نحن السبب الموجب لإجرامكم و هلاككم بخلوّكم عن الإيمان بل لم تكونوا مؤمنين لا أنّا جرّدناكم من الإيمان .

ثمّ قالوا : « وما كان لنا عليكم من سلطان » و هو في معنى الجواب على فرض التسليم كأنّه قيل : ولو فرض أنّه كان لكم إيمان فماكان لنا عليكم من سلطان حتّى نسلبه منكم و نجرّدكم منه . على أنّ سلطان المتبوعين إنّما هو بالتابعين فهم الّذين يعطونهم السلطة و القوّة فيتسلّطون عليهم أنفسهم .

ثمّ قالوا : «بل كنتم قوما طاغين» والطغيان هو التجاوزعن الحدّ وهو إضراب عن قوله : « لم تكونوا مؤمنين » كأنّه قيل : و لم يكن سبب هلاككم مجرّد الخلوّ من الإيمان بل كنتم قوما طاغين كما كنّا مستكبرين طاغين فتعاضدنا جميعا على ترك سبيل

الرشد و اتّخاذ سبيل الغيّ فحقّ علينا كلمة العذاب الّتي قضى بها الله سبحانه قال تعالى : « إنّ جهنّم كانت مرصاداً للطاغين مآبا » النبأ : ۲۲ و قال : « فأمّا من طغى و آثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى » النازعات : ۳۷ .

و لهذا المعنى عقّب قوله : « بل كنتم قوما طاغين » بقوله : « فحقّ علينا قول ربّنا إنّا لذائقون » أي لذائقون العذاب .

ثمّ قالوا : « فأغويناكم إنّا كنّا غاوين » و هو متفرّع على ثبوت كلمة العذاب و آخر الأسباب لهلاكهم فإنّ الطغيان يستتبع الغواية ثمّ نارجهنّم قال تعالى لإبليس « إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين و إنّ جهنّم لموعدهم أجمعين » الحجر : ۴۳ .

فكأنّه قيل : فلمّا تلبّستم بالطغيان حلّ بكم الغواية بأيدينا من غير سلطان لنا عليكم إلّا اتّباعكم لنا و اتّصالكم بنافسرى إليكم ما فينا من الصفة و هي الغواية فالغاوي لايتأتّى منه إلّا الغواية و الإناء لايترشّح منه إلّا ما فيه ، وبالجملة إنّكم لم تجبروا ولم تسلبواالاختيار منذبدأتم في سلوك سبيل الهلاك إلى أن وقعتم في ورطتهوهي الغواية فحقّ عليكم القول .

قوله تعالى : « فإنّهم يومئذ في العذاب مشتركون ـ إلى قوله ـ يستكبرون» ضمير « فإنّهم » للتابعين و المتبوعين فهم مشتركون في العذاب لاشتراكهم في الظلم و تعاونهم على الجرم من غير مزيّة لبعضهم على بعض .

واستظهر بعضهم أنّ المغوين أشدّ عذابا و ذلك في مقابلة أوزارهم و أوزارأمثال أوزارهم فالشركة لاتقتضي المساواة و الحقّ أنّ الآياتمسوقة لبيان اشتراكهم فيالظلم والجرم و العذاب اللّاحق بهم من قبله ، ويمكن مع ذلك أن يلحق بكلّ منالمتبوعين و التابعين ألوان من العذاب ناشئة عن خصوص شأنهم قال تعالى : « وليحملنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » العنكبوت : ۱۳ ، و قال : « وقالوا ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكلّ ضعف ولكن لاتعلمون » الأعراف : ۳۸ .

وقوله : « إنّاكذلك نفعل بالمجرمين » تأكيد لتحقيقالعذاب ، و المرادبالمجرمين

المشركون بدليل قوله بعد : « إنّهم إذا قيل لهم لاإله إلّا الله يستكبرون » أي إذا عرض عليهم التوحيد أن يؤمنوا به أو كلمة الإخلاص أن يقولوها استمرّوا على استكبارهم ولم يقبلوا .

قوله تعالى : « و يقولون ءإنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحقّ وصدّق المرسلين » قولهم هذا إنكارمنهم للرسالة بعداستكبارهم عن التوحيد وإنكارهم له.

و قوله : « بل جاء بالحقّ وصدّق المرسلين » ردّ لقولهم : « لشاعر مجنون » حيث رموه صلّى الله عليه وآله بالشعر و الجنون و فيه رمي لكتاب الله بكونه شعراً و من هفوات الجنون فردّ عليهم بأنّ ما جاء به حقّ و فيه تصديق الرسل السابقين فليس بباطل من القول كالشعر و هفوة الجنون و ليس ببدع غير مسبوق في معناه .

قوله تعالى : «إنّكم لذائقوا العذاب الأليم » تهديد لهم بالعذاب لاستكبارهم و رميهم الحقّ بالباطل .

قوله تعالى : «وما تجزون إلّا ماكنتم تعملون » أي لاظلم فيه لأنّه نفس عملكم يردّ إليكم .

قوله تعالى : « إلّا عباد الله المخلصين ـ إلى قوله ـ بيض مكنون » استثناء منقطع من ضمير « لذائقوا » أو من ضمير « ما تجزون » و لكلّ وجه و المعنى على الأوّل لكنّ عباد الله المخلصين اُولئك لهم رزق معلوم و ليسوا بذائقي العذاب الأليم و المعنى على الثاني لكنّ عباد الله المخلصين اُولئك لهم رزق معلوم وراء جزاء عملهم و سيجيء الإشارة إلى معناه .

و احتمال كون الاستثناء متّصلا ضعيف لا يخلو من تكلّف .

و قد سمّاهم الله سبحانه عباد الله المخلصين فأثبت لهم عبوديّة نفسه و العبد هو الّذي لايملك لنفسه شيأً من إرادة و لاعمل فهؤلاء لا يريدون إلّا ماأراده الله و لايعملون إلّا له .

ثمّ أثبت لهم أنّهم مخلصون بفتح اللّام أي إنّ الله تعالى أخلصهم لنفسه فلايشاركه فيهم أحد فلاتعلّق لهم بشيء غيره تعالى من زينة الحياة الدنيا و لامن نعم العقبى وليس

في قلوبهم إلّا الله سبحانه .

و من المعلوم أنّ من كانت هذه صفته كان التذاذه و تنعّمه غير ما يلتذّ و يتنعّم غيره و ارتزاقه بغير ما يرتزق به سواه و إن شاركهم في ضروريّات المأكل و المشرب و من هنا يتأيّد أنّ المراد بقوله : « اُولئك لهم رزق معلوم » الإشارة إلى أنّ رزقهم في الجنّة ـ و هم عباد مخلصون ـ رزق خاصّ لا يشبه رزق غيرهم و لا يختلط بما يتمتّع به من دونهم و إن اشتركا في الاسم .

فقوله : « اُولئك لهم رزق معلوم » أي رزق خاص متعيّن ممتاز من رزق غيرهم فكونه معلوما كناية عن امتيازه كما في قوله : « و ما منّا إلّا له مقام معلوم » الصافّات: ٩٣ و الاشارة بلفظ البعيد للدلالة على علوّ مقامهم .

و أمّا ما فسّره بعضهم أنّ المراد بكون رزقهم معلوما كونه معلوم الخصائص مثل كونه غير مقطوع و لا ممنوع حسن المنظر لذيذ الطعم طيّب الرائحة ، و كذا ما ذكره آخرون أنّ المراد أنّه معلوم الوقت لقوله:«و لهم رزقهم فيها بكرة و عشيّا» مريم:٦٢ و كذا قول القائل : إنّ المراد به الجنّة فهي وجوه غير سديدة .

و من هنا يظهر أنّ أخذ قوله : « إلّا عباد الله المخلصين » استثناء من ضمير « و ما تجزون » لا يخلو من وجه كما تقدّمت الإشارة إليه .

و قوله : « فواكه و هم مكرمون في جنّات النعيم» الفواكه جمع فاكهة و هي ما يتفكّه به من الأثمار بيان لرزقهم المعلوم غير أنّه تعالى شفّعه بقوله: «و هم مكرمون» للدلالة على امتياز هذا الرزق أعني الفاكهة ممّا عند غيرهم بأنّها مقارنة لإكرام خاصّ يخصّهم قبال اختصاصهم بالله سبحانه وكونه لهم لا يشاركهم فيه شيء .

و في إضافة الجنّات إلى النعيم إشارة إلى ذلك فقد تقدّم في قوله : « فاُولئك مع الّذين أنعم الله عليهم » الآية النساء : ٦٩ ، و قوله : « و أتممت عليكم نعمتي » المائدة:٣ و غيرهما أنّ حقيقة النعمة هي الولاية و هي كونه تعالى هو القائم بأمر عبده.

و قوله : « على سرر متقابلين» السرر جمع سرير و هو معروف وكونهم متقابلين معناه استئناس بعضهم ببعض و استمتاعهم بنظر بعضهم في وجه بعض من غير أن يرى

بعضهم قفا بعض .

و قوله : « يطاف عليهم بكأس من معين » الكأس إناء الشراب و نقل عن كثير من اللغويّين أنّ إناء الشراب لا يسمّى كأسا إلاّ و فيه الشراب فإن خلا منه فهو قدح والمعين من الشراب الظاهر منه من عان الماء إذا ظهر وجرى على وجه الأرض،والمراد بكون الكأس من معين صفاء الشراب فيها و لذا عقّبه بقوله : « بيضاء » .

و قوله : « بيضاء لذّة للشاربين » أي صافية في بياضها لذيذه للشاربين فاللذّة مصدر اُريد به الوصف مبالغة أوهي مؤنّث لذّ بمعنى لذيذ كما قيل .

و قوله : « لا فيها غول و لاهم عنها ينزفون » الغول الإضرار و الإفساد قال الراغب : الغول إهلاك الشيء من حيث لا يحسّ به انتهى فنفي الغول عن الخمر نفي مضارّها و الانزاف فسّر بالسكر المذهب للعقل و أصله إذهاب الشيء تدريجا .

ومحصّل المعنى أنّه ليس فيها مضارّ الخمر الّتي في الدنيا و لا إسكارها بإذهاب العقل .

و قوله : « و عندهم قاصرات الطرف عين » وصف للحور الّتي يرزقونها و قصور طرفهنّ كناية عن نظر هنّ نظرة الغنج و الدلال و يؤيّده ذكر العين بعده و هو جمع عيناء مؤنّث أعين وهي الواسعة العين في جمال .

و قيل : المراد بقاصرات الطرف أنّهنّ قصرن طرفهنّ على أزواجهنّ لا يردن غيرهنّ لحبّهنّ لهم ، و بالعين أنّ أعينهنّ شديدة في سوادها شديدة في بياضها .

و قوله : « كأنّهنّ بيض مكنون » البيض معروف وهو اسم جنس واحدته بيضة و المكنون هو المستور بالادّخار قيل : المراد تشبيههنّ بالبيض الّذي كنّه الريش في العشّ أو غيره في غيره فلم تمسّه الأيدي و لم يصبه الغبار ، و قيل : المراد تشبيههنّ ببطن البيض قبل أن يقشّر وقبل أن تمسّه الأيدي .

قوله تعالى : «فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ـإلىقولهـ فليعمل العاملون» حكاية محادثة تقع بين أهلالجنّة فيسأل بعضهمعن أحوال بعض ويحدّث بعضهمبماجرى عليه في الدنيا و تنتهي المحادثة إلى تكليمهم بعض أهل النار و هو في سواء الجحيم .

فقوله : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » ضمير الجمع لأهل الجنّة من عباد الله المخلصين و تساؤلهم ـكما تقدّمـ سؤال بعضهم عن حال بعض و ما جرى عليه.

و قوله : « قال قائل منهم إنّي كان لي قرين » أي قال قائل من أهل الجنّة المتسائلين إنّي كان لي في الدنيا مصاحب يختصّ بي من الناس . كذا يعطي السياق .

و قيل : المراد بالقرين القرين من الشياطين و فيه أنّ القرآن إنّما يثبت قرناء الشياطين في المعرضين عن ذكر الله و المخلصون في عصمة إلهيّة من قرين الشياطين وكذا من تأثير الشيطان فيهم كما حكى عن إبليس استثناءهم من الإغواء : « فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين » ص : ٨٣ نعم ربّما أمكن أن يتعرّض لهم الشيطان من غير تأثير فيهم لكنّه غير أثر القرين .

وقوله : « يقول ءإنّك لمن المصدّقين إذا متناوكنّا ترابا و عظاما ءإنّا لمدينون» ضمير « يقول » للقرين ، و مفعول « المصدّقين » البعث للجزاء و قد قام مقامه قوله : « ءإذا متنا » الخ و المدينون المجزيّون .

و المعنى كان يقول لي قريني مستبعداً منكراً ءإنّك لمن المصدّقين للبعث للجزاء ءإذا متنا و كنّا ترابا و عظاما فتلاشت أبداننا وتغيّرت صورها ءإنّا لمجزيّون بالإحياء و الإعادة ؟ فهذا ممّا لا ينبغي أن يصدّق .

و قوله :«قال هل أنتم مطّلعون » ضمير « قال » للقائل المذكور قبلا ، والإطّلاع الإشراف و المعنى ثمّ قال القائل المذكور مخاطباً لمحادثيه من أهل الجنّة : هل أنتم مشرفون على النار حتّى تروا قريني والحال الّتي هو فيها ؟

و قوله : «فاطّلع فرآه في سواء الجحيم » السواء الوسط و منه سواءالطريق أي وسطه و المعنى فأشرف القائل المذكور على النار فرآه أي قرينه في وسط الجحيم .

و قوله : « قال تالله إن كدت لتردين » « إن » مخفّفة من الثقيلة ، و الإرداء السقوط من مكان عال كالشاهق و يكنّى به عن الهلاك و المعنى اُقسم بالله إنّك قربت أن تهلكني وتسقطني فيما سقطت فيه من الجحيم .

و قوله : « ولو لا نعمة ربّي لكنت من المحضرين » المراد بالنعمة التوفيق و

الهداية الإلهيّة ، و الإحضار الإشخاص للعذاب قال في مجمع البيان : و لا يستعمل « أحضر » مطلقا إلّا في الشرّ .

و المعنى ولولا توفيق ربّي و هدايته لكنت من المحضرين للعذاب مثلك .

و قوله : « أفما نحن بميّتين إلّا موتتنا الاُولى و ما نحن بمعذّبين » الاستفهام للتقرير و التعجيب ، و المراد بالموتة الاُولى هي الموتة عن الحياة الدنيا وأمّا الموتة عن البرزخ المدلول عليها بقوله : « ربّنا أمتّنا اثنتين و أحييتنا اثنتين » المؤمن : ١١ فلم يعبأبها لأنّ الموت الّذي يزعم الزاعم فيه الفناء و البطلان هو الموت الدنيويّ .

والمعنى ـ على ما في الكلام من الحذف و الإيجاز ـ ثمّ يرجع القائل المذكور إلى نفسه و أصحابه فيقول متعجّبا أنحن خالدون منعّمون فما نحن بميّتين إلّا الموتة الاُولى و ما نحن بمعذّبين ؟

قال في مجمع البيان : و يريدون به التحقيق لا الشكّ و إنّما قالوا هذا القول لأنّ لهم في ذلك سرورا مجدّدا و فرحا مضاعفا و إن كانوا قد عرفوا أنّهم سيخلّدون في الجنّة و هذا كما أنّ الرجل يعطى المال الكثير فيقول مستعجبا : كلّ هذا المال لي ؟ و هو يعلم أنّ ذلك له و هذا كقوله :

أبطحاء مكّة هذا الّذي أراه عيانا و هذا أنا ؟

قال : و لهذا عقّبه بقوله : « إنّ هذا لهو الفوز العظيم » انتهى .

و قوله : « إنّ هذا لهو الفوز العظيم » هو من تمام قول القائل المذكور و فيه إعظام لموهبة الخلود و ارتفاع العذاب و شكر للنعمة .

و قوله : «لمثل هذا فليعمل العاملون» ظاهر السياق أنّه من قول القائل المذكور و الإشارة بهذا إلى الفوز أو الثواب أي لمثل هذا الفوز أو الثواب فليعمل العاملون في دار التكليف ، و قيل : هو من قول الله سبحانه و قيل : من قول أهل الجنّة .

و اعلم أنّ لهم أقوالامختلفة في نسبة أكثر الجمل السابقة إلى قول الله تعالى أو قول الملائكة أو قول أهل الجنّة غير القائل المذكور و الّذي أوردناه هو الّذي يساعد عليه السياق .

قوله تعالى : « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقّوم ـ إلى قوله ـ يهرعون » مقايسة بين ما هيّأه الله نزلا لأهل الجنّة ممّا وصفه من الرزق الكريم و بين ما أعدّه نزلا لأهل النار من شجرة الزقّوم الّتي طلعها كأنّه رؤس الشياطين وشراب من حميم .

فقوله : « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقّوم » الإشارة بذلك إلى الرزق الكريم المذكور سابقا المعدّ لورود أهل الجنّة و النزل بضمّتين ما يهيّؤ لورود الضيف فيقدّم إليه إذا ورد من الفواكه و نحوها .

و الزقّوم ـ على ما قيل ـ اسم شجرة صغيرة الورق مرّة كريهة الرائحة ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورّم تكون في تهامة و البلاد المجدبة المجاورة للصحراء سمّيت به الشجرة الموصوفة بما في الآية من الأوصاف ، و قيل : إنّ قريشا ما كانت تعرفه و سيأتي ذلك في البحث الروائيّ .

و لفظة خير في الآية بمعنى الوصف دون التفضيل إذ لا خيريّة في الزقّوم أصلا فهو كقوله : « ما عندالله خير من اللّهو » الجمعة : ١١ و الآية على ما يعطيه السياق من كلامه تعالى .

و قوله : « إنّا جعلناها فتنة للظالمين » الضمير لشجرة الزقّوم ، و الفتنة المحنة و العذاب .

و قوله : « إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم » وصف لشجرة الزقّوم ، و أصل الجحيم قعرها ، و لا عجب في نبات شجرة في النار و بقائها فيها فحياة الإنسان و بقاؤها خالدا فيها أعجب و الله يفعل ما يشاء .

و قوله : « طلعها كأنّه رؤس الشياطين » الطلع حمل النخلة أو مطلق الشجرة أوّل ما يبدو ، و تشبيه ثمرة الزقّوم برؤس الشياطين بعناية أنّ الأوهام العامّيّة تصوّر الشيطان في أقبح صورة كما تصوّر الملك في أحسن صورة و أجملها قال تعالى : « ما هذا بشراً إن هذا إلّا ملك كريم » يوسف : ٣١ ، و بذلك يندفع ما قيل : إنّ الشيء إنّما يشبّه بما يعرف ولا معرفة لأحد برؤس الشياطين .

و قوله : « فإنّهم لآكلون منها فمالؤن منها البطون » الفاء للتعليل يبيّن به كونها نزلا للظالمين يأكلون منها ، و في قوله : « فمالؤن منها البطون » إشارة إلى تسلّط جوع شديد عليهم يحرصون به على الأكل كيفما كان .

و قوله : « ثمّ إنّ لهم عليها لشوبا من حميم» الشوب المزيج و الخليط، والحميم الماء الحارّ البالغ في حرارته ، و المعنى ثمّ إنّ لأولئك الظالمين ـ زيادة عليها ـ لخليطا مزيجا من ماء حارّ بالغ الحرارة يشربونه فيختلط به ماملؤا منه البطون من الزقّوم .

و قوله : «ثمّ إنّ مرجعهم لإلى الجحيم » أي إنّهم بعد شرب الحميم يرجعون إلى الجحيم فيستقرّون فيها و يعذّبون ، و في الآية تلويح إلى أنّ الحميم خارج الجحيم .

و قوله : « إنّهم ألفوا آباءهم ضالّين فهم على آثارهم يهرعون » ألفيت كذا أي وجدته و صادفته ، و الإهراع الإسراع و المعنى أنّ سبب أكلهم و شربهم ثمّ رجوعهم إلى الجحيم أنّهم صادفوا آباءهم ضالّين ـ وهم مقلّدون وأتباع لهم وهم أصلهم ومرجعهم ـ فهم يسرعون على آثارهم فجوزوا بنزل كذلك والرجوع إلى الجحيم جزاء وفاقا .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله تعالى : « بل عجبت » قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : عجبت بالقرآن حين اُنزل و يسخر منه ضلّال بني آدم .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « اُحشروا الّذين ظلموا » قال : الّذين ظلموا آل محمّد عليهم السلام حقّهم « و أزواجهم » قال : أشباههم .

اقول : صدر الرواية من الجري .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وقفوهم إنّهم مسؤلون » قيل :عن ولاية علي عليه السلام عن أبي سعيد الخدريّ .

اقول و رواه الشيخ في الأمالي بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ، و في العيون عن عليّ و عن الرضا عليهما السلام عنه صلّى الله عليه وآله ، و في تفسير القمي عن الإمام عليه السّلام .

وفي الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : لاتزول قدم عبد يوم القيامه حتّى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وشبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين كسبه وفيما أنفقه ، وعن حبّنا أهل البيت .

اقول : و روى في العلل عنه صلّى الله عليه وآله مثله .

و في نهج البلاغة : اتّقوا الله في عباده و بلاده فإنّكم مسؤلون حتّى عن البقاع و البهائم .

و في الدرّ المنثور أخرج البخاري في تاريخه و الترمذيّ والدارميّ وابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : مامن داع دعا إلى شيء إلّا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لايفارقه وإن دعا رجل رجلا ثمّ قرء « وقفوهم إنّهم مسؤلون » .

وفي روضة الكافي بإسناده عن محمّد بن إسحاق المدنيّ عن أبي جعفر عليه السلام عن النبيّ صلّى الله عليه وآله في حديث : و أمّا قوله : « اُولئك لهم رزق معلوم » قال : يعلمه[1] الخدّام فيأتون به إلى أولياء الله قبل أن يسألوهم إيّاه . أمّا قوله : «فواكه و هم مكرمون» قال : فإنّهم لا يشتهون شيأ في الجنّة إلّا اُكرموا به.

و في تفسير القمّي و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام « فاطّلع فرآه في سواء الجحيم » يقول : في وسط الجحيم .

و فيه في قوله تعالى : « أفما نحن بميّتين » الخ بإسناده عن أبيه عن عليّ بن مهزيار و الحسن بن محبوب عن النضر بن سويد عن درست عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : إذا دخل أهل الجنّة الجنّة و أهل النار النار جييء بالموت و يذبح كالكبش بين الجنّة و النار ثمّ يقال : خلود فلا موت أبدا فيقول أهل الجنّة : « أفما

(۱) يعنى : خ .

نحن بميّتين إلّا موتتنا الأُولى و ما نحن بمعذّبين إنّ هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون » .

أقول :وحديث ذبح الموت في صورةكبش يوم القيامة من المشهورات رواه الشيعة و أهل السنّة ، و هو تمثّل الخلود يومئذ .

و في المجمع في قوله تعالى:«شجرة الزقوم» روي أنّ قريشا لمّا سمعت هذه الآية قالت : ما نعرف هذه الشجرة قال ابن الزبعرى : الزقّوم بكلام البربر التمر و الزبد و في رواية بلغة اليمن فقال أبوجهل لجاريته:يا جارية زقّمينا فأتته الجارية بتمر و زبد فقال لأصحابه:تزقّموا بهذا الّذي يخوّفكم به محمّد فيزعم أنّ النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر فأنزل الله سبحانه « إنّا جعلناها فتنة للظالمين » .

أقول : و هذا المعنى مرويّ بطرق عديدة .



☆☆☆

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبلَهُم أَكثَرُ الأَوَّلِينَ (٧١) وَ لَقَدْ أَرسَلنَا فِيهِم مُنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُنذَرِينَ (٧٣) الَّا عِبَادَ اللّٰهِ المُخلَصِينَ (٧٤) وَ لَقَدْ نَادٰينَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ المُجِيبُونَ (٧٥) وَ نَجَّينَاهُ وَ اَهلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ (٧٦) وَ جَعَلنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ (٧٧) وَ تَرَكنَا عَلَيهِ فِي الآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلٰى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ (٧٩) انَّا كَذٰلِكَ نَجزِى المُحسِنِينَ (٨٠) انَّهُ مِن عِبَادِنَا المُؤمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغرَقنَا الآخَرِينَ(٨٢) وَ انَّ مِن شِيعَتِهِ لَابرَاهِيمَ(٨٣) اذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) اذْ قَالَ لِابِيهِ وَ قَومِهِ مَاذَا تَعبُدُونَ (٨٥) أَئِفكًا آلِهَةً دُونَ اللّٰهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ انِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوا عَنهُ مُدبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ الٰى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ الَا تَأكُلُونَ (٩١) مَالَكُم لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيهِمْ ضَربًا بِاليَمِينِ (٩٣) فَأَقبَلُوا الَيهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعبُدُونَ مَا تَنحِتُونَ (٩٥) وَ اللّٰهُ خَلَقَكُم وَ مَا تَعمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابنُوا لَهُ بُنيَانًا فَأَلقُوهُ فِي الجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيدًا فَجَعَلنَاهُمُ الأَسفَلِينَ (٩٨) وَ قَالَ انِّي ذَاهِبٌ الٰى رَبِّي سَيَهدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعيَ قَالَ يَا بُنَيَّ انِّي أَرٰى فِي المَنَامِ انِّي أَذبَحُكَ

فانظر ما ذا ترى قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين (١٠٢) فلما أسلما و تله للجبين (١٠٣) و ناديناه أن يا ابراهيم (١٠٤) قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين (١٠٥) ان هذا لهو البلاء المبين (١٠٦) و فديناه بذبح عظيم (١٠٧) و تركنا عليه في الآخرين (١٠٨) سلام على ابراهيم (١٠٩) كذلك نجزي المحسنين (١١٠) انه من عبادنا المؤمنين (١١١) و بشرناه باسحق نبيا من الصالحين (١١٢) و باركنا عليه و على اسحق و من ذريتهما محسن و ظالم لنفسه مبين (١١٣) .

﴿ بيان ﴾

تعقيب لغرض السياق السابق المتعرّض لشركهم وتكذيبهم بآيات الله و تهديدهم بأليم العذاب يقول: إنّ أكثر الأوّلين ضلّوا كضلالهم وكذّبوا الرسل المنذرين كتكذيبهم و يستشهد بقصص نوح و إبراهيم و موسى و هارون و إلياس و لوط و يونس عليهم السلام و ما في الآيات المنقولة إشارة إلى قصّة نوح و خلاصة قصص إبراهيم عليهما السلام .

قوله تعالى : « و لقد ضلّ قبلهم أكثر الأوّلين ـ إلى قوله ـ المخلصين » كلام مسوق لإنذار مشركي هذه الاُمّة بتنظيرهم للاُمم الهالكين من قبلهم فقد ضلّ أكثرهم كما ضلّ هؤلاء و اُرسل إليهم رسل منذرون كما اُرسل منذر إلى هؤلاء فكذّبوا فكان عاقبة أمرهم الهلاك إلّا المخلصين منهم .

و اللّام في « لقد ضلّ » للقسم وكذا في « لقد أرسلنا » و المنذرين الأوّل بكسر الذال المعجمة و هم الرسل، و الثاني بفتح الذال المعجمة و هم الاُمم الأوّلون، و «إلّا

عباد الله » إن كان المراد بهم من في الأمم من المخلصين كان استثناء متّصلا و إن عمّ الأنبياء كان منقطعا إلّا بتغليبه غير الأنبياء عليهم و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « و لقد نادانا نوح فلنعم المجيبون » اللّامان للقسم و هو يدلّ على كمال العناية بنداء نوح و إجابته تعالى ، و قد مدح تعالى نفسه في إجابته فإنّ التقدير فلنعم المجيبون نحن، و جمع المجيب لإفادة التعظيم و قدكان نداء نوح -على ما يفيده السياق - دعاءه على قومه و استغاثته بربّه المنقولين في قوله تعالى : « و قال نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا » نوح :٢٦، و في قوله تعالى :«فدعا ربّه أنّي مغلوب فانتصر » القمر : ١٠ .

قوله تعالى : « و نجّيناه و أهله من الكرب العظيم » الكرب - على ما ذكره الراغب - الغمّ الشديد و المراد به الطوفان أو أذى قومه ، و المراد بأهله أهل بيته و المؤمنون به من قومه و قد قال تعالى في سورة هود : « قلنا احمل فيها من كلّ زوجين اثنين و أهلك إلّا من سبق عليه القول و من آمن » هود : ٤٠ و الأهل كما يطلق على زوج الرجل و بنيه يطلق على كلّ من هو من خاصّته .

قوله تعالى : « و جعلنا ذرّيّته هم الباقين » أي الباقين من الناس بعد قرنهم و قد بحثنا في هذا المعنى في قصّة نوح من سورة هود .

قوله تعالى : «و تركنا عليه في الآخرين » المراد بالترك الإبقاء و بالآخرين الأمم الغابرة غير الأوّلين ، و قد ذكرت هذه الجملة بعد ذكر إبراهيم عليه‌السلام أيضاً في هذه السورة و قد بدّلت في القصّة بعينها من سورة الشعراء من قوله: « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » الشعراء : ٨٤ و استفدنا منه هناك أنّ المراد بلسان صدق كذلك أن يبعث الله بعده من يقوم بدعوته و يدعو إلى ملّته و هي دين التوحيد .

فيتأيّد بذلك أنّ المراد بالإبقاء في الآخرين هو إحياؤه تعالى دعوة نوح عليه‌السلام إلى التوحيد و مجاهدته في سبيل الله عصراً بعد عصر و جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة.

قوله تعالى : « سلام على نوح في العالمين » المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعا محلّى باللّام مفيدا للعموم ، و الظاهر أنّ المراد به عالموا البشر و أممهم و جماعاتهم إلى

يوم القيامة فإنّه تحيّة من عند الله مباركة طيّبة تهدى إليه من قبل الاُمم الإنسانيّة ماجرى فيها شيء من الخيرات اعتقادا أوعملا فإنّه عليه السلام أوّل من انتهض لدعوه التوحيد و دحض الشرك و ما يتبعه من العمل و قاسى في ذلك أشدّ المحنة فيما يقرب من ألف سنة لا يشاركه في ذلك أحد فله نصيب من كلّ خير واقع بينهم إلى يوم القيامة ، و لا يوجد في كلامه تعالى سلام على هذه السعة على أحد ممّن دونه .

و قيل : المراد بالعالمين عوالم الملائكة و الثقلين من الجنّ و الإنس .

قوله تعالى : « إنّا كذلك نجزي المحسنين » تعليل لما امتنّ عليه من الكرامة كإجابة ندائه وتنجيته وأهله من الكرب العظيم و إبقاء ذرّيته وتركه عليه في الآخرين و السلام عليه من العالمين ، و تشبيه جزائه بجزاء عموم المحسنين من حيث أصل الجزاء الحسن لا في خصوصيّاته فلا يوجب ذلك اشتراك الجميع فيما اختصّ به عليه السلام و هو ظاهر .

قوله تعالى : « إنّه من عبادنا المؤمنين » تعليل لإحسانه المدلول عليه بالجملة السابقة و ذلك لأنّه عليه السلام لكونه عبداً لله بحقيقة معنى الكلمة كان لا يريد ولا يفعل إلّا ما يريده الله ، و لكونه من المؤمنين حقّاً كان لا يرى من الاعتقاد إلّا الحقّ و سرى ذلك إلى جميع أركان وجوده و من كان كذلك لا يصدر منه إلّا الحسن الجميل فكان من المحسنين .

قوله تعالى : « ثمّ أغرقنا الآخرين » ثمّ للتراخي الكلاميّ دون الزمانيّ و المراد بالآخرين قومه المشركون .

قوله تعالى : « و إنّ من شيعته لإبراهيم » الشيعة هم القوم المشايعون لغيرهم الذاهبون على أثرهم و بالجملة كلّ من وافق غيره في طريقته فهو من شيعته تقدّم أو تأخّر قال تعالى : « و حيل بينهم و بين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل » سبأ : ۵۴ .

و ظاهر السياق أنّ ضمير « شيعته » لنوح أي إنّ إبراهيم كان ممّن يوافقه في دينه وهو دين التوحيد ، و قيل : الضمير لمحمّد صلى الله عليه وآله ولا دليل عليه من جهة اللفظ .

قيل: و من حسن الإرداف في نظم الآيات تعقيب قصّة نوح عليه‌السلام و هو آدم الثاني أبو البشر بقصّة إبراهيم عليه‌السلام و هو أبو الأنبياء إليه تنتهي أنساب جلّ الأنبياء بعده و على دينه تعتمد أديان التوحيد الحيّة اليوم كدين موسى و عيسى و محمّد عليهم‌السلام، و أيضا نوح عليه‌السلام نجّاه الله من الغرق و إبراهيم عليه‌السلام نجّاه الله من الحرق.

قوله تعالى: «إذ جاء ربّه بقلب سليم» مجيئه ربّه كناية عن تصديقه له و إيمانه به، و يؤيّد ذلك أنّ المراد بسلامة القلب عروّه عن كلّ ما يضرّ التصديق و الإيمان بالله سبحانه من الشرك الجليّ و الخفيّ و مساوي الأخلاق و آثار المعاصي و أيّ تعلّق بغيره ينجذب إليه الإنسان و يختلّ به صفاء توجّهه إليه سبحانه.

و بذلك يظهر أنّ المراد بالقلب السليم ما لا تعلّق له بغيره تعالى كما في الحديث و سيجيء إن شاء الله في البحث الروائيّ الآتي.

و قيل: المراد به السالم من الشرك، و يمكن أن يوجّه بما يرجع إلى الأوّل و قيل: المراد به القلب الحزين، و هو كما ترى.

و الظرف في الآية متعلّق بقوله سابقا «من شيعته» و الظروف يغتفر فيها مالا يغتفر في غيرها، و قيل متعلّق باُذكر المقدّر.

قوله تعالى: «إذ قال لأبيه و قومه ما ذا تعبدون» أي أيّ شيء تعبدون؟ و إنّما سألهم عن معبودهم و هو يرى أنّهم يعبدون الأصنام تعجّبا و استغرابا.

قوله تعالى: «ءإفكا آلهة دون الله تريدون» أي تقصدون آلهة دون الله إفكا و افتراء، و إنّما قدّم الإفك و الآلهة لتعلّق عنايته بذلك.

قوله تعالى: «فنظر نظرة في النجوم فقال إنّي سقيم» لاشكّ أنّ ظاهر الآيتين أنّ إخباره عليه‌السلام بأنّه سقيم مرتبط بنظرته في النجوم و مبنيّ عليه و نظرته في النجوم إمّا لتشخيص الساعة و خصوص الوقت كمن به حمّى ذات نوبة يعيّن وقتها بطلوع كوكب أو غروبها أو وضع خاصّ من النجوم و إمّا للوقوف على الحوادث المستقبلة الّتي كان المنجّمون يرون أنّ الأوضاع الفلكيّة تدلّ عليها، و قد كان الصابئون مبالغين فيها و كان في عهده عليه السلام منهم جمّ غفير.

فعلى الوجه الأوّل لمّا أراد أهل المدينة أن يخرجوا كافّة إلى عيدلهم نظر إلى النجوم و أخبرهم أنّه سقيم ستعتريه العلّة فلايقدر على الخروج معهم .

و على الوجه الثاني نظر عليه‌السلام حيئذاك إلى النجوم نظرة المنجّمين فأخبرهم أنّها تدلّ على أنّه سيسقم فليس في وسعه الخروج معهم .

و أوّل الوجهين أنسب لحاله عليه‌السلام وهو في إخلاص التوحيد بحيث لايرى لغيره تعالى تأثيرا ، و لا دليل لناقويّا يدلّ على أنّه عليه‌السلام لم يكن به في تلك الأيّام سقم أصلا ، وقد أخبر القرآن با خباره بأنّه سقيم وذكر سبحانه قبيل ذلك أنّه جاء ربّه بقلب سليم فلايجوز عليه كذب و لا لغومن القول .

ولهم في الآيتين وجوه اُخر أوجهها أنّ نظرته في النجوم و إخباره بالسقم من المعاريض في الكلام و المعاريض أن يقول الرجل شيأ يقصد به غيره ويفهم منه غير ما يقصده فلعلّه نظر عليه‌السلام في النجوم نظر الموحّد في صنعه تعالى يستدلّ به عليه تعالى وعلى وحدانيّته وهم يحسبون أنّه ينظر إليها نظر المنجّم فيها ليستدلّ بها على الحوادث ثمّ قال : إنّي سقيم يريد أنّه سيعتريه سقم فإنّ الإنسان لايخلو في حياته من سقم مّا ومرض مّا كما قال : « و إذا مرضت فهو يشفين » الشعراء : ٨٠ وهم يحسبون أنّه يخبر عن سقمه يوم يخرجون فيه لعيدلهم ، والمرجّح عنده لجميع ذلك ماكان يهتمّ به من الرواغ إلى أصنامهم وكسرها .

لكنّ هذا الوجه مبنيّ على أنّه كان صحيحا غير سقيم يومئذ ، وقد سمعت أن لادليل يدلّ عليه .

على أنّ المعاريض غير جائزة على الأنبياء لارتفاع الوثوق بذلك عن قولهم.

قوله تعالى : « فتولّوا عنه مدبرين » ضمير الجمع للقوم و ضمير الإفراد لإبراهيم عليه‌السلام أي خرجوا من المدينة وخلّفوه .

قوله تعالى : « فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون » الروغ و الرواغ و الروغان الحياد و الميل ، و قيل أصله الميل في جانب ليخدع من يريده.

و في قوله : « ألا تأكلون » ؟ تأييد لما ذكروا أنّ المشركين كانوا يضعون أيّام

أعيادهم طعاماً عند آلهتهم .

و قوله : « ألا تأكلون ؟ مالكم لاتنطقون » ؟ تكليم منه لآلهتهم وهي جماد وهو يعلم أنّها جماد لا تأكل ولا تنطق لكنّ الوجد و شدّة الغيظ حمله على أن يمثّل موقفها موقف العقلاء ثمّ يؤاخذها مؤاخذة العقلاء كما يفعل بالمجرمين .

فنظر إليها وهي ذوات أبدان كهيئة من يتغذّى ويأكل و عندها شيء من الطعام فامتلأ غيظا و جاش وجدا فقال : ألا تأكلون ؟ فلم يسمع منها جوابا فقال : « مالكم لاتنطقون » ؟ و أنتم آلهة يزعم عبّادكم أنّكم عقلاء قادرون مدبّرون لاُمورهم فلمّا لم يسمع لها حسّا راغ عليها ضربا باليمين .

قوله تعالى : « فراغ عليهم ضربا باليمين » أي تفرّع على ذاك الخطاب أن مال على آلهتهم يضربهم ضربا باليد اليمنى أو بقوّة بناء على كون المراد باليمين القوّة.

و قول بعضهم : إنّ المراد باليمين القسم و المعنى مال عليهم ضربا بسبب القسم الّذي سبق منه وهو قوله : « تالله لأكيدنّ أصنامكم » الأنبياء : ٥٧ بعيد .

قوله تعالى : « فأقبلوا إليه يزفّون » الزفّ و الزفيف الإسراع في المشي أي فجاؤا إلى إبراهيم و الحال أنّهم يسرعون اهتماما بالحادثة الّتي يظنّون أنّه الّذي أحدثها .

و في الكلام إيجاز وحذف من خبر رجوعهم إلى المدينة و وقوفهم على ما فعل بالأصنام و تحقيقهم الأمر وظنّهم به عليه السلام مذكور في سورة الأنبياء .

قوله تعالى : « قال أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم و ما تعبدون » فيه إيجاز و حذف من حديث القبض عليه و الإتيان به على أعين الناس و مسألته وغيرها .

و الاستفهام للتوبيخ و فيه مع ذلك احتجاج على بطلان طريقتهم فهو يقول : لا يصلح مانحته الإنسان بيده أن يكون ربّا للإنسان معبوداً له والله سبحانه خلق الإنسان و ما يعمله و الخلق لا ينفكّ عن التدبير فهو ربّ الإنسان و من السفه أن يترك هذا و يعبد ذاك .

و قد بان بذلك أنّ الأظهر كون ما في قوله : « ماتنحتون » موصولة و التقدير

ما تنحتونه ، و كذا في قوله : « و ما تعملون » و جوّز بعضهم كون «ما» فيهما مصدريّة وهو في أوّلهما بعيد جدّا .

ولاضير في نسبة الخلق إلى ما عمله الإنسان أو إلى عمله لأنّ ما يريده الإنسان و يعمله من طريق اختياره مراد الله سبحانه من طريق إرادة الإنسان واختياره ولا يوجب هذا النوع من تعلّق الإرادة بالفعل بطلان تأثير إرادة الإنسان و خروج الفعل عن الاختيار وصيرورته مجبراً عليه ، و هو ظاهر .

ولو كان المراد نسبة خلق أعمالهم إلى الله سبحانه بلا واسطة لامن طريق إرادتهم بل بتعلّق إرادته بنفس عملهم و أفاد الجبر لكان القول أقرب إلى أن يكون عذراً لهم من أن يكون توبيخا و تقبيحا ، وكانت الحجّة لهم لا عليهم .

قوله تعالى : « قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم » البنيان مصدر بنى يبني و المراد به المبنيّ ، و الجحيم النار في شدّة تأجّجها .

قوله تعالى : « فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين » الكيد الحيلة و المراد احتيالهم إلى إهلاكه و إحراقه بالنار .

و قوله : « فجعلناهم الأسفلين » كناية عن جعل إبراهيم فوقهم لا يؤثّر فيه كيدهم شيأ إذ قال سبحانه : « يا نار كوني برداً و سلاماً على إبراهيم » الأنبياء : ٦٩ .

و قد اختتم بهذا فصل من قصص إبراهيم عليه‌السلام و هو انتهاضه أوّلا على عبادة الأوثان و اختصامه لعبّادها و انتهاء أمره إلى إلقائه النار و إبطاله تعالى كيدهم .

قوله تعالى : « و قال إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين » فصل آخر من قصته عليه‌السلام يذكر عزمه على المهاجرة من بين قومه واستيهابه من الله ولداً صالحاً و إجابته إلى ذلك و قصّة ذبحه و نزول الفداء .

فقوله : « و قال إنّي ذاهب إلى ربّي » الخ كالانجاز لما وعدهم به مخاطبا لآزر: « و أعتزلكم و ما تدعون من دون الله و أدعو ربّي عسى أن لا أكون بدعاء ربّي شقيّا » مريم:٤٨ ومنه يعلم أنّ مراده بالذهاب إلى ربّه الذهاب إلى مكان يتجرّد فيه لعبادته تعالى و دعائه و هو الأرض المقدّسة .

و قول بعضهم : إنّ المراد أذهب إلى حيث أمرني ربّي لا شاهد عليه .

و كذا قول بعضهم : إنّ المراد إنّي ذاهب إلى لقاء ربّي حيث يلقونني في النار فأموت و ألقى ربّي سيهديني إلى الجنّة .

و فيه - كما قيل - أنّ ذيل الآية لا يناسبه و هو قوله : « ربّ هب لي من الصالحين » و كذا قوله بعده : « فبشّرناه بغلام حليم » .

قوله تعالى : «ربّ هب لي من الصالحين» حكاية دعاء إبراهيم عليه السلام و مسألته الولد أي قال : ربّ هب لي الخ و قد قيّده بكونه من الصالحين .

قوله تعالى : « فبشّرناه بغلام حليم » أي فبشّرناه أنّا سنرزقه غلاما حليما و فيه إشارة إلى أنّه يكون ذكراً و يبلغ حدّ الغلمان ، و أخذ الغلومة في وصفه مع أنّه بلغ مبلغ الرجال للإشارة إلى حاله الّتي يظهر فيها صفة كماله و صفاء ذاته و هو حلمه الّذي مكّنه من الصبر في ذات الله إذ قال : « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » .

و لم يوصف في القرآن من الأنبياء بالحلم إلّا هذا النبيّ الكريم في هذه الآية و أبوه في قوله تعالى : « إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب » هود : ٧٥ .

قوله تعالى : «فلمّا بلغ معه السعي قال يا بنيّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ما ذا ترى » الخ الفاء في أوّل الآية فصيحة تدلّ على محذوف و التقدير فلمّا ولده و نشأ و بلغ معه السعي ، و المراد ببلوغ السعي بلوغه من العمر مبلغا يسعى فيه لحوائج الحياة عادة وهو سنّ الرهاق ، و المعنى فلمّا راهق الغلام قال له يا بنيّ الخ.

و قوله : « قال يا بنيّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك » هي رؤيا إبراهيم ذبح ابنه ، و قوله : « إنّي أرى » يدلّ على تكرّر هذه الرؤيا له كما في قوله: «و قال الملك إنّي أرى » الخ يوسف : ٤٣ .

و قوله : «فانظر ماذا ترى » هو من الرأي بمعنى الاعتقاد أي فتفكّر فيما قلت و عيّن ما هو رأيك فيه ، و هذه الجملة دليل علي أنّ إبراهيم عليه السلام فهم من منامه أنّه

أمر له بالذبح مثّل له في مثال نتيجة الأمرو لذا طلب من ابنه الرأي فيه و هو يَختبره بما ذا يجيبه ؟

و قوله : « قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » جواب ابنه ، و قوله : « يا أبت افعل ما تؤمر » إظهار رضى بالذبح في صورة الأمر و قد قال: افعل ما تؤمر و لم يقل : اذبحني إشارة إلى أنّ أباه مأمور بأمر ليس له إلّا ائتماره و طاعته .

وقوله : «ستجدني إن شاء الله من الصابرين» تطييب منه لنفس أبيه أنّه لايجزع منه و لا يأتي بما يهيّج وجد الوالد عن ولده المزمّل بدمائه ، و قد زاد في كلامه صفاء على صفاء إذ قيّد وعده بالصبر بقوله : « إن شاء الله » فأشار إلى أنّ اتّصافهبهذه الصفة الكريمة أعني الصبر ليس له من نفسه ولا أنّ زمامه بيده بلهو من مواهب الله و مننه إن يشأتلبّس به و له أن لا يشاء فينزعه منه .

قوله تعالى : « فلمّا أسلما و تلّه للجبين » الاسلام الرضا و الاستسلام ،والتلّ الصرع ، و الجبين أحد جانبي الجبهة و اللّام في « للجبين » لبيان ما وقع عليه الصرع كقوله : « يخرّون للأذقان سجّداً » أسرى : ١٠٧ ، و المعنى فلمّا استسلما إبراهيم و ابنه لأمر الله و رضيا به وصرعه إبراهيم على جبينه .

وجواب لمّا محذوف إيماء إلى شدّة المصيبة و مرارة الواقعة .

قوله تعالى : « و ناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا » معطوف علىجواب لمّا المحذوف ، وقوله : « قد صدّقت الرؤيا » أي أوردتها مورد الصدق وجعلتهاصادقة و امتثلت الأمر الّذي أمرناك فيها أي إنّ الأمر فيها كان امتحانيّا يكفي في امتثاله تهيّؤ المأمور للفعل و إشرافه عليه فحسب .

قوله تعالى :« إنّاكذلك نجزي المحسنين إنّ هذا لهو البلاء المبين »الاشارة بكذلك إلى قصّة الذبح بما أنّها محنة شاقّة وابتلاء شديد و الاشارة بهذا إليهاأيضاً وهو تعليل لشدّة الأمر .

والمعني إنّا على هذه الوتيرة نجزي المحسنين فنمتحنهم امتحانات شاقّة صورةهيّنة

معنى فإذا أتمّوا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء في الدنيا و الآخرة ، و ذلك لأنّ الّذي ابتلينا به إبراهيم لهو البلاء المبين .

قوله تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » أي و فدينا ابنه بذبح عظيم و كان كبشا أتاه به جبريل من عندالله سبحانه فداء على ما في الأخبار ، و المراد بعظمة الذبح عظمة شأنه بكونه من عندالله سبحانه و هو الّذي فدى به الذبيح .

قوله تعالى : « و تركنا عليه في الآخرين » تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : « سلام على إبراهيم » تحيّة منه تعالى عليه و في تنكير سلام تفخيم له .

قوله تعالى : « إنّا كذلك نجزي المحسنين إنّه من عبادنا المؤمنين » تقدّم تفسير الآيتين .

قوله تعالى : « و بشّرناه بإسحاق نبيّاً من الصالحين » الضمير لإبراهيم عليه السلام .

و اعلم أنّ هذه الآية المتضمّنة للبشرى بإسحاق بوقوعها بعد البشرى السابقة بقوله : « فبشّرناه بغلام حليم » المتعقّبة بقوله : « فلمّا بلغ معه السعي » إلى آخر القصّة ظاهرة كالصريحة أو هي صريحة في أنّ الذبيح غير إسحاق و هو إسماعيل عليه السلام وقد فصّلنا القول في ذلك في قصص إبراهيم عليه السلام من سورة الأنعام .

قوله تعالى : « وباركنا عليه و على إسحاق ومن ذرّيّتهما محسن و ظالم لنفسه مبين » المباركة على شيء جعل الخير والنماء والثبات فيه أي وجعلنا فيما أعطينا إبراهيم و إسحاق الخير الثابت والنماء .

و يمكن أن يكون قوله : « و من ذرّيّتهما » الخ قرينة على أنّ المراد بقوله: « باركنا » إعطاء البركة و الكثرة في أولاده و أولاد إسحاق ، والباقي ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « بقلب سليم » قال : القلب السليم الّذي يلقى الله عزّ وجلّ وليس فيه أحد سواه .

و فيه قال : القلب السليم من الشكّ .

وفي روضة الكافي باسناده عن حجر عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال أبوجعفر عليه السلام: عاب آلهتهم فنظر نظرة في النجوم فقال إنّي سقيم . قال أبوجعفر عليه السلام : و الله ما كان سقيما وماكذب .

أقول : وفي معناه روايات اُخر و في بعضها : ماكان إبراهيم سقيما وماكذب إنّما عنى سقيما في دينه مرتادا .

وقد تقدّم الروايات في قصّة حجاج إبراهيم عليه السلام قومه وكسره الأصنام وإلقائه في النار في تفسير سور الأنعام و مريم و الأنبياء والشعراء .

و في التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث وقد سأله رجل عمّا اشتبه عليه من الآيات قال : وقد أعلمتك أنّ ربّ شيء من كتاب الله عزّوجلّ تأويله غير تنزيله ولا يشبه كلام البشر و سأنبّئك بطرف منه فتكتفي إن شاء الله .

من ذلك قول إبراهيم عليه السلام : « إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين » فذهابه إلى ربّه توجّهه إليه عبادة و اجتهاداً و قربة إلى الله عزّ و جلّ ألا ترى أنّ تأويله غير تنزيله؟

وفيه باسناده عن الفتح بن يزيد الجرجانيّ عن أبي الحسن عليه السلام قال : يافتح إنّ لله إرادتين و مشيّتين : إرادة حتم ، و إرادة عزم ينهى و هو يشاء ذلك و يأمر وهو لا يشاء أو ما رأيت أنّه نهى آدم وزوجته عن أن يأكلا من الشجرة وهو يشاء ذلك ؟ولو لم يشأ لم يأكلا ، ولو أكلا لغلبت شهوتهما مشيّة الله تعالى ، و أمر إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام وشاء أن لا يذبحه ولو لم يشا أن لا يذبحه لغلبت مشيّة إبراهيم مشيّة الله عزّوجلّ . قلت : فرّجت عنّي فرّج الله عنك .

و عن أمالي الشيخ باسناده إلى سليمان بن يزيد قال : حدّثنا عليّ بن موسى قال : حدّثني أبي عن أبيه عن أبي جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : الذبيح إسماعيل عليه السلام .

اقول : و روى مثله في المجمع عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام ، و بهذا المضمون روايات كثيرة اُخرى عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، وقد وقع في بعض رواياتهم أنّه إسحاق

وهو مطروح بمخالفة الكتاب .

و عن الفقيه سئل الصادق عليه السلام عن الذبيح من كان ؟ فقال : إسماعيل لأنّ الله تعالى ذكر قصّته في كتابه ثمّ قال : « وبشّرناه بإسحاق نبيّاً من الصالحين ».

اقول : هذا ماتقدّم في بيان الآية أنّ الآية بسياقها ظاهرة بل صريحة في ذلك.

و في المجمع عن ابن إسحاق أنّ إبراهيم كان إذا زار إسماعيل و هاجر حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكّة ويروح من مكّة فيبيت عند أهله بالشام حتّى إذا بلغ معه السعي رآى في المنام أن [١] يذبحه فقال له : يا بنيّ خذ الحبل و المدية [٢] ثمّ انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب .

فلمّا خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما قد ذكره الله عنه فقال : يا أبت اشدد رباطي حتّى لا أضطرب واكفف عنّي ثيابك حتّى لا ينتضح من دمي شيء فيراه اُمّي و اشحذ شفرتك وأسرع مرّ السكّين على حلقي ليكون أهون عليّ فإنّ الموت شديد فقال له إبراهيم : نعم العون أنت يا بنيّ على أمر الله .

ثمّ ساق القصّة و فيها ثمّ انحنى إليه بالمدية و قلّب جبرائيل المدية على قفاها واجترّ الكبش من قبل ثبير واجترّ الغلام من تحته ووضع الكبش مكان الغلام، و نودي من ميسرة مسجد الخيف : يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا .

اقول : و الروايات في القصّة كثيرة و لا تخلو من اختلاف .

وفيه : روى العيّاشي بإسناده عن بريد بن معاوية العجليّ قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : كم كان بين بشارة إبراهيم بإسماعيل و بين بشارته بإسحاق عليه السلام ؟ قال: كان بين البشارتين خمس سنين قال الله سبحانه فبشّرناه بغلام حليم يعني إسماعيل وهي أوّل بشارة بشّر الله به إبراهيم عليه السلام في الولد .

---

(١) أنه ظ
(٢) المدية السكين .

☆☆☆

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (۱۱۴) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۱۱۵) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (۱۱۶) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (۱۱۷) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (۱۱۸) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (۱۱۹) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (۱۲۰) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۲۱) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۲۲) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۲۳) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (۱۲۴) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (۱۲۵) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۱۲۶) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۲۷) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۲۸) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (۱۲۹) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (۱۳۰) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۳۱) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) .

﴿بيان﴾

ملخّص قصّة موسى و هارون و إشارة إلى قصّة إلياس عليه السلام . و بيان ما أنعم الله عليهم و عذّب مكذّبيهم و جانب الرحمة يربو فيها على جانب العذاب و التبشير يزيد على الإنذار .

قوله تعالى : « ولقد مننّا على موسى و هارون » المنّ الإنعام و من المحتمل أن يكون المراد به ماسيعدّه ممّا أنعم عليهما و على قومهما من التنجية و النصر و إيتاء

الكتاب والهداية وغيرها فيكون قوله : « ونجّيناهما » الخ من عطف التفسير .

قوله تعالى : « ونجّيناهما وقومهما من الكرب العظيم» وهو الغمّ الشديدمن استضعاف فرعون لهم يسومهم سوءالعذاب ويذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

قوله تعالى : « ونصرناهم فكانواهم الغالبين » وهو الّذي أدّى إلى خروجهممن مصر وجوازهم البحر وهلاك فرعون وجنوده.

و بذلك يندفع ماتوهّم أنّ مقتضى الظاهر أن يذكر النصر قبل التنجيةلتوقّفها عليه ، و ذلك أنّ النصر إنّمايكون فيما إذاكان للمنصور قوّة مالكنّها لاتكفي لدفع الشرّ فتتمّ بالنصر وكانلبني إسرائيل عند الخروج من مصر بعض القوّة فناسب إطلاق النصر على إعانتهم على ذلك بخلاف أصل تخليصهم من يدفرعون فإنّهم كانوا اُسراء مستعبدين لاقوّة لهم فلايناسب هذا الاعتبار إلّا ذكر التنجيةدون النصر .

قوله تعالى : « و آتيناهما الكتاب المستبين » أي يستبين المجهولات الخفيّة فيبيّنها وهي الّتي يحتاج إليها الناس في دنياهم وآخرتهم .

قوله تعالى : « و هديناهما الصراط المستقيم » المراد بها الهداية بتمام معنى الكلمة ، ولذا خصّها بهما ولميشرك فيهامعهما قومهما ، وقد تقدّمكلام في معنىالهداية إلى الصراط المستقيم في سورة الفاتحة .

قوله تعالى : « و تركنا عليهما في الآخرين ـ إلى قوله ـ المؤمنين » تقدّم تفسيرها .

قوله تعالى : « وإنّ إلياس لمنالمرسلين » قيل : إنّه عليه السلام منآلهارون كان مبعوثا إلى بعلبكّ [1] ولم يذكر في كلامه مايستشهد به عليه .

قوله تعالى : « إذقال لقومه ألاتتّقون أتدعون بعلا و تذرون أحسن الخالقين ـ إلى قوله ـ الأوّلين » شطر من دعوته عليه‌السلام يدعوقومه فيها إلى التوحيد و يوبّخهم على عبادة بعل ـ صنم كانلهم ـ وترك عبادة الله سبحانه .

و كلامه عليه‌السلام على ما فيه من التوبيخ و اللّوم يتضمّن حجّة تامّة على توحيده

(١) ولعلهم أخذوه من بعل فقد قيل : ان بعلبك سمي بهلان بعلاكان منصوبافيمعبدفيه.

تعالى فإنّ قوله : « وتذرون أحسن الخالقين الله ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين » يوبّخهم أوّلا على ترك عبادة أحسن الخالقين ، و الخلق و الإيجاد كما يتعلّق بذوات الأشياء يتعلّق بالنظام الجاري فيها الّذي يسمّى تدبيرا فكما أنّ الخلق إليه تعالى فالتدبير أيضاً إليه فهو المدبّر كما أنّه الخالق ؛ و أشار إلى ذلك بقوله : « الله ربّكم » بعد وصفه تعالى بأحسن الخالقين .

ثمّ أشار إلى أنّ ربوبيّته تعالى لا تختصّ بقوم دون قوم كالأصنام الّتي يتّخذ كلّ قوم بعضا منها دون بعض فيكون صنم ربّا لقوم دون آخرين بل هو تعالى ربّ لهم ولآبائهم الأوّلين لا يختصّ ببعض دون بعض لعموم خلقه وتدبيره ، و إليه أشار بقوله : « الله ربّكم و ربّ آبائكم الأوّلين ».

قوله تعالى : « فكذّبوه فإنّهم لمحضرون » أي مبعوثون ليحضروا العذاب، وقد تقدّم أنّ الإحضار إذا اُطلق أفاد معنى الشرّ .

قوله تعالى : « إلّا عباد الله المخلصين » دليل على أنّه كان في قومه جمع منهم.

قوله تعالى : « وتركنا عليه في الآخرين ـ إلى قوله ـ المؤمنين» تقدّم الكلام في نظائرها .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « أتدعون بعلا » قال : كان لهم صنم يسمّونه بعلا.

و في المعاني بإسناده إلى قادح عن الصادق جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عن عليّ عليه السلام في قول الله عزّ و جلّ : « سلام على آل يس » قال : يس محمّد صلى الله عليه وآله و نحن آل يس .

أقول : و عن العيون عن الرضا عليه السلام مثله ، وهو مبنيّ على قراءة آل يس كما قرأه نافع وابن عامر ويعقوب وزيد .

﴿ كلام فى قصة الياس عليه السلام ﴾

١ - قصته فى القرآن : لم يذكر اسمه عليه السلام في القرآن الكريم إلّا في هذا الموضع و في سورة الأنعام عند ذكر هداية الأنبياء حيث قال : « وزكريّا ويحيى وعيسى و إلياس و كلّ من الصالحين » الأنعام : ٨٥ .

ولم يذكر تعالى من قصّته في هذه السورة إلّا أنّه كان يدعو إلى عبادة الله سبحانه قوما كانوا يعبدون بعلا فآمن به وأخلص الإيمان قوم منهم و كذّبه آخرون وهم جلّ القوم و إنّهم لمحضرون .

وقد أثنى الله سبحانه عليه في سورة الأنعام بما أثنى به على الأنبياء عامّة وأثنى عليه في هذه السورة بأنّه من عباده المؤمنين المحسنين و حيّاه بالسلام بناء على القراءة المشهورة «سلام على إل ياسين » .

٢ - الاحاديث فيه : ورد فيه عليه السلام أخبار مختلفة متهافتة كغالب الأخبار الواردة في قصص الأنبياء الحاكية للعجائب كالّذي روي عن ابن مسعود أنّ إلياس هو إدريس و ما عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله : أنّ الخضر هو إلياس ، و ما عن وهب و كعب الأحبار وغيرهما أنّ إلياس حيّ لا يموت إلى النفخة الاُولى ، و ما عن وهب أنّ إلياس سأل الله أن يريحه من قومه فأرسل الله إليه دابّة كهيئة الفرس في لون النار فوثب إليه فانطلق به فكساه الله الريش و النور وقطع عنه لذّة المطعم و المشرب فصار في الملائكة وما عن كعب الأحبار أنّ إلياس صاحب الجبال والبرّ و أنّه الّذي سمّاه الله بذي النون وما عن الحسن أنّ إلياس موكّل بالفيافي و الخضر موكّل بالجبال ، و ما عن أنس أنّ إلياس لاقى النبيّ صلى الله عليه وآله في بعض أسفاره فقعدا يتحدّثان ثمّ نزل عليهما مائدة من السماء فأكلا و أطعماني ثمّ ودّعه و ودّعني ثمّ رأيته مرّ على السحاب نحو السماء إلى غير ذلك [1] .

---

(١) رواها فى الدر المنثور فى تفسير آيات القصة .

وفي بعض أخبار الشيعة أنّه عليه السلام حيّ مخلّد [1] لكنّها ضعاف وظاهر آيات القصّة لا يساعد عليه.

و في البحار في قصّة إلياس عليه السلام عن قصص الأنبياء بالإسناد عن الصدوق بإسناده إلى وهب بن منبّه، ورواه الثعلبيّ في العرائس عن ابن إسحاق وعلماء الأخبار أبسط منه ـ والحديث طويل جدّا وملخّصه ـ أنّه بعد انشعاب ملك بني إسرائيل و تقسّمه بينهم سار سبط منهم إلى بعلبكّ وكان لهم ملك منهم يعبد صنما اسمه بعل ويحمل الناس على عبادته.

وكانت له مرأة فاجرة قد تزوّجت قبله بسبعة من الملوك وولدت تسعين ولداً سوى أبناء الأبناء، وكان الملك يستخلفها إذا غاب فتقضي بين الناس، و كان له كاتب مؤمن حكيم قد خلّص من يدها ثلاث مائة مؤمن تريد قتله، و كان في جوار قصر الملك رجل مؤمن له بستان وكان الملك يحترم جواره ويكرمه.

ففي بعض ما غاب الملك قتلت المرأة الجار المؤمن و غصبت بستانه فلمّا رجع و علم به عاتبه فاعتذرت إليه وأرضته فآلى الله تعالى على نفسه أن ينتقم منهما إن لم يتوبا فأرسل إليهم إلياس عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله و أخبرهما بما آلى الله فاشتدّ غضبهم عليه وهمّوا بتعذيبه و قتله فهرب منهم إلى أصعب جبل هناك فلبث فيه سبع سنين يعيش بنبات الأرض و ثمار الشجر.

فأمرض الله ابناً للملك يحبّه حبّا شديدا فاستشفع ببعل فلم ينفعه فقيل له: إنّه غضبان عليك إن لم تقتل إلياس فأرسل إليه فئة من قومه ليخدعوه و يقبضوا عليه فأرسل الله إليهم نارا فأحرقتهم ثمّ أرسل إليه فئة اُخرى من ذوي البأس مع كاتبه المؤمن فذهب معه إلياس صونا له من غضب الملك لكنّ الله سبحانه أمات ابنه فشغله حزنه عن إلياس فرجع سالما.

ثمّ لمّا طال الأمر نزل إلياس من الجبل و استخفى عند اُمّ يونس بن متّى في بيتها و يونس طفل رضيع ثمّ خرج بعد ستّة أشهر إلى الجبل ثانيا واتّفق أن مات بعده

(١) رواه في البحار عن قصص الانبياء.

يونس ثمّ أحياه الله بدعاء إلياس بعد ما خرجت اُمّه في طلبه فوجدته فتضرّعت إليه .

ثمّ إنّه سأل الله أن ينتقم له من بني إسرائيل و يمسك عنهم الأمطار فاُجيب و سلّط الله عليهم القحط فأجهدوا سنين فندموا فجاؤه فتابوا و أسلموا فدعا ابنه فأرسل عليهم المطر فسقاهم و أحيا بلادهم .

فشكوا إليه هدم الجدران و عدم البذر من الحبوب فأوحى إليه أن يأمرهم أن يبذروا الملح فأنبت لهم الحمص و أن يبذروا الرمل فأنبت لهم منه الدخن .

ثمّ لمّا كشف الله عنهم الضرّ نقضوا العهد و عادوا إلى أخبث ما كانوا عليه فأملّ ذلك إلياس فدعا الله أن يريحه منهم فأرسل الله إليه فرسا من نارفوثب عليه إلياس فرفعه الله إلى السماء و كساه الريش و النور فكان مع الملائكة .

ثمّ سلّط الله على الملك و امرأته عدوّا فقصدهما و ظهر عليهما فقتلهما و ألقى جيفتهما في بستان ذلك الرجل المؤمن الّذي قتلاه وغصبوا بستانه .

و أنت بالتأمّل فيما تقصّه الرواية لا ترتاب في ضعفها .

☆ ☆ ☆

وَ اِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) اِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) اِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَاِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَ بِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَ اِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) اِذْ اَبَقَ اِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ اِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْناهُ اِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ اِلى حِينٍ (١٤٨) .

﴿ بيان ﴾

خلاصة قصّة لوط عليه السلام ثمّ قصّة يونس عليه السلام و ابتلاء الله تعالى له بالحوت مأخوذا بما أعرض عن قومه عند ارتفاع العذاب عنهم بعد نزوله و إشرافه عليهم .

قوله تعالى : «وإنّ لوطا لمن المرسلين إذ نجّيناه و أهله أجمعين » و إنّما نجّاه و أهله من العذاب النازل على قومه و هو الخسف وإمطار حجارة من سجّيل على ما ذكره الله تعالى في سائر كلامه .

قوله تعالى : « إلّا عجوزا في الغابرين » أي في الباقين في العذاب المهلكين به و هي امرأة لوط .

قوله تعالى : «ثمّ دمّرنا الآخرين» التدمير الإهلاك، و الآخرين قومه الّذين اُرسل إليهم .

قوله تعالى : « و إنّكم لتمرّون عليهم مصبحين و بالليل أفلا تعقلون » فإنّهم على طريق الحجاز إلى الشام ، و المراد بالمرور عليهم المرور على ديارهم الخربة و هي اليوم مستورة بالماء على ما قيل .

قوله تعالى :«و إنّ يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون» أي السفينة المملوءة من الناس و الإباق هرب العبد من مولاه .

و المراد بإباقه إلى الفلك خروجه من قومه معرضا عنهم و هو عليه السلام و إن لم يعص في خروجه ذلك ربّه و لا كان هناك نهي من ربّه عن الخروج لكن خروجه إذ ذاك كان ممثّلا لإباق العبد من خدمة مولاه فأخذه الله بذلك ، وقد تقدّم بعض الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى : «وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظنّ أن لن نقدر عليه» الأنبياء:٨٧.

قوله تعالى : «فساهم فكان من المدحضين» المساهمة المقارعة و الإدحاض الغلبة أي فقارع من في السفينة فكان من المغلوبين، و قد كان عرض لسفينتهم الحوت فاضطرّوا إلى أن يلقوا واحداً منهم في البحر ليبتلعه ويخلّي السفينة فقارعوا فأصابت يونس عليه السلام .

قوله تعالى : « فالتقمه الحوت و هو مليم » الالتقام الابتلاع ، و مليم من ألام أي دخل في اللوم كأحرم إذا دخل في الحرم أو بمعنى صار ذا ملامة .

قوله تعالى : «فلولا أنّه كان من المسبّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون» عدّه من المسبّحين وهم الّذين تكرّر منهم التسبيح و تمكّن منهم حتّى صار وصفا لهم يدلّ على دوام تلبّسه زمانا بالتسبيح . قيل: أي من المسبّحين قبل التقام الحوت إيّاه،وقيل: بل في بطن الحوت ، و قيل : أي كان من المسبّحين قبل التقام الحوت و في بطنه .

و الّذي حكي من تسبيحه في كلامه تعالى قوله في سورة الأنبياء : « فنادى في الظلمات أن لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين » الأنبياء : ٨٧ و لازم ذلك أن يكون من المسبّحين في بطن الحوت خاصّة أو فيه و فيما قبله فاحتمال كون المراد تسبيحه قبل التقام الحوت مرجوح لاينبغي أن يصار إليه .

على أنّ تسبيحه مع اعترافه بالظلم في قوله : « سبحانك إنّي كنت من الظالمين» ـ على ما سيجيء ـ تسبيح له تعالى عمّا كان يشعر به[1] فعله من ترك قومه و ذهابه على وجهه، و قوله: «فلولا أنّه كان من المسبّحين» الخ يدلّ على أنّ تسبيحه كان هو السبب المستدعي لنجاته ، ولازم ذلك أن يكون إنّما ابتلي بما ابتلي به لينزّهه تعالى فينجو بذلك من الغمّ الّذي ساقه إليه فعله إلى ساحة العافية .

و بذلك يظهر أنّ العناية في الكلام إنّما هي بتسبيحه في بطن الحوت خاصّة فخير الأقوال الثلاثة أوسطها .

فالظاهر أنّ المراد بتسبيحه نداؤه في الظلمات بقوله: « لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين » و قد قدّم التهليل ليكون كالعلّة المبيّنة لتسبيحه كأنّه يقول : لا معبود بالحقّ يتوجّه إليه غيرك فأنت منزّه ممّا كان يشعر به فعلي أنّي آبق منك معرض عن عبوديّتك متوجّه إلى سواك إنّي كنت ظالما لنفسي في فعلي فها أنا متوجّه إليك متبرّىء ممّا كان يشعر به فعلي من التوجّه عنك إلى غيرك .

فهذا معنى تسبيحه ولو لا ذلك منه لم ينج أبدا إذ كان سبب نجاته منحصرا في التسبيح و التنزيه بالمعنى الّذي ذكر .

وبذلك يظهر أنّ المراد بقوله : « للبث في بطنه إلى يوم يبعثون » تأبيد مكثه في بطنه إلى أن يبعث فيخرج منه كالقبر الّذي يقبر فيه الإنسان و يلبث فيه حتّى يبعث فيخرج منه قال تعالى : « منها خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارة اُخرى » طـه : ٥٥ .

و لادلالة في الآية على كونه عليه‌السلام على تقدير اللبث حيّا في بطن الحوت إلى يوم يبعثون أو ميّتا و بطنه قبره مع بقاء بدنه و بقاء جسد الحوت على حالهما أو بنحو آخر فلامساغ لاختلافهم في كونه عليه‌السلام حيّا على هذا التقدير أو ميّتا و بطنه قبره، وأنّ المراد بيوم يبعثون النفخة الاُولى الّتي فيها يموت الخلائق أو النفخة الثانية أو التأجيل بيوم القيامة كناية عن طول اللبث .

---

(١) و هو أن الله لا يقدر عليه كما قال تعالى : « و ظن أن لن نقدر عليه» .

قوله تعالى : « فنبذناه بالعراء و هو سقيم » النبذ طرح الشيء و الرمي به ، و العراء المكان الّذي لا سترة فيه يستظلّ بها من سقف أوخباء أو شجر .

و المعنى على ما يعطيه السياق أنّه صار من المسبّحين فأخرجناه من بطن الحوت و طرحناه خارج الماء في أرض لاظلّ فيها يستظلّ به و هو سقيم .

قوله تعالى :« و أنبتنا عليه شجرة من يقطين» اليقطين من نوع القرع ويكون ورقه عريضا مستديرا و قد أنبتها الله عليه ليستظلّ بورقها .

قوله تعالى : « و أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » أو في موردالترقّي وتفيد معنى بل ، و المراد بهذه الجماعة أهل نينوى .

قوله تعالى : «فآمنوا فمتّعناهم إلى حين» أي آمنوا به فلم نعذّبهم و لم نهلكهم بما أشرف عليهم من العذاب فمتّعناهم بالحياة و البقاء إلى أجلهم المقدّر لهم .

و الآية في إشعارها برفع العذاب عنهم و تمتيعهم تشير إلى قوله تعالى : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلّا قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا و متّعناهم إلى حين » يونس : ٩٨ .

و لا يخلو السياق من إشعار ـ بل دلالة ـ على أنّ المراد من إرساله في قوله : « فأرسلناه » أمره بالذهاب ثانيا إلى القوم ، و بإيمانهم في قوله : «فآمنوا» الخ إيمانهم بتصديقه و اتّباعه بعد ما آمنوا و تابوا حين رأوا العذاب .

و من هنا يظهر ضعف ما استدلّ بعضهم بالآيتين أنّ إرساله إلى القوم كان بعد خروجه من بطن الحوت و أنّه اُمر أوّلا بالذهاب إلى أهل نينوى ودعوتهم إلى الله و كانوا يعبدون الأصنام فاستعظم الأمر وخرج من بيته يسير في الأرض لعلّ الله يصرف عنه هذا التكليف و ركب البحر فابتلاه الله بالحوت ثمّ لمّا نبذ بالعراء كلّف ثانياً فأجاب و أطاع و دعاهم فاستجابوا فدفع الله عذابا كان يهدّدهم إن لم يؤمنوا .

و ذلك أنّ السياق كما سمعت يدلّ على كون إرساله بأمر ثان و أنّ إيمانهم كان إيمانا ثانيا بعد الإيمان و التوبة و أنّ تمتيعهم إلى حين كان مترتّبا على إيمانهم به لا على كشف العذاب عنهم فلم يكن الله سبحانه ليتركهم لو لم يؤمنوا برسوله ثانيا كما

آمنوا به و تابوا إليه أوّلا في غيبته فافهم ذلك .

على أنّ قوله تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضبا » الأنبياء : ۸۷ و قوله : « ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم» نّ : ۴۸ لا يلائم ماذكروه ، وكذا قوله : «إلّا قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا » يونس: ۹۸ إذ لا يطلق الكشف إلّا في عذاب واقع حالّ أو مشرف .

﴿ كلام فى قصة يونس عليه السلام فى فصول ﴾

۱ ـ لم يتعرّض القرآن الكريم إلّا لطرف من قصّته و قصّة قومه فقد تعرّض في سورة الصافّات لإرساله ثمّ إباقه و ركوبه الفلك والتقام الحوت له ثمّ نجاته وإرساله إلى القوم و إيمانهم قال تعالى : « وإنّ يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت و هو مليم . فلولا أنّه كان من المسبّحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء و هو سقيم . و أنبتنا عليه شجرة من يقطين . و أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتّعناهم إلى حين » .

و في سورة الأنبياء لتسبيحه في بطن الحوت و تنجيته قال تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين فاستجبنا له و نجّيناه من الغمّ و كذلك ننجي المؤمنين » الأنبياء : ۸۷ ـ ۸۸ .

و في سورة ن لندائه مكظوما و خروجه من بطنه و اجتبائه قال تعالى : «فاصبر لحكم ربّك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . فلولا أن تداركه نعمة من ربّه لنبذ بالعراء و هو مذموم . فاجتباه ربّه فجعله من الصالحين » ن : ۵۰

و في سورة يونس لإيمان قومه و كشف العذاب عنهم قال تعالى : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلّا قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا و متّعناهم إلى حين » يونس : ۹۸ .

و خلاصة ما يستفاد من الآيات بضمّ بعضها إلى بعض و اعتبار القرائن الحافّة بها أنّ يونس عليه السلام كان من الرسل أرسله الله تعالى إلى قومه و هم جمع كثير يزيدون على مائة ألف فدعاهم فلم يجيبوه إلّا بالتكذيب و الردّ حتّى جاءهم عذاب أوعدهم به يونس ثمّ خرج من بينهم .

فلمّا أشرف عليهم العذاب و شاهدوه مشاهدة عيان أجمعوا على الإيمان والتوبة إلى الله سبحانه فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا .

ثمّ إنّ يونس عليه السلام استخبر عن حالهم فوجد العذاب انكشف عنهم ـ و كأنّه لم يعلم بإيمانهم و توبتهم ـ فلم يعد إليهم وذهب لوجهه على ما به من الغضب والسخط عليهم فكان ظاهر حاله حال من يأبق من ربّه مغاضبا عليه ظانّا أنّه لا يقدر عليه وركب البحر في فلك مشحون .

فعرض لهم حوت عظيم لم يجدوا بدّاً من أن يلقوا إليه واحدا منهم يبتلعه و ينجو الفلك بذلك فساهموا و قارعوا فيما بينهم فأصابت يونس عليه السلام فألقوه في البحر فابتلعه الحوت و نجت السفينة .

ثمّ إنّ الله سبحانه حفظه حيّا سويّا في بطنه أيّاماً و ليالي و يونس عليه السلام يعلم أنّها بليّة ابتلاه الله بها مؤاخذة بما فعل وهو ينادي في بطنه أن «لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين » .

فاستجاب الله له فأمر الحوت أن يلفظه فنبذه بالعراء وهو سقيم فأنبت الله سبحانه عليه شجرة من يقطين يستظلّ بأوراقها ثمّ لمّا استقامت حاله أرسله إلى قومه فلبّوا دعوته و آمنوا به فمتعّهم الله إلى حين .

و الأخبار الواردة من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام على كثرتها و بعض الأخبار من طرق أهل السنّة مشتركة المتون في قصّة يونس عليه السلام على النحو الّذي يستفاد من الآيات و إن اختلفت في بعض الخصوصيّات الخارجة عن ذلك [1] .

---

(١) و لذلك لم نوردها لانها فى نفسها آحاد لا حجية لها في مثل المقام ولا يمكن تصحيح خصوصياتها بالايات و هو ظاهر لمن راجعها .

٢ ـ قصّته عند أهل الكتاب : هو عليه السلام مذكور باسم يوناه بن إمتّاي في مواضع من العهد القديم و كذا في مواضع من العهد الجديد اُشير في بعضها إلى قصّة لبثه في بطن الحوت لكن لم تذكر قصّته الكاملة في شيء منهما .

و نقل الآلوسيّ في روح المعاني في قصّته عند أهل الكتاب و يؤيّده ما في بعض كتبهم من إجمال [1] القصّة :

أنّ الله أمره بالذهاب إلى دعوة أهل نينوى [2] و كانت إذ ذاك عظيمة جدّاً لا يقطع إلّا في نحو ثلاثة أيّام و كانوا قد عظم شرّهم و كثر فسادهم ، فاستعظم الأمر و هرب إلى ترسيس [3] فجاء يافا [4] فوجد سفينة يريد أهلها الذهاب بها إلى ترسيس فاستأجر وأعطى الاُجرة وركب السفينةفهاجت ريح عظيمة و كثرت الأمواج و أشرفت السفينة على الغرق .

ففزع الملّاحون ورموا في البحر بعض الأمتعة لتخفّ السفينة و عند ذلك نزل يونس إلى بطن السفينة ونام حتّى علانفسه فتقدّمإليه الرئيس فقال له : ما بالكنائما؟ قم وادع إلهك لعلّه يخلّصنا ممّا نحن فيه ولا يهلكنا .

و قال بعضهم لبعض : تعالوا : نتقارع لنعرف منأصابناهذا الشرّ بسببه فتقارعوا فوقعت القرعة على يونس فقالوا له : أخبرنا ماذا عملت ؟ و من أين جئت ؟ و إلى أين تمضي ؟ و من أيّ كورة أنت ؟ و من أيّ شعب أنت ؟ فقال لهم : أنا عبد الربّ إله السماء خالق البرّ و البحر و أخبرهم خبره فخافوا خوفا عظيما و قالوا له : لم صنعت ماصنعت ؟ يلومونه على ذلك .

ثمّ قالوا له : ما نصنع الآن بك ؟ ليسكن البحرعنّا ؟ فقال : ألقوني في البحر يسكن فإنّه من أجلي صار هذا الموج العظيم فجهد الرجال أن يردّوه إلى البرّ

---

(١) قاموس الكتاب المقدس .

(٢) كانت مدينة عظيمة من مدائن آشور على ساحل دجلة .

(٣) اسم مدينة .

(٤) مدينة في الارض المقدسة .

فلم يستطيعوا فأخذوا يونس و ألقوه في البحر لنجاة جميع من في السفينة فسكن البحر و أمرالله حوتا عظيما فابتلعه فبقي في بطنه ثلاثة أيّام و ثلاث ليال و صلّى فى بطنه إلى ربّه واستغاث به فأمرسبحانه الحوت فألقاه إلى اليبس ثمّ قال له : قم وامض إلى نينوى و ناد في أهلها كما أمرتك من قبل .

فمضى عليه السلام و نادى و قال : يخسف نينوى بعد ثلاثة أيّام فآمنت رجال نينوى بالله و نادوا بالصيام ولبسوا المسوح جميعا و وصل الخبر إلى الملك فقام عن كرسيّه ونزع حلّته ولبس مسحاً و جلس على الرماد و نودي أن لايذق أحد من الناس والبهائم طعاما ولا شرابا وجأروا إلى الله تعالى و رجعوا عن الشرّ والظلم فرحمهم الله ولم ينزل بهم العذاب .

فحزن يونس و قال : إلهي من هذا هربت ، فإنّي علمت أنّك الرحيم الرؤف الصبور التوّاب . ياربّ خذ نفسي فالموت خير لي من الحياة فقال : يا يونس حزنت من هذا جدّا ؟ فقال : نعم ياربّ .

و خرج يونس و جلس مقابل المدينة و صنع له هناك مظلّة و جلس تحتها إلى أن يرى ما يكون في المدينة ؟ فأمر الله يقطيناً فصعد على رأسه ليكون ظلّا له من كربه ففرح باليقطين فرحا عظيما و أمر الله تعالى دودة فضربت اليقطين فجفّ ثمّ هبّت ريح سموم و أشرقت الشمس على رأس يونس فعظم الأمر عليه واستطاب الموت .

فقال الربّ : يا يونس أحزنت جدّا على اليقطين ؟ فقال : نعم ياربّ حزنت جدّا فقال تعالى : حزنت عليه و أنت لم تتعب فيه ولم تربّه بل صار من ليلته و هلك من ليلته فأنا لا أشفق على نينوى المدينة العظيمة الّتي فيها أكثر من اثنا عشر ربوة من الناس؟ قوم لا يعلمون يمينهم ولا شمالهم و بهائمهم كثيرة انتهى . و جهات اختلاف القصّة مع ما يستفاد من القرآن الكريم ظاهرة كالفرار من الرسالة و عدم رضاه برفع العذاب عنهم مع علمه بإيمانهم و توبتهم .

فإن قلت : نظير ذلك وارد في القرآن الكريم كنسبة الإباق إليه في سورة الصافّات و كذا معاضبته و ظنّه أنّ الله لن يقدر عليه على ما في سورة الأنبياء .

قلت : بين النسبتين فرق فكتبهم المقدّسة أعني العهدين لاتأبىعن نسبة المعاصي حتّى الكبائر الموبقة إلى الأنبياء عليهم السلام فلا موجب لتوجيه ما نسب من المعاصي إليه بما يخرج به عن كونه معصية بخلاف القرآن الكريم فإنّه ينزّه ساحتهم عن لوث المعاصي حتّىالصغائر فما ورد فيه ممّا يوهم ذلك يحمل علىأحسنالوجوه بهذه القرينة الموجبة و لذا حملنا قوله : « إذ أبق » و قوله : « مغاضبا فظنّ أن لن نقدر» على حكاية الحال و إيهام فعله .

٣ ـ ثناؤه تعالى عليه : أثنى الله سبحانه عليه بأنّه من المؤمنين (سورة الأنبياء ٨٨) و أنّه اجتباه و قد عرفت أنّ اجتباءه إخلاصه العبد لنفسه خاصّة ، و أنّه جعله من الصالحين (سورة ن : ٥٠) وعدّه في سورة الأنعام فيمن عدّ من الأنبياء و ذكر أنّه فضّلهم على العالمين وأنّه هداهم إلى صراط مستقيم (سورة الانعام : ٨٧) .

﴿ بحث روائي ﴾

في الفقيه و قال الصادق عليه السلام : ما تقارع قوم ففوّضوا أمرهم إلى الله عزّوجلّ إلّا خرج سهم الحقّ ، و قال : أيّ قضيّة أعدل من القرعة إذا فوّض الأمر إلى الله . أليس الله عزّوجلّ يقول : « فساهم فكان من المدحضين ؟

و في البحار عن البصائر بإسناده عن حبّة العرنيّ قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام إنّ الله عرض ولايتي علىأهل السماوات و على أهل الأرض أقرّبها من أقرّ و أنكرها من أنكر أنكرها يونس فحبسه الله في بطن الحوت حتّى أقرّبها .

أقول : و في معناه روايات اُخر ، والمراد الولاية الكلّيّة الإلهيّة الّتي هو عليه السلام أوّل من فتح بابها من هذه الاُمّة وهي قيامه تعالى مقام عبده في تدبير أمره فلا يتوجّه العبد إلّا إليه ولا يريد إلّا ما أراده وذلك بسلوكطريق العبوديّة الّتيتنتهى بالعبد إلى أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره .

و كان ظاهر ما أتي به يونس عليه السلام ممّالا يرتضيه الله تعالي فلم يكن قابلا للانتساب

إلى إرادته فابتلاه الله بما ابتلاه ليعترف بظلمه على نفسه و أنّه تعالى منزّه عن إرادة مثله فالبلايا والمحن الّتي يبتلي بها الأولياء من التربية الالهيّة الّتي يربّيهم بها و يكمّلهم و يرفع درجاتهم بسببها و إن كان بعضهامن جهة اُخرى مؤاخذة ذات عتاب ، و قد قيل : البلاء للولاء .

و يؤيّد ذلك ما عن العلل باسناده عن أبي بصيرقال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : لأيّ علّة صرف الله العذاب عن قوم يونس وقد أظلّهم ولم يفعل ذلك بغيرهم من الاُمم؟ فقال : لأنّه كان في علم الله أنّه سيصرفه عنهم لتوبتهم و إنّما ترك إخبار يونس بذلك لأنّه أراد أن يفرغه لعبادته في بطن الحوت فيستوجب بذلك ثوابه و كرامته .



☆ ☆ ☆

فَاسْتَفْتِهِمْ اَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) اَمْ خَلَقْنَا الْمَلٰئِكَةَ اِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) اَلَا اِنَّهُمْ مِنْ اِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللّٰهُ وَ اِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) اَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) اَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) اَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَاْتُوا بِكِتَابِكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ اِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللّٰهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) اِلَّا عِبَادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَاِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا اَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) اِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَ مَا مِنَّا اِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَ اِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَ اِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَ اِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ اَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْاَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) اِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَ اِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰى حِينٍ (١٧٤) وَ اَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) اَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَاِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتّٰى

حِينٍ (١٧٨) وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَ سَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) .

﴿ بيان ﴾

قدّم سبحانه ما بيّن به أنّه ربّ معبود : عبده عباد مخلصون كالأنبياء المكرمين و كفر به آخرون فنجّى عباده و أخذ الكافرين بأليم العذاب . ثمّ تعرّض في هذه الآيات لما يعتقدونه في آلهتهم وهم الملائكة والجنّ وأنّ الملائكة بنات الله و بينه وبين الجنّة نسبا .

و الوثنيّة البرهميّة و البوذيّة والصابئة ما كانوا يقولون باُنوثة جميع الملائكة و إن قالوا بها في بعضهم لكنّ المنقول عن بعض قبائل العرب الوثنيّين كجهينة و سليم وخزاعة وبني مليح القول باُنوثة الملائكة جميعا وأمّا الجنّ فالقول بانتهاء نسبهم إليه في الجملة منقول عن الجميع .

و بالجملة يشير تعالى في الآيات إلى فساد قولهم ثمّ يبشّر النبيّ صلى الله عليه وآله بالنصر ويهدّدهم بالعذاب ، ويختم السورة بتنزيهه تعالى والتسليم على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين .

قوله تعالى : « فاستفتهم ألربّك البنات و لهم البنون » حلّل سبحانه قولهم : إنّ الملائكة بنات الله إلى ما يستلزمه من اللوازم و هي أنّ الملائكة أولاده ، و أنّهم بنات ، و أنّه تعالى خصّ نفسه بالبنات و هم مخصوصون بالبنين ثمّ ردّ هذه اللوازم واحدا بعد واحد فردّ قولهم : إنّ له البنات ولهم البنين بقوله : «فاستفتهم ألربّك البنات ولهم البنون» وهو استفهام إنكاريّ لقولهم بما يلزمه من تفضيلهم على الله لما أنّهم يفضّلون البنين على البنات ويتنزّهون منهنّ ويئدونهنّ .

قوله تعالى : « أم خلقنا الملائكة إناثاوهم شاهدون » أم منقطعة أي بل أخلقنا الملائكة إناثاوهم شاهدون يشهدون خلقهم ولم يكونوا شاهدين خلقهم ولالهم أن يدّعوا ذلك ، و الذكورة و الاُنوثة ممّا لايثبت إلّابنوع من الحسّ ، و هذا ردّ لقولهم بأُنوثة الملائكة .

قوله تعالى : « ألاإنّهم من إفكهم ليقولون ولدالله وإنّهم لكاذبون » ردّ لقولهم بالولادة بأنّه من الإفك أي صرف القول عن وجهه إلى غير وجهه أي من الحقّ إلى الباطل فيوجّهون خلقهم بما يعدّونه ولادة و يعبّرون عنه بها فهم آفكون كاذبون .

قوله تعالى : «أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلاتذكّرون» كرّر الإنكار على اصطفاء البنات من بين لوازم قولهم لشدّة شناعته .

ثمّ وبّخهم بقوله : « مالكم كيف تحكمون » لكون قولهم حكما من غيردليل ثمّ عقّبه بقوله : « أفلا تذكّرون » توبيخا وإشارة إلى أنّ قولهم ذلك ـ فضلا عن كونه ممّا لا دليل عليه ـ الدليل على خلافه و لو تذكّروا لانكشف لهم فقد تنزّهت ساحته تعالى عن أن يتجزّى فيلد أو يحتاج فيتّخذ ولدا ، وقد احتجّ عليهم بذلك في مواضع من كلامه .

و الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للدلالة على اشتداد السخط الموجب لتوبيخهم شفاها .

قوله تعالى : «أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » أم منقطعة و المراد بالسلطان و هو البرهان كتاب نازل من عند الله سبحانه يخبر فيه أنّ الملائكة بناته على ما يعطيه السياق إذ لمّا لم يثبت بعقل أوحسّ بقي أن يثبت بكتاب من عندالله نازل بالوحي فلوكانت دعواهم حقّة وهم صادقون فيها كان لهم أن يأتوا بالكتاب .

و إضافة الكتاب إليهم بعناية فرضه دالّا على دعواهم .

قوله تعالى : «وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباولقد علمت الجنّة إنّهم لمحضرون» جعل النسب بينه وبين الجنّة قولهم : إنّ الجنّة أولاده وقدتقدّم تفصيل قولهم في تفسير سورة هود في الكلام على عبادة الأصنام .

و قوله : « و لقد علمت الجنّة إنّهم لمحضرون» أي للحساب أو للنار على ما يفيده إطلاق « لمحضرون » وكيف كان فهم يعلمون أنّهم مربوبون لله سيحاسبهم ويجازيهم بما عملوا فبينهم و بين الله سبحانه نسبة الربوبيّة و العبوديّة لا نسب الولادة و من كان كذلك لا يستحقّ العبادة .

و من الغريب قول بعضهم : إنّ المراد بالجنّة طائفة من الملائكة يسمّون بها و لازمه إرجاع ضمير « إنّهم » إلى الكفّار دون الجنّة . و هو ممّا لا شاهد له من كلامه تعالى مضافا إلى بعده من السياق .

قوله تعالى : « سبحان الله عمّا يصفون إلّا عباد الله المخلصين » ضمير « يصفون» ـ نظرا إلى اتّصال الآية بما قبلها ـ راجع إلى الكفّار المذكورين قبل ، و الاستثناء منه منقطعا و المعنى هو منزّه عن وصفهم ـ أو عمّا يصفه الكفّار به من الأوصاف كالولادة و النسب و الشركة و نحوها ـ لكنّ عباد الله المخلصين يصفونه تعالى وصفاً يليق به ـ أو بما يلق به من الأوصاف ـ .

و قيل : إنّه استثناء منقطع من ضمير «لمحضرون» ، و قيل : من فاعل « جعلوا» و ما بينهما من الجمل المتخلّلة اعتراض ، و هما وجهان بعيدان .

و للآيتين باستقلالهما معنى أوسع من ذلك وأدقّ و هو رجوع ضمير «يصفون» إلى الناس ، و الوصف مطلق يشمل كلّ ما يصفه به واصف، و الاستثناء متّصل و المعنى هو منزّه عن كلّ ما يصفه الواصفون إلّا عباد الله المخلصين .

وذلك أنّهم إنّما يصفونه بمفاهيم محدودة عندهم وهو سبحانه غير محدود لا يحيط به حدّ و لا يدركه نعت فكلّما وصف به فهو أجلّ منه و كلّ ما توهّم أنّه هو فهو غيره لكن له سبحانه عباد أخلصهم لنفسه وخصّهم بنفسه لا يشاركه فيهم أحد غيره فعرّفهم نفسه و أنساهم غيره يعرفونه و يعرفون غيره به فإذا وصفوه في نفوسهم وصفوه بما يليق بساحة كبريائه و إذا وصفوه بألسنتهم ـ و الألفاظ قاصرة و المعاني محدودة ـ اعترفوا بقصور البيان و أقرّوا بكلال اللسان كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و هو سيّد المخلصين :

« لا اُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[1] فافهم ذلك .

قوله تعالى : « فإنّكم و ما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلّا من هو صال الجحيم » تفريع على حكم المتسثنى والمستثنى منه أو المستثنى خاصّة والمعنى لمّا كان ما وصفتموه ضلالا ـ وعباد الله المخلصون لا يضلّون في وصفهم ـ فلستم بمضلّين به إلّا سالكي سبيل النار.

والظاهر من السياق أنّ «ما» في «ما تعبدون» موصولة والمراد بها الأصنام فحسب أو الأصنام و آلهة الضلال كشياطين الجنّ ، و « ما » في « ما أنتم » نافية ، و ضمير «عليه » لله سبحانه و الظرف متعلّق بفاتنين، و فاتنين اسم فاعل من الفتنة بمعنى الإضلال و « صالي » من الصلو بمعنى الاتّباع فصالي الجحيم هو المتّبع للجحيم السالك سبيل النار ، و الاستثناء مفرّغ تقديره ما أنتم بفاتنين أحداً إلّا من هو صال الجحيم .

و المعنى فإنّكم و آلهة الضلال الّتي تعبدونها لستم جميعا بمضلّين أحدا على الله إلّا من هو متّبع الجحيم .

و قيل : إنّ « ما» الاُولى مصدريّة أو موصولة وجملة « فإنّكم وما تعبدون» كلام تامّ مستقلّ من قبيل قولهم : أنت و شأنك و المعنى فإنّكم و ما تعبدون متقارنان ثمّ استونف و قيل : «ما أنتم عليه بفاتنين» و « فاتنين » مضمّن معنى الحمل وضمير «عليه» راجع إلى « ما تعبدون » إن كانت ما مصدريّة و إلى «ما» بتقدير مضاف إن كانت موصولة و المعنى ما أنتم بحاملين على عبادتكم أو على عبادة ما تعبدونه إلّا من هو صال الجحيم.

قيل : و يمكن أن يكون «على» بمعنى الباء و الضمير لما تعبدون أو لما إن كانت موصولة و « فاتنين » على ظاهر معناه من غير تضمين و المعنى ما أنتم بمضلّين أحدا بعبادتكم أو بعبادة ما تعبدونه إلّا الخ .

و هذه كلّها تكلّفات من غير موجب . والكلام فيما في الآية من الالتفات كالكلام فيما سبق منه .

قوله تعالى : « و ما منّا إلّا له مقام معلوم و إنّا لنحن الصافّون و إنّا لنحن المسبّحون » الآيات الثلاث ـ على ما يعطيه السياق ـ اعتراض من كلام جبريل أو هو

(١) فقد اثنى على الله و تمم نقصه بأنه يريد ما يريده الله من الثناء على نفسه .

وأعوانه من ملائكة الوحي نظيرقوله تعالى فيسورة مريم : « وما نتنزّل إلّا بأمر ربّك له ما بين أيدينا وما خلفنا و مابين ذلك » الخ مريم : ٦٤ .

و قيل : هي من كلام الرسول صلى الله عليه وآله يصف نفسه و المؤمنين به للكافرين تبكيتاً لهم و تقريعا و هو متّصل بقوله : « فاستفتهم » و التقدير فاستفتهم و قل : ما منّا معشر المسلمين إلاّ له مقام معلوم على قدر أعماله يوم القيامة و إنّا لنحن الصافّون في الصلاة و إنّا لنحن المسبّحون . و هو تكلّف لايلائمه السياق .

و الآيات الثلاث مسوقة لردّ قولهم بأُلوهيّة الملائكة بإيراد نفس اعترافهم بما ينتفي به قول الكفّار وهم لاينفون العبوديّة عن الملائكة بل يرون أنّهم مربوبون لله سبحانه أرباب وآلهة لمن دونهم يستقلّون بالتصرّف فيما فوّض إليهم من أمر العالم من غير أن يرتبط شيء من هذا التدبير إلى الله سبحانه و هذا هو الّذي ينفيه الملائكة عن أنفسهم لا كونهم أسبابا متوسّطة بينه تعالى و بين خلقه كما قال تعالى « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ .

فقوله : « و ما منّا إلّا له مقام معلوم » أي معيّن مشخّص اُقيم فيه ليس له أن يتعدّاه بأن يفوّض إليه أمرفيستقلّ فيه بل مجبول على طاعة الله فيما يأمربهوعبادته.

و قوله : « و إنّا لنحن الصافّون» أي نصفّ عندالله في انتظار أوامره في تدبير العالم لنجريها على مايريد .كما قالتعالى : «لايعصون الله ماأمرهم ويفعلونمايؤمرون» هذا مايفيده السياق ، و ربّما قيل : إنّ المراد إنّا نصفّ للصلاة عندالله و هو بعيد من الفهم لا شاهد عليه .

و قوله : « و إنّا لنحن المسبّحون » أي المنزّهون له تعالى عمّا لايليق بساحة كبريائه كما قال تعالى : « يسبّحون الليل و النهار لايفترون » الأنبياء : ٢٠ .

فالآيات الثلاث تصف موقف الملائكة في الخلقة و عملهم المناسب لخلقتهم و هو الاصطفاف لتلقّي أمره تعالى والتنزبه لساحة كبريائه عنالشريك وكلّ مالايليقبكمال ذاته المتعالية .

قوله تعالى : « و إن كانوا ليقولون لو أنّ عندنا ذكرا من الأوّلين لكنّاعباد

الله المخلصين » رجوع إلى السياق السابق .

و الضمير في قوله : « و إن كانوا ليقولون » لقريش و من يتلوهم ، و « إن » مخفّفة من الثقيلة ، والمراد بذكر من الأوّلين كتاب سماويّ من جنس الكتب النازلة على الأوّلين .

و المعنى لو أنّ عندنا كتابا سماويا من جنس الكتب النازلة قبلنا على الأوّلين لاهتدينا و كنّا عباد الله المخلصين يريدون أنّهم معذورون لو كفروا لعدم قيام الحجّة عليهم من قبل الله سبحانه .

وهذا في الحقيقة هفوة منهم فإنّ مذهب الوثنيّة يحيل النبوّة و الرسالة ونزول الكتاب السماويّ .

قوله تعالى : « فكفروا به فسوف يعلمون » الفاء فصيحة والمعنى فأنزلنا عليهم الذكر وهو القرآن الكريم فكفروا به و لم يفوا بما قالوا فسوف يعلمون وبال كفرهم وهذا تهديد منه تعالى لهم .

قوله تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنّهم لهم المنصورون » كلمته تعالى لهم قوله الّذي قاله فيهم وهو حكمه وقضاؤه في حقّهم وسبق الكلمة تقدّمها عهداً أو تقدّمها بالنفوذ والغلبة واللاّم تفيد معنى النفع أي إنّا قضينا قضاء محتوما فيهم أنّهم لهم المنصورون وقد اُكّد الكلام بوجوه من التأكيد .

وقد اُطلق النصر من غير تقييده بدنيا أو آخرة أو بنحو آخر بل القرينة على خلافه قال تعالى :« إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» المؤمن: ٥١ .

فالرسل عليهم السلام منصورون في الحجّة لأنّهم على الحقّ والحقّ غير مغلوب.

وهم منصورون على أعدائهم إمّا بإظهارهم عليهم وإمّا بالانتقام منهم قال تعالى: « ما أرسلنا من قبلك إلّا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ـ إلى أن قال ـ حتّى إذا استيأس الرسل و ظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجّي من نشاء ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين » يوسف : ١١٠ .

وهم منصورون في الآخرة كما قال تعالى : «يوم لايخزي الله النبيّ والّذين آمنوا معه » التحريم : ٨ ، و قد تقدّم آنفا آية سورة المؤمن في هذا المعنى .

قوله تعالى : « و إنّ جندنا لهم الغالبون » الجند هو المجتمع الغليظ و لذا يقال للعسكر جند فهو قريب المعنى من الحزب (١) و قد قال تعالى في موضع آخر من كلامه : «ومن يتولّ الله ورسوله والّذين آمنوا فا نّ حزب الله هم الغالبون» المائدة: ٥٦.

و المراد بقوله : « جندنا » هو المجتمع المؤتمر بأمره المجاهد في سبيله و هم المؤمنون خاصّة أو الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين وفي الكلام على التقدير الثاني تعميم بعد التخصيص ، و كيف كان فالمؤمنون منصورون كمتبوعيهم من الأنبياء قال تعالى : «ولاتهنوا ولاتحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » آل عمران : ١٣٩ وقد مرّ بعض الآيات الدالّة عليه آنفا .

و الحكم أعني النصر والغلبة حكم اجتماعيّ منوط على العنوان لا غير أي إنّ الرسل وهم عباد أرسلهم الله والمؤمنون وهم جند لله يعملون بأمره و يجاهدون في سبيله ماداموا على هذا النعت منصورون غالبون ، و أمّا إذا لم يبق من الإيمان إلّا اسمه ومن الانتساب إلّا حديثه فلاينبغي أن يرجى نصر و لا غلبة .

قوله تعالى : « فتولّ عنهم حتّى حين » تفريع على حديث النصر و الغلبة ففيه وعد للنبيّ صلّى الله عليه وآله بالنصر و الغلبة و إيعاد للمشركين و لقريش خاصّة .

و الأمر بالإعراض عنهم ثمّ جعله مغيّا بقوله : « حتّى حين » يلوّح إلى أنّ الأمد غير بعيد و كان كذلك فهاجر النبيّ بعد قليل و أباد الله صناديد قريش في غزوة بدروغيرها .

قوله تعالى : « وأبصرهم فسوف يبصرون» الأمر بالإبصار و الإخبار بإبصارهم عاجلا وعطف الكلام على الأمر بالتولّي معجّلا يفيد بحسب السياق أنّ المعنى أنظرهم وأبصر ماهم عليه من الجحود والعناد قبال إنذارك وتخويفك فسوف يبصرون وبال جحودهم واستكبارهم .

---

(١) قال تعالى : « اذ جاءتكم جنود » الاحزاب : ٩ وقال فيهم بعينهم : « ولما رآى المؤمنون الاحزاب » الاحزاب : ٢٢.

قوله تعالى : « أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين» توبيخ لهم لاستعجالهم و قولهم : متى هذا الوعد ؟ متى هذا الفتح ؟ و إيذان بأنّ هذا العذاب ممّا لا ينبغي أن يستعجل لأنّه يعقّب يوماً بئيساً و صباحا مشؤما .

و نزول العذاب بساحتهم كناية عن نزوله بهم على نحو الشمول و الإحاطة ، و قوله : « فساء صباح المنذرين » أي بئس صباحهم صباحا ، و المنذرون هم المشركون من قريش .

قوله تعالى :«وتولّ عنهم حتّى حين وأبصر فسوف يبصرون» تأكيد لما مرّ بتكرار الآيتين على ما قيل ، و احتمل بعضهم أن يكون المراد بما تقدّم التهديد بعذاب الدنيا و بهذا ، التهديد بعذاب الآخرة . و لا يخلو من وجه فإنّ الواقع في الآية « و أبصر » من غير مفعول كما في الآية السابقة من قوله : « و أبصرهم » و الحذف يشعر بالعموم و أنّ المراد إبصار ما عليه عامّة الناس من الكفر و الفسوق و يناسبه التهديد بعذاب يوم القيامة .

قوله تعالى : «سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون» تنزيه له تعالى عمّا يصفه به الكفّار المخالفون لدعوة النبيّ صلى الله عليه وآله ممّا تقدّم ذكره في السورة .

و الدليل عليه إضافة التنزيه إلى قوله : « ربّك» أي الربّ الّذي تعبده و تدعو إليه ، و إضافة الربّ ثانيا إلى العزّة المفيد لاختصاصه تعالى بالعزّة فهو منيع الجانب على الإطلاق فلا يذلّه مذلّ و لا يغلبه غالب و لا يفوته هارب فالمشركون أعداء الحقّ المهدّدون بالعذاب ليسواله بمعجزين .

قوله تعالى : « و سلام على المرسلين » تسليم على عامّة المرسلين و صون لهم من أن يصيبهم من قبله تعالى ما يسوؤهم و يكرهونه .

قوله تعالى : « والحمدلله ربّ العالمين» تقدّم الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة.

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج محمّد بن نصر وابن عساكر عن العلاء بن سعيد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما لجلسائه : أطّت السماء وحقّ لها أن تئطّ ، ليس منها موضع قدم إلّا عليه ملك راكع أو ساجد . ثمّ قرء « وإنّا لنحن الصافّون وإنّا لنحن المسبّحون» .

اقول : وروي هذا المعنى عنه صلى الله عليه وآله بغير هذا الطريق .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة قال: استووا تقدّم يا فلان تأخّر يا فلان أقيموا صفوفكم يريد الله بكم هدي الملائكة ثمّ يتلو : « وإنّا لنحن الصافّون وإنّا لنحن المسبّحون » .

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام في وصف الملائكة : وصافّون لا يتزايلون ومسبّحون لا يسأمون .

سورة صٓ مكيّة و هي ثمان و ثمانون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ صٓ وَ الْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) اَجَعَلَ الْآلِهَةَ اِلٰهاً وَاحِداً اِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ (٥) وَ انْطَلَقَ الْمَلَاُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلٰى آلِهَتِكُمْ اِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ اِنْ هٰذَا اِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) ءَاُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) اَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَ الْاَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الْاَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْاَحْزَابِ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُوالْاَوْتَادِ (١٢) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ اَصْحَابُ لَئْيكَةِ اُولٰئِكَ الْاَحْزَابُ (١٣) اِنْ كُلٌّ اِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَ مَا يَنْظُرُ هٰؤُلَاءِ اِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥) وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦).

﴿ بيان ﴾

يدور الكلام في السورة حول كون النبيّ صلّى الله عليه وآله منذرا بالذكر النازل عليه من عند الله سبحانه الداعي إلى التوحيد و إخلاص العبوديّة له تعالى .

فتبدء بذكر اعتزاز الكفّار وشقاقهم وبالجمله استكبارهم عن اتّباعه و الإيمان به و صدّ الناس عنه و تفوّههم بباطل القول في ذلك وردّه في فصل .

ثمّ تأمر النبيّ صلّى الله عليه وآله بالصبر وذكر قصص عباده الأوّابين في فصل ثمّ يذكر مآل حال المتّقين و الطاغين في فصل . ثمّ تأمر النبيّ صلّى الله عليه وآله بإبلاغ نذارته و دعوته إلى توحيد الله و أنّ مآل اتّباع الشيطان إلى النار على ما قضى به الله يوم أمر الملائكة بالسجدة لآدم فأبى إبليس فرجمه و قضى عليه و على من تبعه النار . في فصل .

و السورة مكيّة بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى :«صٓ والقرآن ذي الذكر بل الّذين كفروا في عزّة وشقاق » المراد بالذكر ذكر الله تعالى بتوحيده و ما يتفرّع عليه من المعارف الحقّة من المعاد و النبوّة و غيرهما ، و العزّة الامتناع، و الشقاق المخالفة قال في مجمع البيان : و أصله أن يصير كلّ من الفريقين في شقّ أي في جانب و منه يقال : شقّ فلان العصا إذا خالف انتهى .

و المستفاد من سياق الآيات أنّ قوله : « والقرآن ذي الذكر » قسم نظير ما في قوله : « يسٓ و القرآن الحكيم » « قٓ و القرآن المجيد » « نٓ و القلم» لاعطف على ما تقدّمه ، و أمّا المقسم عليه فالّذي يدلّ عليه الإضراب في قوله : « بل الّذين كفروا في عزّة و شقاق » أنّه أمر يمتنع عن قبوله القوم و يكفرون به عزّة و شقاقا و قد هلك فيه قرون كثيرة ثمّ ذكر إنذار النبيّ صلّى الله عليه وآله و ما قاله الكفّار عليه و ما أمرهم به ملؤهم حول إنذاره صلّى الله عليه وآله أنّه أعني المقسم عليه نحو من قولنا : إنّك لمن المنذرين، و يشهد على ذلك أيضا التعرّض في السورة بإنذاره صلّى الله عليه وآله بالذكر مرّة بعد اُخرى .

وقد قيل في قوله : «صٓ والقرآن ذي الذكر» من حيث الإعراب و المعنى وجوه

كثيرة لامحصّل لأكثرها تركنا إيرادها لعدم الجدوى .

و المعنى ـ و الله أعلم ـ اُقسم بالقرآن المتضمّن للذكر ـ إنّك لمن المنذرين ـ بل الّذين كفروا في امتناع عن قبوله واتّباعه و مخالفة له .

قوله تعالى : « كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص » القرن أهل عصر واحد ، و المناص بالنون مصدر ناص ينوص أي تأخّر كما أنّه بالباء الموحّدة بمعنى التقدّم على ما في المجمع و قيل : هو بمعنى الفرار .

و المعنى كثيرا ماأهلكنا من قبل هؤلاء الكفّار من قرن و اُمّة بتكذيبهم الرسل المنذرين فنادوا عند نزول العذاب بالويل كقولهم : ياويلنا إنّا كنّا ظالمين أو بالاستغاثة بالله سبحانه و ليس الحين حين تأخّر الأخذ و العذاب أو ليس الحين حين فرار .

قوله تعالى : « و عجبوا أن جاءهم منذر منهم و قال الكافرون هذا ساحر كذّاب » أي تعجّبوا من مجيىء منذر من نوعهم بأن كان بشرا فإنّ الوثنيّة تنكر رسالة البشر .

و قوله : « و قال الكافرون هذا ساحر كذّاب » يشيرون بهذا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله يرمونه بالسحر لكونهم عاجزين عن الإتيان بمثل ما أتى به وهو القرآن ، و بالكذب لزعمهم أنّه يفتري على الله بنسبة القرآن و ما فيه من المعارف الحقّة إليه تعالى .

قوله تعالى : « أجعل الآلهة إلها واحدا إنّ هذا الشيء عجاب » العجاب بتخفيف الجيم اسم مبالغة من العجب و هو بتشديد الجيم أبلغ .

وهو من تتمّة قول الكافرين و الاستفهام للتعجيب و الجعل بمعنى التصيير و هو كما قيل تصيير بحسب القول و الاعتقاد و الدعوى لابحسب الواقع كما في قوله تعالى: « و جعلوا الملائكة الّذين هم عباد الرحمان إناثا » الزخرف : ١٩ فمعنى جعله صلى الله عليه وآله الآلهة إلها واحدا هو إبطاله اُلوهيّة الآلهة من دون الله و حكمه بأنّ الإله هو الله لا إله إلّا هو .

قوله تعالى : « و انطلق الملأ منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يراد » نسبة الانطلاق إلى ملإهم وأشرافهم وقولهم ماقالوا يلوّح إلى أنّ أشراف

قريش اجتمعوا على النبيّ صلى الله عليه وآله ليحلّوا مشكلة دعوته إلى التوحيد و رفض الآلهة بنوع من الاستمالة وكلّموه في ذلك فما وافقهم في شيء منه ثمّ انطلقوا و قال بعضهم لبعض أو قالوا لأتباعهم أن امشوا و اصبروا الخ وهذا يؤيّد ماورد في أسباب النزول ممّا سيجيء في البحث الروائيّ الآتي إن شاء الله .

وقوله : « أن امشوا واصبروا على آلهتكم » بتقدير القول أي قائلين أن امشوا و اصبروا على آلهتكم ولا تتركوا عبادتها و إن عابها و قدح فيها ، و ظاهر السياق أنّ القول قول بعضهم لبعض ، و يمكن أن يكون قولهم لتبعتهم .

و قوله : « إنّ هذا لشيء يراد » ظاهره أنّه إشارة إلى ما يدعو إليه النبيّ و يطلبه وأنّ مطلوبه شيء يراد بالطبع وهو السيادة و الرئاسة و إنّما جعل الدعوة ذريعة إليه فهو نظير قول الملإ من قوم نوح لعامّتهم : « ما هذا إلّا بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم » المؤمنون : ٢٤ .

و قيل : المعنى إنّ هذا الّذي شاهدناه من إصراره صلى الله عليه وآله على ما يطلبه و تصلّبه في دينه لشيء عظيم يراد من قبله .

و قيل : المعنى إنّ هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا حيلة إلّا أن تمشوا و تصبروا .

و قيل : المعنى إنّ الصبر خلق محمود يراد منّا في مثل هذه الموارد ، و قيل غير ذلك و هي وجوه ضعيفة لا يلائمها السياق .

قوله تعالى : « ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلّا اختلاق » أرادوا بالملّة الآخرة المذهب الّذي تداوله الآخرون من الأمم المعاصرين لهم أو المقارنين لعصرهم قبال الملل الاُولى الّتي تداولتها الأوّلون كأنّهم يقولون : ليس هذا من الملّة الاخرة الّتي يرتضيها أهل الدنيا اليوم بل من أساطير الأوّلين .

وقيل : المراد بالملّة الآخرة النصرانيّة لأنّها آخر الملل وهم لا يقولون بالتوحيد بل بالتثليث . وضعفه ظاهر إذ لم يكن للنصرانيّة وقع عندهم كالإسلام .

و قوله : « إن هذا إلّا اختلاق » أي كذب وافتعال .

قوله تعالى : « ءأُنزل عليه الذكر من بيننا» استفهام إنكاري بداعي التكذيب أي لا مرجّح عند محمّد صلّى الله عليه وآله يترجّح به علينا فينزل عليه الذكر دوننا فهو في إنكار الاختصاص بنزول الذكر نظير قولهم : ماأنت إلّا بشر مثلنا في نفي الاختصاص بالرسالة .

قوله تعالى : « بل هم في شكّ من ذكري بل لمّا يذوقوا عذاب » إضراب عن جميع ما قالوه أي إنّهم لم يقولوا ما قالوا عن إيمان واعتقاد به بل هم في شكّ من ذكري وهو القرآن .

و ليس شكّهم فيه من جهة خفاء دلالة آية النبوّة و قصورها عن إفادة اليقين بل تعلّق قلوبهم بما عندهم من الباطل و لزومهم التقليد يصرفهم عن النظر في دلالة الآية الإلهيّة المعجزة فشكّوا في الذكر و الحال أنّه آية معجزة .

و قوله : « بل لمّا يذوقوا عذاب » إضراب عن الإضراب أي ليس إنكارهم و عدم إيمانهم به عن شكّ منهم فيه بل لأنّهم لعتوّهم و استكبارهم لا يعترفون بحقيّتّه ولو لم يكن شكّ ، حتّى يذوقوا عذابي فيضطرّوا إلى الاعتراف كما فعل غيرهم .

و في قوله : « لمّا يذوقوا عذاب » أي لم يذوقوا بعد عذابي ، تهديد بعذاب واقع .

قوله تعالى : « أم عندهم خزائن رحمة ربّك العزيز الوهّاب » الكلام في موقع الإضراب و « أم » منقطعة و الكلام ناظر إلى قولهم : « ءأُنزل عليه الذكر من بيننا » أي بل أعندهم خزائن رحمة ربّك الّتي ينفق منها على من يشاء حتّى يمنعوك منها بل هي له تعالى وهو أعلم حيث يجعل رسالته و يخصّ برحمته من يشاء .

و تذييل الكلام بقوله: «العزيز الوهّاب» لتأييد محصّل الجملة أي ليس عندهم شيء من خزائن رحمته لأنّه عزيز منيع جانبه لا يداخل في أمره أحد ، و لا لهم أن يصرفوا رحمته عن أحد لأنّه وهّاب كثير الهبات .

قوله تعالى : « أم لهم ملك السماوات و الأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب»

« أم » منقطعة ، و الأمر في قوله : « ليرتقوا » للتعجيز و الارتقاء الصعود ، و الأسباب المعارج و المناهج الّتي يتوسّل بها إلى الصعود إلى السماوات،و يمكن أن يراد بارتقاء الأسباب التسبّب بالعلل و الحيل الّذي يحصل به لهم المنع و الصرف .

و المعنى بل ألهم ملك السماوات والأرض فيكون لهم أن يتصرّفوافيها فيمنعوا نزول الوحي السماويّ إلى بشر أرضيّ فإن كان كذلك فليصعدوا معارج السماوات أو فليتسبّبوا الأسباب و ليمنعوا من نزول الوحي عليك .

قوله تعالى : « جندمّا هنالك مهزوم من الأحزاب» الهزيمة الخذلان و « من الأحزاب» بيان لقوله : « جندما » و « ما » للتقليل والتحقير ، و الكلام مسوق لتحقير أمرهم رغما لما يشعر به ظاهر كلامهم من التعزّز و الإعجاب بأنفسهم .

يدلّ على ذلك تنكير «جند» و تتميمه بلفظة «ما» والإشارة إلى مكانتهم بهنالك الدالّ على البعيد وعدّهم من الأحزاب المتحزّبين على الرسل الّذين قطع الله دابر الماضين منهم كما سيذكر و لذلك عدّ هذا الجند مهزوماً قبل انهزامهم .

و المعنى هم جندمّا أقلّاء أذلّاء منهزمون هنالك من اُولئك الأحزاب المتحزّبين على الرسل الّذين كذّبوهم فحقّ عليهم عقابي .

قوله تعالى : « كذّبت قبلهم قوم نوح وعاد و فرعون ذوالأوتاد - إلى قوله - فحقّ عقاب » ذوالأوتاد وصف فرعون و الأوتاد جمع وتد وهو معروف . قيل : سمّي بذي الأوتاد لأنّه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها ، و قيل :لأنّه كان يعذّب من غضب عليه من المجرمين بالأوتاد يوتّد يديه ورجليه و رأسه على الأرض فيعذّبه و قيل : معناه ذو الجنود أوتاد الملك ، و قيل غير ذلكمن الوجوه ، ولا دليل على شيء منها يعوّل عليه .

و أصحاب الأيكة قوم شعيب و قد تقدّم في سورة الحجر و الشعراء ، و قوله : « فحقّ عقاب » أي ثبت في حقّهم و استقرّ فيهم عقابي فأهلكتهم .

قوله تعالى : « و ما ينظر هؤلاء إلّا صيحة واحدة مالها من فواق » النظر

الانتظار و الفواق الرجوع و المهلة اليسيرة ، و المعنى و ما ينتظر هؤلاء المكذّبون من اُمّتك إلّا صيحة واحدة تقضي عليهم و تهلكهم مالها من رجوع أو مهلة و هي عذاب الاستئصال .

قالوا : و المراد من الصيحة صيحة يوم القيامة لأنّ اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله مؤخّر عنهم العذاب إلى قيام الساعة ، و قد عرفت في تفسير سورة يونس أنّ ظاهر آيات الكتاب يعطي خلاف ذلك فراجع .

قوله تعالى : « و قالوا ربّنا عجّل لنا قطّنا قبل يوم الحساب » القطّ النصيب و الحظّ ، و هذه الكلمة استعجال منهم للعذاب قبل يوم القيامة استهزاء بحديث يوم الحساب والوعيد بالعذاب فيه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : أقبل أبو جهل بن هشام و معه قوم من قريش فدخلوا على أبي طالب فقالوا . إنّ ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهتنا فادعه و مره فليكفّ عن آلهتنا و نكفّ عن إلهه .

قال : فبعث أبوطالب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فدعاه فلمّا دخل النبيّ صلى الله عليه وآله لم ير في البيت إلّا مشركا فقال:السلام على من اتّبع الهدى ثمّ جلس فخبّره أبوطالب بما جاؤا به فقال : أوهل لهم في كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب و يطأون أعناقهم ؟ فقال أبوجهل : نعم و ما هذه الكلمة ؟ قال : تقولون : لا إله إلّا الله .

قال: فوضعوا أصابعهم في آذانهم و خرجوا و هم يقولون : ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلّا اختلاق فأنزل الله في قولهم صٓ و القرآن ذي الذكر ـ إلى قوله ـ إلّا اختلاق .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « و عجبوا أن جاءهم منذر منهم » قال : لمّا أظهر رسول الله صلّى الله عليه و آله الدعوة اجتمعت قريش إلى أبي طالب فقالوا : يا

أبا طالب إنّ ابن أخيك قد سفّه أحلامنا و سبّ آلهتنا و أفسد شبّابنا و فرّق جماعتنا فإن كان الّذي يحمله على ذلك العدم جمعنا له مالاً حتّى يكون أغنى رجل في قريش و نملّكه علينا .

فأخبر أبوطالب رسول الله صلّى الله عليه وآله بذلك فقال: لووضعوا الشمس في يميني و القمر في يساري ما أردته و لكن يعطونني كلمة يملكون بها العرب و يدين لهم بها العجم و يكونون ملوكا في الجنّة فقال لهم أبوطالب ذلك فقالوا : نعم و عشر كلمات فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وآله : تشهدون أن لا إله إلّا الله و أنّي رسول الله فقالوا : ندع ثلاث مائة و ستّين إلها و نعبد إلهاً واحدا ؟

فأنزل الله سبحانه : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم و قال الكافرون هذا ساحر كذّاب - إلى قوله - إلّا اختلاق » أي تخليط « ءأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شكّ من ذكري - إلى قوله - من الأحزاب » يعني الّذين تحزّبوا عليه يوم الأحزاب.

أقول :و القصّة مرويّة من طرق أهل السنّة أيضا وفي بعض رواياتهم أنّه صلّى الله عليه وآله لمّا عرض عليهم كلمة التوحيد قالوا له : سلنا غير هذه قال : لوجئتموني بالشمس حتّى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها فغضبوا و قاموا و الكلمة كناية عن تمليكهم إيّاه زمام نظام العالم الأرضيّ فإنّ الشمس و القمر من أعظم المؤثّرات فيه ، و قد اُخذا على ما يظهران للحسّ من القدر ليصحّ ما اُريد من التمثيل .

و في العلل بإسناده إلى إسحاق بن عمّار قال : سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام كيف صارت الصلاة ركعة و سجدتين ؟ وكيف إذا صارت سجدتين لم تكن ركعتين ؟ فقال : إذا سألت عن شيء ففرّغ قلبك لتفهم . إنّ أوّل صلاة صلاّها رسول الله صلّى الله عليه وآله إنّما صلاّها في السماء بين يدي الله تبارك وتعالى قدّام عرشه .

و ذلك أنّه لمّا اُسري به وصار عند عرشه قال : يا محمّد اُدن من صاد فاغسل مساجدك وطهّرها وصلّ لربّك فدنا رسول الله صلّى الله عليه وآله إلي حيث أمره الله تبارك و تعالي فتوضّأ و أسبغ وضوءه .

قلت : جعلت فداك و ما صاد الّذي اُمر أن يغتسل منه ؟ فقال : عين تنفجر من ركن من أركان العرش يقال له: ماء الحيوان و هو ما قال اللّٰهعزّ وجلّ : «صٓ و القرآن ذي الذكر » الحديث .

اقول : و روى هذا المعنى أعنى أنّ صٓ نهر يخرج من ساق العرش في المعاني عن سفيان الثوريّ عن الصادق عليه‌السلام ، و روى في مجمع البيان عن ابن عبّاس أنّه اسم من أسماء اللّٰه تعالى قال : و روي ذلك عن الصادق عليه‌السلام .

و في المعاني باسناده إلى الأصبغ عن عليّ عليه‌السلام في قول اللّٰه عزّوجلّ : «وقالوا ربّنا عجّل لنا قطّنا قبل يوم الحساب » قال : نصيبهم من العذاب .



☆☆☆

اصبر على ما يقولون و اذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب (١٧) انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي و الاشراق (١٨) و الطير محشورة كل له أواب (١٩) و شددنا ملكه و آتيناه الحكمة و فصل الخطاب (٢٠) و هل أتيك نبؤا الخصم اذ تسوروا المحراب (٢١) اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق و لا تشطط واهدنا الى سواء الصراط (٢٢) ان هذا أخي له تسع و تسعون نعجة و لي نعجة واحدة فقال اكفلنيها و عزني في الخطاب (٢٣) قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه و ان كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا و عملوا الصالحات و قليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه و خر راكعاً و أناب (٢٤) فغفرنا له ذلك و ان له عندنا لزلفى و حسن مآب (٢٥) يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق و لا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب (٢٦) و ما خلقنا السماء و الارض و ما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (٢٧) أم نجعل الذين آمنوا

وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٣٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩).

﴿ بيان ﴾

لمّا حكى سبحانه عن المشركين رميهم النبيّ صلى الله عليه وآله و دعوته الحقّة بالاختلاق و أنّها ذريعة إلى التقدّم و الرئاسة و أنّه لا مرجّح له عليهم حتّى يختصّ بالرسالة و الإنذار. ثمّ استهزاءهم بيوم الحساب وعذابه الّذي ينذرون به ؛ أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بالصبر و أن لا يزلزله هفواتهم و لا يوهن عزمه وأن يذكر عدّة من عباده الأوّابين له الراجعين إليه فيما دهمهم من الحوادث .

وهؤلاء تسعة من الأنبياء الكرام ذكرهم الله سبحانه : داود و سليمان و أيّوب و إبراهيم و إسحاق و يعقوب و إسماعيل و اليسع و ذوالكفل عليهم السلام ، وبدء بداود عليه السلام وذكر بعض قصصه .

قوله تعالى : « اصبر على ما يقولون و اذكر عبدنا داود ذا الأيد إنّه أوّاب » الأيد القوّة و كان عليه السلام ذاقوّة في تسبيحه تعالى يسبّح و يسبّح معه الجبال و الطير و ذاقوّة في ملكه وذاقوّة في علمه وذاقوّة وبطش في الحروب وقد قتل جالوت الملك كما قصّه الله في سورة البقرة .

و الأوّاب اسم مبالغة من الأوب بمعنى الرجوع والمراد به كثرة رجوعه إلى ربّه.

قوله تعالى : « إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ و الإشراق » الظاهر أنّ « معه » متعلّق بقوله : « يسبّحن » و جملة « معه يسبّحن » بيان لمعنى التسخير وقدّم الظرف لتعلّق العناية بتبعيّتها لداود واقتدائها به في التسبيح لكن قوله تعالى في موضع آخر : « وسخّرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير » الأنبياء : ٧٩ يؤيّد تعلّق الظرف بسخّرنا ، و قد وقع في موضع آخر من كلامه تعالى : « يا جبال أوّبي معه و الطير » سبأ : ١٠ . والعشيّ و الإشراق الرواح والصباح .

و قوله : « إنّا سخّرنا » الخ « إنّ » فيه للتعليل و الآية و ما عطف عليها من الآيات بيان لكونه عليه‌السلام ذا أيد في تسبيحه و ملكه و علمه و كونه أوّابا إلى ربّه .

قوله تعالى : « و الطير محشورة كلّ له أوّاب » المحشورة من الحشر بمعنى الجمع بإزعاج أي و سخّرنا معه الطير مجموعة له تسبّح معه .

و قوله : « كلّ له أوّاب » استئناف يقرّر ما تقدّمه من تسبيح الجبال و الطير أي كلّ من الجبال و الطير أوّاب أي كثير الرجوع إلينا بالتسبيح فإنّ التسبيح من مصاديق الرجوع إليه تعالى . و يحتمل رجوع ضمير « له » إلى داود على بعد .

ولم يكن تأييد داود عليه‌السلام في أصل جعله تعالى للجبال والطير تسبيحا فإنّ كلّ شيء مسبّح لله سبحانه قال تعالى : « و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى : ٤٤ بل في موافقة تسبيحها لتسبيحه و قرع تسبيحها أسماع الناس وقد تقدّم كلام في معنى تسبيح الأشياء لله سبحانه في تفسير قوله تعالى : « وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده » الآية و أنّه بلسان القال دون لسان الحال .

قوله تعالى : « وشددنا ملكه و آتيناه الحكمة و فصل الخطاب » قال الراغب: الشدّ العقد القويّ يقال : شددت الشيء قوّيت عقده . انتهى فشدّ الملك من الاستعارة بالكناية و المراد به تقوية الملك و تحكيم أساسه بالهيبة و الجنود و الخزائن و حسن التدبير وسائر ما يتقوّى به الملك .

و الحكمة في الأصل بناء نوع من الحكم و المراد بها المعارف الحقّة المتقنة الّتي تنفع الإنسان و تكمّله ، و قيل : المراد النبوّة ، و قيل : الزبور و علم الشرائع و قيل غير ذلك و هي وجوه رديّة .

وفصل الخطاب تفكيك الكلام الحاصل من مخاطبة واحد لغيره وتمييز حقّه من باطله وينطبق على القضاء بين المتخاصمين في خصامهم .

و قيل : المراد به الكلام القصد ليس بإيجازه مخلّا و لا بإطنابه مملّا ، و قيل : فصل الخطاب قول أمّا بعد فهو عليه‌السلام أوّل من قال : أمّا بعد ، و الآية التالية « و هل أتاك نبؤ الخصم » الخ تؤيّد ما قدّمناه .

قوله تعالى : « و هل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوّروا المحراب » الخصم مصدر كالخصومة اُريد به القوم الّذين استقرّ فيهم الخصومة ، و التسوّر الارتقاء إلى أعلى السور و هو الحائط الرفيع كالتسنّم بمعنى الارتقاء إلى سنام البعير والتذرّي بمعنى الارتقاء إلى ذروة الجبل ، و قد فسّر المحراب بالغرفة و العليّة ، و الاستفهام للتعجيب و التشويق إلى استماع الخبر .

و المعنى هل أتاك يا محمّد خبر القوم المتخاصمين إذ علوا سور المحراب محراب داود عليه السلام .

قوله تعالى : « إذ دخلوا على داود ففزع منهم » إلى آخر الآية لفظة «إذ»هذه ظرف لقوله : « تسوّروا» كما أنّ « إذ » الاُولى ظرف لقوله :« نبؤ الخصم » ومحصّل المعنى أنّهم دخلوا على داود وهوفي محرابه لامنالطريق العادّي بل بتسوّره بالارتقاء إلى سوره و الورود عليه منه و لذا فزع منهم لمّا رآهم دخلوا عليه من غير الطريق العادّي و بغير إذن .

و قوله : « ففزع منهم » قال الراغب : الفزع انقباض و نفاريعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع و لا يقال : فزعت من الله كما يقال : خفت منه . انتهى .

وقد تقدّم أنّ الخشية تأثير القلب بحيث يستتبع الاضطراب والقلق وهيرذيلة مذمومة إلّا الخشية من الله سبحانه و لذا كان الأنبياء عليهم السلام لايخشون غيره قال تعالى: « ولايخشون أحداً إلّا الله » الأحزاب : ٣٩ .

و أنّ الخوف هو التأثير عن المكروه في مقام العمل بتهيئة مايتحرّزبه عنالشرّ و يدفع به المكروه لافي مقام الإدراك فليس برذيلة مذمومة لذاته بل هو حسن فيما يحسن الاتّقاء قال تعالى خطابا لرسوله : « وإمّا تخافنّ من قوم خيانة » الانفال :٥٨.

و إذا كان الفزع هو الانقباض و النفار الحاصل من الشيء المخوف كان أمراً راجعا إلى مقام العمل دون الإدراك فلم يكن رذيلة بذاته بل كان فضيلة عند تحقّق مكروه ينبغي التحرّز منه فلاضير في نسبته إلىداود عليه السلام في قوله : « ففزع منهم »وهو

من الأنبياء الّذين لا يخشون إلّا الله .

وقوله : «قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض» لمّا رأوا ما عليه داود عليه السلام من الفزع أرادوا تطييب نفسه و إسكان روعه فقالوا : « لا تخف » و هو نهي عن الفزع بالنهي عن سببه الّذي هو الخوف « خصمان بغى » الخ أي نحن خصمان أي فريقان متخاصمان تجاوز بعضنا ظلما على بعض .

وقوله : « فاحكم بيننا بالحقّ و لا تشطط » الخ الشطط الجور أي فاحكم بيننا حكما مصاحبا للحقّ ولا تجر في حكمك و دلّنا على الوسط العدل من الطريق .

قوله تعالى : « إنّ هذا أخي» إلى آخر الآية بيان لخصومتهم وقوله : « إنّ هذا أخي » كلام لواحد من أحد الفريقين يشير إلى آخر من الفريق الآخر بأنّ هذا أخي له » الخ .

و بهذا يظهر فساد ما استدلّ بعضهم بالآية على أنّ أقلّ الجمع اثنان لظهور قوله : « إذ تسوّروا » « إذ دخلوا » في كونهم جمعاً ودلالة قوله : « خصمان» « هذا أخي» على الاثنينيّة .

و ذلك لجواز أن يكون في كلّ واحد من جانبي التثنية أكثر من فرد واحد قال تعالى : « هذان خصمان اختصموا في ربّهم فالّذين كفروا » الخ الحجّ : ١٩ وجواز أن يكون أصل الخصومة بين فردين ثمّ يلحق بكلّ منهما غيره لإعانته في دعواه .

و قوله : « له تسع و تسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها و عزّني في الخطاب » النعجة الأنثى من الضأن ، و« أكفلنيها » أي اجعلها في كفالتي وتحت سلطتي و« عزّني في الخطاب » أي غلبني فيه والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ـ إلى قوله ـ وقليل ماهم » جواب داود عليه السلام ، و لعلّه قضاء تقديريّ قبل استماع كلام المتخاصم الآخر فإنّ من الجائز أن يكون عنده من القول ما يكشف عن كونه محقّاً فيما يطلبه ويقترحه على صاحبه لكن صاحب النعجة الواحدة ألقى كلامه بوجد هيّج الرحمة و العطوفة منه

عليه السلام فبادر إلى هذا التصديق التقديريّ فقال : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه » .

فاللّام للقسم ، و السؤال ـ على ما قيل ـ مضمّن معنى الإضافة و لذاعدّي إلى المفعول الثاني بإلى ،والمعنى اُقسم لقد ظلمك بسؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه .

وقوله : « وإنّ كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلاّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات و قليل ما هم » من تمام كلام داود عليه السلام يقرّر به كلامه الأوّل و الخلطاء الشركاء المخالطون .

قوله تعالى : « وظنّ داود أنّما فتنّاه فاستغفر ربّه و خرّ راكعاً وأناب » أي علم داود أنّما فتنّاه بهذه الواقعة أي أنّها إنّما كانت فتنة فتنّاه بها و الفتنة الامتحان وقيل : ظنّ بمعناه المعروف الّذي هو خلاف اليقين وذكر استغفاره وتوبته مطلقين يؤيّد ما قدّمناه ولو كان الظنّ بمعناه المعروف كان الاستغفار والتوبة على تقدير كونها فتنة واقعاً وإطلاق اللفظ يدفعه ، والخرّ على ماذكره الراغب سقوط يسمع منه خرير والخرير يقال لصوت الماء و الريح وغير ذلك ممّا يسقط من علو ، والركوع ـ على ماذكره ـ مطلق الانحناء .

و الإنابة إلى الله ـ على ما ذكره الراغب ـ الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل وهي من النوب بمعنى رجوع الشيء مرّة بعد اُخرى .

و المعنى و علم داود أنّ هذه الواقعة إنّما كانت امتحانا امتحنّاه و أنّه أخطأ فاستغفر ربّه ـ ممّا وقع منه ـ و خرّ منحنيا وتاب إليه .

و أكثر المفسّرين تبعاً للروايات على أنّ هؤلاء الخصم الداخلين على داود عليه السلام كانوا ملائكة أرسلهم الله سبحانه إليه ليمتحنه و ستعرف حال الروايات .

لكن خصوصيّات القصّة كتسوّرهم المحراب و دخولهم عليه دخولا غير عاديّ بحيث أفزعوه ، وكذاتنبّهه بأنّه إنّما كان فتنة من الله له لا واقعة عاديّة ، وقوله تعالى بعد : « فاحكم بين الناس بالحقّ و لا تتّبع الهوى » الظاهر في أنّ الله ابتلاه بما ابتلى لينبّهه و يسدّده في خلافته و حكمه بين الناس ، كلّ ذلك يؤيّد كونهم من الملائكة

وقد تمثّلوا له في صورة رجال من الإنس .

و على هذا فالواقعة تمثّل تمثّل فيه الملائكة في صورة متخاصمين لأحدهما نعجة واحدة يسألها آخر له تسع و تسعون نعجة و سألوه القضاء فقال لصاحب النعجة الواحدة : « لقد ظلمك » الخ و كان قوله عليه السلام ـ لو كان قضاء منجّزا ـ حكما منه في ظرف التمثّل كما لو كان رآهم فيما يرى النائم فقال لهم ما قال و حكم فيهم بما حكم و من المعلوم أن لا تكليف في ظرف التمثّل كما لا تكليف في عالم الرؤيا و إنّما التكليف في عالمنا المشهود وهو عالم المادّة و لم تقع الواقعة فيه ولا كان هناك متخاصمان ولا نعجة ولا نعاج إلّا في ظرف التمثّل فكانت خطيئة داود عليه السلام في هذا الظرف من التمثّل و لا تكليف هناك كخطيئة آدم عليه السلام في الجنّة من أكل الشجرة قبل الهبوط إلى الأرض وتشريع الشرائع وجعل التكاليف ، واستغفاره وتوبته ممّا صدر منه كاستغفار آدم و توبته ممّا صدر منه وقد صرّح الله بخلافته في كلامه كما صرّح بخلافة آدم عليه السلام في كلامه وقد مرّ توضيح ذلك في قصّة آدم عليه السلام من سورة البقرة في الجزء الأوّل من الكتاب.

و أمّا على قول بعض المفسّرين من أنّ المتخاصمين الداخلين عليه كانوا بشرا و القصّة على ظاهرها فينبغي أن يؤخذ قوله : « لقد ظلمك » الخ قضاء تقديريا أي إنّك مظلوم لو لم يأت خصيمك بحجّة بيّنة ، وإنّما ذلك للحفظ على ما قامت عليه الحجّة من طريقي العقل و النقل أنّ الأنبياء معصومون بعصمة من الله لا يجوز عليهم كبيرة و لا صغيرة .

على أنّ الله سبحانه صرّح قبلا بأنّه آتاه الحكمة و فصل الخطاب و لا يلائم ذلك خطأه في القضاء .

قوله تعالى : « و إنّ له عندنا لزلفى و حسن مآب » الزلفة و الزلفى المنزلة و الحظوة ، و المآب المرجع ، و تنكير «زلفى» و « مآب » للتفخيم ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض» إلى آخر الآية الظاهر أنّ الكلام بتقدير القول و التقدير فغفرنا له ذلك و قلنا يا داود الخ .

و ظاهر الخلافة أنّها خلافة الله فتنطبق على ما في قوله تعالى : « و إذ قال ربّك

للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ و من شأن الخلافة أن يحاكي الخليفة من استخلفه في صفاته و أعماله فعلى خليفة الله في الأرض أن يتخلّق بأخلاق الله و يريد و يفعل ما يريده الله و يحكم و يقضي بما يقضي به الله ـ و الله يقضي بالحقّ ـ و يسلك سبيل الله و لا يتعدّاها .

و لذلك فرّع على جعل خلافته قوله :« فاحكم بين الناس بالحقّ » و هذا يؤيّد أنّ المراد بجعل خلافته إخراجها من القوّة إلى الفعل في حقّه لا مجرّد الخلافة الشأنيّة لأنّ الله أكمله في صفاته و آتاه الملك يحكم بين الناس .

و قول بعضهم: إنّ المراد بخلافته المجعولة خلافته ممّن قبله من الأنبياء، وتفريع قوله : « فاحكم بين الناس بالحقّ » لأنّ الخلافة نعمة عظيمة شكرها العدل أو أنّ المترتّب هو مطلق الحكم بين الناس الّذي هو من آثار الخلافة و تقييده بالحقّ لأنّ سداده به ، تصرّف في اللفظ من غير شاهد .

و قوله : « و لا تتبّع الهوى فيضلّك عن سبيل الله » العطف و المقابلة بينه و بين ما قبله يعطيان أنّ المعنى و لا تتّبع في قضائك الهوى هوى النفس فيضلّك عن الحقّ الّذي هو سبيل الله فتفيد الآية أنّ سبيل الله هو الحقّ .

قال بعضهم : إنّ في أمره عليه‌السلام بالحكم بالحقّ و نهيه عن اتّباع الهوى تنبيها لغيره ممّن يلي اُمور الناس أن يحكم بينهم بالحقّ و لا يتّبع الباطل وإلّا فهو عليه‌السلام من حيث إنّه معصوم لا يحكم إلّا بالحقّ و لا يتّبع الباطل .

وفيه أنّ أمر تنبيه غيره بما وجّه إليه من التكليف في محلّه لكن عصمة المعصوم و عدم حكمه إلّا بالحقّ لا يمنع توجّه التكليف بالأمر و النهي إليه فإنّ العصمة لا توجب سلب اختياره و مادام اختياره باقيا جاز بل وجب توجه التكليف إليه كما يتوجّه إلى غيره من الناس ، ولولا توجّه التكليف إلى المعصوم لم يتحقّق بالنسبة إليه واجب و محرّم و لم تتميّز طاعة من معصية فلغى معنى العصمة الّتي هي المصونيّة عن المعصية .

و قوله:«إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب»

تعليل للنهي عن اتّباع الهوى بأنّه يلازم نسيان يوم الحساب و في نسيانه عذاب شديد و المراد بنسيانه عدم الاعتناء بأمره .

و في الآية دلالة على أنّ كلّ ضلال عن سبيل الله سبحانه بمعصية من المعاصي لا ينفكّ عن نسيان يوم الحساب .

قوله تعالى : « و ما خلقنا السماء و الأرض و ما بينهما باطلا» إلى آخر الآية لمّا انتهى الكلام إلى ذكر يوم الحساب عطف عنان البيان عليه فاحتجّ عليه بحجّتين إحداهما ما ساقه في هذه الآية بقوله : « و ما خلقنا السماء » الخ و هو احتجاج من طريق الغايات إذ لو لم يكن خلق السماء و الأرض و ما بينهما ـ و هي اُمور مخلوقة مؤجّلة توجد و تفنى ـ مؤدّيا إلى غاية ثابتة باقية غيرمؤجّلةكان باطلا والباطل بمعنى مالاغاية له ممتنع التحقّق في الأعيان . على أنّه مستحيل من الحكيم و لا ريب في حكمته تعالى .

و ربّما اُطلق الباطل و اُريد به اللعب ولو كان المراد ذلككانت الآية في معنى قوله : « و ما خلقنا السماوات و الأرض و ما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلّا بالحقّ » الدخان : ٣٩ .

و قيل : الآية عطف على ما قبلها بحسب المعنى كأنّه قيل : و لا تتّبع الهوى لأنّه يكون سببا لضلالك و لأنّه تعالى لميخلق العالم لأجلاتّباع الهوى وهوالباطل بل خلقه للتوحيد و متابعة الشرع .

و فيه أنّ الآية التالية : « أم نجعل الّذين آمنوا و عملوا الصالحاتكالمفسدين في الأرض » الخ لا تلائم هذا المعنى .

و قوله : « ذلك ظنّ الّذين كفروا فويل للّذينكفروا من النار » أي خلق العالم باطلا لاغاية له وانتفاء يوم الحسابالّذي يظهر فيه ما ينتجه حساب الاُمور ظنّ الّذين كفروا بالمعاد فويل لهم من عذاب النار .

قوله تعالى : « أم نجعل الّذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار » هذه هي الحجّة الثانية على المعاد و تقريرها أنّ للإنسان

كسائر الأنواع كمالا بالضرورة و كمال الإنسان هو خروجه في جانبي العلم و العمل من القوّة إلى الفعل بأن يعتقد الاعتقادات الحقّة و يعمل الأعمال الصالحة اللّتين يهديه إليهما فطرته الصحيحة وهما الإيمان بالحقّ والعمل الصالح اللّذين بهما يصلح المجتمع الإنسانيّ الّذي في الأرض .

فالّذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المتّقون هم الكاملون من الإنسان والمفسدون في الأرض بفساد اعتقادهم و عملهم و هم الفجّار هم الناقصون الخاسرون في إنسانيّتهم حقيقة ، و مقتضى هذا الكمال و النقص أن يكون بإزاء الكمال حياة سعيدة و عيش طيّب وبإزاء خلافه خلاف ذلك .

و من المعلوم أنّ هذه الحياة الدنيا الّتي يشتركان فيها هي تحت سيطرة الأسباب و العوامل المادّيّة و نسبتها إلى الكامل والناقص والمؤمن و الكافر على السواء فمن أجاد العمل ووافقته الأسباب المادّيّة فاز بطيب العيش ومن كان على خلاف ذلك لزمه الشقاء وضنك المعيشة .

فلو كانت الحياة مقصورة على هذه الحياة الدنيويّة الّتي نسبتها إلى الفريقين على السواء ولم تكن هناك حياة تختصّ بكلّ منهما و تناسب حاله كان ذلك منافيا للعناية الإلهيّة بإيصال كلّ ذي حقّ حقّه و إعطاء المقتضيات ماتقتضيه .

و إن شئت فقل : تسوية [1] بين الفريقين وإلغاء مايقتضيه صلاح هذا وفساد ذلك خلاف عدله تعالى .

و الآية ـ كما ترى ـ لاتنفي استواء حال المؤمن والكافر و إنّما قرّرت المقابلة بين من آمن و عمل صالحا و بين من لم يكن كذلك سواء كان غير مؤمن أو مؤمنا غير صالح ولذا أتت بالمقابلة ثانياً بين المتّقين و الفجّار .

قوله تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته و ليتذكّر اُولوا الألباب » أي هذا كتاب من وصفه كذا و كذا ، وتوصيفه بالإنزال المشعر بالدفعة دون

---

(١) الحجة الاولى برهانية والثانية جدلية .

التنزيل الدالّ على التدريج لأنّ ما ذكر من التدبّر و التذكّر يناسب اعتباره مجموعاً لانجوما مفرّقة .

و المقابلة بين « ليدّبّروا » و « ليتذكّر اُولو الألباب » تفيد أنّ المراد بضمير الجمع الناس عامّة .

و المعنى هذا كتاب أنزلناه إليك كثير الخيرات و البركات للعامّة و الخاصّة ليتدبّره الناس فيهتدوا به أوتتمّ لهم الحجّة و ليتذكّر به اُولو الألباب فيهتدوا إلى الحقّ باستحضار حجّته و تلقّيها من بيانه .

﴿بحث روائي﴾

روى في الدرّ المنثور بطريق عن أنس و عن مجاهد والسديّ و بعدّة طرق عن ابن عبّاس قصّة دخول الخصم على داود عليه‌السلام على اختلاف ما في الروايات وروى مثلها القميّ في تفسيره و رواها في العرائس، و غيره وقد لخّصها في مجمع البيان كمايأتي:

إنّ داود كان كثير الصلاة فقال : يا ربّ فضّلت عليّ إبراهيم فاتّخذته خليلا و فضّلت عليّ موسى فكلّمته تكليما فقال : يا داود إنّا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله فا ن شئت ابتليتك فقال : نعم يا ربّ فابتلني .

فبينا هو في محرابه ذات يوم إذ وقعت حمامة فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوّة المحراب فذهب ليأخذها فاطّلع من الكوّة فا ذا امرأة اُوريا بن حيّان تغتسل فهواها و همّ بتزويجها فبعث باُوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقديمه أمام التابوت الّذي فيه السكينة ففعل ذلك وقتل .

فلمّا انقضت عدّتها تزوّجها و بنى بها فولد له منها سليمان فبينا هو ذات يوم في محرابه إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما فقالا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض ـ إلى قوله ـ و قليل مّاهم ، فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثمّ ضحك فتنبّه داود على أنّهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبكّتاه على خطيئته فتاب و بكى حتّى نبت الزرع من كثرة دموعه .

ثمّ قال في المجمع ـ و نعم ما قال ـ : إنّه ممّا لاشبهة في فساده فإنّ ذلك ممّا يقدح في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله الّذين هم اُمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفةمن لاتقبل شهادته و على حالة تنفرّ عن الاستماع إليه والقبول منه.

اقول : و القصّة مأخوذة من التوراة غير أنّ الّتي فيها أشنع و أفظع فعدّلت بعض التعديل على ماسيلوح لك .

ففي التوراة ما ملخّصه : و كان في وقت المساء أنّ داود قام عن سريره و تمشّى على سطح بيت الملك فرآى من على السطح امرأة تستحمّ و كانت المرأة جميلة المنظر جدّاً .

فأرسل داود و سأل عن المرأة فقيل : إنّها بتشبع امرأة اُوريّا الحثّي فأرسل داود رسلا و أخذها فدخلت عليه فاضطجع معها وهي مطهّرة من طمثها ثمّ رجعت إلى بيتها و حبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود أنها حبلى .

و كان اُوريّا في جيش لداود يحاربون بني عَمون فكتب داود إلى يوآب أمير جيشه يأمره بإرسال اُوريّا إليه و لمّا أتاه وأقام عنده أيّاما كتب مكتوبا إلى يوآب و أرسله بيد اُوريّا ، وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا اُوريّا في وجه الحرب الشديدة و ارجعوا من ورائه فيضرب و يموت ففعل به ذلك فقتل و اُخبر داود بذلك .

فلمّا سمعت امرأة اُوريّا أنّه قد مات ندبت بعلها ، و لمّا مضت المناحة أرسل داود و ضمّها إلى بيته و صارت له امرأة و ولدت له ابنا و أمّا الأمر الّذي فعله داود فقبح في عيني الربّ .

فأرسل الربّ ناثان النبيّ إلى داود فجاء إليه و قال له : كان رجلان في مدينة واحدة واحد منهما غنيّ و الآخر فقير ، وكان للغنيّ غنم و بقر كثيرة جدّا و أمّا الفقير فلم يكن له شيء إلّا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها و ربّاها فجاء ضيف إلى الرجل الغنيّ فعفا أن يأخذ من غنمه و من بقره ليهيّيء للضيف الّذي جاء إليه فأخذ نعجة

---

(١) ملخص من الاصحاح الحادى عشر والثانى عشر من صموئيل الثانى .

الرجل الفقير و هيّأ لضيفه ، فحمي غضب داود على الرجل جدّا و قال لناثان : حيّ هو الربّ إنّه يقتل الرجل الفاعل ذلك وتردّ النعجة أربعة أضعاف لأنّه فعل هذا الأمر و لأنّه لم يشفق .

فقال ناثان لداود : أنت هو الرجل يعاتبك الربّ و يقول : سأُقيم عليك الشرّ من بيتك و آخذ نساءك أمام عينيك و اُعطيهنّ لقريبك فيضطجع معهنّ قدّام جميع إسرائيل و قدّام الشمس جزاء لما فعلت باُوريّا و امرأته .

فقال داود لناثان : قد أخطأت إلى الربّ فقال ناثان لداود : الربّ أيضاً قد نقل عنك خطيئتك . لا تموت غير أنّه من أجل أنّك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الربّ يشمتون فالابن المولود لك من المرأة يموت ، فأمرض الله الصبيّ سبعة أيّام ثمّ قبضه ثمّ ولدت مرأة اُوريّا بعده لداود ابنه سليمان .

و في العيون في باب مجلس الرضا عند المأمون مع أصحاب الملل و المقالات قال الرضا عليه السلام لا بن جهم : و أمّا داود فما يقول من قبلكم فيه ؟ قال : يقولون : إنّ داود كان يصلّي في محرابه إذ تصوّر له إبليس على صورة طير أحسن ما يكون من الطيور فقطع داود صلاته و قام يأخذ الطير إلى الدار فخرج في إثره فطار الطير إلى السطح فصعد في طلبه فسقط الطير في دار اُوريا بن حيّان .

فاطّلع داود في إثر الطير فاذا بامرأة اُوريّا تغتسل فلمّا نظر إليها هواها وكان قد أخرج اُوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدّم اُوريا أمام التابوت فقدّم فظفر اُوريا بالمشركين فصعب ذلك على داود فكتب إليه ثانية أن قدّمه أمام التابوت فقدّم فقتل اُوريا و تزوّج داود بامرأته .

قال : فضرب الرضا عليه السلام يده على جبهته و قال : إنّا لله و إنّا إليه راجعون لقد نسبتم نبيّاً من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتّى خرج في إثر الطير ثمّ بالفاحشة ثمّ بالقتل .

فقال : يا ابن رسول الله ما كانت خطيئته ؟ فقال : ويحك إنّ داود عليه السلام إنّما ظنّ أنّه ما خلق الله خلقا هوأعلم منه فبعث الله عزّوجلّ إليه الملكين فسوّرا المحراب

فقال : خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحقّ و لا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إنّ هذا أخي له تسع و تسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها و عزّني في الخطاب فعجّل داود على المدّعى عليه فقال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه و لم يسأل المدّعي البيّنة على ذلك ، ولم يقبل على المدّعى عليه فيقول له : ما تقول ؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه ألا تسمع الله عزّ و جلّ يقول : «يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ» إلى آخر الآية .

فقال : يا ابن رسول الله فما قصّته مع اُوريا ؟ قال الرضا عليه السلام : إنّ المرأة في أيّام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لاتتزوّج بعده أبدا فأوّل من أباح الله عزّ وجلّ له أن يتزوّج بامرأة قتل بعلها داود عليه السلام فتزوّج بامرأة اُوريا لمّا قتل و انقضت عدّتها فذلك الّذي شقّ على الناس من قتل اُوريا .

و في أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال لعلقمة : إنّ رضا الناس لا يملك و ألسنتهم لا تضبط ألم ينسبوا داود عليه السلام إلى أنّه تبع الطير حتّى نظر إلى امرأة اُوريا فهواها ، و أنّه قدّم زوجها أمام التابوت حتّى قتل ثمّ تزوّج بها الحديث .

﴿ كلام في قصص داود في فصول ﴾

١ ـ قصته في القرآن لم يقع من قصّته في القرآن إلّا إشارات فقد ذكر سبحانه أنّه كان في جيش طالوت الملك حين حارب جالوت فقتل داود فآتاه الله الملك بعد طالوت و الحكمة و علّمه ممّا يشاء (البقرة : ٢٥١) و جعله خليفة له يحكم بين الناس و آتاه فصل الخطاب (ص : ٢٠ و ٢٦) و قد أيّد الله ملكه و سخّر معه الجبال و الطير يسبّحن معه (الأنبياء : ٧٩ ص : ١٩) و ألان له الحديد يعمل و ينسج منه الدروع (الأنبياء : ٨٠ سبأ : ١١) .

٢ ـ جميل الثناء عليه في القرآن . عدّه سبحانه من الأنبياء و أثنى عليه بما أثنى عليهم و خصّه بقوله : « وآتينا داود زبورا » (النساء : ١٦٣ الأنعام : ٨٤ ـ ٨٧)

و آتاه فضلا و علما (سبأ : ١٠ النمل : ١٥) و آتاه الحكمة و فصل الخطاب و جعله خليفة في الأرض (صٓ : ٢٠ و ٢٦) و وصفه بأنّه أوّاب و أنّ له عنده لزلفى و حسن مآب (صٓ : ١٩ و ٢٥) .

٣ ـ التدبّر في آيات الكتاب المتعرّضة لقصّة دخول المتخاصمين على داود عليه السلام لا يعطي أزيد من كونه امتحانا منه تعالى له عليه السلام في ظرف التمثّل ليربّيه تربية إلهيّة و يعلّمه رسم القضاء العدل فلا يجور في الحكم و لا يعدل عن العدل .

و أمّا ما تضمّنته غالب الروايات من قصّة اُوريا و امرأته فهو ممّا يجلّ عنه الأنبياء عليهم السلام و يتنزّه عنه ساحتهم و قد تقدّم في بيان الآيات و البحث الروائي محصّل الكلام في ذلك .

☆ ☆ ☆

وَ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ (٣٣) وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَ أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ (٣٧) وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ (٤٠).

﴿ بيان ﴾

القصّة الثانية من قصص العباد الأوّابين الّتي اُمر النبيّ صلّى الله عليه وآله أن يصبر و يذكرها.

قوله تعالى: « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنّه أوّاب » أي وهبناه له ولدا والباقي ظاهر ممّا تقدّم.

قوله تعالى: « إذ عرض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد » العشيّ مقابل الغداة و هو آخر النهار بعد الزوال، والصافنات على ما في المجمع جمع الصافنة من الخيل و

هي الّتي تقوم على ثلاث قوائم و ترفع إحدى يديها حتّى تكون على طرف الحافر . قال : والجياد جمع جواد والياء ههنا منقلبة عن واو والأصل جِواد و هي السراع من الخيل كأنّها تجود بالركض . انتهى .

قوله تعالى : « فقال إنّي أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّي حتّى توارت بالحجاب » الضمير لسليمان ، والمراد بالخير الخيل ـ على ماقيل ـ فإنّ العرب تسمّي الخيل خيرا و عن النبيّ ﷺ الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة .

و قيل المراد بالخير المال الكثير وقد استعمل بهذا المعنى في مواضع من كلامه تعاله كقوله : « إن ترك خيرا » البقرة : ١٨٠ .

و قوله : « إنّي أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّي » قالوا : إنّ « أحببت » مضمّن معنى الإيثار و « عن » بمعنى على ، والمراد إنّي آثرت حبّ الخيل على ذكر ربّي وهو الصلاة محبّا إيّاه أوأحببت الخيل حبّا مؤثرا إيّاه على ذكر ربّي ـ فاشتغلت بما عرض عليّ من الخيل عن الصلاة حتّى غربت الشمس .

و قوله : « حتّى توارت بالحجاب » الضمير على ما قالوا للشمس والمراد بتواريها بالحجاب غروبها و استتارها تحت حجاب الاُفق ، و يؤيّد هذا المعنى ذكر العشيّ في الآية السابقة إذلولا ذلك لم يكن غرض ظاهر يترتّب على ذكر العشيّ .

فمحصّل معنى الآية أنّي شغلني حبّ الخيل ـ حين عرض الخيل عليّ ـ عن الصلاة حتّى فات وقتها بغروب الشمس ، و إنّما كان يحبّ الخيل في الله ليتهيّأ به للجهاد في سبيل الله فكان الحضور للعرض عبادة منه فشغلته عبادة عن عبادة غير أنّه يعدّ الصلاة أهمّ .

و قيل : ضمير « توارت » للخيل و ذلك أنّه أمر بإجراء الخيل فشغله النظر في جريها حتّى غابت عن نظره و توارت بحجاب البعد ، وقد تقدّم أنّ ذكر العشيّ يؤيّد المعنى السابق ولا دليل على ما ذكره من حديث الأمر بالجري من لفظ الآية .

قوله تعالى : « ردّوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » قيل : الضمير في « ردّوها » للشمس و هو أمر منه للملائكة بردّ الشمس ليصلّي صلاته في وقتها ، وقوله

« فطفق مسحا بالسوق و الأعناق » أي شرع يمسح ساقيه و عنقه و يأمر أصحابه أن يمسحوا سوقهم و أعناقهم و كان ذلك وضوءهم ثمّ صلّى وصلّوا ، وقد ورد ذلك في بعض الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام .

و قيل : الضمير للخيل والمعنى قال : ردّوا الخيل فلمّا ردّت شرع يمسح مسحاً بسوقها و أعناقها و يجعلها مسبلة في سبيل الله جزاء ما اشتغل بها عن الصلاة .

و قيل : الضمير للخيل والمراد بمسح أعناق الخيل و سوقها ضربها بالسيف و قطعها والمسح القطع فهو عليه السلام غضب عليها في الله لمّا شغلته عن ذكر الله فأمر بردّها ثمّ ضرب بالسيف أعناقها و سوقها فقتلها جميعا .

وفيه أنّ مثل هذا الفعل ممّا تتنزّه ساحة الأنبياء عليهم السلام عن مثله فما ذنب الخيل لو شغله النظر إليها عن الصلاة حتّى تؤاخذ بأشدّ المؤاخذة فتقتل تلك القتلة الفظيعة عن آخرها مع ما فيه من إتلاف المال المحترم .

و أمّا استدلال بعضهم عليه برواية أبيّ بن كعب عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في قوله تعالى: فطفق مسحا بالسوق والأعناق قطع سوقها و أعناقها بالسيف ثمّ أضاف إليها وقد جعلها بذلك قربانا لله و كان تقريب الخيل مشروعا في دينه فليس من التقريب ذكر في الحديث ولا في غيره .

على أنّه عليه السلام لم يشتغل عن العبادة بالهوى بل شغلته عبادة عن عبادة كما تقدّمت الإشارة إليه .

فالمعوّل عليه هو أوّل الوجوه إن ساعده لفظ الآية و إلّا فالوجه الثاني .

قوله تعالى : « ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيّه جسدا ثم أناب » الجسد هو الجسم الّذي لا روح فيه .

قيل : المراد بالجسد الملقى على كرسيّه هو سليمان نفسه لمرض امتحنه الله به و تقدير الكلام ألقيناه على كرسيّه جسداً أي كجسد لا روح فيه من شدّة المرض .

و فيه أنّ حذف الضمير من « ألقيناه » وإخراج الكلام على صورته الّتي في الآية الظاهرة في أنّ الملقى هو الجسد مخلّ بالمعنى المقصود لا يجوز حمل أفصح الكلام عليه.

ولسائر المفسّرين أقوال مختلفة في المراد من الآية تبعاً للروايات المختلفة الواردة فيها والّذي يمكن أن يؤخذ من بينها إجمالا أنّه كان جسد صبيّ له أماته الله و ألقى جسده على كرسيّه ، و لقوله : « ثمّ أناب قال ربّ اغفر لي » إشعار أو دلالة على أنّه كان له عليه السلام فيه رجاء أو اُمنيّة في الله فأماته الله سبحانه و ألقاه على كرسيّه فنبّهه أن يفوّض الأمر إلى الله ويسلّم له .

قوله تعالى : « قال ربّ اغفر لي و هب ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنّك أنت الوهّاب » ظاهر السياق أنّ الاستغفار مرتبطة بما في الآية السابقة من إلقاء الجسد على كرسيّه ، والفصل لكون الكلام في محلّ دفع الدخل كأنّه لمّا قيل : « ثمّ أناب» قيل : فما ذا قال ؟ فقيل : قال ربّ اغفر لي » الخ .

و ربّما استشكل في قوله : « وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي » أنّ فيه ضنّا و بخلا ، فإنّ فيه اشتراط أن لا يؤتى مثل ما اُوتيه من الملك لأحد من العالمين غيره .

و يدفعه أنّ فيه سؤال ملك يختصّ به لا سؤال أن يمنع غيره عن مثل ما آتاه و يحرمه ففرق بين أن يسأل ملكا اختصاصيّا و أن يسأل الاختصاص بملك اُوتيه .

قوله تعالى : « فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب » متفرّع على سؤاله الملك و إخبار عن إجابة دعوته و بيان الملك الّذي لا ينبغي لأحد غيره و هو تسخير الريح والجنّ .

والرخاء بالضمّ اللينة و الظاهر أنّ المراد بكون الريح تجري بأمره رخاء مطاوعتها لأمره و سهولة جريانها على ما يريده عليه السلام فلا يرد أنّ توصيف الريح ههنا بالرخاء يناقض توصيفه في قوله:«ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره» الأنبياء : ٨١ بكونها عاصفة .

و ربّما اُجيب عنه بأنّ من الجائز أن يجعلها الله رخوة تارة و عاصفة اُخرى حسب ما أراد سليمان عليه السلام .

وقوله : « حيث أصاب » أي حيث شاء سليمان عليه السلام وقصد و هو متعلّق بتجري .

قوله تعالى : « والشياطين كلّ بنّاء و غوّاص » أي و سخّرنا له الشياطين من الجنّ كلّ بنّاء منهم يبني له في البرّ وكلّ غوّاص يعمل له في البحر فيستخرج اللئالي و غيرها .

قوله تعالى : « و آخرين مقرّنين في الأصفاد » الأصفاد جمع صفد و هو الغلّ من الحديد ، والمعنى وسخّرنا له آخرين منهم مجموعين في الأغلال مشدودين بالسلاسل .

قوله تعالى : « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » أي هذا الّذي ذكر من الملك عطاؤنا لك بغير حساب والظاهر أنّ المراد بكونه بغير حساب أنّه لاينفد بالعطاء والمنّ و لذا قيل : « فامنن أو أمسك » أي إنّهما يستويان في عدم التأثير فيه .

و قيل المراد بغير حساب أنّك لا تحاسب عليه يوم القيامة ، و قيل : المراد أنّ إعطاءه تفضّل لا مجازاة و قيل غير ذلك .

قوله تعالى : « و إنّ له عندنا لزلفى و حسن مآب » تقدّم معناه .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « فقال إنّي أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّي» الآية قيل : إنّ هذه الخيل كانت شغلته عن صلاة العصر حتّى فات وقتها عن عليّ عليه‌السلام و في رواية أصحابنا أنّه فاته أوّل الوقت .

و فيه قال ابن عبّاس : سألت عليّاً عن هذه الآية فقال : ما بلغك فيها يا بن عبّاس؟ قلت : سمعت كعبا يقول : اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتّى فاتته الصلاة فقال : ردّوها عليّ يعني الأفراس و كانت أربعة عشر فأمر بضرب سوقها و أعناقها بالسيف فقتلها فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوما لأنّه ظلم الخيل بقتلها .

فقال عليّ : كذب كعب لكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم لأنّه أراد جهاد العدوّ حتّى توارت الشمس بالحجاب فقال بأمر الله للملائكة الموكّلين بالشمس: ردّوها عليّ فردّت فصلّى العصر في وقتها و إنّ أنبياء الله لايظلمون ولا يأمرون بالظلم

لأنّهم معصومون مطهّرون .

أقول : و قول كعب الأحبار : فسلبه الله ملكه إشارة إلى حديث الخاتم الّذي سنشير إليه .

و في الفقيه روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : إنّ سليمان بن داود عرض عليه ذات يوم بالعشيّ الخيل فاشتغل بالنظر إليها حتّى توارت الشمس بالحجاب فقال للملائكة : ردّوا الشمس عليّ حتّى اُصلّي صلاتي في وقتها فردّوها فقام ومسح ساقيه وعنقه بمثل ذلك وكان ذلك وضوءهم للصلاة ثمّ قام فصلّى فلمّا فرغ غابت الشمس وطلعت النجوم ، و ذلك قول الله عزّ وجلّ : « ووهبنا لداود سليمان ـ إلى قوله ـ مسحاً بالسوق والأعناق» .

اقول والرواية لا بأس بها لوساعد لفظ الآية أعني قوله : « فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » على ما فيها من المعنى ، و أمّا مسألة ردّ الشمس فلا إشكال فيه بعد ثبوت إعجاز الأنبياء ، وقد ورد ردّها لغيره عليه السلام كيوشع بن نون و عليّ بن أبي طالب عليه السلام في النقل المعتبر ولا يعبؤ بما أورده الرازيّ في تفسيره الكبير .

و أمّا عقره عليه السلام الخيل و ضربه أعناقها بالسيف فقد روي في ذلك عدّة روايات من طرق أهل السنّة وأورده القمّيّ في تفسيره وكأنّها تنتهي إلى كعب كما مرّ في رواية ابن عبّاس المتقدّمة و كيف كان فلا يعبؤ بها كما تقدّم .

وقد بلغ من إغراقهم في القصّة أن رووا أنّ الخيل كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة و مثله ماروي في قوله : حتّى توارت بالحجاب عن كعب أنّه حجاب من ياقوتة خضراء محيط بالخلائق منه اخضرّت السماء .

و مثل هذه الروايات أعاجيب من القصص رووها في قوله تعالى : « و ألقينا على كرسيّه جسدا » الآية كما روي أنّه ولد له ولد فأمر بإرضاعه و حفظه في السحاب إشفاقا عليه من مردة الجنّ و في بعضها خوفا عليه من ملك الموت فوقع يوما جسده على كرسيّه ميتا .

و ما روي أنّه قال يوما : لأطوفنّ الليلة بمائة امرأة من نسائي تلد لي كلّ واحدة منهنّ لي فارسا يجاهد في سبيل الله ولم يستثن فلم تحمل منهنّ إلّا واحدة بشقّ

من ولد و كان يحبّه فخبأه له بعض الجنّ من ملك الموت فأخذه من مخباءه و قبضه على كرسيّ سليمان .

و ما روي في روايات كثيرة تنتهي عدّة منها إلى ابن عبّاس و هو يصرّح في بعضها أنّه أخذه عن كعب أنّ ملك سليمان كان في خاتمه فتخطّفه شيطان منه فزال ملكه و تسلّط الشيطان على ملكه أيّاما ثمّ أعاد الله الخاتم إليه فعاد إلى ما كان عليه من الملك ، وقد أوردوا في القصّة اُمورا ينبغي أن تنزّه ساحة الأنبياء عليهم السلام عن ذكرها فضلا عن نسبتها إليهم . قالوا : وجلوس الشيطان على كرسيّ سليمان هو المراد بقوله تعالى : « وألقينا على كرسيّه جسداً » الآية .

فهذه [1] كلّها ممّا لا يعبؤبها على ما تقدّمت الإشارة إليه و إنّما هي ممّا لعبت بها أيدي الوضع .



(١) ليراجع فى الحصول على عامة هذه الروايات الدر المنثور .

✩ ✩ ✩

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ اِذْنادىٰ رَبَّهُ أَنّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ (٤١) أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ (٤٢) وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنّا وَ ذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبابِ (٤٣) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ اِنّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ اِنَّهُ أَوّابٌ (٤٤) وَ اذْكُرْ عِبادَنا اِبْراهيمَ وَ اِسْحٰقَ وَ يَعْقُوبَ اُولِي الْأَيْدي وَالْأَبْصارِ (٤٥) اِنّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدّارِ (٤٦) وَ اِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (٤٧) وَ اذْكُرْ اِسْمٰعيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (٤٨).

﴿ بيان ﴾

القصّة الثالثة ممّا اُمر النبيّ صلى الله عليه وآله أن يصبر و يذكرها و هي قصّة أيّوب النبيّ عليه السلام و ما ابتلي به من المحنة ثمّ أكرمه الله بالعافية والعطيّة . ثمّ الأمر بذكر إبراهيم و خمسة من ذرّيّته من الأنبياء عليهم السلام .

قوله تعالى : « و اذكر عبدنا أيّوب إذنادى ربّه أنّي مسّني الشيطان بنصب و عذاب » دعاء منه عليه السلام وسؤال للعافية وأن يكشف عنه ربّه ما أصابه من سوء الحال، ولم يصرّح بما يريده و يسأله تواضعا و تذلّلا غير أنّ نداءه تعالى بلفظ ربّي يشعر بأنّه يناديه لحاجة .

و النصب التعب ، وقوله : « إذنادى » الخ بدل اشتمال من « عبدنا » أو «أيّوب» و قوله : « أنّي مسّني » الخ حكاية ندائه .

والظاهر من الآيات التالية أنّ مراده من النصب و العذاب ما أصابه من سوء الحال في بدنه و أهله و هو الّذي ذكره عنه عليه السلام في سوره الأنبياء من ندائه أنّي مسّني الضرّ و أنت أرحم الراحمين بناء على شمول الضرّ مصيبته في نفسه و أهله ولم يشر في هذه السورة ولا في سورة الأنبياء إلى ذهاب ماله و إن وقع ذكر المال في الروايات .

والظاهر أنّ المراد من مسّ الشيطان له بالنصب و العذاب استناد نصبه و عذابه إلى الشيطان بنحو من السببيّة والتأثير وهو الّذي يظهر من الروايات ، ولا ينافي في استناد المرض و نحوه إلى الشيطان استناده أيضاً إلى بعض الأسباب العاديّة الطبيعيّة لأنّ السببين ليسا عرضيّين متدافعين بل أحدهما في طول الآخر وقد أوضحنا ذلك في تفسير قوله تعالى : « ولو أنّ أهل القرى آمنوا و اتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء » الأعراف : ٩٦ في الجزء الثامن من الكتاب .

ولا دليل يدلّ على امتناع وقوع هذا النوع من التأثير للشيطان في الإنسان وقد قال تعالى : « إنّما الخمر و الميسر و الأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان » المائدة : ٩٠ فنسبها أنفسها إليه ، و قال حاكيا عن موسى عليه السلام : « هذا من عمل الشيطان إنّه عدوّ مضلّ مبين » القصص : ١٥ يشير إلى الاقتتال .

ولو اُغمض عن الروايات أمكن أن يحتمل أن يكون المراد بانتساب ذلك إلى الشيطان إغراؤه الناس بوسوسته أن يتجنّبوا من الاقتراب منه و ابتعادهم وطعنهم فيه أن لو كان نبيّا لم تحط به البليّة من كلّ جانب ولم يصر إلى ما صار إليه من العاقبة السوآى و شماتتهم و استهزاؤهم به .

وقد أنكر في الكشّاف ما تقدّم من الوجه قائلا : لا يجوز أن يسلّط الله الشيطان على أنبيائه عليهم السلام ليقضي من تعذيبهم و إتعابهم وطره ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلّا وقد نكبه و أهلكه ، وقد تكرّر في القرآن أنّه لا سلطان له إلّا الوسوسة فحسب انتهى .

و فيه أنّ الّذي يخصّ الأنبياء و أهل العصمة أنّهم لمكان عصمتهم في أمن من تأثير الشيطان في نفوسهم بالوسوسة ، و أمّا تأثيره في أبدانهم و سائر ما ينسب إليهم

با يذاء أو إتعاب أو نحو ذلك من غير إضلال فلا دليل يدلّ على امتناعه ، وقد حكى الله سبحانه عن فتى موسى وهو يوشع النبيّ عليهما السلام : « فإنّي نسيت الحوت و ما أنسانيه إلّا الشيطان أن أذكره » الكهف : ٦٣ .

ولا يلزم من تسلّطه على نبيّ بالإيذاء والإتعاب لمصلحة تقتضيه كظهور صبره في الله سبحانه و أوبته إليه أن يقدر على ما يشاء فيمن يشاء من عباد الله تعالى إلّا أن يشاء الله ذلك و هو ظاهر .

قوله تعالى : « اركض برجلك هذا مغتسل بارد و شراب » وقوع الآية عقيب ندائه و مسألته يعطي أنّه إيذان باستجابة دعائه و أنّ قوله تعالى : « اركض برجلك » الخ حكاية لما اُوحي إليه عند الكشف عن الاستجابة أو هو با ضمار القول والتقدير فاستجبنا له و قلنا : اركض الخ و سياق الأمر مشعر بل كاشف عن أنّه كان لا يقدر على القيام والمشي بقدميه و كان مصابا في سائر بدنه فأبرء الله ما في رجليه عن ضرّ و أظهر له عينا هناك و أمره أن يغتسل منها و يشرب حتّى يبرء ظاهر بدنه و باطنه و يتأيّد بذلك ما سيأتي من الرواية .

و في الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فركض برجله و اغتسل و شرب فبرّأه الله من مرضه .

قوله تعالى : « ووهبنا له أهله و مثلهم معهم رحمة منّا وذكرى لاُولي الألباب » و رد في الرواية أنّه ابتلي فيما ابتلي بموت جميع أهله إلّا امرأته و أنّ الله أحياهم له و وهبهم له و مثلهم معهم ، و قيل : إنّهم كانوا قد تفرّقوا عنه أيّام ابتلائه فجمعهم الله إليه بعد برئه و تناسلوا فكانوا مثلي ما كانوا عددا .

و قوله : « رحمة منّا و ذكرى لاُولي الألباب » مفعول له أي فعلنا به ما فعلنا ليكون رحمة منّا و ذكرى لاُولي الألباب يتذكّرون به .

قوله تعالى : « وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنّا وجدناه صابرا نعم العبد إنّه أوّاب » في المجمع : الضغث ملء الكفّ من الشجرة والحشيش والشماريخ و نحو ذلك انتهى و كان عليه السلام قد حلف لئن عوفي أن يجلد امرأته مائة جلدة لأمر

أنكره عليها على ما سيأتي من الرواية فلمّا عافاه الله تعالى أمره أن ياخذ بيده ضغثا بعدد ما حلف عليه من الجلدات فيضربها به ولا يحنث .

و في سياق الآية تلويح إلى ذلك و إنّماطوي ذكر المرءة و سبب الحلف تأدّبا و رعاية لجانبه .

و قوله : « إنّا وجدناه صابرا » أي فيما ابتليناه به من المرض و ذهاب الأهل والمال ، والجملة تعليل لقوله : « واذكر » أولقوله : « عبدنا » أي لتسميته عبدا وإضافته إليه تعالى ، والأوّل أولى .

و قوله : « نعم العبد إنّه أوّاب » مدح له عليه السلام .

قوله تعالى : « و اذكر عبادنا إبراهيم و إسحاق و يعقوب أُولي الأيدي والأبصار » مدحهم بتوصيفهم بأنّ لهم الأيدي والأبصار ويد الإنسان و بصره إنّما يمدحان إذا كانا يد إنسان و بصر إنسان و استعملا فيما خلقا له و خدما الإنسان في إنسانيّته فتكتسب اليد صالح العمل ويجري منها الخير على الخلق و يميز البصر طرق العافية والسلامة من موارد الهلكة ويصيب الحقّ ولا يلتبس عليه الباطل .

فيكون كونهم أُولي الأيدي والأبصار كناية عن قوّتهم في الطاعة و إيصال الخير و تبصّرهم في إصابة الحقّ في الاعتقاد والعمل وقدجمع المعنيين في قوله تعالى : «ووهبنا له إسحاق و يعقوب نافلة وكلاّ جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » الأنبياء : ٧٣ فجعلهم أئمّة و الأمر والوحي لأبصارهم وفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأيديهم[1] و إليه يؤل ما في الرواية من تفسير ذلك بأُولي القوّة في العبادة والبصر فيها .

قوله تعالى : « إنّا أخلصنا هم بخالصة ذكرى الدار » الخالصة وصف قائم مقام موصوفه ، والباء للسببيّة والتقدير بسبب خصلة خالصة ، وذكرى الدار بيان للخصلة ، والدار هي الدار الآخرة .

والآية أعني قوله : « إنّا أخلصنا هم» الخ لتعليل ما في الآية السابقة من قوله :

(١) رواها القمي في تفسيره عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام .

« اُولي الأيدي والأبصار » أولقوله : « عبادنا » أولقوله : « و اذكر » و أوجه الوجوه أوّلها ، و ذلك لأنّ استغراق الإنسان في ذكرى الدار الآخرة و جوار ربّ العالمين و ركوز همّه فيها يلازم كمال معرفته في جنب الله تعالى و إصابة نظره في حقّ الاعتقاد والتبصّر في سلوك سبيل العبوديّة و التخلّص عن الجمود على ظاهر الحياة الدنيا و زينتها كما هو شأن أبنائها قال تعالى : « فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم» النجم : ٣٠ .

و معنى الآية و إنّما كانوا اُولي الأيدي و الأبصار لأنّا أخلصناهم بخصلة خالصة غير مشوبة عظيمة الشأن هي ذكرى الدار الآخرة .

و قيل : المراد بالدار هي الدنيا و المراد بالآية بقاء ذكرهم الجميل في الألسن ما دامت الدنيا كما قال تعالى : « و وهبنا له إسحاق و يعقوب ـ إلى أن قال ـ و جعلنا لهم لسان ذكر عليّا » مريم : ٥٠ و الوجه السابق أوجه .

قوله تعالى : « و إنّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » تقدّم أنّ الاصطفاء يلازم الإسلام التامّ لله سبحانه ، و في الآية إشارة إلى قوله تعالى : « إنّ الله اصطفى آدم و نوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » آل عمران : ٣٣ .

والأخيار جمع خير مقابل الشرّ على ما قيل ، وقيل : جمع خيّر بالتشديد أو التخفيف كأموات جمع ميّت بالتشديد أو بالتخفيف .

قوله تعالى : « و اذكر إسماعيل و اليسع و ذا الكفل و كلّ من الأخيار » معناه ظاهر .

﴿ كلام في قصة أيوب عليه السلام في فصول ﴾

١ ـ **قصته في القرآن** : لم يذكر من قصّته في القرآن إلّا ابتلاؤه بالضرّ في نفسه و أولاده ثمّ تفريجه تعالى بمعافاته وإيتائه أهله ومثلهم معهم رحمة منه وذكرى للعابدين (الأنبياء : ٨٣ ـ ٨٤ . صٓ : ٤١ ـ ٤٤) .

٢ ـ **جميل ثنائه** . ذكره تعالى في زمرة الأنبياء من ذرّيّة إبراهيم عليه السلام في

سورة الأنعام و أثنى عليهم بكلّ ثناء جميل (الأنعام : ٨٤ ـ ٩٠) و ذكره في سورة ص فعدّه صابرا و نعم العبد وأوّابا (ص : ٤٤) .

٣ ـ قصته في الروايات . في تفسير القمّي حدّثني أبي عن ابن فضّال عن عبدالله بن بحر عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن بليّة أيّوب الّتي ابتلي بها في الدنيا لأيّ علّة كانت ؟ قال : لنعمة أنعم الله عزّ و جلّ عليه بها في الدنيا و أدّى شكرها و كان في ذلك الزمان لا يحجب إبليس دون العرش فلمّا صعد ورآى شكر نعمة أيّوب حسده إبليس .

فقال : يارب إنّ أيّوب لم يؤدّ إليك شكر هذه النعمة إلّا بما أعطيته من الدنيا ولو حرمته دنياه ما أدّى إليك شكر نعمة أبدا فسلّطني على دنياه حتّى تعلم أنّه لم يؤدّ إليك شكر نعمة أبدا فقيل له : قد سلّطتك على ماله و ولده .

قال : فانحدر إبليس فلم يبق له مالا و لا ولدا إلّا أعطبه فازداد أيّوب لله شكرا و حمدا ، و قال : فسلّطني على زرعه يا ربّ . قال : قد فعلت فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق فازداد أيّوب لله شكرا و حمدا فقال : يا ربّ سلّطني على غنمه فأهلكها فازداد أيّوب لله شكرا و حمدا .

فقال : يا ربّ سلّطني على بدنه فسلّطه على بدنه ماخلا عقله و عينيه فنفخ فيه إبليس فصار قرحة واحدة من قرنه إلى قدمه فبقي في ذلك دهرا طويلا يحمدالله ويشكره حتّى وقع في بدنه الدود فكانت تخرج من بدنه فيردّها فيقول لها:ارجعي إلى موضعك الّذي خلقك الله منه ، و نتن حتّى أخرجه أهل القرية من القرية و ألقوه في المزبلة خارج القرية .

وكانت امرأته رحمة بنت أفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام و عليها يتصدّق من الناس و تأتيه بما تجده .

قال : فلمّا طال عليه البلاء ورآى إبليس صبره أتى أصحابا لأيّوب كانوا رهبانا في الجبال و قال لهم: مرّوابنا إلى هذا العبد المبتلى فنسأله عن بليّته فركبوا بغالاشهبا و جاؤوا فلمّا دنوا منه نفرت بغالهم من نتن ريحه فنظربعضهم إلى بعض ثمّ مشوا إليه

و كان فيهم شابّ حدث السنّ فقعدوا إليه فقالوا : يا أيّوب لو أخبرتنا بذنبك لعلّ الله يهلكنا إذا سألناه ، و ما نرى ابتلاءك بهذا البلاء الّذي لم يبتل به أحد إلّا من أمر كنت تستره .

فقال أيّوب : وعزّة ربّي إنّه ليعلم أنّي ما أكلت طعاما إلّا و يتيم أو ضعيف يأكل معي ، و ما عرض لي أمران كلاهما طاعة الله إلّا أخذت بأشدّهما على بدني . فقال الشابّ : سوءة لكم عيّرتم نبيّ الله حتّى أظهر من عبادة ربّه ما كان يسترها .

فقال أيّوب : يا ربّ لو جلست مجلس الحكم منك لأدليت بحجّتي فبعث الله إليه غمامة فقال : يا أيّوب أدل بحجّتك فقد أقعدتك مقعد الحكم وها أنا ذا قريب و لم أزل .

فقال : يا ربّ إنّك لتعلم أنّه لم يعرض لي أمران قطّ كلاهما لك طاعة إلّا أخذت بأشدّهما على نفسي . ألم أحمدك ؟ ألم أشكرك ؟ ألم اُسبّحك ؟

قال : فنودي من الغمامة بعشرة آلاف لسان : يا أيّوب من صيّرك تعبد الله و الناس عنه غافلون ؟ و تحمده و تسبّحه و تكبّره و الناس عنه غافلون ؟ أتمنّ على الله بما لله فيه المنّة عليك ؟ قال : فأخذ التراب و وضعه في فيه ثمّ قال : لك العتبى يا ربّ أنت فعلت ذلك بي .

فأنزل الله عليه ملكا فركض برجله فخرج الماء فغسله بذلك الماء فعاد أحسن ما كان و أطرأ ، و أنبت الله عليه روضة خضراء ، و ردّ عليه أهله و ماله و ولده وزرعه و قعدمعه الملك يحدّثه و يؤنسه .

فأقبلت امرأته معها الكسرة (١) فلمّا انتهت إلى الموضع إذا الموضع متغيّر و إذا رجلان جالسان فبكت و صاحت و قالت : يا أيّوب ما دهاك ؟ فناداها أيّوب فأقبلت فلمّا رأته و قدردّ الله عليه بدنه ونعمه سجدت لله شكرا . فرآى ذؤابتها مقطوعة و ذلك أنّها سألت قوماً أن يعطوها ما تحمله إلى أيّوب من الطعام و كانت حسنة

---

(١) الكسرة القطعة من الخبز .

الذوائب فقالوا لها : تبيعينا ذؤابتك هذه حتّى نعطيك ؟ فقطعتها و دفعتها إليهم وأخذت منهم طعاما لأيّوب ، فلمّا رآها مقطوعة الشعر غضب و حلف عليها أن يضربها مائة فأخبرته أنّه كان سببه كيت و كيت . فاغتمّ أيّوب من ذلك فأوحى الله عزّ و جلّ إليه « خذ بيدك ضغثا فاضرب به و لاتحنث » فأخذ عذقا مشتملا على مائة شمراخ فضربها ضربة واحدة فخرج من يمينه .

اقول : و روي عن ابن عبّاس مايقرب منه ، وعن وهب أنّ امرأته كانت بنت ميشا بن يوسف ، و الرواية ـ كما ترى ـ تذكر ابتلاءه بما تتنفّر عنه الطباع و هناك من الروايات مايؤيّد ذلك لكن بعض الأخبار المرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ينفي ذلك وينكره أشدّ الإنكار كما يأتي .

و عن الخصال : القطّان عن السكّري عن الجوهري عن ابن عمارة عن أبيه عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام قال : إنّ أيّوب عليه السلام ابتلي سبع سنين من غير ذنب وإنّ الأنبياء لايذنبون لأنّهم معصومون مطهّرون لا يذنبون ولايزيغون و لا يرتكبون ذنبا صغيراً ولا كبيراً .

و قال : إنّ أيّوب من جميع ما ابتلي به لم تنتن له رائحة ، ولاقبحت له صورة و لا خرجت منه مدّة من دم ولا قيح ، و لا استقذره أحد رآه ، ولا استوحش منه أحد شاهده ، و لاتدوّد شيء من جسده و هكذا يصنع الله عزّ و جلّ بجميع من يبتليه من أنبيائه و أوليائه المكرمين عليه .

و إنّما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بماله عند ربّه تعالى ذكره من التأييد و الفرج ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله : أعظم الناس بلاء الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل .

و إنّما ابتلاه الله بالبلاء العظيم الّذي يهون معه على جميع الناس لئلّا يدّعوا له الربوبيّة إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه ،وليستدلّوا بذلك على أنّ الثواب من الله على ضربين : استحقاق و اختصاص ، و لئلّا يحتقروا ضعيفا لضعفه و لافقيراً لفقره و لا مريضاً لمرضه ، و ليعلموا أنّه يسقم من يشاء ،ويشفي

من يشاء متى شاء كيف شاء بأيّ سبب شاء ، و يجعل ذلك عبرة لمن شاء ، و شقاوة لمن شاء ، و سعادة لمن شاء ، وهو عزّ و جلّ في جميع ذلك عدل في قضائه و حكيم في أفعاله لا يفعل بعباده إلّا الأصلح لهم ولاقوّة لهم إلّا به .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و وهبنا له أهله و مثلهم معهم » الآية قال: فردّ الله عليه أهله الّذين ماتوا قبل البلاء ، وردّ عليه أهله الّذين ماتوا بعد ما أصابهم البلاء كلّهم أحياهم الله له فعاشوا معه.

و سئل أيّوب بعد ما عافاه الله : أيّ شيء كان أشدّ عليك ممّا مرّ ؟ فقال:شماتة الأعداء .

و في المجمع في قوله تعالى : « أنّي مسّني الشيطان » الآية قيل : إنّه اشتدّ مرضه حتّى تجنّبه الناس فوسوس الشيطان إلى الناس أن يستقذروه و يخرجوه من بينهم ولايتركوا امرأته الّتي تخدمه أن تدخل عليهم فكان أيّوب يتأذّى بذلك و يتألّم به و لم يشك الألم الّذي كان من أمرالله سبحانه . قال قتادة : دام ذلك سبع سنين وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام .

﴿ خبر اليسع و ذى الكفل عليهما السلام ﴾

ذكر سبحانه اسمهما في كلامه و عدّهما من الأنبياء و أثنى عليهما و عدّهما من الأخيار (ص : ٤٨) وعدّ ذا الكفل من الصابرين (الأنبياء : ٨٥) و لهما ذكر في الأخبار .

ففي البحار عن الاحتجاج و التوحيد و العيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمّد النوفليّ عن الرضا عليه السلام فيما احتجّ به على جاثليق النصارى أن قال عليه السلام أنّ اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى عليه السلام مشى على الماء و أحيى الموتى و أبرء الأكمه والأبرص فلم يتّخذه اُمّته ربّاً الخبر .

و عن قصص الأنبياء : الصدوق عن الدقّاق عن الأسديّ عن سهل عن عبد العظيم

الحسنيّ قال : كتبت إلى أبي جعفر الثاني أسأله عن ذي الكفل ما اسمه ؟ وهل كان من المرسلين ؟

فكتب عليه السلام بعث الله جلّ ذكره مائة ألف نبيّ و أربعة و عشرين ألف نبيّ . مرسلون منهم ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا ، و إنّ ذا الكفل منهم ، و كان بعد سليمان ابن داود، و كان يقضي بين الناس كما كان يقضي داود ، ولم يغضب إلّا لله عزّ وجلّ وكان اسمه عويديا وهو الّذي ذكره الله جلّت عظمته في كتابه حيث قال : « و اذكر إسماعيل و اليسع و ذا الكفل وكلّ من الأخيار ».

اقول :وهناك روايات متفرّقة اُخر في قصصهما عليهما السلام تركنا إيرادها لضعفها وعدم الاعتماد عليها .



☆ ☆ ☆

هٰذا ذِكْرٌ وَ انَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنّٰاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوٰابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهٰا يَدْعُونَ فِيهٰا بِفٰاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرٰابٍ (٥١) وَ عِنْدَهُمْ قٰاصِرٰاتُ الطَّرْفِ أَتْرٰابٌ (٥٢) هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسٰابِ (٥٣) اِنَّ هٰذٰا لَرِزْقُنٰا مٰالَهُ مِنْ نَفٰادٍ (٥٤) هٰذٰا وَ انَّ لِلطّٰاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ الْمِهٰادُ (٥٦) هٰذٰا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسّٰاقٌ (٥٧) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوٰاجٌ (٥٨) هٰذٰا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لٰا مَرْحَبًا بِهِمْ اِنَّهُمْ صٰالُوا النّٰارِ (٥٩) قٰالُوا بَلْ أَنْتُمْ لٰا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنٰا فَبِئْسَ الْقَرٰارُ (٦٠) قٰالُوا رَبَّنٰا مَنْ قَدَّمَ لَنٰا هٰذٰا فَزِدْهُ عَذٰابًا ضِعْفًا فِي النّٰارِ (٦١) وَ قٰالُوا مٰالَنٰا لٰا نَرٰى رِجٰالًا كُنّٰا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرٰارِ (٦٢) اَتَّخَذْنٰاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زٰاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصٰارُ (٦٣) اِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخٰاصُمُ أَهْلِ النّٰارِ (٦٤) .

﴿ بيان ﴾

فصل آخر من الكلام يبيّن فيه مآل أمر المتّقين والطاغين تبشيراً و إنذاراً .

قوله تعالى : « هذا ذكرو إنّ للمتّقين لحسن مآب » الإشارةبهذا إلى ما ذكر من قصص الأوّابين من الأنبياء الكرام عليهم السلام ، والمرادبالذكر الشرف والثناء الجميل أي هذا الّذي ذكر شرف و ذكر جميل وثناء حسن لهم يذكرون به في الدنيا أبدا ولهم

حسن مآب من ثواب الآخرة . كذا قالوا .

و على هذا فالمراد بالمتّقين هم المذكورون من الأنبياء بالخصوص أو عموم أهل التقوى وهم داخلون فيهم و يكون ذكر مآب الطاغين بعد من باب الاستطراد .

والظاهر أنّ الإشارة بهذا إلى القرآن والمراد بالذكر ما يشتمل عليه من الذكر و في الكلام عود إلى ما بدیء به في السورة من قوله « والقرآن ذي الذكر » فهو فصل من الكلام يذكر فيه الله سبحانه ما في الدار الآخرة من ثواب المتّقين و عقاب الطاغين .

و قوله : « و إنّ للمتّقين لحسن مآب » المآب المرجع و التنكير للتفخيم ، و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « جنّات عدن مفتّحة لهم الأبواب » أي جنّات استقرار وخلود و كون الأبواب مفتّحة لهم كناية عن أنّهم غير ممنوعين عن شيء من النعم الموجودة فيها فهي مهيّأة لهم مخلوقة لأجلهم ، و قيل المراد : أنّ أبوابها مفتّحة لهم لا تحتاج إلى الوقوف وراءها و دقّها ، و قيل : المراد أنّها تفتح بغير مفتاح و تغلق بغير مغلاق .

والآية و ما بعدها بيان لحسن مآبهم .

قوله تعالى : «متّكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب » أي حال كونهم جالسين فيها بنحو الاتّكاء والاستناد جلسة الأعزّة والأشراف .

و قوله : « يدعون فيها بفاكهة » الخ أي يتحكّمون فيها بدعوة الفاكهة و هي كثيرة والشراب فإذا دعيت فاكهة أو دعي شراب أجابهم المدعوّ فأتاهم من غير حاجة إلى من يحمله و يناوله .

قوله تعالى : « و عندهم قاصرات الطرف أتراب » الضمير للمتّقين و قاصرات الطرف صفة قائمة مقام الموصوف والتقدير و عندهم أزواج قاصرات الطرف والمراد قصور طرفهنّ على أزواجهنّ يرضين بهم ولايرون غيرهم أو هو كناية عن كونهنّ ذوات غنج و دلال .

والأتراب الأقران أي إنّهنّ أمثال لا يختلفن سناً أو جمالا أو إنّهنّ أمثال

لأزواجهن فكلّما زادوا نورا و بهاء زدن حسنا وجمالا .

قوله تعالى : « هذا ما توعدون ليوم الحساب» الإشارة إلى ما ذكر من الجنّة و نعيمها ، و الخطاب للمتّقين ففي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب والنكتة فيه إظهار القرب منهم و الإشراف عليهم ليكمل نعمهم الصوريّة بهذه النعمة المعنويّة .

قوله تعالى : « إنّ هذا لرزقنا ماله من نفاد »النفاد الفناء والانقطاع ، والآية من تمام الخطاب الّذي في الآية السابقة على ما يعطيه السياق .

قوله تعالى : « هذا و إنّ للطاغين لشرّ مآب » الإشارة بهذا إلى ما ذكر من مقام المتّقين أي هذا ما للمتّقين من المآب ، و يمكن أن يكون هذا اسم فعل أي خذ هذا . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « جهنّم يصلونها فبئس المهاد » الصّلي دخول النار و مقاساة حرارتها أو اتّباعها والمهاد - على ما في المجمع - الفراش الموطّأ يقال : مهّدت له تمهيدا مثل وطّأت له توطئة ، والآية و ما بعدها تفسير لمآب الطاغين .

قوله تعالى : « هذا فليذوقوه حميم و غساق » الحميم الحارّ الشديد الحرارة والغسّاق - على ما في المجمع - قيح شديد النتن ، و فسّر بتفاسير اُخر ، و قوله : « حميم و غسّاق » بيان لهذا ، و قوله : « فليذوقوه » دالّ على إكراههم و حملهم على ذوقه و تقديم المخبر عنه و جعله اسم إشارة يؤكّد ذلك ، والمعنى هذا حميم و غسّاق عليهم أن يذوقوه ليس إلّا .

قوله تعالى : « و آخر من شكله أزواج » شكل الشيء ما يشابهه و جنسه والأزواج الأنواع و الأقسام أي وهذا آخر من جنس الحميم والغسّاق أنواع مختلفة ليذوقوها .

قوله تعالى : « هذا فوج مقتحم معكم - إلى قوله - في النار » الآيات الثلاث - على ما يعطيه السياق - حكاية ما يجري بين التابعين و المتبوعين من الطاغين في النار من التخاصم و المجاراة .

فقوله : « هذا فوج مقتحم معكم » خطاب يخاطب به المتبوعون يشار به إلى

التابعين الّذين يدخلون النار مع المتبوعين فوجا ، و الاقتحام الدخول في الشيء بشدّة و صعوبة .

و قوله : « لا مرحباً بهم إنّهم صالوا النار » جواب المتبوعين لمن يخاطبهم بقوله : « هذا فوج » و مرحبا تحيّة للوارد معناه عرض رحب الدار و سعتها له فقولهم : « لا مرحبا بهم » معناه نفي الرحب و السعة عنهم . و قولهم : « إنّهم صالوا النار » أي داخلوها و مقاسوا حرارتها أومتّبعوها تعليل لتحيّتهم بنفي التحيّة .

و قوله : « قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدّمتموه لنا فبئس القرار » نقل كلام التابعين و هم القائلون يردّون إلى متبوعيهم نفي التحيّة ويذمّون القرارفي النار .

قوله تعالى : « قالوا ربّنا من قدّم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار» لم يذكر تعالى جواب المتبوعين لقولهم : « أنتم قدّمتموه لنا » الخ و قد ذكره في سورة الصافّات فيما حكى من تساؤلهم بقوله : « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين و ما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين » الخ الآية ٣٠ فقولهم : « ربّنا من قدّم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار » كلامهم بعد الانقطاع عن المخاصمة .

و جملة « من قدّم » الخ شرط و جزاء ، و الضعف المثل و « عذاباً ضعفا » أي ذا ضعف و مثل أي ضعفين من العذاب .

قوله تعالى : « و قالوا مالنا لا نرى رجالا كنّا نعدّهم من الأشرار » القائلون ـ على ما يعطيه السياق ـ مطلق أهل النار ، و مرادهم بالرجال الّذين كانوا يعدّونهم من الأشرار المؤمنون و هم في الجنّة فيطلبهم أهل النار فلا يجدونهم فيها .

قوله تعالى : « أتّخذنا هم سخريّا أم زاغت عنهم الأبصار » أي أتّخذناهم سخريّا في الدنيا فأخطأنا وقد كانوا ناجين أم عدلت أبصارنا فلا نراهم وهم معنا في النار .

قوله تعالى : « إنّ ذلك لحقّ تخاصم أهل النار » إشارة إلى ما حكي من تخاصمهم و بيان أنّ تخاصم أهل النار ثابت واقع لا ريب فيه و هو ظهور ما استقرّ في نفوسهم في الدنيا من ملكة التنازع و التشاجر .

☆☆☆

قُل انَّمآ أَنَا مُنذِرٌ وَ مَا مِنْ الٰه الَّا اللّٰهُ الْواحدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمٰوات وَ الْاَرضِ وَ ما بينهما الْعزيزُ الْغفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عظيم (٦٧) أَنْتُم عنهُ مُعرِضُون (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ علمٍ بِالْمَلاء الْاَعلٰى اذ يختصمون (٦٩) انْ يُوحٰى الَيَّ الَّا انَّمآ انَا نَذيرٌ مُبينٌ (٧٠) اذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئكة انِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (٧١) فَاذا سَوَّيتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلٰئكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) الَّا ابْلِيسَ اسْتَكبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا ابْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ اَسْتَكبَرتَ اَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ اَنَا خَيرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَانَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَ انَّ عَلَيكَ لَعْنَتِي الٰى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَاَنْظِرْنِي الٰى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَانَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) الٰى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَاُغْوِيَنَّهُمْ اَجْمَعِينَ (٨٢) الَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ اَقُولُ (٨٤) لَاَمْلَاَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ اَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ اَجْرٍ وَ مَا اَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) انْ هُوَ الَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَاَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) .



الفصل الأخير من فصول السورة المشتمل على أمر النبيّ صلّى الله عليه وآله بإبلاغ نذارته و دعوته إلى التوحيد . و أنّ الإعراض عن الحقّ و اتّباع الشيطان ينتهي بالإنسان إلى عذاب النار المقضيّ في حقّه و حقّ أتباعه و عند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « قل إنّما أنا منذر وما من إله إلّا الله الواحد القهّار -إلى قوله- العزيز الغفّار » في الآيتين أمر النبيّ صلّى الله عليه وآله بإبلاغ أنّه منذر و أنّ الله تعالى واحد في الاُلوهيّة فقوله : « إنّما أنا منذر » يفيد قصره في كونه منذرا و نفي سائر الأغراض الّتي ربّما تتلبّس به الدعوة بين الناس من طلب مال أو جاه كما يشير إليه ما في آخر الآيات من قوله : « قل ما أسألكم عليه من أجر و ما أنا من المتكلّفين » .

و قوله : « و ما من إله إلّا الله » إلى آخر الآيتين إبلاغ لتوحيده تعالى بحجّة يدلّ عليها ما اُورد من صفاته المدلول عليها بأسمائه .

فقوله : « و ما من إله إلّا الله » نفي لكلّ إله ـ و الإله هو المعبود بالحقّ ـ غيره تعالى و أمّا ثبوت اُلوهيّته تعالى فهو مسلّم بانتفاء اُلوهيّة غيره إذ لا نزاع بين الإسلام و الشرك في أصل ثبوت الإله و إنّما النزاع في أنّ الإله وهو المعبود بالحقّ هو الله تعالى أو غيره . على أنّ ماذكر في الآيتين من الصفات متضمّن لإثبات اُلوهيّته كما أنّها حجّة على انتفاء اُلوهيّة غيره تعالى .

و قوله : « الواحد القهّار » يدلّ على توحّده تعالى في وجوده و قهره كلّ شيء و ذلك أنّه تعالى واحد لايماثله شيء في وجوده و لا تناهي كماله الّذي هو عين وجوده الواجب فهو الغنيّ بذاته و على الإطلاق و غيره من شيء فقير يحتاج إليه من كلّ جهة ليس له من الوجود و آثار الوجود إلّا ما أنعم و أفاض فهو سبحانه القاهر لكلّ شيء على مايريد و كلّ شيء مطيع له فيما أراد خاضع له فيما شاء .

و هذا الخضوع الذاتيّ هو حقيقة العبادة فلوجاز أن يُعبد شيء في الوجود عملاً

بأن يؤتى بعمل يمثّل بهالعبوديّة والخضوع فهي عبادته سبحانه إن كلّ شيء مفروض دونه فهو مقهور خاضع له لايملك لنفسه و لا لغيره شيأ و لايستقلّ من الوجود و آثار الوجود بشيء فهو سبحانه الإله المعبود بالحقّ لا غير .

وقوله : « ربّ السماوات والأرض وما بينهما » يفيد حجّة اُخرى على توحّده تعالى في الاُلوهيّة و ذلك أنّ نظام التدبير الجاري في العالم برمّته نظام واحد متّصل غير متبعّض ولامتجزّ و هو آية وحدة المدبّر ، وقد تقدّم كرارا أنّ الخلق و التدبير لاينفكان فالتدبير خلق بوجه كما أنّ الخلق تدبير بوجه ، والخالق الموجد للسماوات و الأرض و ما بينهما هو الله سبحانه ـ حتّى عند الخصم ـ فهو تعالى ربّها المدبّر لها جميعاً فهو وحده الإله الّذي يجب أن يقصد بالعبادة لأنّ العبادة تمثيل عبوديّة العابد و مملوكيّته تجاه مولويّة المعبود و مالكيّته و تصرّفه في المعبود بإفاضة النعمة و دفع النقمة فهو سبحانه الإله في السماوات و الأرض و ما بينهما لا إله غيره . فافهم ذلك .

و يمكن أن يكون قوله : « ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما » بيانا لقوله «القهّار» أو « الواحد القهّار » .

و قوله : « العزيز الغفّار » يفيد حجّة اُخرى على توحّده تعالى في الاُلوهيّة و ذلك أنّه تعالىعزيزلايغلبه شيء بإكراهه على مالم يرد أو بمنعه عمّا أراد فهوالعزيز على الإطلاق و غيره من شيء ذليل عنده قانت له و العبادة إظهار للمذلّة و لايستقيم إلّا قبال العزّة و لاعزّة لغيره تعالى إلّا به .

و أيضاً غاية العبادة وهي تمثيل العبوديّة التقرّب إلىالمعبود ورفع وصمةالبعد عن العبد العابد وهو مغفرة الذنب والله سبحانه هو المستقلّ بالرحمة الّتي لاتنفد خزائنها وهو الّذي يورد عباده العابدين له فيالآخرة داركرامته فهو الغفّار الّذي يجب أن يعبد طمعاً في مغفرته .

ويمكن أن يكون قوله : « العزيز الغفّار » تلويحا إلىوجه الدعوةإلىالتوحيد أو وجوب الإيمان به المفهوم بحسب المقام من قوله : « و ما من إله إلّا الله الواحد القهّار » و المعنى أدعوكم إلىتوحيده فآمنوا به لأنّه العزيزالّذي لايشوبه ذلّة الغفّار

للذنوب وهكذا يجب أن يكون الا له .

قوله تعالى : « قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون » مرجع الضمير ما ذكره من حديث الوحدانيّة في قوله : « و ما من إله إلّا الله » الخ .

و قيل : الضمير للقرآن فهو النبأ العظيم الّذي أعرضوا عنه ، و هو أوفق لسياق الآيات السابقة المرتبطة بأمر القرآن ، و أوفق أيضاً لقوله الآتي : « ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون » أي حتّى أخبرني به القرآن ، و قيل : المراد به يوم القيامة و هو أبعد الوجوه .

قوله تعالى : « ماكان لي من علم بالملاء الأعلى إذ يختصمون » الملأ الأعلى جماعة الملائكة و كأنّ المراد باختصامهم ما أشار تعالى إليه بقوله : « إذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة » إلى آخر الآيات .

و كأنّ المعنى إنّي ما كنت أعلم اختصام الملاء الأعلى حتّى أوحى الله إليّ ذلك في كتابه فإنّما أنا منذر أتّبع الوحي .

قوله تعالى : « إن يوحى إليّ إلّا أنّما أنا نذير مبين » تأكيد لقوله : « إنّما أنا منذر » و بمنزلة التعليل لقوله : « ما كان لي من علم بالملإ الأعلى » و المعنى لم أكن أعلم ذلك لأنّ علمي ليس من قبل نفسي و إنّما هو بالوحي وليس يوحى إليّ إلّا مايتعلّق بالإنذار .

قوله تعالى : « إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشرا من طين » الّذي يعطيه السياق أنّ الآية و ما بعدها ليست تتمّة لقول النبيّ ﷺ : « إنّما أنا منذر » الخ والشاهد عليه قوله : « ربّك » فهو من كلامه تعالى يشير إلى زمان اختصام الملاء الأعلى والظرف متعلّق بما تعلّق به قوله : « إذ يختصون » أو متعلّق بمحذوف والتقدير « اذكر إذ قال ربّك للملائكة » الخ فإنّ قوله تعالى للملائكة : « إنّي جاعل في الأرض خليفة » و قوله لهم : « إنّي خالق بشرا من طين » متقارنان وقعا في ظرف واحد .

و على هذا يؤل معنى قوله : « إذ قال ربّك» الخ إلى نحو من قولنا : اذكر وقتئذ قال ربّك كذا وكذا فهو وقت اختصامهم .

و جعل بعضهم قوله : « إذ قال ربّك » الخ مفسّراً لقوله : « إذ يختصمون » ثمّ أخذ الاختصام بعد تفسيره بالتقاول مجموع قوله تعالى للملائكة « إنّي جاعل في الأرض خليفة » ، وقولهم : « أتجعل » الخ ، وقوله لآدم وقول آدم لهم ، و قوله تعالى لهم : إنّي خالق بشرا » ، و قول إبليس و قوله تعالى له .

و قال على تقدير كون الاختصام بمعنى المخاصمة ودلالة قوله : « إذ يختصمون» على كون المخاصمة بين الملائكة أنفسهم لا بينهم و بين الله سبحانه إنّ إخباره تعالى لهم بقوله : « إنّي جاعل في الأرض خليفة » « إنّي خالق بشرا » كان بتوسّط ملك من الملائكة وكذا قوله لآدم ولإبليس فيكون قولهم لربّهم : « أتجعل فيها من يفسد فيها » الخ و غيره قولا منهم للملك المتوسّط و يقع الاختصام فيما بينهم أنفسهم .

و أنت خبير بأنّ شيأ ممّا ذكره لا يستفاد من سياق الآيات .

و قوله : « إنّي خالق بشرا من طين » البشر الإنسان قال الراغب : البشرة ظاهر الجلد و الأدمة باطنه . كذا قال عامّة الاُدباء . قال : وعبّر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات الّتي عليها الصوف أو الوبر ، و استوى في لفظ البشر الواحد و الجمع و ثنّي فقال تعالى : « أنؤمن لبشرين » و خصّ في القرآن كلّ موضع اعتبر من الإنسان جثّته و ظاهره بلفظ البشر . انتهى .

وقد عدّ في الآية مبدء خلق الانسان الطين ، و في سورة الروم التراب و في سورة الحجر صلصال من حمإ مسنون ، و في سورة الرحمان صلصال كالفخّار ولا ضير فإنّها أحوال مختلفة لمادّته الأصليّة الّتي منها خلق وقد اُشير في كلّ موضع إلى واحدة منها .

قوله تعالى : « فإذا سوّيته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » تسوية الإنسان تعديل أعضائه بتركيب بعضها على بعض و تتميمها صورة إنسان تامّ ، و نفخ الروح فيه جعله ذا نفس حيّة إنسانيّة وإضافة الروح إليه تعالى تشريفيّة وقوله : «فقعوا» أمر من الوقوع و هو متفرّع على التسوية والنفخ .

قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلّهم أجمعون » ظاهر الدلالة على سجود الملائكة

له من غير استثناء .

قوله تعالى : « إلّا إبليس استكبر و كان من الكافرين » أي استكبر إبليس فلم يسجد له و كان قبل ذلك من الكافرين كما حكى سبحانه عنه في سورة الحجر قوله : « لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون » الحجر : ٣٣ .

قوله تعالى : « قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ استكبرت أم كنت من العالين » نسبة خلقه إلى اليد للتشريف بالاختصاص كما قال : « و نفخت فيه من روحي » و تثنية اليد كناية عن الاهتمام التامّ بخلقه و صنعه فانّ الإنسان إنّما يستعمل اليدين فيما يهتمّ به من العمل فقوله : « خلقت بيديّ » كقوله : « ممّا عملت أيدينا » يسٓ : ٧١ .

و قيل : المراد باليد القدرة و التثنية لمجرّد التأكيد كقوله : « فارجع البصر كرّتين » الملك : ٣ وقدوردت به الرواية .

و قيل : المراد باليدين نعم الدنيا و الاخرة ، و يمكن أن يحتمل إرادة مبدئي الجسم والروح أو الصورة والمعنى أو صفتي الجلال والجمال من اليدين لكنّها معان لا دليل على شيء منها من اللفظ .

و قوله : « استكبرت أم كنت من العالين» استفهام توبيخ أي أكان عدم سجودك لأنّك استكبرت أم كنت من الّذين يعلون أي يعلو قدرهم أن يؤمروا بالسجود ، و لذا قال بعضهم بالاستفادة من الآية إنّ العالين قوم من خلقه تعالى مستغرقون في التوجّه إلى ربّهم لا يشعرون بغيره تعالى .

و قيل : المراد بالعلوّ الاستكبار كما في قوله تعالى : « و إنّ فرعون لعال في الأرض » يونس : ٨٣ والمعنى استكبرت حين اُمرت بالسجدة أم كنت من قبل من المستكبرين ؟

و يدفعه أنّه لا يلائم مقتضى المقام فإنّ مقتضاه تعلّق الغرض باستعلام أصل استكباره لا تعيين كون استكباره قديما أو حديثا .

و قيل : المراد بالعالين ملائكة السماء فإنّ المأمورين بالسجودهم ملائكة

الأرض . و يدفعه ما في الآية من العموم .

قوله تعالى : « قال أنا خير منه خلقتني من نار و خلقته من طين » تعليل عدم سجوده بما يدّعيه من شرافة ذاته و أنّه لكون خلقه من نار خير من آدم المخلوق من طين ، و فيه تلويح أنّ الأمر الإلهيّ إنّما يطاع إذا كان حقّاً لا لذاته ، و ليس أمره بالسجود له حقّاً ، و يؤل إلى إنكار إطلاق ملكه تعالى و حكمته و هو الأصل الّذي ينتهي إليه كلّ معصية فإنّ المعصية إنّما تقع بالخروج عن حكم عبوديّته تعالى و مملوكيّته و بالإعراض عن كون تركها أولى من فعلها و اقترافها .

قوله تعالى : « قال فاخرج منها فإنّك رجيم و إنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين » الرجم الطرد ، و يوم الدين يوم الجزاء .

و قوله : « و إنّ عليك لعنتي » وفي سورة الحجر : «و إنّ عليك اللعنة» الآية ٣٥ قيل في وجهه : لو كانت اللاّم للعهد فلا فرق بين التعبيرين ، ولو كانت للجنس فكذلك أيضاً لأنّ لعن غيره تعالى من الملائكة و الناس عليه إنّما يكون طرداً له حقيقة و إبعاداً من الرحمة إذا كان بأمر الله و بإبعاده من رحمته .

قوله تعالى : « قال ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون ـ إلى قوله ـ إلى يوم الوقت المعلوم » ظاهر تغيّر الغاية في السؤال و الجواب حيث قال : « إلى يوم يبعثون» فاُجيب بقوله : « إلى يوم الوقت المعلوم » أنّ ما اُجيب إليه غير ما سأله فهو لا محالة آخر يوم يعصي فيه الناس ربّهم و هو قبل يوم البعث ، و الظاهر أنّ المراد باليوم الظرف فتفيد إضافته إلى الوقت التأكيد .

قوله تعالى : « قال فبعزّتك لاُغوينّهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين » الباء في « فبعزّتك » للقسم أقسم بعزّته ليغوينّهم أجمعين و استثنى منهم المخلصين و هم الّذين أخلصهم الله لنفسه فلا نصيب فيهم لإبليس ولا لغيره .

قوله تعالى : « قال فالحقّ و الحقّ أقول لأملأنّ جهنّم منك و ممّن تبعك منهم أجمعين ، جوابه تعالى لإبليس و هو يتضمّن القضاء عليه و على من تبعه بالنار .

فقوله : «فالحقّ» مبتدء محذوف الخبر أوخبر محذوف المبتدء ، والفاء لترتيب ما

بعده على ما قبله ، و المراد بالحقّ ما يقابل الباطل على ما يؤيّده إعادة الحقّ ثانياً باللاّم و المراد به ما يقابل الباطل قطعا والتقدير فالحقّ اُقسم به لأملأنّ جهنّم منك و ممّن تبعك منهم ، أوفقولي الحقّ لأملأنّ الخ .

و قوله : « و الحقّ أقول » جملة معترضة تشير إلى حتميّة القضاء و تردّ على إبليس ما يلوّح إليه قوله : «أنا خير منه» الخ من كون قوله تعالى و هو أمره بالسجود غير حقّ ، و تقديم الحقّ في « و الحقّ أقول » و تحليته باللاّم لإفادة الحصر .

و قوله : « لأملأنّ جهنّم منك و ممّن تبعك منهم أجمعين » متن القضاء الّذي قضى به وكأنّ المراد بقوله : « منك » جنس الشياطين حتّى يشمل إبليس و ذرّيّته و قبيله ، و قوله : « و ممّن تبعك منهم » أي من الناس ذرّيّة آدم .

و قد أشبعنا الكلام في نظائر الآيات من سورة الحجر و في القصّة من سور البقرة و الأعراف و الإسراء فعليك بالرجوع إليها .

قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين » رجوع إلى ما تقدّم في أوّل السورة و خلال آياتها أنّ القرآن ذكر و أن ليس النبيّ صلّى الله عليه وآله إلّا منذرا لاغير و ردّ لما رموه بقولهم : «امشوا و اصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يراد».

فقوله : « ما أسألكم عليه من أجر » أي أجرا دنيويا من مال أو جاه ، و قوله : « و ما أنا من المتكلّفين » أي من أهل التكلّف و هو التصنّع والتحلّي بما ليس له .

قوله تعالى : «إن هو إلّا ذكر للعالمين» أي القرآن ذكر عامّ للعالمين من جماعات الناس و مختلف الشعوب و الاُمم و غيرهم لا يختصّ بقوم دون قوم حتّى يؤخذ على تلاوته مال و على تعليمه أجر بل هو للجميع .

قوله تعالى : « و لتعلمنّ نبأه بعد حين » أي لتعلمنّ ما أخبر به القرآن من الوعد و الوعيد و ظهوره على الأديان و غير ذلك بعد حين أي بعد مرور زمان .

قيل : المراد ببعد حين يوم القيامة ، و قيل : يوم الموت ، و قيل : يوم بدر ، ولا يبعد أن يقال : إنّ نبأه مختلف لا يختصّ بيوم من هذه الأيّام حتّى يكون هو المراد بل المراد به المطلق فلكلّ من أقسام نبائه حينه .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمي بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث يذكر فيه المعراج، عن النبي صلى الله عليه وآله: قال تعالى: يا محمد. قلت: لبيك يا رب. قال: فيما اختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: سبحانك لا علم لي إلا ما علمتني. قال: فوضع يده أي يد القدرة بين ثديي فوجدت بردها بين كتفي. قال: فلم يسألني عما مضى و لا عما بقي إلا علمته. فقال: يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: في الكفارات و الدرجات و الحسنات الحديث.

و في المجمع روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: قال لي ربي: أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا. قال: اختصموا في الكفارات و الدرجات فأما الكفارات فإسباغ الوضوء في السبرات و نقل الأقدام إلى الجماعات و انتظار الصلاة بعد الصلاة، وأما الدرجات فإفشاء السلام و إطعام الطعام و الصلاة بالليل و الناس نيام.

أقول: و رواه في الخصال عن النبي صلى الله عليه وآله فجعل ما فسر به الكفارات تفسيراً للدرجات و بالعكس، و روى في الدر المنثور حديث المجمع بطرق كثيرة عن عدة من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وآله على اختلاف ما في الروايات.

و كيفما كان فسياق الآية يأبى الانطباق على مضمون هذه الروايات و لا دليل يدل على كون الروايات في مقام تفسير الآية فلعل الاختصام المذكور فيها غير المذكور في الآية.

و في نهج البلاغة الحمد لله الذي لبس العز و الكبرياء و اختارهما لنفسه دون خلقه، و جعلهما حمى و حرما على غيره، و اصطفاهما لجلاله، و جعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده، ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه و هو العالم بمضمرات القلوب و محجوبات الغيوب: إني خالق بشرا من طين فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد

الملائكة كلّهم أجمعون إلاّ إبليس اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه و تعصّب عليه لأصله .

فعدوّ الله إمام المتعصّبين و سلف المستكبرين الّذي وضع أساس العصبيّة ، ونازع الله رداء الجبريّة ، و ادّرع لباس التعزّز ، و خلع قناع التذلّل ألا ترون كيف صغّره الله بتكبّره ، و وضعه بترفّعه فجعله في الدنيا مدحورا ، و أعدّ له في الآخرة سعيرا . الخطبة .

و في العيون باسناده إلى محمّد بن عبيدة قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى لابليس : « مامنعك أن تسجد لما خلقت بيديّ » قال : يعني بقدرتي و قوّتي .

اقول : و روى مثله في التوحيد باسناده عن محمّد بن مسلم عن الصادق عليه السلام .

و في القصّة روايات اُخر أوردناها في ذيلها من سور البقرة والأعراف والحجر و الاسراء فراجع .

وعن جوامع الجامع عن النبيّ صلّى الله عليه وآله : للمتكلّف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، و يتعاطى مالا ينال ، ويقول مالا يعلم .

اقول : و روى مثله في الخصال عن الصادق عليه السلام عن لقمان في وصيّته لابنه ، و روي أيضاً من طرق أهل السنّة ، و في بعض الروايات : ينازل من فوقه .



سورة الزمر مكية و هي خمس و سبعون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١) اِنّٰا أَنْزَلْنٰا اِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِاللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٢) اَلاٰ لِلّٰهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِه أَوْلِيٰاءَ مٰا نَعْبُدُهُمْ اِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا اِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ اِنَّ اللّٰهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مٰا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِى مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ كَفّٰارٌ (٣) لَوْ أَرٰادَ اللّٰهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفىٰ مِمّٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ سُبْحٰانَهُ هُوَ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ (٤) خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهٰارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهٰارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِاَجَلٍ مُسَمًّى اَلاٰ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفّٰارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْاَنْعٰامِ ثَمٰانِيَةَ أَزْوٰاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ اُمَّهٰاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمٰاتٍ ثَلٰثٍ ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاٰ اِلٰهَ اِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ (٦) اِنْ تَكْفُرُوا فَاِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاٰ يَرْضىٰ لِعِبٰادِهِ الْكُفْرَ وَ اِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ اُخْرىٰ ثُمَّ اِلىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ اِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ (٧) وَ اِذٰا مَسَّ الْاِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰا رَبَّهُ مُنِيباً اِلَيْهِ ثُمَّ اِذٰا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مٰا كٰانَ يَدْعُوا اِلَيْهِ

مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلّٰهِ أَنْدٰاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً اِنَّكَ مِنْ أَصْحٰابِ النّٰارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قٰانِتٌ آنٰاءَ اللَّيْلِ سٰاجِداً وَ قٰائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ اِنَّمٰا يَتَذَكَّرُ اُولُوا الْأَلْبٰابِ (٩) قُلْ يٰا عِبٰادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيٰا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللّٰهِ وٰاسِعَةٌ اِنَّمٰا يُوَفَّى الصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ (١٠) .

﴿ بيان ﴾

يظهر من خلال آيات السورة أنّ المشركين من قومه صلى الله عليه و آله سألوه أن ينصرف عمّا هو عليه من التوحيد والدعوة إليه والتعرّض لآلهتهم و خوّفوه بآلهتهم فنزلت السورة ـ و هي قرينة سورة ص بوجه ـ و هي تؤكّد الأمر بأن يخلص دينه لله سبحانه ولا يعبأ بآلهتهم وأن يعلمهم أنّه مأمور بالتوحيد و إخلاص الدين الّذي تواترت الآيات من طريق الوحي والعقل جميعا عليه .

و لذلك نراه سبحانه يعطف الكلام عليه في خلال السورة مرّة بعد مرّة كقوله في مفتتح السورة : « فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص » ثمّ يرجع إليه و يقول : « قل إنّي اُمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين » ـ إلى قوله ـ «قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه » .

ثمّ يقول : « إنّك ميّت و إنّهم ميّتون » الخ ثمّ يقول : « أليس الله بكاف عبده و يخوّفونك بالّذين من دونه » ثمّ يقول : « قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل» ثمّ يقول : « قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيّها الجاهلون » إلى غير ذلك من الإشارات .

ثمّ عمّم الاحتجاج على توحّده تعالى في الربوبيّة والاُلوهيّة من الوحي و من طريق البرهان وقايس بين المؤمنين والمشركين مقايسات لطيفة فوصف المؤمنين بأجمل أوصافهم و بشّرهم بما سيثيبهم في الآخرة مرّة بعد مرّة و ذكر المشركين و أنذرهم بما سيلحقهم من الخسران و عذاب الآخرة مضافا إلى ما يصيبهم في الدنيا من وبال أمرهم كما أصاب الّذين كذّبوا من الاُمم الدارجة من عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر .

و من ثمّ وصفت السورة يوم البعث وخاصّة فيمختتمها بأوضح الوصف وأتمّه .

والسورة مكيّة لشهادة سياق آياتها بذلك و كأنّها نزلت دفعة واحدة لما بين آياتها من الاتّصال .

والآيات العشر المنقولة تجمع الدعوة منطريق الوحي والحجّة العقليّة بإدئة بالنبيّ صلّى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » « تنزيل الكتاب » خبر لمبتدء محذوف ، و هو مصدر بمعنى المفعول فيكون إضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى موصوفها و « من الله » متعلّق بتنزيل والمعنى هذاكتاب منزّل من الله العزيز الحكيم .

و قيل : « تنزيلالكتاب»مبتدء و«من الله» خبره ولعلّ الأوّل أقربإلىالذهن .

قوله تعالى : « إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ فاعبدالله مخلصا له الدين » عبّر بالإنزال دون التنزيل كما في الآية السابقة لأنّ القصد إلى بيان كونه بالحقّ و هو يناسب مجموع ما نزل إليه من ربّه .

و قوله : « بالحقّ » الباء فيه للملابسة أي أنزلناه إليك متلبّسا بالحقّ فما فيه من الأمر بعبادة الله وحده حقّ ، وعلى هذا المعنى فرّع عليه قوله : « فاعبدالله مخلصا له الدين » والمعنى فإذا كان بالحقّ فاعبدالله مخلصا له الدين لأنّ فيه ذلك .

والمراد بالدين ـ على مايعطيه السياق ـ العبادة ويمكن أن يراد به سنّة الحياة و هي الطريقة المسلوكة فيالحياة في المجتمعالإنسانيّ ، ويراد بالعبادة تمثيل العبوديّة

بسلوك الطريق الّتي شرعها الله سبحانه والمعنى فأظهر العبوديّة لله في جميع شؤن حياتك باتّباع ما شرعه لك فيها والحال أنّك مخلص له دينك لا تتّبع غير ما شرعه لك .

قوله تعالى : « ألا لله الدين الخالص» إظهار و إعلان لما أضمر و أجمل في قوله : « بالحقّ » و تعميم لما خصّص في قوله : « فاعبدالله مخلصا له الدين » أي إنّ الّذي أوحيناه إليك من إخلاص الدين لله واجب على كلّ من سمع هذا النداء ، ولكون الجملة نداء مستقلاّ اُظهر اسم الجلالة وكان مقتضى الظاهر أن يضمر و يقال : له الدين الخالص .

و معنى كون الدين الخالص له أنّه لا يقبل العبادة ممّن لا يعبده وحده سواء عبده و غيره أو عبد غيره وحده .

قوله تعالى : « والّذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى » إلى آخر الآية تقدّم أنّ الوثنيّة يرون أنّ الله سبحانه أجلّ من أن يحيط به الإدراك الإنسانيّ من عقل أو وهم أو حسّ فيتنزّه تعالى عن أن يقع عليه توجّه عباديّ منّا .

فمن الواجب أن نتقرّب إليه بالتقرّب إلى مقرّبيه من خلقه و هم الّذين فوّض إليهم تدبير شؤن العالم فنتّخذهم أربابا من دون الله ثمّ آلهة نعبدهم و نتقرّب إليهم ليشفعوا لنا عندالله و يقرّبونا إليه زلفى و هؤلاء هم الملائكة والجنّ وقدّيسوا البشر و هؤلاء هم الأرباب والآلهة بالحقيقة .

أمّا الأصنام المصنوعة المنصوبة في الهياكل والمعابد فإنّما هي تماثيل للأرباب والآلهة و ليست في نفسها أربابا ولا آلهة غير أنّ الجهلة من عامّتهم ربّما لم يفرّقوا بين الأصنام وأرباب الأصنام فعبدوا الأصنام كما يعبد الأرباب والآلهة وكذلك كانت عرب الجاهليّة و كذلك الجهلة من عامّة الصابئين ربّما لم يفرّقوا بين أصنام الكواكب والكواكب الّتي هي أيضا أصنام لأرواحها الموكّلة عليها وبين أرواحها الّتي هي الأرباب والآلهة بالحقيقة عند خاصّتهم .

و كيف كان فالأرباب والالهة هم المعبودون عندهم وهم موجودات ممكنة مخلوقة لله

مقرّبة عنده مفوّضة إليهم تدبير أمر العالم لكلّ بحسب منزلته و أمّا الله سبحانه فليس له إلّا الخلق والإيجاد و هو ربّ الأرباب وإله الآلهة .

إذا تذكّرت ما مرّ ظهر أنّ المراد بقوله : « والّذين اتّخذوا من دونه أولياء » اتّخاذهم أربابا يدبّرون الأمر بأن يسندوا الربوبيّة و أمر التدبير إليهم لا إلى الله فهم المدبّرون للأمر عندهم و يتفرّع عليه أن يخضع لهم ويعبدوا لأنّ العبادة لجلب النفع أو لدفع الضرر أو شكر النعم و كلّ ذلك إليهم لتصدّيهم أمر التدبير دون الله سبحانه .

فالمراد باتّخاذهم أولياء اتّخاذهم أربابا (١) ، ولذا عقّب اتّخاذ الأولياء بذكر العبادة « مانعبدهم إلّا ليقرّبونا » فقوله : «والّذين اتّخذوا من دونه أولياء» مبتدء خبره « إنّ الله يحكم »الخ و المراد بهم المشركون القائلون بربوبيّة الشركاء و اُلوهيّتهم دون الله إلّا ماذهب إليه جهلتم من كونه تعالى شريكا لهم في المعبوديّة .

و قوله : « ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى » تفسير لمعنى اتّخاذ الأولياء من دون الله و هو حكاية لقولهم أو بتقدير القول أي يقولون : ما نعبدهم هؤلاء إلّا ليقرّبونا بسبب عبادتنا لهم إلى الله تقريبا فهم عادلون منه تعالى إلى غيره ، و إنّما سمّوا مشركين لأنّهم يشركون به تعالى غيره حيث يقولون بكونهم أربابا و آلهة للعالم وكونه تعالى ربّا وإلها لاُولئك الأرباب والآلهة ، وأمّا الشركة في الخلق والإيجاد فلم يقل به لا مشرك ولا موحّد .

وقوله : «إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون» قيل : ضمير الجمع للمشركين و أوليائهم أي إنّ الله يحكم بين المشركين و بين أوليائهم فيما هم فيه يختلفون ، و قيل : الضميران راجعان إلى المشركين و خصمائهم من أهل الإخلاص في الدين المفهوم من السياق ، والمعنى إنّ الله يحكم بينهم و بين المخلصين للدين .

و قوله : « إنّ الله لا يهدي من هو كاذب كفّار » الكفّار كثير الكفران لنعم

---

(١) فالولاية والربوبية قريبا المعنى فالرب هو المالك المدبر والولى هو مالك التدبير أو متصدى التدبير .

الله أو كثير الستر للحقّ، و في الجملة إشعار بل دلالة على أنّ الحكم يوم القيامة على المشركين لالهم و أنّهم مسيّرون إلى العذاب، والمراد بالهداية الإيصال إلى حسن العاقبة .

قوله تعالى : « لوأراد الله أن يتّخذ ولدا لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار » احتجاج على نفي قولهم : إنّ الله اتّخذ ولدا ، و قول بعضهم : الملائكة بنات الله ، و القول بالولد دائر بين عامّة الوثنيّة على اختلاف مذاهبهم و قد قالت النصارى : المسيح ابن الله، و قالت اليهود على ماحكاه القرآن عنهم : عزير ابن الله و كأنّها بنوّة تشريفيّة .

و البنوّة كيفما كانت تقتضي شركة ما بين الابن و الأب و الولد و الوالد فإن كانت بنوّة حقيقيّة و هي اشتقاق شيء من شيء و انفصاله منه اقتضت الشركة في حقيقة الذات والخواصّ و الآثار المنبعثة من الذات كبنوّة إنسان لانسان المقتضية لشركة الابن لأبيه في الإنسانيّة ولوازمها ، وإن كانت بنوّة اعتباريّة كالبنوّة الاجتماعيّة وهو التبنّي اقتضت الاشتراك في الشؤنات الخاصّة بالأب كالسؤدد والملك والشرف و التقدّم والوراثة و بعض أحكام النسب ، و الحجّة المسوقة في الآية تدلّ على استحالة اتّخاذ الولد عليه تعالى بكلا المعنيين .

فقوله : « لو أراد الله أن يتّخذ ولدا » شرط صدّر بلو الدالّ على الامتناع للامتناع ، و قوله : « لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء» أي لاختار لذلك ممّا يخلق ما يتعلّق به مشيئته على ما يفيده السياق وكونه ممّا يخلق لكون ما عداه سبحانه خلقاً له .

و قوله : « سبحانه » تنزيه له سبحانه ، و قوله : «هو الله الواحد القهّار» بيان لاستحالة الشرط و هو إرادة اتّخاذ الولد ليترتّب عليه استحالة الجزاء و هو اصطفاء ما يشاء ممّا يخلق و ذلك لأنّه سبحانه واحد في ذاته المتعالية لا يشاركه فيها شيء و لا يماثله فيها أحد لأدلّة التوحيد ، و واحد في صفاته الذاتيّة الّتي هي عين ذاته كالحياة و العلم و القدرة ، و واحد في شؤنه الّتي هي من لوازم ذاته كالخلق و الملك و العزّة و الكبرياء لا يشاركه فيها أحد .

وهو سبحانه قهّار يقهركلّ شيء بذاته و صفاته فلايستقلّ قبال ذاته و وجوده شيء في ذاته ووجودهولا يستغني عنه شيء فيصفاته وآثاروجوده فالكلّ أذلاّء داخرون بالنسبة إليه مملوكون له فقراء إليه .

فمحصّل حجّة الآية قياس استثنائي ساذج يستثنى فيه نقيض المقدّم لينتج نقيض التالي و هو نحو من قولنا : لو أراد الله أن يتّخذ ولداً لاصطفى لذلك بعض من يشاء من خلقه لكن إرادته اتّخاذ الولد ممتنعة لكونه واحداً قهّاراً فاصطفاؤه لذلك بعض من يشاء من خلقه ممتنع .

و قد أغرب بعضهم في تقريب حجّة الآية فقال : حاصل المعنى لوأراد سبحانه اتّخاذ الولدلامتنعت تلك الإرادة لتعلّقها بالممتنع أعني الاتّخاذ لكن لايجوز للباري إرادة ممتنعة لأنّها ترجّح بعضالممكنات على بعض .

و أصل الكلام لو اتّخذ الولد لامتنع لاستلزامه ما ينافي الاُلوهيّة فعدل إلى لو أراد الاتّخاذ لامتنع أن يريده ليكون أبلغ و أبلغ ثمّ حذف هذا الجواب و جيء بدله لاصطفى تنبيهاً على أنّ الممكن هذا لاالأوّل و أنّه لوكان هذا مناتّخاذ الولد في شيء لجاز اتّخاذ الولدعليه سبحانه وتعالى شأنه عن ذلك فقد تحقّق التلازم وحقّ نفي اللازم و إثبات الملزوم دون صعوبة . انتهى .

و كأنّه مأخوذ من قول الزمخشريّ في الكشّاف في تفسير الآية حيث قال : يعني لو أراد اتّخاذ الولد لامتنع و لم يصحّ لكونه محالا و لم يتأتّ إلّا أن يصطفي من خلقه بعضه و يختصّهم و يقرّبهم كما يختصّ الرجل ولده و يقرّبه و قد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغرّكم اختصاصهإيّاهم فزعمتمأنّهم أولاده جهلا منكمبه وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام و الأعراض كأنّه قال : لو أراد اتّخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه و هم الملائكة لكنّكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتّخاذهمأولادا ثمّ تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات فكنتمكذّابين كفّارين متبالغين في الافتراء على الله و ملائكته غالين فيالكفر . انتهى .

و أنت خبير أنّ سياق الآية لا يلائم هذا البيان . على أنّه لا يدفع قول القائل

بالتبنّي التشريفي كقول اليهود عزير ابن الله فإنّهم لا يريدون بالتبنّي إلّا اصطفاء من يشاء من خلقه.

و هناك بعض تقريبات اُخر منهم لا جدوى فيه تركنا إيراده.

قوله تعالى: «خلق السماوات و الأرض بالحقّ» لا يبعد أن يكون ما فيه من الإشارة إلى الخلق و التدبير بيانا لقهّاريّته تعالى لكن اتّصال الآيتين و ارتباطهما مضمونا و انتهاء الثانية إلى قوله: «ذلكم الله ربّكم» الخ كالصريح في أنّ ذلك استئناف بيان للاحتجاج على توحيد الربوبيّة.

فالآية والّتي تليها مسوقتان لتوحيد الربوبيّة وقد جمع فيهما بين الخلق والتدبير لما مرّ مراراً أنّ إثبات وحدة الخالق لا يستلزم عند الوثنيّ نفي تعدّد الأرباب و الالهة لأنّهم لا ينكرون انحصار الخالق والإيجاد فيه تعالى لكنّه سبحانه فيما يحتجّ على توحّده في الربوبيّة و الاُلوهية في كلامه يجمع بين الخلق و التدبير إشارة إلى أنّ التدبير غير خارج من الخلق بل هو خلق بوجه كما أنّ الخلق تدبير بوجه و عند ذلك يتمّ الاحتجاج على رجوع التدبير إليه تعالى و انحصاره فيه برجوع الخلق إليه.

فقوله: «خلق السماوات و الأرض بالحقّ» إشارة إلى الخلقة، و في قوله: «بالحقّ» ـ و الباء للملابسة ـ إشارة إلى البعث فإنّ كون الخلقة حقّاً غير باطل يلازم كونها لغاية تقصدها و تنساق إليها وهي البعث قال تعالى: «وما خلقنا السماء و الأرض و ما بينهما باطلا» ص: ٢٧.

و قوله: «يكوّر الليل على النهار و يكوّر النهار على اللّيل» قال في المجمع التكوير طرح الشيء بعضه على بعض. انتهى فالمراد طرح اللّيل على النهار و طرح النهار على اللّيل فيكون من الاستعارة بالكناية قريب المعنى من قوله: «يغشي الليل النهار» الأعراف: ٧٤ والمراد استمرار توالي الليل و النهار بظهور هذا على ذاك ثمّ ذاك على هذا و هكذا، وهو من التدبير.

وقوله: «و سخّر الشمس و القمر كلّ يجري لأجل مسمّى» أي سخّر الشمس والقمر فأجراهما للنظام الجاري في العالم الأرضيّ إلى أجل مسمّى معيّن لا يتجاوزانه.

و قوله: « ألا هو العزيز الغفّار » يمكن أن يكون في ذكر الاسمين إشاره إلى ما يحتجّ به على توحّده تعالى في الربوبيّة و الاُلوهيّة فإنّ العزيز الّذي لا يعتريه ذلّة إن كان فهوالله و هو المتعيّن للعبادة لاغيره الّذي تغشاه الذلّة و تغمره الفاقة و كذا الغفار للذنوب إذا قيس إلى من ليس من شأنه ذلك.

ويمكن أن يكون ذكرهما تحضيضا على التوحيد و الإيمان بالله الواحدوالمعنى اُنبّهكم أنّه هو العزيز فآمنوا به و اعتزّوا بعزّته، الغفّار فآمنوا به يغفرلكم.

قوله تعالى: « خلقكم من نفس واحدة ثمّ جعل منها زوجها » الخ الخطاب لعامّة البشر، و المراد بالنفس الواحدة ـ على ما تؤيّده نظائره من الآيات ـ آدم أبوالبشر، والمراد بزوجها امرأته الّتي هي من نوعها وتماثلها في الإنسانيّة، و« ثمّ » للتراخي بحسب رتبة الكلام.

و المراد أنّه تعالى خلق هذا النوع و كثّر أفراده من نفس واحدة وزوجها.

و قوله: « و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الأنعام هي الإبل و البقر و الضأن و المعز، و كونها ثمانية أزواج باعتبار انقسامها إلى الذكر و الاُنثى.

و تسمية خلق الأنعام في الأرض إنزالا لها باعتبار أنّه تعالى يسمّي ظهور الأشياء في الكون بعد مالم يكن إنزالاً لها من خزائنه الّتيهي عنده و من الغيبإلى الشهادة قال تعالى: « و إن من شيء إلّا عندنا خزائنه و ما ننزّله إلّا بقدر معلوم » الحجر: ٢١.

و قوله: « يخلقكم في بطون اُمّهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث » بيان لكيفيّة خلق من تقدّم ذكره من البشر و الأنعام، و في الخطاب تغليب اُولي العقل على غيرهم، و الخلق من بعد الخلق التوالي و التوارد كخلق النطفة علقة و خلق العلقة مضغة و هكذا، و الظلمات الثلاث هي ظلمة البطن و الرحم و المشيمة كما قيل و رواه في المجمع عن أبي جعفر عليه‌السلام.

و قيل: المراد بها ظلمة الصلب و الرحم و المشيمة و هو خطأ فإنّ قوله: « في

بطون اُمّهاتكم » صريح في أنّ المراد بالظلمات الثلاث مافي بطون النساء دون أصلاب الرّجال .

و قوله : « ذلكم الله ربّكم » أي الّذي وصف لكم في الآيتين بالخلق و التدبير هو ربّكم دون غيره لأنّ الربّ هو المالك الّذي يدبّر أمرما ملكه و إذكان خالقالكم و لكلّ شيء دونكم و للنظام الجاري فيكم فهو الّذي يملككم و يدبّر أمركم فهو ربّكم لا غير .

وقوله: « له الملك » أي على جميع المخلوقات في الدنيا و الاخرة فهو المليك على الاطلاق ، و تقديم الظرف يفيد الحصر . و الجملة خبر بعد خبر لقوله : « ذلكم الله» كما أنّ قوله : « لا إله إلّا هو » كذلك ، و انحصار الاُلوهيّة فيه تعالى فرع انحصار الربوبيّة فيه لأنّ الاله إنّما يعبد لأنّه ربّ مدبّر فيعبد إمّا خوفا منه أو رجاء فيه أو شكراً له .

و قوله : « فأنّى تصرفون » أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وهو ربّكم الّذي خلقكم و دبّر أمركم و هو المليك عليكم .

قوله تعالى : « إن تكفروا فإنّ الله غنيّ عنكم ولايرضى لعباده الكفر » إلى آخر الآية . مسوق لبيان أنّ الدعوة إلى التوحيد و إخلاص الدين لله سبحانه ليست لحاجة منه تعالى إلى إقبالهم إليه بالانصراف عن عبادة غيره بل لعناية منه تعالى بهم فيدعوهم إلى سعادتهم اعتناء بها كما يعتني برزقهم فيفيض النعم عليهم وكما يعتني بحفظهم فيلهمهم أن يدفعوا الآفات عن أنفسهم .

فقوله : « إن تكفروا فإنّ الله غنيّ عنكم » الخطاب لعامّة المكلّفين أي إن تكفروا بالله فلم توحّدوه فإنّه غنيّ عنكم لذاته لاينتفع بإيمانكم وطاعتكم ولا يتضرّر بكفركم و معصيتكم فالنفع و الضرر إنّما يتحقّقان في مجال الإمكان و الحاجة و أمّا الواجب الغنيّ بذاته فلايتصوّر في حقّه انتفاع ولاتضرّر .

و قوله : « و لا يرضى لعباده الكفر » دفع لما ربّما يمكن أن يتوهّم من قوله : « فإنّ الله غنيّ عنكم » أنّه إذا لم يتضرّر بكفر و لم ينتفع بإيمان فلاموجب له أن

يريد منّا الايمان و الشكر فدفعه بأنّ تعلّق العناية الالهيّة بكم يقتضي أن لايرضى بكفركم و أنتم عباده .

و المراد بالكفر كفر النعمة الّذي هو ترك الشكر بقرينة مقابلة قوله : « و إن تشكروا يرضه لكم » و بذلك يظهر أنّ التعبير بقوله : «لعباده» دون أن يقول : لكم للدلالة على علّة الحكم أعني سبب عدم الرضا .

و المحصّل أنّكم عباد مملوكون لله سبحانه منغمرون في نعمه و رابطة المولويّة و العبوديّة وهي نسبة المالكيّة والمملوكيّة لاتلائمه أن يكفر العبد بنعمة سيّده فينسى ولاية مولاه ويتّخذ لنفسه أرلياء من دونه و يعصى المولى ويطيع عدوّه و هو عبد عليه طابع العبوديّة لايملك لنفسه نفعا و لاضرّا .

و قوله : « و إن تشكروا يرضه لكم » الضمير للشكر نظير قوله تعالى : «اعدلوا هو أقرب للتقوى » المائدة : ٨ و المعنى و إن تشكروا الله بالجري على مقتضى العبوديّة و إخلاص الدين له يرض الشكر لكم و أنتم عباده ، و الشكر و الكفر المقابل له ينطبقان على الايمان و الكفر المقابل له .

و ممّا تقدّم يظهر أنّ العباد في قوله : « ولايرضى لعباده الكفر » عامّ يشمل الجميع فقول بعضهم : إنّه خاصّ اُريد به من عناهم في قوله : « إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتّبعك من الغاوين » الحجر : ٤٢ وهم المخلصون ـ أو المعصومون على ما فسّره الزمخشريّ ـ و لازمه أنّ الله سبحانه رضي الايمان لمن آمن و رضي الكفر لمن كفر إلاّ المعصومين فانّه أراد منهم الايمان ، و صانهم عن الكفر . سخيف جدّا ، و السياق يأباه كلّ الاباء ، إذ الكلام مشعر حينئذ برضاه الكفر للكافر فيؤل معنى الكلام إلى نحو من قولنا : إن تكفروا فانّ الله غنيّ عنكم ولايرضى للأنبياء مثلا الكفر لرضاه لهم الايمان و إن تشكروا أنتم يرضه لكم و إن تكفروا يرضه لكم و هذا ـ كما ترى ـ معنى رديّ ساقط و خاصّة من حيث وقوعه في سياق الدعوة .

على أنّ الأنبياء مثلا داخلون فيمن شكر وقد رضي لهم الشكر و الايمان

ولم يرض لهم الكفر فلاموجب لإفرادهم بالذكر وقد ذكر الرضا عمّن شكر .

وقوله : « ولاتزر وازرة وزر اُخرى » أي لاتحمل نفس حاملة حمل نفس اُخرى أي لايؤاخذ بالذنب إلّا من ارتكبه .

و قوله : « ثمّ إلى ربّكم مرجعكم فينبّئكم بما كنتم تعملون إنّه عليم بذات الصدور » أي هذا في الدنيا من كفر أو شكر ثمّ يبعثكم الله فيظهر لكم حقيقةأعمالكم و يحاسبكم على ما في قلوبكم وقد تكرّر الكلام في معاني هذه الجمل فيما تقدّم .

﴿ كلام في معنى الرضا والسخط من الله ﴾

الرضا من المعاني الّتي يتّصف بها اُولو الشعور و الإرادة و يقابله السخط و و كلاهما وصفان وجوديّان .

ثمّ الرضا يتعلّق بالمعاني من الأوصاف و الأفعال دون الذوات يقال : رضي له كذا و رضي بكذا قال تعالى : « ولو أنّهم رضوا ما آتاهم الله و رسوله » التوبة : ٥٩ و قال : « ورضوا بالحياة الدنيا » يونس: ٧ وما ربّما يتعلّق بالذوات فإنّما هو بعناية مّا ويؤول بالأخرة إلى المعنى كقوله: « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى » البقرة :١٢٠.

وليس الرضا هو الإرادة بعينها وإن كان كلّما تعلّقت به الإرادة فقدتعلّق به الرضا بعد وقوعه بوجه . و ذلك لأنّ الإرادة ـ كما قيل ـ تتعلّق بأمر غير واقع والرضا إنّما يتعلّق بالأمر بعد وقوعه أو فرض وقوعه فإذن كون الإنسان راضيا بفعل كذا كونه بحيث يلائم ذلك الفعل ولاينافره ، وهو وصف قائم بالراضي دون المرضيّ .

ثمّ الرضا لكونه متعلّقا بالأمر بعد وقوعه كان متحقّقا بتحقّق المرضيّ حادثا بحدوثه فيمتنع أن يكون صفة من الصفات القائمة بذاته لتنزّهه تعالى عن أن يكون محلّاً للحوادث فما نسب إليه تعالى من الرضا صفة فعل قائم بفعله منتزع عنه كالرحمة و الغضب و الإرادة و الكراهة قال تعالى : « رضي الله عنهم و رضوا عنه » البيّنة : ٨ و قال : « و أن أعمل صالحا ترضاه »النمل : ١٩ ، و قال : « ورضيت لكم الإسلام دينا» المائدة : ٣ .

فرضاه تعالى عن أمر من الاُمور ملائمة فعله تعالى له ، و إذ كان فعله قسمين تكويني" وتشريعي" انقسم الرضا منه أيضاً إلى تكويني" وتشريعي" فكل" أمر تكويني" و هو الّذي أراده الله و أوجده فهو مرضي" له رضا تكوينيّا بمعنى كون فعله و هو إيجاده عن مشيّة ملائما لما أوجده ، و كل" أمر تشريعي" وهو الّذي تعلّق به التكليف من اعتقاد أو عمل كالإيمان و العمل الصالح فهومرضي" له رضا تشريعيّا بمعنى ملاءمة تشريعه للمأتي" به .

و أمّا مايقابل هذه الاُمور المأمور بها ممّا تعلّق به نهي فلايتعلّق بها رضى البتّة لعدم ملاءمة التشريع لها كالكفر و الفسوق كما قال تعالى : « إن تكفروا فإن" الله غني" عنكم ولايرضى لعباده الكفر » الزمر : ٧ ، وقال : « فإن ترضواعنهم فإن" اللهلايرضى عن القوم الفاسقين » التوبة : ٩٦ .

قوله تعالى : « و إذا مس" الإنسان ضر"دعا ربّه منيبا إليه » إلى آخر الآية الإنابة الرجوع ، و التخويل العطيّة العظيمة على وجه الهبة وهي المنحة . على ما في المجمع .

لمّا مر" فيالآية السابقة ذكر من كفر النعمة وأن" الله سبحانه على غناه من الناس لايرضى لهم ذلك نبّه في هذه الآية على أن" الإنسان كفور بالطبع مع أنّه يعرف ربّه بالفطرة ولايلبث عند الاضطرار دون أن يرجع إليه فيسأله كشف ضر"ه كما قال :«وكان الإنسان كفورا » أسرى : ٦٧ ، و قال : « إن" الإنسان لظلوم كفّار » إبراهيم : ٣٤ .

فقوله : « و إذا مس" الإنسان ضر"دعا ربّه منيبا إليه » أي إذا أصاب الإنسان ضر" من شد"ة أو مرض أوقحط و نحوه دعا ربّه ـو هو الله يعترف عندذلك بربوبيّته ـ راجعا إليه معرضا عمّن سواه يسأله كشف الضر" عنه .

و قوله : « ثم" إذا خو"له نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل » أي و إذا أعطاه ربّه سبحانه بعد كشف الضر" نعمة منه اشتغل به مستغرقا و نسي الضر" الّذيكان يدعو إليه أي إلى كشفه من قبل إعطاء النعمة .

فما في قوله : « ما كان يدعو إليه » موصولة والمراد به الضر" وضمير « إليه » له

و قيل : مصدريّة و الضمير للربّ سبحانه و المعنى نسي دعاءه إلى ربّه من قبل الإعطاء، و قيل : موصولة و المراد به الله سبحانه و هو أبعد الوجوه .

و قوله : « و جعل لله أنداداً ليضلّ عن سبيله » الأنداد الأمثال و المراد بها ـ على ما قيل ـ الأصنام و أربابها ، و اللام في « ليضلّ عن سبيله » للعاقبة ، و المعنى و اتّخذ لله أمثالاً يشاركونه في الربوبيّة و الاُلوهيّة على مزعمته لينتهي به ذلك إلى إضلال الناس عن سبيل الله لأنّ الناس مطبوعون على التقليد يتشبّه بعضهم ببعض ، و في الفعل دعوة كالقول .

و لا يبعد أن يراد بالأنداد مطلق الأسباب الّتي يعتمد عليها الإنسان و يطمئنّ إليها و من جملتها أرباب الأصنام عند الوثنيّ و ذلك لأنّ الآية تصف الإنسان و هو أعمّ من المشرك نعم مورد الآية هو الكافر .

و قوله : « قل تمتّع بكفرك قليلا إنّك من أصحاب النار » أي تمتّع تمتّعا قليلا لا يدوم لك لأنّك من أصحاب النار مصيرك إليها ، و هو أمر تهديديّ في معنى الإخبار أي إنّك إلى النار و لا يدفعها عنك تمتّعك بالكفر أيّاما قلائل .

قوله تعالى :« أم من هو قانت آناء الليل ساجدا و قائما يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربّه » الآية لا تخلو عن مناسبة و اتّصال بقوله السابق : « و لا تزر وازرة وزر اُخرى » فإنّ فحواه أنّ الكافر و الشاكر لا يستويان و لا يختلطان فأوضح ذلك في هذه الآية بأنّ القانت الّذي يخاف العذاب و يرجو رحمة ربّه لا يساوي غيره .

فقوله : « أم من هو قانت آناء الليل ساجدا و قائما يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربّه » أحد شقّي الترديد محذوف والتقدير أهذا الّذي ذكرناه خير أم من هو قانت الخ؟

و القنوت ـ على ما ذكره الراغب ـ لزوم الطاعة مع الخضوع ، و الآناء جمع أنى و هو الوقت ، و « يحذر الآخرة » أي عذاب الله في الآخرة قال تعالى : «إنّ عذاب ربّك كان محذورا » أسرى : ٥٧ ، و قوله : « يرجو رحمة ربّه » هو و ما قبله يجمعان خوف العذاب و رجاء الرحمة ، و لم يقيّد الرحمة بالآخرة فإنّ رحمة الاخرة ربّما وسعت الدنيا .

و المعنى أهذا الكافر الّذي هو من أصحاب النار خير أم من هو لازم للطاعة و الخضوع لربّه في أوقات الليل إذا جنّ عليه ساجدا في صلاته تارة قائما فيها اُخرى يحذر عذاب الآخرة و يرجو رحمة ربّه ؟ أي لا يستويان .

و قوله : « قل هل يستوي الّذين يعلمون و الّذين لا يعلمون » العلم و عدمه مطلقان لكنّ المراد بهما بحسب ما ينطبق على مورد الاية العلم بالله و عدمه فإنّ ذلك هو الّذي يكمل به الإنسان و ينتفع بحقيقة معنى الكلمة و يتضرّر بعدمه ، و غيره من العلم كالمال ينتفع به في الحياة الدنيا و يفنى بفنائها .

و قوله : « إنّما يتذكّر اُولو الألباب » أي ذوُو العقول و هو في مقام التعليل لعدم تساوي الفريقين بأنّ أحد الفريقين يتذكّر حقائق الاُمور دون الفريق الآخر فلا يستويان بل يترجّح الّذين يعلمون على غيرهم .

قوله تعالى : « قل يا عبادي الّذين آمنوا اتّقوا للّذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة » إلى آخر الاية ، الجارّ و المجرور « في هذه الدنيا » متعلّق بقوله : « أحسنوا » فالمراد بالجملة وعد الّذين أحسنوا أي لزموا الأعمال الحسنة أنّ لهم حسنة لا يقدّر وصفها بقدر .

و قد أطلق الحسنة فلم يقيّدها بدنيا أو آخرة و ظاهرها ما يعمّ الدنيا فللمؤمنين المحسنين في هذه الدنيا طيب النفس وسلامة الروح وصون النفوس عمّا يتقلّب فيه الكفّار من تشوّش البال و تقسّم القلب و غلّ الصدر و الخضوع للأسباب الظاهريّة و فقد من يرجى في كلّ نائبة و ينصر عند طروق الطارقة و يطمأنّ إليه في كلّ نازلة و في الاخرة سعادة دائمة و نعيم مقيم .

و قيل : « في هذه الدنيا » متعلّق بحسنة . و ليس بذاك .

و قوله : « و أرض الله واسعة » حثّ و ترغيب لهم في الهجرة من مكّة إذ كان التوقّف فيها صعبا على المؤمنين بالنبيّ صلّى الله عليه وآله والمشركون يزيدون كلّ يوم في التشديد عليهم و فتنتهم ، و الاية بحسب لفظها عامّة .

و قيل : المراد بأرض الله الجنّة أي إنّ الجنّة واسعة لا تزاحم فيها فاكتسبوها

بالطاعة و العبادة . و هو بعيد .

و قوله : « إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغيرحساب » توفية الأجر إعطاؤه تامّا كاملا ، و السياق يفيد أنّ القصر في الكلام متوجّه إلى قوله : «بغير حساب» فالجارّ و المجرور متعلّق بقوله : « يوفّى » صفة لمصدر يدلّ عليه و المعنى لا يعطى الصابرون أجرهم إلّا إعطاء بغير حساب ، فالصابرون لا يحاسبون على أعمالهم و لا ينشر لهم ديوان و لا يقدّر أجرهم بزنة عملهم .

و قد اُطلق الصابرون في الاية و لم يقيّد بكون الصبر على الطاعة أوعن المعصية أو عند المصيبة و إن كان الّذي ينطبق على مورد الاية هو الصبر على مصائب الدنيا و خاصّة ما يصيب من جهة أهل الكفر و الفسوق من آمن بالله و أخلص له دينه و اتّقاه.

و قيل : «بغير حساب» حال من «أجرهم» و يفيد كثرة الأجر الّذي يوفونه ، و الوجه السابق أقرب .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشيّ أنّ رجلا قال : يا رسول‌الله إنّا نعطي أموالنا التماس الذكر فهل لنا في‌ذلك من أجر؟فقال رسول‌الله صلّى الله عليه و آله و سلّم : إنّ الله لا يقبل إلّا ممّن أخلص له . ثمّ تلا رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم هذه الاية « ألا لله الدين الخالص » .

و فيه أخرج ابن جرير من طريق جويبر عن ابن عبّاس « و الّذين اتّخذوا من دونه أولياء » الاية قال : اُنزلت في ثلاثة أحياء : عامر و كنانة و بني سلمة كانوا يعبدون الأوثان و يقولون : الملائكة بناته فقالوا : « إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زلفى » .

أقول : الاية مطلقة تشمل عامّة الوثنيّين ، و قول : « إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زلفى » قول جميعهم ، و كذا القول بالولد و لا تصريح في الاية بالقول بكون الملائكة بنات فالحقّ أنّ الخبر من التطبيق .

وفي الكافي والعلل بإسنادهما عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت : « آناء الليل ساجداً وقائما » الخ قال : يعني صلاة اللّيل .

و في الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ : «هل يستوي الّذين يعلمون و الّذين لا يعلمون إنّما يتذكّر اُولو الألباب » قال نحن الّذين يعلمون ، و عدوّنا الّذين لا يعلمون ، و شيعتنا اُولو الألباب .

اقول : وهذا المعنى مرويّ بطرق كثيرة عن الباقر و الصادق عليهما السلام، و هو جري و ليس من التفسير في شيء .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن سعد في طبقاته و ابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله : « أم من هو قانت آناء اللّيل ساجداً و قائما » قال : نزلت في عمّار بن ياسر .

أقول : و روى مثله عن جويبر عن عكرمة ، و روى عن جويبر عن ابن عبّاس أيضا أنّها نزلت في ابن مسعود و عمّار و سالم مولى أبي حذيفة ، و روى عن أبي نعيم و ابن عساكر عن ابن عمر أنّه عثمان و قيل غير ذلك ، و الجميع من التطبيق و ليس من النزول بالمعنى المصطلح عليه ، و السورة نازلة دفعة .

و في المجمع روى العيّاشيّ بالإسناد عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا نشرت الدواوين و نصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان و لم ينشر لهم ديوان . ثمّ تلا هذه الاية « إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

اقول : و روى ما في معناه في الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وآله في حديث .

☆ ☆ ☆

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١١) وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَلاَ ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدٰيهُمُ اللَّهُ وَ أُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠).

﴿ بيان ﴾

في الآيات نوع رجوع إلى أوّل الكلام و أمره ﷺ أن يبلّغهم أنّ الّذي يدعوهم إليه من التوحيد و إخلاص الدين لله هو مأمور به كأحدهم و يزيد أنّه مأمور أن يكون أوّل مسلم لما يدعو إليه أي يكون بحيث يدعو إلى ما قد أسلم له و آمن به قبل ، سواء أجابوا إلى دعوته أو ردّوها .

فعليهم أن لا يطمعوا فيه أن يخالف فعله قوله و سيرته دعوته فإنّه مجيب لربّه

مسلم له متصلّب في دينه خائف منه أن يعصيه ثمّ تنذر الكافرين و تبشّر المؤمنين بما أعدّ الله سبحانه لكلّ من الفريقين من عذاب أو نعمة .

قوله تعالى : « قل إنّي اُمرت أن أعبدالله مخلصا له الدين - إلى قوله - أوّل المسلمين » نحو رجوع إلى قوله تعالى في مفتتح السورة : « إنّا أنزلنا إليك الكتاب فاعبد الله مخلصاً له الدين » بداعي أن يؤيسهم من نفسه ، فلا يطمعوا فيه أن يترك دعوتهم و يوافقهم على الإشراك بالله كما يشير إليه أوّل سورة صٓ و آيات اُخر .

فكأنّه يقول : قل لهم إنّ الّذي تلوت عليكم من أمره تعالى بعبادته بإخلاص الدين - وقد وجّه به الخطاب إليّ - ليس المراد به مجرّد دعوتكم إلى ذلك بإقامتي في الخطاب مقام السامع فيكون من قبيل « إيّاك أعني و اسمعي ياجارة » بل أنا كأحدكم مأمور بعبادته مخلصا له الدين ، ولا ذلك فحسب ، بل مأمور بأن أكون أوّل المسلمين لما ينزل إليّ من الوحي فاُسلم له أوّلا ثمّ اُبلّغه لغيري - فأنا أخاف ربّي وأعبده بالإخلاص آمنتم به أو كفرتم فلا تطمعوا فيّ .

فقوله : « قل إنّي اُمرت أن أعبدالله مخلصا له الدين » إشارة إلى أنّه صلى الله عليه وآله يشارك غيره في الأمر بدين الإخلاص .

و قوله : « و اُمرت لأن أكون أوّل المسلمين » إشارة إلى أنّ في الأمر المتوجّه إليّ زيادة على ما توجّه إليكم من التكليف و هو أنّي اُمرت بما اُمرت وقد توجّه الخطاب إليّ قبلكم والغرض منه أن أكون أوّل من أسلم لهذا الأمر وآمن به .

قيل : اللّام في قوله : « لأن أكون » للتعليل و المعنى و اُمرت بذلك لأجل أن أكون أوّل المسلمين ، و قيل : اللّام زائدة كما تركت اللّام في قوله تعالى : « قل إنّي اُمرت أن أكون أوّل من أسلم » الأنعام : ١٤ .

و مآل الوجهين واحد بحسب المعنى فإنّ كونه صلى الله عليه وآله أوّل المسلمين يعطي عنوانا لإسلامه و عنوان الفعل يصحّ أن يجعل غاية للأمر بالفعل و أن يجعل متعلّقا للأمر فيؤمر به يقال : اضربه للتأديب ، و يقال : أدّبه بالضرب .

قال في الكشاف : و في معناه أوجه : أن أكون أوّل من أسلم في زماني و من قومي

لأنّه أوّل من خالف دين آبائه و خلع الأصنام و حطمها ، و أن أكون أوّل الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما ، و أن أكون أوّل من دعا نفسه إلى ما دعا غيره لأكون مقتدى بي في قولي و فعلي جميعا ولا تكون صفتي صفة الملوك الّذين يأمرون بما لا يفعلون ، و أن أفعل ما أستحقّ به الأوّليّة من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبّب انتهى .

و أنت خبير بأنّ الأنسب لسياق الآيات هو الوجه الثالث و هو الّذي قدّمناه و يلزمه سائر الوجوه .

قوله تعالى : « قل إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم » المراد بمعصية ربّه بشهادة السياق مخالفة أمره بعبادته مخلصا له الدين ، و باليوم العظيم يوم القيامة والآية كالتوطئة لمضمون الآية التالية :

قوله تعالى : « قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه » تصريح بأنّه ممتثل لأمر ربّه مطيع له بعد التكنية عنه في الآية السابقة ، وإيآس لهم أن يطمعوا فيه أن يخالف أمر ربّه .

و تقديم المفعول في قوله : « قل الله أعبد » يفيد الحصر ، و قوله : « مخلصا له ديني » يؤكّد معنى الحصر ، و قوله : « فاعبدوا ما شئتم من دونه » أمر تهديدي بمعنى أنّهم لا ينفعهم ذلك فإنّهم مصيبهم وبال إعراضهم عن عبادة الله بالإخلاص كما يشير إليه ذيل الآية « قل إنّ الخاسرين » الخ .

قوله تعالى : « قل إنّ الخاسرين الّذين خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة » الخ الخسر والخسران ذهاب رأس المال إمّا كلاّ أو بعضا والخسران أبلغ من الخسر ، و خسران النفس هو إيرادها مورد الهلكة والشقاء بحيث يبطل منها استعداد الكمال فيفوتها السعادة بحيث لا يطمع فيها وكذا خسارة الأهل .

وفي الآية تعريض للمشركين المخاطبين بقوله : «فاعبدوا ما شئتم من دونه » كأنّه يقول : فأيّاما عبدتم فإنّكم تخسرون أنفسكم بإيرادها بالكفر مورد الهلكة و أهليكم وهم خاصّتكم بحملهم على الكفر والشرك و هي الخسران بالحقيقة .

و قوله : « ألاذلك هو الخسران المبين » و ذلك لأنّ الخسران المتعلّق بالدنيا ـ وهو الخسران في مال أوجاه ـ سريع الزوال منقطع الآخر بخلاف خسران يوم القيامة الدائم الخالد فإنّه لازوال له ولا انقطاع .

على أنّ المال أو الجاه إذا زال بالخسران أمكن أن يخلفه آخر مثله أوخيرمنه بخلاف النفس إذا خسرت .

هذا على تقدير كون المراد بالأهل خاصّة الإنسان في الدنيا ، و قيل : المراد بالأهل من أعدّه الله في الجنّة للإنسان لوآمن و اتّقى من أزواج و خدم و غيرهم و هو أوجه و أنسب للمقام فإنّ النسب و كلّ رابطة من الروابط الدنيويّة الاجتماعيّة مقطوعة يوم القيامة قال تعالى : « فلا أنساب بينهم يومئذ » المؤمنون : ١٠١ و قال : « يوم لا تملك نفس لنفس شيأ » الانفطار : ١٩ إلى غير ذلك من الآيات .

و يؤيّده أيضا قوله تعالى : « فأمّا من اُوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا و ينقلب إلى أهله مسروراً » الانشقاق : ٩ .

قوله تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » الخ الظلل جمع ظلّة و هي ـ كما قيل ـ الستر العالي .

والمراد بكونها من فوقهم و من تحتهم إحاطتها بهم فإنّ المعهود من النار الجهتان والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و الّذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها و أنابوا إلى الله لهم البشرى » قال الراغب : الطاغوت عبارة عن كلّ متعدّ و كلّ معبود من دون الله ، و يستعمل في الواحد و الجمع . انتهى و الظاهر أنّ المراد بها في الآية الأوثان و كلّ معبود طاغ من دون الله .

ولم يقتصر على مجرّد اجتناب عبادة الطاغوت بل أضاف إليه قوله : « و أنابوا إلى الله » إشارة إلى أنّ مجرّد النفي لا يجدي شيأ بل الّذي ينفع الإنسان مجموع النفي و الإثبات : عبادة الله و ترك عبادة غيره وهو عبادته مخلصاً له الدين .

و قوله : « لهم البشرى » إنشاء بشرى و خبر لقوله : « والّذين اجتنبوا » الخ .

قوله تعالى : « فبشّر عباد الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه » إلى آخر الآية كان مقتضى الظاهر أن يقال : فبشّرهم غير أنّه قيل : فبشّر عباد و اُضيف إلى ضمير التكلّم لتشريفهم به ولتوصيفهم بقوله : « الّذين يستمعون القول»الخ .

و المراد بالقول بقرينة ما ذكر من الاتّباع ماله نوع ارتباط و مساس بالعمل فأحسن القول أرشده في إصابة الحقّ وأنصحه للإنسان ، والإنسان إذا كان ممّن يحبّ الحسن وينجذب إلى الجمال كان كلّما زاد الحسن زاد انجذابا فإذا وجد قبيحاوحسنا مال إلى الحسن ، و إذا وجد حسنا و أحسن قصد ماهو أحسن ، و أمّا لو لم يمل إلى الأحسن و انجمد على الحسن كشف ذلك عن أنّه لاينجذب إليه من حيث حسنه وإلّا زاد الانجذاب بزيادة الحسن .

فتوصيفهم باتّباع أحسن القول معناه أنّهم مطبوعون على طلب الحقّ و إرادة الرشد و إصابة الواقع فكلّما دار الأمر بين الحقّ و الباطل و الرشد و الغيّ اتّبعوا الحقّ والرشد و تركوا الباطل و الغيّ وكلمّا دارالأمر بين الحقّ و الأحقّ و الرشد وما هو أكثر رشدا أخذوا بالأحقّ الأرشد .

فالحقّ و الرشد هو مطلوبهم ولذلك يستمعون القول ولايردّون قولا بمجرّد ما قرع سمعهم اتّباعاً لهوى أنفسهم من غير أن يتدبّروا فيه و يفقهوه .

فقوله : « الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه » مُفاده أنّهم طالبوا الحقّ و الرشد يستمعون القول رجاء أن يجدوا فيه حقّا و خوفا أن يفوتهم شيء منه .

و قيل : المراد باستماع القول و اتّباع أحسنه استماع القرآن و غيره و اتّباع القرآن ، و قيل : المراد استماع أوامر الله تعالى و اتّباع أحسنها كالقصاص و العفو فيتّبعون العفو و إبداءالصدقات وإخفائها فيتّبعون الإخفاء ؛ والقولان من قبيل التخصيص من غير مخصّص .

وقوله : «اُولئك الّذين هداهم الله» إشارة إلى أنّ هذه الصفة هي الهداية الإلهيّة و هذه الهداية أعني طلب الحقّ و التهيّأ التامّ لاتّباع الحقّ أينما وجد هي الهداية الإجماليّة و إليها تنتهي كلّ هداية تفصيليّة إلى المعارف الإلهيّة .

وقوله : « واُولئك هم اُولو الألباب » أي ذووالعقول و يستفاد منه أنّ العقل هو الّذي به الاهتداء إلى الحقّ و آيته صفة اتّباع الحقّ ، وقد تقدّم في تفسير قوله :« و من يرغب عن ملّة إبراهيم إلّا من سفه نفسه » البقرة : ١٣٠ أنّه يستفاد منه أنّ العقل ما يتّبع به دين الله .

قوله تعالى : « أفمن حقّت عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار » ثبوت كلمة العذاب وجوب دخول النار بالكفر بقوله عند إهباط آدم إلى الأرض : «والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا اُولئك أصحاب النارهم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ و مافي معناه من الآيات.

ومقتضى السياق أنّ في الآية إضماراً يدلّ عليه قوله : «أفأنت تنقذ من في النار» والتقدير أفمن حقّت عليه كلمة العذاب ينجو منه وهو أولى من تقدير قولنا : خيرأم من وجبت عليه الجنّة .

و قيل : المعنى أفمن وجب عليه وعيده تعالى بالعقاب أفأنت تخلّصه من النار فاكتفى بذكر « من النار » عن ذكر الضمير العائد إلى المبتدء وجيء بالاستفهام مرّتين للتأكيد تنبيها على المعنى .

و قيل : التقدير أفأنت تنقذ من في النارمنهم فحذف الضمير ، وهو أردءالوجوه.

قوله تعالى : «لكن الّذين اتّقوا ربّهم لهم غرف من فوقها غرف مبنيّة تجري من تحتها الأنهار » الغرف جمع غرفة وهي المنزل الرفيع . قيل : و هذا في مقابلة قوله في الكافرين : « لهم من فوقهم ظلل من النار و من تحتهم ظلل » .

و قوله : « وعد الله » أي وعدهم الله ذلك وعداً فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله وقوله : « لا يخلف الله الميعاد » إخبار عن سنّته تعالى في مواعيده و فيه تطييب لنفوسهم.

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : «قل إنّ الخاسرين الّذين خسروا أنفسهم و أهليهم » يقول : غبنوا أنفسهم و أهليهم .

و في المجمع في قوله تعالى : « و الّذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها و أنابوا إلى ربّهم لهم البشرى» روى أبو بصير عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام أنّه قال : أنتم هم ومن‌أطاع جبّارا فقد عبده .

اقول : و هو من الجري .

و في الكافي : بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال : قال لي أبوالحسن موسى بن جعفر عليه‌السلام : يا هشام إنّ الله تبارك و تعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه فقال : « فبشّر عباد الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه اُولئك الّذين هداهم الله و اُولئك هم اُولو الألباب » .

و في الدّر المنثور أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله تعالى : « و الّذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها » قال : نزلت هاتان الآيتان في ثلاثة نفركانوا في الجاهليّة يقولون : لاإله إلاّ الله ، في‌زيد بن‌عمرو بن نفيل وأبي‌ذرّ الغفاريّ و سلمان الفارسيّ .

اقول : و رواه في المجمع عن عبدالله بن زيد ، و روى في الدّر المنثور أيضا عن ابن مردويه عن ابن عمر أنّها نزلت في سعيد بن زيد و أبي ذرّ و سلمان ، و روى أيضا عن جويبر عن جابر بن عبدالله أنّها نزلت في رجل من الأنصار أعتق سبعة مماليك لمّا نزل قوله تعالى : « لها سبعة أبواب » الآية ، والظاهر أنّ الجميع من تطبيق القصّة على الآية .

☆☆☆

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللّٰهِ أُولٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللّٰهِ ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللّٰهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللّٰهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللّٰهُ عَنْهُمْ أَسْوَءَ الَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللّٰهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللّٰهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (٣٧).

﴿ بيان ﴾

عود إلى بدء من الاحتجاج على ربوبيّته تعالى والقول في اهتداء المهتدين و ضلال الضالّين والمقايسة بين الفريقين و ما ينتهي إليه عاقبة أمر كلّ منهما ، و فيهامعنى هداية القرآن .

قوله تعالى : « ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض » إلى آخر الآية قال في المجمع : الينابيع جمع ينبوع وهوالّذي ينبع منه الماء يقال نبع الماء من موضع كذا إذا فارمنه ، والزرع ماينبت على غيرساق والشجر ماله ساقوأغصان والنبات يعمّ الجميع ، و هاج النبت يهيج هيجا إذا جفّ و بلغ نهايته في اليبوسة ، و الحطام فتات التبن و الحشيش . انتهى .

و قوله : « فسلكه ينابيع في الأرض » أي فأدخله في عيون و مجاري في الأرض هي كالعروق في الأبدان تنقل ما تحمله من جانب إلى جانب ، والباقي ظاهر والآية ـ كما ترى ـ تحتجّ على توحّده تعالى فيالربوبيّة .

قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » الخ لمّا ذكر في الآية السابقة أنّ فيما ذكره من إنزال الماء و إنبات النبات ذكرى لاُولي الألباب وهم عباده المتّقون وقد ذكر قبل أنّهم الّذين هداهم الله ذكر في هذه الآية أنّهم ليسوا كغيرهم من الضالّين و أوضح السبب في ذلك وهو أنّهم على نور من ربّهم يبصرون به الحقّ و في قلوبهم لين لا تعصي عن قبول ما يلقى إليهم من أحسن القول .

فقوله : « أفمن شرح الله صدره » خبره محذوف يدلّ عليه قوله : « فويل للقاسية قلوبهم » الخ أي كالقاسية قلوبهم والاستفهام للإنكار أي لا يستويان .

و شرح الصدر بسطه ليسع ما يلقى إليه من القول و إذ كان ذلك للإسلام و هو التسليم لله فيما أراد و ليس إلّا الحقّ كان معناه كون الإنسان بحيث يقبل ما يلقى إليه من القول الحقّ ولا يردّه ، و ليس قبولا من غير دراية وكيفما كان بل عن بصيرة بالحقّ و عرفان بالرشد و لذا عقّبه بقوله : «فهو على نور من ربّه » فجعله بحسب التمثيل راكب نور يسير عليه و يبصر ما يمرّ به في ساحة صدره الرحب الوسيع من الحقّ فيبصره ويميّزه من الباطل بخلاف الضالّ الّذي لا في صدره شرح فيسع الحقّ ولا هو راكب نور من ربّه فيبصر الحقّ ويميّزه .

و قوله : « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » تفريع على الجملة السابقة بما يدلّ على أنّ القاسية القلوب ـ وقساوة القلب وصلابته لازمة عدم شرح الصدر و عدم النور ـ لا يتذكّرون بآيات الله فلا يهتدون إلى ما تدلّ عليه من الحقّ ، و لذا عقّبه بقوله : « اُولئك في ضلال مبين » .

و في الآية تعريف الهداية بلازمها و هو شرح الصدر و جعله على نور من ربّه ، و تعريف الضلال بلازمه و هو قساوة القلب من ذكر الله .

و قد تقدّم في تفسير قوله : « و من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » الآية الأنعام : ١٢٥ كلام في معنى الهداية فراجع .

قوله تعالى : « الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني » إلى آخر الآية

كالإجمال بعد التفصيل بالنسبة إلى الآية السابقة بالنظر إلى ما يتحصّل من الآية في معنى الهداية و إن كانت بيانا لهداية القرآن .

فقوله : « الله نزّل أحسن الحديث » هو القرآن الكريم و الحديث هو القول كما في قوله تعالى : « فليأتوا بحديث مثله » الطور : ٣٤ ، و قوله : « فبأيّ حديث بعده يؤمنون » المرسلات : ٥٠ فهو أحسن القول لاشتماله على محض الحقّ الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، و هو كلامه المجيد .

و قوله : «كتابا متشابها » أي يشبه بعض أجزائه بعضا و هذا غير التشابه الّذي في المتشابه المقابل للمحكم فإنّه صفة بعض آيات الكتاب و هذا صفة الجميع .

و قوله : « مثاني » جمع مثنيّة بمعنى المعطوفة لانعطاف بعض آياته على بعض و رجوعه إليه بتبيّن بعضها ببعض و تفسير بعضها لبعض من غير اختلاف فيها بحيث يدفع بعضه بعضاً و يناقضه كما قال تعالى : « أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » النساء : ٨٢ .

و قوله : «تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربّهم» صفة الكتاب و ليس استئنافا ، و الاقشعرار تقبّض الجلد تقبّضا شديداً لخشية عارضة عن استماع أمر هائل أو رؤيته ، و ليس ذلك إلّا لأنّهم على تبصّر من موقف نفوسهم قبال عظمة ربّهم فإذا سمعوا كلامه توجّهوا إلى ساحة العظمة و الكبرياء فغشيت قلوبهم الخشية و أخذت جلودهم في الاقشعرار .

و قوله: «ثمّ تلين جلودهم و قلوبهم إلى ذكر الله» « تلين» مضمّنة معنى السكون و الطمأنينة و لذا عدّي بإلى و المعنى ثمّ تسكن و تطمئنّ جلودهم و قلوبهم إلى ذكر الله ليّنة تقبله أو تلين له ساكنة إليه .

و لم يذكر القلوب في الجملة السابقة عند ذكر الاقشعرار لأنّ المراد بالقلوب النفوس و لا اقشعرار لها و إنّما لها الخشية .

و قوله : « ذلك هدى الله يهدي به من يشاء » أي ما يأخذهم من اقشعرار الجلود من القرآن ثمّ سكون جلودهم و قلوبهم إلى ذكر الله هو هدى الله و هذا تعريف آخر

للهداية بلازمها .

و قوله : « يهدي به من يشاء من عباده » أي يهدي بهداه من يشاء من عباده و هو الّذي لم يبطل استعداده للاهتداء و لم يشغل بالموانع عنه كالفسق والظلم و في السياق إشعار بأنّ الهداية من فضله وليس بموجب فيها مضطرّ إليها .

و قيل : المشار إليه بقوله : « ذلك هدى الله » القرآن و هو كما ترى ، و قد استدلّ بالآيات على أنّ الهداية من صنع الله لا يشاركه فيها غيره، و الحقّ أنّها خالية عن الدلالة على ذلك وإن كان الحقّ هو ذلك بمعنى كونها لله سبحانه أصالة ولمن اختاره من عباده لذلك تبعاً كما يستفاد من مثل قوله:«قل إنّ هدى الله هو الهدى» البقرة:١٢٠ و قوله : « إنّ علينا للهدى » الليل :١١، و قوله : « و جعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ ، و قوله: « و إنّك لتهدي إلى صراط مستقيم » الشورى :٥٢ .

فالهداية كلّها لله إمّا بلا واسطة أو بواسطة الهداة المهديّين من خلقه و على هذا فمن أضلّه من خلقه بأن لم يهده بالواسطة و لا بلا واسطة فلا هادي له و ذلك قوله في ذيل الاية : « و من يضلل الله فما له من هاد » و سيأتي الجملة بعد عدّة آيات و هي متكرّرة في كلامه تعالى .

قوله تعالى : « أفمن يتّقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة و قيل للظالمين ذوقوا ماكنتم تكسبون » مقايسة بين أهل العذاب يوم القيامة والآمنين منه و الفريقان هما أهل الضلال و أهل الهدى ولذا عقّب الآية السابقة بهذه الاية .

و الاستفهام للإنكار و خبر « من» محذوف و التقدير كمن هو في أمن منه ، ويوم القيامة متعلّق بيتّقي و المعنى أفمن يتّقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده الّتي بها كان يتّقي المكاره مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن من العذاب لا يصيبه مكروه. كذا قيل .

و قيل : الاتّقاء بوجهه بالمعنى المذكور لا وجه له لأنّ الوجه ليس ممّا يتّقى به بل المراد الاتّقاء بكلّيّته أو بخصوص وجهه سوء عذاب يوم القيامة و يوم القيامة قيد للعذاب و المراد عكس الوجه السابق ، و المعنى أفمن يتّقي سوء العذاب الّذي يوم

القيامة في الدنيا بتقوى الله كالمصرّ على كفره ، و لا يخلو من التكلّف .

و قوله : «و قيل للظالمين ذوقوا ماكنتم تكسبون» القول لملائكة النار ، والظاهر أنّ الجملة بتقدير قد أوبدونه و الأصل وقيل لهم ذوقوا الخ لكن وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على علّة الحكم و هي الظلم .

قوله تعالى : « كذّب الّذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » أي من الجهة الّتي لا يحتسبون ففوجؤا و اُخذوا على غفلة و هو أشدّ الأخذ ، و في الآية و ما بعدها بيان لما أصاب بعض الكفّار من عذاب الخزي ليكون عبرة لغيرهم .

قوله تعالى : « فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا و لعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » الخزي هو الذلّ و الصغار ، و قد أذاقهم الله ذلك في ألوان من العذاب أنزلها عليهم كالغرق و الخسف و الصيحة و الرجفة و المسخ و القتل .

قوله تعالى : « ولقدضربنا للناس فيهذا القرآن منكلّ مثل لعلّهم يتذكّرون» أي ضربنا لهم منكلّ نوع من الأمثال شيأ لعلّهم يتنبّهونو يعتبرون ويتّعظون بتذكّر ما تتضمّنه .

قوله تعالى : « قرآنا عربيّا غير ذي عوج لعلّهم يتّقون » العوج الانحراف و الانعطاف، و «قرآنا عربيّا » منصوب على المدح بتقدير أمدح أو أخصّ و نحوه أوحال معتمد على الوصف .

قوله تعالى : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل هل يستويان » الخ قال الراغب : **الشكس** ـ بالفتح فالكسر ـ سيّىء الخلق ، و قوله: « شركاء متشاكسون » أي متشاجرون لشكاسة خلقهم . انتهى و فسّروا السلم بالخالص الّذي لايشترك فيهكثيرون .

مثل ضربه الله للمشرك الّذي يعبد أربابا و آلهة مختلفين فيشتركون فيه و هم متنازعون فيأمره هذا بما ينهاه عنه الآخر و كلّ يريد أن يتفرّد فيه و يخصّه بخدمة نفسه ، و للموحّد الّذي هوخالص لمخدوم واحد لا يشاركه فيه غيره فيخدمه فيما يريد منه من غير تنازع يؤدّي إلى الحيرة فالمشرك هو الرجل الّذي فيه شركاء متشاكسون

و الموحّد هو الرجل الّذي هو سلم لرجل. لا يستويان بل الّذي هو سلم لرجل أحسن حالا من صاحبه .

و هذا مثل ساذج ممكن الفهم لعامّة الناس لكنّه عند المداقّة يرجع إلى قوله تعالى : « لوكان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا » الأنبياء : ٢٢ و عاد برهاناً على نفي تعدّد الأرباب و الآلهة .

و قوله : « الحمدلله » ثناء لله بما أنّ عبوديّته خير من عبوديّة من سواه .

و قوله : « بل أكثرهم لا يعلمون » مزيّة عبادته على عبادة غيره على ماله من الظهور التامّ لمن له أدنى بصيرة .

قوله تعالى : « إنّك ميّت وإنّهم ميّتون ثمّ إنّكم يوم القيامة عند ربّكم تختصمون»الآية الاُولى تمهيد لمايذكر في الثانية من اختصامهم يوم القيامة عند ربّهم و الخطاب في «إنّكم» للنبيّ صلى الله عليه وآله و اُمّته أو المشركين منهم خاصّة و الاختصام ـ كما في المجمع ـ ردّ كلّ واحد من الاثنين ما أتى به الآخر على وجه الإنكار عليه .

و المعنى إنّ عاقبتك و عاقبتهم الموت ثمّ إنّكم جميعا يوم القيامة بعد ما حضرتم عند ربّكم تختصمون و قد حكى ممّا يلقيه النبيّ صلى الله عليه وآله « و قال الرسول يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجورا » الفرقان : ٣٠ .

و الآيتان عامّتان بحسب لفظهما لكنّ الآيات الأربع التالية تؤيّد أنّ المراد بالاختصام ما يقع بين النبيّ صلى الله عليه وآله و بين الكافرين من اُمّته يوم القيامة .

قوله تعالى : « فمن أظلم ممّن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنّم مثوى للكافرين» في الاية و ما بعدها مبادرة إلى ذكر ماينتهي إليه أمر اختصامهم يوم القيامة و تلويح إلى ما هو نتيجة القضاء بينهمكأنّه قيل:و نتيجة ما يقضى به بينكم معلومة اليوم و أنّه من هو الناجي منكم ؟ و من هو الهالك ؟ فإنّ القضاء يومئذيدور مدار الظلم و الإحسان و لا أظلم من الكافر و المؤمن متّق محسن و الظلم إلى النار و الإحسان إلى الجنّة . هذا ما يعطيه السياق .

فقوله: « فمن أظلم ممّن كذب على الله » أي افترى عليه بأن ادّعى أنّ له شركاء

و الظلم يعظم بعظم من تعلّق به و إذا كان هو الله سبحانه كان أعظم من كلّ ظلم و مرتكبه أظلم من كلّ ظالم .

و قوله : «وكذّب بالصدق إذ جاءه» المراد بالصدق الصادق من النباء و هو الدين الالهيّ الّذي جاء به الرسول بقرينة قوله : « إذ جاءه » .

و قوله : «أليس في جهنّم مثوى للمتكبّرين » المثوى اسم مكان بمعنى المنزل و المقام ، و الاستفهام للتقرير أي إنّ في جهنّم مقام هؤلاء الظالمين لتكبّرهم على الحقّ الموجب لافترائهم على الله و تكذيبهم بصادق النباء الّذي جاء به الرسول .

و الآية خاصّة بمشركي عهد النبيّ صلى الله عليه وآله أو بمشركي اُمّته بحسب السياق و عامّة لكلّ من ابتدع بدعة و ترك سنّة من سنن الدين .

قوله تعالى : « و الّذي جاء بالصدق و صدّق به اُولئك هم المتّقون » المراد بالمجيء بالصدق الإتيان بالدين الحقّ و المراد بالتصديق به الإيمان به و الّذي جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله .

و قوله : « اُولئك هم المتّقون » لعلّ الإشارة إلى الّذي جاء به بصيغة الجمع لكونه جمعا بحسب المعنى و هو كلّ نبيّ جاء بالدين الحقّ وآمن بما جاء به بل وكلّ مؤمن آمن بالدين الحقّ ودعى إليه فإنّ الدعوة إلى الحقّ قولا و فعلا من شؤن اتّباع النبيّ قال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني » يوسف : ١٠٨ .

قوله تعالى : « لهم ما يشاؤن عند ربّهم ذلك جزاء المحسنين » هذا جزاؤهم عند ربّهم و هو أنّ لهم ما تتعلّق به مشيّتهم فالمشيّة هناك هي السبب التامّ لحصول ما يشاؤه الإنسان أيّامّا كان بخلاف ما عليه الأمر في الدنيا فإنّ حصول شيء من مقاصد الحياة فيها يتوقّف ـ مضافا إلى المشيّة ـ على عوامل وأسباب كثيرة منها السعي والعمل المستمدّ من الاجتماع و التعاون .

فالآية تدلّ أوّلا على إقامتهم في دار القرب و جوار ربّ العالمين ، و ثانيا أنّ لهم ما يشاؤن فهذان جزاء المتّقين وهم المحسنون فإحسانهم هو السبب في إيتائهم الأجر

المذكور ، وهذه هي النكتة في إقامة الظاهر مقام الضمير في قوله : «وذلك جزاء المحسنين» وكان مقتضى الظاهر أن يقال : وذلك جزاؤهم .

و توصيفهم بالإحسان و ظاهره العمل الصالح أو الاعتقاد الحقّ و العمل الحسن جميعا يشهد أنّ المراد بالتصديق المذكور هو التصديق قولا و فعلا . على أنّ القرآن لا يسمّي تارك بعض ما أنزله الله من حكم مصدّقا به .

قوله تعالى : « ليكفّر الله عنهم أسوء الّذي عملوا » إلى آخر الآية و من المعلوم أنّه إذا كفّر أسوء أعمالهم كفّر مادون ذلك ، و المراد بأسوء الّذي عملوا ما هو كالشرك والكبائر .

قال في مجمع البيان في الآية : أي أسقط الله عنهم عقاب الشرك و المعاصي الّتي فعلوها قبل ذلك بإيمانهم وإحسانهم و رجوعهم إلى الله تعالى انتهى وهو حسن من جهة تعميم الأعمال السيّئة ، ومن جهة تقييد التكفير بكونه قبل ذلك بالإيمان والإحسان و التوبة فإنّ الآية تبيّن أثر تصديق الصدق الّذي أتاهم وهو تكفير السيّآت بالتصديق و الجزاء الحسن في الآخرة .

وقوله : « ويجزيهم أجرهم بأحسن الّذي كانوا يعملون » .

قيل : المراد أنّه ينظر إلى أعمالهم فيجازيهم في أحسنها جزاءه اللائق به و في غير الأحسن يجازيهم جزاء الأحسن فالباء للمقابلة نحو بعت هذا بهذا .

ويمكن أن يقال : إنّ المراد أنّه ينظر إلى أرفع أعمالهم درجة فيترفّع درجتهم بحسبه فلا يضيع شيء ممّا هو آخر ما بلغه عملهم من الكمال لكن في جريان نظير الكلام في تكفير الأسوء خفاء .

و قيل : صيغة التفضيل في الآية «أسوء» و « أحسن » مستعملة في الزيادة المطلقة من غير نظر إلى مفضّل عليه فإنّ معصية الله كلّها أسوء و طاعته كلّها أحسن .

قوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده ويخوّفونك بالّذين من دونه» المراد بالّذين من دونه آلهتهم من دون الله على ما يستفاد من السياق ، والمراد بالعبد من مدحه الله تعالى في الآيات السابقة و يشمل النبيّ ﷺ شمولا أوّليّا .

والاستفهام للتقرير والمعنى هو يكفيهم ، و فيه تأمين للنبي صلى الله عليه وآله قبال تخويفهم إيّاه بآلهتهم وكناية عن وعده بالكفاية كما صرّح به في قوله : « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » البقرة : ١٣٧ .

قوله تعالى : « و من يضلل الله فما له من هاد ومن يهدالله فما له من مضلّ » الخ جملتان كالمتعاكستين مرسلتان إرسال الضوابط الكلّيّة ولذا جيء فيهما باسم الجلالة وكان من قبيل وضع الظاهر موضع الضمير .

و في تعقيب قوله : « أليس الله بكاف » الخ بقوله : « و من يضلل» الخ إشارة إلى أنّ هؤلاء المخوّفين لا يهتدون بالإيمان أبدا ولن ينجح مسعاهم وأنّهم لن ينالوا بغيتهم ولا اُمنيّتهم من النبي صلى الله عليه وآله فإنّ الله لن يضلّه وقد هداه .

وقوله : « أليس الله بعزيز ذي انتقام » استفهام للتقرير أي هو كذلك ، وهو تعليل ظاهر لقوله : « ومن يضلل الله » الخ فإنّ عزّته و كونه ذا انتقام يقتضيان أن ينتقم ممّن جحد الحقّ وأصرّ على كفره فيضلّه ولاهادي يهديه لأنّه تعالى عزيز لا يغلبه فيما يريد غالب ، و كذا إذا هدى عبداً من عباده لتقواه وإحسانه لم يقدر على إضلاله مضلّ .

و في التعليل دلالة على أنّ الإضلال المنسوب إلى الله تعالى هو ما كان على نحو المجازاة والانتقام دون الضلال الابتدائيّ وقد مرّ مرارا .

﴿ بحث روائي ﴾

عن روضة الواعظين للمفيد روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قرء « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه » فقال : إنّ النور إذا وقع في القلب انفسح له وانشرح. قالوا : يا رسول الله فهل لذلك علامة يعرف بها ؟ قال : التجافي عن دار الغرور ، والانابة إلى دار الخلود ، و الاستعداد للموت قبل نزول الموت .

اقول : ورواه في الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن عبدالله بن مسعود وعن الحكيم الترمذيّ عن ابن عمر ، و عن ابن جرير وغيره عن قتادة .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : «أفمن شرح الله صدره » الآية قال : نزلت في أميرالمؤمنين عليه السلام .

اقول : و نزول السورة دفعة لايلائمه كما مر في نظيره .

و في الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قالوا : يا رسول الله لوحد ثتنا فنزل : «الله نزل أحسن الحديث» .

اقول : و هو من التطبيق .

و في المجمع في قوله تعالى : « تقشعر منه جلود » الآية روي عن العباس بن عبد المطلب أن النبي صلى الله عليه وآله قال : إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت[1] عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « قرآناعربيا غير ذيعوج » أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله: « قرآناعربياغير ذي عوج »قال : غير مخلوق .

اقول : الآية تأبى عن الانطباق على الرواية و قد تقدم كلام في معنى الكلام في ذيل قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » البقرة : ٢٥٣ في الجزء الثاني من الكتاب .

و في المجمع في قوله تعالى : « و رجلا سلما لرجل » روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن علي أنه قال : أنا ذلك الرجل السلم لرسول الله صلى الله عليه وآله .

اقول: ورواه أيضا عن العياشي بإسناده عن أبي خالد عن أبي جعفر عليه السلام وهو من الجري ، و المثل عام .

و فيه في قوله تعالى : « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » قال ابن عمر : كنا نرى أن هذه فينا و في أهل الكتابين و قلنا : كيف نختصم نحن و نبينا واحد و كتابنا واحد ؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعلمت أنها فينا نزلت.

و قال أبو سعيد الخدري : كنا نقول : إن ربنا واحد و نبينا واحد و ديننا

(١) أى تناثرت .

واحد فما هذه الخصومة ؟ فلمّا كان يوم صفّين و شدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم هو هذا .

اقول : و روى في الدرّ المنثور الحديث الأوّل بطرق مختلفة عن ابن عمر وفي ألفاظها اختلاف و المعنى واحد ، ورواه أيضا عن عدّة من أصحاب الجوامع عن إبراهيم النخعيّ ، وروى مايقرب منه بطريقين عن الزبير بن العوّام ، و روى الحديث الثاني عن سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدريّ .

و الأحاديث تعارض ما روي أنّ الصحابة مجتهدون مأجورون إن أصابوا و إن أخطأوا .

و في المجمع في قوله تعالى : « و الّذي جاء بالصدق و صدّق به » قيل : الّذي جاء بالصدق محمّد صلّى الله عليه وآله وصدّق به عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو المرويّ عن أئمّة الهدى من آل محمّد عليهم السلام .

اقول : و رواه في الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن أبي هريرة ، و الظاهر أنّه من الجري نظرا إلى قوله في ذيل الآية « اُولئك هم المتّقون » .

و روي من طرقهم أنّ الّذي صدّق به أبوبكر وهو أيضا من تطبيق الراوي ، و روي أنّ الّذي جاء به جبريل و الّذي صدّق به محمّد صلّى الله عليه وآله و هو أيضا تطبيق غير أنّ السياق يدفعه فإنّ الآيات مسوقة لوصف النبيّ والمؤمنين و جبريل أجنبيّ عنه لاتعلّق للكلام به .

☆☆☆

وَ لَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ قُلْ اَفَرَاَيْتُم مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ اِنْ اَرٰادَنِيَ اللّٰهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كٰاشِفٰاتُ ضُرِّهِ اَوْ اَرٰادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكٰاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يٰا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلٰى مَكٰانَتِكُمْ اِنِّي عٰامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ (٤٠) اِنّٰا اَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ الْكِتٰابَ لِلنّٰاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدٰى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَاِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ مٰا اَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اَللّٰهُ يَتَوَفَّى الْاَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنٰامِهٰا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضٰى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْاُخْرٰى اِلٰى اَجَلٍ مُسَمًّى اِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) اَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ شُفَعٰاءَ قُلْ اَوَ لَوْ كٰانُوا لٰا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَ لٰا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلّٰهِ الشَّفٰاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَ الْاَرْضِ ثُمَّ اِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَ اِذٰا ذُكِرَ اللّٰهُ وَحْدَهُ اشْمَاَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لٰا يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ وَ اِذٰا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ اِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللّٰهُمَّ فٰاطِرَ السَّمٰوٰاتِ وَ الْاَرْضِ عٰالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَةِ اَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبٰادِكَ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَ لَوْ اَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مٰا فِي الْاَرْضِ

جَميعًا وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَ بَدٰالَهُمْ مِنَ اللّٰهِ ماٰ لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَ بَدٰالَهُمْ سَيِّئاٰتُ ماٰكَسَبُوا وَ حاٰقَ بِهِمْ ماٰ كاٰنُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤٨) فَاِذٰا مَسَّ الْاِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعاٰناٰ ثُمَّ اِذٰا خَوَّلْناٰهُ نِعْمَةً مِنّاٰ قاٰلَ اِنَّماٰ اُوتيتُهُ عَلٰى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قاٰلَهَا الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَماٰ اَغْنى عَنْهُمْ ماٰ كاٰنُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَاَصاٰبَهُمْ سَيِّئاٰتُ ماٰ كَسَبُوا وَ الَّذينَ ظَلَمُوا مِنْ هٰؤُلاٰءِ سَيُصيبُهُمْ سَيِّئاٰتُ ماٰكَسَبُوا وَ ماٰ هُمْ بِمُعْجِزينَ (٥١) أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا اَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاٰءُ وَ يَقْدِرُ اِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰياٰتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) .

﴿ بيان ﴾

في الآيات كرّة اُخرى على المشركين بالاحتجاج على توحّده تعالى في الربوبيّة وأنّه لا يصلح لها شركاؤهم و أنّ الشفاعة الّتي يدّعونها لشركائهم لا يملكها إلّا الله سبحانه وفيها اُمور اُخر متعلّقة بالدعوة من موعظة و إنذار وتبشير .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله » إلى آخر الآية شروع في إقامة الحجّة وقد قدّم لها مقدّمة تبتني الحجّة عليها وهي مسلّمة عند الخصم وهي أنّ خالق العالم هو الله سبحانه فإنّ الخصم لا نزاع له في أنّ الخالق هو الله وحده لا شريك له وإنّما يدّعي لشركائه التدبير دون الخلق.

وإذا كان الخلق إليه تعالى فما في السماوات والأرض من عين ولا أثر إلّا وينتهي

وجوده إليه تعالى فما يصيب كلّ شيء من خير أو شرّ كان وجوده منه تعالى و ليس لأحد أن يمسك خيراً يريده تعالى له أو يكشف شرّاً يريده تعالى له لأنّه من الخلق والإيجاد ولا شريك له تعالى في الخلق والإيجاد حتّى يزاحمه في خلق شيء أو يمنعه من خلق شيء أو يسبقه إلى خلق شيء و التدبير نظم الاُمور و ترتيب بعضها على بعض خلق و إيجاد فالله الخالق لكلّ شيء كاف في تدبير أمر العالم لأنّه الخالق لكلّ شيء و ليس وراء الخلق شيء حتّى يتوهّم استناده إلى غيره فهو الله ربّ كلّ شيء و إلهه لا ربّ سواه ولا إله غيره .

فقوله : « قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله » أي أقم الحجّة عليهم بانياً لها على هذه المقدّمة المسلّمة عندهم أنّ الله خالق كلّ شيء وقل مفرّعاً عليه أخبروني عمّا تدعون من دون الله ، و التعبير عن آلهتهم بلفظة « ما » دون « من » و نحوه يفيد تعميم البيان للأصنام و أربابها جميعا فإنّ الخواصّ منهم و إن قصروا العبادة على الأرباب من الملائكة و غيرهم و اتّخذوا الأصنام قبلة و ذريعة إلى التوجّه إلى أربابها لكن عامّتهم ربّما أخذوا الأصنام نفسها أربابا وآلهة يعبدونها ونتيجة الحجّة عامّة تشمل الجميع.

و قوله : « إن أرادني الله بضرّ هل هنّ كاشفات ضرّه أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته » الضرّ كالمرض و الشدّة و نحوهما ، و ظاهر مقابلته الرحمة عمومه لكلّ مصيبة ، و إضافة الضرّ و الرحمة إلى ضميره تعالى في « كاشفات ضرّه » و « ممسكات رحمته» لحفظ النسبة لأنّ المانع من كشف الضرّ و إمساك الرحمة هو نسبتهما إليه تعالى .

و تخصيص الضرّ و الرحمة به ﷺ مع عموم الحجّة له و لغيره لكونه المخاصم الأصيل لهم وقد خوّفوه بآلهتهم من دون الله .

و إرجاع ضمير الجمع المؤنّث إلى ما يدعونه من دون الله لتغليب جانب غير اُولي العقل من الأصنام و هو يؤيّد ما قدّمناه في قوله : « أفرأيتم ما تدعون من دون الله » أنّ التعبير بما لتعميم الحجّة للأصنام و أربابها .

و قوله : « قل حسبي الله» أمر بالتوكّل عليه تعالى كما يدلّ عليه قوله بعده : « عليه يتوكّل المتوكّلون » و هو موضوع موضع نتيجة الحجّة كأنّه قيل : قل لهم :

إنّي اتّخذت الله وكيلا لأنّ أمر تدبيري إليه كما أنّ أمر خلقي إليه فهو في معنى قولنا : فقد دلّت الحجّة على ربوبيّته و صدّقت ذلك عملاً باتّخاذه وكيلا في اُموري.

وقوله : «عليه يتوكّل المتوكّلون» تقديم الظرف على متعلّقه للدلالة على الحصر أي عليه يتوكّلون لا على غيره ، وإسناد الفعل إلى الوصف من مادّته للدلالة على كون المراد المتوكّلين بحقيقة معنى التوكّل ففي الجملة ثناء عليه تعالى بأنّه الأهل للتوكّل عليه يتوكّل أهل البصيرة في التوكّل فلا لوم عليّ إن توكّلت عليه وقلت: حسبي الله.

قوله تعالى : « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل ـ إلى قوله ـ عذاب مقيم » المكانة هي المنزلة و القدر وهي في المعقولات كالمكان في المحسوسات فأمرهم بأن يعملوا على مكانتهم معناه أمرهم أن يستمرّوا على الحالة الّتي هم عليها من الكفر و العناد والصدّ عن سبيل الله .

وقوله : « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه » الظاهر أنّ «من» استفهاميّة لاموصولة لظهور العلم فيما يتعلّق بالجملة لا بالمفرد .

وقوله : « ويحلّ عليه عذاب مقيم » أي دائم و هو المناسب للحلول ، و تفكيك أمر العذابين يشهد أنّ المراد بالأوّل عذاب الدنيا وبالثاني عذاب الآخرة ،وفي الكلام أشدّ التهديد .

و المعنى قل مخاطباً للمشركين من قومك : يا قوم اعملوا ـ مستمرّين ـ على حالتكم الّتي أنتم عليها من الكفر و العناد إنّي عامل ـ كما اُؤمر غير منصرف عنه ـ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يذلّه ؟ وهو عذاب الدنيا كما في يوم بدر ويحلّ عليه ولا يفارقه عذاب دائم و هو عذاب الآخرة .

قوله تعالى : « إنّا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحقّ » إلى آخر الآية . في مقام التعليل للأمر الّذي في الآية السابقة ، و اللاّم في قوله : « للناس » للتعليل أي لأجل الناس أن تتلوه عليهم وتبلّغهم ما فيه ، و الباء في قوله : «بالحقّ» للملابسة أي ملابسا للحقّ لايشوبه باطل .

وقوله : « فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه و من ضلّ فإنّما يضلّ عليها » أي

يتفرّع على هذا الإنزال أنّ من اهتدى فإنّما يعود نفعه من سعادة الحياة و ثواب الدار الآخرة إلى نفسه ، و من ضلّ و لم يهتد به فإنّما يعود شقاؤه و وباله من عقاب الدار الآخرة إلى نفسه فالله سبحانه أجلّ من أن ينتفع بهداهم أو يتضرّر بضلالهم .

و قوله : « و ما أنت عليهم بوكيل » أي مفوّضاً إليه أمرهم قائما بتدبير شؤنهم حتّى توصل ما فيه من الهدى إلى قلوبهم .

و المعنى إنّما أمرناك أن تهدّدهم بما قلنا لأنّا نزّلنا عليك الكتاب بالحقّ لأجل أن تقرأه على الناس لاغير فمن اهتدى منهم فإنّما يعود نفعه إلى نفسه ومن ضلّ و لم يهتد به فإنّما يعود ضرره إلى نفسه و ما أنت وكيلا من قبلنا عليهم تدبّر شؤنهم فتوصل الهدى إلى قلوبهم فليس لك من الأمر شيء .

قوله تعالى : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » إلى آخر الآية قال في المجمع: التوفّي قبض الشيء على الإيفاء و الإتمام يقال : توفّيت حقّي من فلان و استوفيته بمعنى . انتهى . تقديم المسند إليه في الآية يفيد الحصر أي هو تعالى المتوفّي لها لاغير و إذا انضمّت الآية إلى مثل قوله تعالى : « قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي و كّل بكم» السجدة : ١١ ، و قوله : « حتّى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا » الأنعام : ٦١ أفادت معنى الأصالة والتبعيّة أي إنّه تعالى هو المتوفّي بالحقيقة وملك الموت والملائكة الّذين هم أعوانه أسباب متوسّطة يعملون بأمره .

و قوله : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » المراد بالأنفس الأرواح المتعلّقة بالأبدان لا المجموع الأرواح والأبدان لأنّ المجموع غير مقبوض عند الموت و إنّما المقبوض هو الروح يقبض من البدن بمعنى قطع تعلّقه عن البدن تعلّق التصرّف و التدبير والمراد بموتها موت أبدانها إمّا بتقدير المضاف أو بنحو المجاز العقليّ ، و كذا المراد بمنامها .

و قوله : « و الّتي لم تمت في منامها » معطوف على الأنفس في الجملة السابقة ، و الظاهر أنّ المنام اسم زمان وفي منامها متعلّق بيتوفّى والتقدير ويتوفّى الأنفس الّتي لم تمت في وقت نومها .

ثمّ فصّل تعالى في القول في الأنفس المتوفّاة في وقت النوم فقال : « فيمسك الّتي

قضى عليها الموت ويرسل الاُخرى إلى أجل مسمّى »أي فيحفظ النفس الّتي قضى عليها الموت كما يحفظ النفس الّتي توفّاها حين موتها ولا يردّها إلى بدنها ، و يرسل النفس الاُخرى الّتي لم يقض عليها الموت إلى بدنها إلى أجل مسمّى تنتهي إليه الحياة .

و جعل الأجل المسمّى غاية للإرسال دليل على أنّ المراد بالإرسال جنسه بمعنى أنّه يرسل بعض الأنفس إرسالاً واحداً و بعضها إرسالا بعد إرسال حتّى ينتهي إلى الأجل المسمّى .

و يستفاد من الآية أوّلا أنّ النفس موجود مغاير للبدن بحيث تفارقه وتستقلّ عنه و تبقى بحيالها .

و ثانيا أنّ الموت و النوم كلاهما توفّ و إن افترقا في أنّ الموت توفّ لاإرسال بعده و النوم توفّ ربّما كان بعده إرسال .

ثمّ تمّم الاية بقوله : « إنّ في ذلك لايات لقوم يتفكّرون » فيتذكّرون أنّ الله سبحانه هو المدبّر لأمرهم و أنّهم إليه راجعون سيحاسبهم على ما عملوا .

قوله تعالى : « أم اتّخذوا من دون الله شفعاء » الخ « أم» منقطعة أي بل اتّخذ المشركون من دون الله شفعاء وهم آلهتهم الّذين يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه كما قال في أوّل السورة : « ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى » و قال : « وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عندالله » يونس : ١٨ .

و قوله : « قل أو لو كانوا لا يملكون شيأ و لا يعقلون » أمر بأن يردّه عليهم بالمناقشة في إطلاق كلامهم فإنّ من البديهيّ أنّ الشفاعة تتوقّف على علم في الشفيع يعلم به ما يريد ؟ و ممّن يريد ؟ و لمن يريد ؟ فلامعنى لشفاعة الجماد الّذي لاشعور له و كذا تتوقّف على أن يملك الشفيع الشفاعة و يكون له حقّ أن يشفع ولاملك لغير الله إلّا أن يملّكه الله شيأ ويأذن له في التصرّف فيه فقولهم بشفاعة أوليائهم مطلقا الشامل لما لايملكونه ولاعلم لهم بإذنه تعالى لهم فيها تخرّص .

فالاستفهام في «أولو كانوا » الخ للإنكار والمعنى قل لهم : هل تتّخذونهم شفعاء لكم و لو كانوا لا يملكون من عند أنفسهم شيأ كالملائكة ولا يعقلون شيأ كالأصنام؟فإنّه سفه .

قوله تعالى : « قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات و الأرض » الخ توضيح و تأكيد لما مرّ من قوله : « قل أو لو كانوا لا يملكون شيأ » و اللاّم في « لله » للملك ، وقوله : « له ملك السماوات و الأرض » في مقام التعليل للجملة السابقة و المعنى كلّ شفاعة فإنّها مملوكة لله فإنّه المالك لكلّ شيء إلّا أن يأذن لأحد في شيء منها فيملّكه إيّاها ، و أمّا استقلال بعض عباده كالملائكة بملك الشفاعة مطلقا كما يقولون فممّا لا يكون قال تعالى : « ما من شفيع إلّا من بعد إذنه » يونس : ٣ .

و للآية معنى آخر أدقّ إذا انضمّت إلى مثل قوله تعالى : « ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيع » الأنعام : ٥١ وهو أنّ الشفيع بالحقيقة هو الله سبحانه وغيره من الشفعاء لهم الشفاعة بإذن منه فقد تقدّم في بحث الشفاعة في الجزء الأوّل من الكتاب أنّ الشفاعة ينتهي إلى توسّط بعض صفاته تعالى بينه وبين المشفوع له لإصلاح حاله كتوسّط الرحمة والمغفرة بينه و بين عبده المذنب لانجائه من وبال الذنب وتخليصه من العذاب .

و الفرق بين هذا الملك و ما في الوجه السابق أنّ المالك لا يتّصف بمملوكه في الوجه السابق كما في ملك زيد للدار بخلاف الملك في هذا الوجه فإنّ المالك فيه يتّصف بمملوكه كملك زيد الشجاع لشجاعته .

و قوله : « ثمّ إليه ترجعون» تعليل آخر لكونه يملك الشفاعة جميعا الدالّ على الحصر و ذلك أنّ الشفاعة إنّما يملكها الّذي ينتهي إليه أمر المشفوع له إن شاء قبلها و أصلح حال المشفوع له وأمّا غيره فإنّما يملكها إذا رضي بها وأذن فيها و الله سبحانه هو الّذي يرجع إليه العباد دون الّذين يدعون من دون الله فالله هو المالك للشفاعة جميعا فقولهم بكون أوليائهم شفعاء لهم مطلقا ثمّ عبادتهم لهم كذلك بناء بلا مبنى يعتمد عليه .

و قيل : قوله : « ثمّ إليه ترجعون » تهديد لهم كأنّه قيل : ثمّ إليه ترجعون فتعلمون أنّهم لا يشفعون لكم و يخيب سعيكم في عبادتهم .

و قيل: يحتمل أن يكون تنصيصا على مالكيّة الآخرة الّتي فيها معظم نفع الشفاعة و إيماء إلى انقطاع الملك الصوري عمّا سواه تعالى ، و الوجه ما قدّمناه .

قوله تعالى : « و إذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الّذين لا يؤمنون بالآخرة»

الخ المراد من ذكره تعالى وحده جعله مفردا بالذكر من غير ذكر آلهتهم و من مصاديقه قول لا إله إلّا الله و الاشمئزار الانقباض والنفور عن الشيء .

وإنّما ذكر من وصفهم عدم إيمانهم بالآخرة لأنّ ذلك هوالأصل في اشمئزازهم ولوكانوا مؤمنين بالآخرة وأنّهم يرجعون إلى الله فيجازيهم بأعمالهم عبدوه دون أوليائهم و لم يرغبوا عن ذكره وحده .

و قوله : « و إذا ذكر الّذين من دونه إذاهم يستبشرون » المراد بالّذين من دونه آلهتهم ، و الاستبشار سرور القلب بحيث يظهر أثره في الوجه .

قوله تعالى : « قل اللّهمّ فاطر السماوات و الأرض عالم الغيب و الشهادةأنت تحكم » الخ لمّا بلغ الكلام مبلغا لا يرجى معه فيهم خير لنسيانهمأمر الاخرة وإنكارهم الرجوع إليه تعالى حتّى كانوا يشمئزّون من ذكره تعالى وحده أمره ﷺ أن يذكره تعالى وحده و يذكّرهم حكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه في صورة الالتجاء إليه تعالى على ما فيه من الإقرار بالبعث و قد وصف الله تعالى بأنّه فاطر السماوات و الأرض أي مخرجها من كتم العدم إلى ساحة الوجود ، و عالم الغيب و الشهادة فلا يخفى عليه شيء ، و لازمه أن يحكم بالحقّ و ينفذ حكمه .

قوله تعالى : « ولوأنّ للّذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا بهمن سوءالعذاب يوم القيامة » الخ المراد بالّذين ظلمواهم الّذين ظلموا في الدنيا فالفعل يفيد مفاد الوصف ، و الظالمون هم المنكرون للمعاد كما قال : « أن لعنة الله على الظالمين الّذين يصدّون عن سبيل الله و يبغونها عوجا وهم بالاخرة كافرون » الأعراف : ٤٥ .

و المعنى ولو أنّ للظالمين المنكرين للمعاد ضعفي ما في الأرض من أموال و ذخائر وكنوز لجعلوه فدية من سوء العذاب .

و قوله : «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون» البداء والبدوّ بمعنى الظهور و الحساب و الحسبان العدّ ، و الاحتساب الاعتداد بالشيء بمعنى البناء على عدّه شيأً و كثيراً ما يستعمل الحسبان و الاحتساب بمعنى الظنّ كما قيل و منه قوله : « ما لم يكونوا يحتسبون» أي ما لم يكونوا يظنّون لكن فرّق الراغب بين الحسبان و الظنّ

حيث قال: و الحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الاخر بباله و يكون بعرض أن يعتريه فيه شكّ، ويقارب ذلك الظنّ لكنّ الظنّ أن يخطر النقيضين بباله فيغلّب أحدهما على الآخر . انتهى .

و مقتضى سياق الآية أنّ المراد بيان أنّهم سيواجهون يوم القيامة اُموراً على صفة هي فوق ما تصوّروه و أعظم و أهول ممّا خطر ببالهم لا أنّهم يشاهدون اُمورا ما كانوا يعتقدونها و يذعنون بها و بالجملة كانوا يسمعون أنّ لله حساباً و وزناً للأعمال و قضاء و ناراً و ألواناً من العذاب فيقيسون ما سمعوه ـ على إنكار منهم له ـ على ما عهدوه من هذه الاُمور في الدنيا فلمّا شاهدوها إذ ظهرت لهم وجدوها أعظم ممّا كان يخطر ببالهم من صفتها فهذه الآية في وصف عذابه نظير قوله في وصف نعيم أهل الجنّة : « فلا تعلم نفس ما اُخفي لهم من قرّة أعين » السجدة : ١٧ .

وأيضاً مقتضى السياق أنّ البدوّ المذكور من قبيل الظهور بعد الخفاء والانكشاف بعد الاستتار كما يشير إليه قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ .

قوله تعالى : « و بدا لهم سيّآت ماكسبوا » إلى آخر الآية أي ظهر لهم سيّآت أعمالهم بعد ما كانت خفيّة عليهم فهو كقوله : « يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً و ما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

و قوله : « و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن » أي و نزل عليهم و أصابهم ماكانوا يستهزؤن به في الدنيا إذا سمعوه من أولياء الدين من شدائد يوم القيامة و أهواله و أنواع عذابه .

قوله تعالى : « فإذا مسّ الإنسان ضرّ دعانا ثمّ إذا خوّلناه نعمة قال إنّما اُوتيته على علم » الخ الآية في مقام التعليل البياني لما تقدّم من وصف الظالمين و لذا صدّرت بالفاء لتتفرّع على ما تقدّم تفرّع البيان على المبيّن .

فهو تعالى لمّا ذكر من حالهم أنّهم أعرضوا عن كلّ آية دالّة على الحقّ و لم يصغوا إلى الحجج المقامة عليهم ولم يسمعوا موعظة ولم يعتدّوا بعبرة فجحدوا ربوبيّته

تعالى و أنكروا البعث و الحساب و بلغ بهم ذلك أن اشمأزّت قلوبهم إذا ذكر الله وحده .

بيّن أنّ ذلك ممّا يستدعيه طبع الإنسان المائل إلى اتّباع هوى نفسه والاغترار بمازيّن له من نعم الدنيا و الأسباب الظاهريّة الحافّة بها فالإنسان حليف النسيان إذا مسّه الضرّ أقبل إلى ربّه وأخلص له و دعاه ثمّ إذا خوّله ربّه نعمة نسبه إلى علم نفسه وخبرته و نسي ربّه وجهل أنّها فتنة فتن بها .

فقوله : «فإذا مسّ الإنسان ضرّ »أي مرض أوشدّة «دعانا » أي خصّنا بالدعاء وانقطع عن غيرنا .

وقوله: « ثمّ إذا خوّلناه نعمة منّا قال إنّما اُوتيته على علم » التخويل الإعطاء على نحو الهبة ، وتقييد النعمة بقوله : « منّا » للدلالة على كون وصف النعمة محفوظا لها والمعنى خوّلناه نعمة ظاهراً كونها نعمة .

و ضمير « اُوتيته » للنعمة بما أنّه شيء أو مال و العناية في ذلك بالاشارة إلى أنّه لايعترف بكونها نعمة منّا بل يقطعها عنّا فيُسمّيها شيأ أومالاً ونحوه ولا يسمّيها نعمة حتّى يضطرّه ذلك إلى الاعتراف بمنعم و الإشارة إليه كما قال : « اُوتيته » فصفح عن الفاعل لذلك و التعبيران أعني « نعمة منّا » « إنّما اُوتيته » من لطيف تعبير القرآن ، وقد وجّهوا تذكير الضمير في « اُوتيته » بوجوه اُخر غير موجّهة من أرادها فليرجع إلى المفصّلات .

و الملائم لسياق الآية أن يكون معنى « على علم » على علم منّي أي اُوتيت هذا الّذي اُوتيت على علم منّي و خبرة بطرق كسب المعاش و اقتناء الثروة وجمع المال.

و قيل : المراد إنّما اُوتيته على علم من الله بخير عندي أستحقّ به أن يؤتيني النعمة ؛ و قيل : المراد على علم منّي برضى الله عنّي ، و أنت خبير بأنّ ما تقدّم من معنى قوله : « ثمّ إذا خوّلناه نعمة منّا قال إنّما اُوتيته » لايلائم شيأ من القولين .

و قوله : « بل هي فتنة و لكنّ أكثرهم لايعلمون » أي بل النعمة الّتي خوّلناه منّا فتنة أي ابتلاء و امتحان نمتحنه بذلك و لكنّ أكثرهم لا يعلمون بذلك .

و قيل : معناه بل تلك النعمة عذاب لهم ، وقيل : المعنى بل هذه المقالة فتنة لهم يعاقبون عليها و الوجهان بعيدان سيمّا الأخير .

قوله تعالى : « قد قالها الّذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيّآت ما كسبوا » ضمير «قد قالها» راجع إلى القول السابق باعتبار أنّه مقالة أو كلمة .

و الآية ردّ لقولهم و إثبات لكونها فتنة يمتحنون بها بأنّهم لو اُوتوها على علم منهم و اكتسبوها بحولهم و قوّتهم لأغنى عنهم كسبهم و لم يصبهم سيّآت ما كسبوا و حفظوها لأنفسهم وتنعّموا بها ولم يهلكوا دونها وليس كذلك فهؤلاء الّذين قبلهم قالوا هذه المقالة فما أغنى عنهم كسبهم و أصابهم سيّآت ما كسبوا .

و الظاهر أنّ الآية تشير بقوله : « قد قالها الّذين من قبلهم » إلى قارون وأمثاله وقد حكي عنه قول « إنّما اُوتيته على علم منّي » في قصّته من سورة القصص .

قوله تعالى : « و الّذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم ماكسبوا وما هم بمعجزين » الإشارة بهؤلاء إلى قومه صلّى الله عليه وآله و المعنى أنّ هؤلاء الّذين ظلموا من قومك سبيلهم سبيل من قبلهم سيصيبهم سيّآت كسبهم و وبالات عملهم وماهم بمعجزين لله .

قوله تعالى : « أولم يعلموا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر » الخ جواب آخر عن قول القائل منهم : « إنّما اُوتيته على علم » و قد كان الجواب الأوّل « قد قالها الّذين من قبلهم » الخ جوابا من طريق النقض و هذا جواب من طريق المعارضة بالإشارة إلى دلالة الدليل على أنّ الله سبحانه هو الّذي يبسط الرزق ويقدر.

بيان ذلك أنّ سعي الإنسان عن علم وإرادة لتحصيل الرزق ليس سببا تامّا موجبا لحصول الرزق و إلّا لم يتخلّف و من البيّن خلافه فكم من طالب رجع آيساً و ساع خاب سعيه .

فهناك علل و شرائط زمانيّة و مكانيّة و موانع مختلفة باختلاف الظروف خارجة عن حدّ الإحصاء إذا اجتمعت و توافقت أنتج ذلك حصول الرزق .

و ليس اجتماع هذه العلل والشرائط على مافيها من الاختلاف والتشتّت والتفرّق من مادّة و زمان و مكان و مقتضيات اُخر مرتبطة بها مقارنة أو متقدّمة و علل العلل و مقدّماتها الذاهبة إلى مالايحصى ، اجتماعا و توافقا على سبيل الاتّفاق فإنّ الاتّفاق لا يكون دائميّا ولا أكثريّا و قانون ارتزاق المرتزقين الشامل للموجودات الحيّة بل المنبسط على أقطار العالم المشهود و أرجائه ثابت محفوظ في نظام جار على ما فيه من السعة و الانبساط ولو انقطع لهلكت الأشياء لأوّل لحظة و من فورها .

و هذا النظام الجاري بوحدته و تناسب أجزائه و تلاؤمها يكشف عن وحدانيّة ناظمه وفردانيّة مدبّره ومديره الخارج عن أجزاء العالم المحفوظة بنفس النظام الباقية به وهوالله عزّ اسمه .

على أنّ النظام من التدبير والتدبير من الخلق كما مرّ مراراً فخالق العالم مدبّره و مدبّره رازقه و هو الله تعالى شأنه .

ويشير إلى هذا البرهان في الآية قوله : « لمن يشاء » فإنّه إذا كان بسط الرزق وقدره بمشيّته تعالى لم يكن بمشيّة الإنسان الّذي يتبجّح بعلمه وسعيه ولا بمشيّة شيء من العلل و الأسباب و إيجابه كماهو ظاهر و ليس من قبيل الاتّفاق بل هو على نظام جار فهو بمشيّة جاعل النظام ومجريه وهو الله سبحانه .

و قد تقدّم كلام في معنى الرزق في ذيل قوله تعالى : « و يرزق من يشاء بغير حساب » آل عمران : ٢٧ و سيأتي كلام فيه في تفسير قوله : « فوربّ السماء و الأرض إنّه لحقّ مثل ما أنّكم تنطقون » الذاريات : ٢٣ إن شاء الله تعالى .

﴿ بحث روائى ﴾

في التوحيد عن عليّ عليه‌السلام في حديث وقد سأله رجل عمّا اشتبه عليه من الآيات قال : وأمّا قوله : « يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم » وقوله : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » وقوله: « توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون » و قوله : « الّذين يتوفّاهم الملائكة

ظالمي أنفسهم » وقوله : « الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين يقولون سلام عليكم» فإنّ الله تبارك و تعالى يدبّر الأمر كيف يشاء و يوكّل من خلقه من يشاء بما يشاء أمّا ملك الموت فإنّ الله يوكّله بخاصّته ممّن يشاء من خلقه ويوكّل رسله من الملائكة خاصّة بمن يشاء من خلقه .

وليس كلّ العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسّره لكلّ الناس لأنّ فيهم القويّ و الضعيف ، و لأنّ منه مايطاق حمله ومنه مالايطاق حمله إلّا أن يسهّل الله له حمله وأعانه عليه من خاصّة أوليائه .

و إنّما يكفيك أن تعلم أنّ الله المحيي المميت ، و أنّه يتوفّى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم .

و في الخصال عن عليّ عليه السلام في حديث الأربعمائة : لاينام المسلم و هو جنب لاينام إلّا على طهور فإن لم يجد الماء فليتيمّم بالصعيد فإنّ روح المؤمن ترفع إلى الله تعالى فيقبلها ويبارك عليها فإن كان أجلها قد حضر جعلها في كنوز رحمته و إن لم يكن أجلها قد حضر بعث بها مع اُمنائه من ملائكته فيردّونها في جسده .

وفي المجمع روى العيّاشيّ بالإسناد عن الحسن بن محبوب عن عمرو بن ثابت عن أبي المقدام عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال : مامن أحد ينام إلّا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه و صار بينهما سبب كشعاع الشمس فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس وإن أذن الله في ردّ الروح أجابت النفس الروح وهو قوله سبحانه: « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » الآية .

فمهما رأت في ملكوت السماوات فهو ممّا له تأويل و ما رأت فيما بين السماء و الأرض فهو ممّا يخيّله الشيطان ولا تأويل له .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن سليم بن عامر أنّ عمر بن الخطّاب قال : العجب من رؤيا الرجل إنّه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال فيكون رؤياه كأخذ باليد ويرى الرجل الرؤيا فلايكون رؤياه شيأً .

فقال عليّ بن أبي طالب : أفلا اُخبرك بذلك يا أمير المؤمنين يقول الله تعالى :

« الله يتوفّى الأنفس حين موتها و الّتي لم تمت في منامها فيمسك الّتي قضى عليها الموت و يرسل الاُخرى إلى أجل مسمّى » فالله يتوفّى الأنفس كلّها فما رأت و هي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة ، ومارأت إذا اُرسلت إلى أجسادها تلقّيها الشياطين في الهواء فكذبتها و أخبرتها بالأباطيل فعجب عمر من قوله .

اقول : تقدّم تفصيل الكلام في الرؤيا في سورة يوسف و الرجوع إليه يعين في فهم معنى الروايتين ، وقد اُطلق فيهما السماء على ما اصطلح عليه بعالم المثال الأعظم و ما بين السماء و الأرض على ما اصطلح عليه بعالم المثال الأصغر فتبصّر .



☆ ☆ ☆

قُلْ يٰا عِبٰادِيَ الَّذِينَ اَسْرَفُوا عَلٰى اَنْفُسِهِمْ لٰاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً اِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَ أَنِيبُوا اِلٰى رَبِّكُمْ وَ اَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ اَنْ يَاْتِيَكُمُ الْعَذٰابُ ثُمَّ لٰا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَ اتَّبِعُوا اَحْسَنَ مٰا اُنْزِلَ اِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَاْتِيَكُمُ الْعَذٰابُ بَغْتَةً وَ اَنْتُمْ لٰا تَشْعُرُونَ (٥٥) اَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يٰا حَسْرَتٰى عَلٰى مٰا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللّٰهِ وَ اِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّٰاخِرِينَ (٥٦) اَوْ تَقُولَ لَوْ اَنَّ اللّٰهَ هَدٰينِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) اَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذٰابَ لَوْ اَنَّ لِي كَرَّةً فَاَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلٰى قَدْجٰاءَتْكَ آيٰاتِي فَكَذَّبْتَ بِهٰا وَاسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكٰافِرِينَ (٥٩) وَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللّٰهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ اَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَ يُنَجِّي اللّٰهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفٰازَتِهِمْ لٰايَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لٰاهُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) .

﴿ بيان ﴾

في الآيات أمره ﷺ أن يدعوهم إلى الاسلام و اتّباع ما أنزل الله و يحذّرهم عمّا يستعقبه إسرافهم على أنفسهم من الحسرة والندامة يوم لاينفعهم ذلك مع استكبارهم في الدنيا على الحقّ و الفوز و النجاة يومئذ للمتّقين والنار و الخسران للكافرين ، وفي لسان الآيات من الرأفة و الرحمة ما لا يخفى .

قوله تعالى : «قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله» الخ أمره صلى الله عليه وآله أن يدعوهم عن قبله و يناديهم بلفظة يا عبادي و فيه تذكير بحجّة الله سبحانه على دعوتهم إلى عبادته وترغيب لهم إلى استجابته الدعوة أمّا التذكير بالحجّة فلأنّه يشير إلى أنّهم عباده و هو مولاهم و من حقّ المولى على عبده أن يطيعه و يعبده فله أن يدعوه إلى طاعته و عبادته ، و أمّا ترغيبهم إلى استجابة الدعوة فلما فيه من الإضافة إليه تعالى الباعث لهم إلى التمسّك بذيل رحمته و مغفرته .

و قوله : «الّذين أسرفوا على أنفسهم» الإسراف ـ على ما ذكره الراغب ـ تجاوز الحدّ في كلّ فعل يفعله الإنسان و إن كان ذلك في الإنفاق أشهر ؛ وكأنّ الفعل مضمّن معنى الجناية أو ما يقرب منها ولذا عدّي بعلى . و الإسراف على النفس هو التعدّي عليها باقتراف الذنب أعمّ من الشرك و سائر الذنوب الكبيرة و الصغيرة على ما يعطيه السياق .

و قال جمع : إنّ المراد بالعباد المؤمنون وقد غلب استعماله فيهم مضافاً إليه تعالى في القرآن فمعنى يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم أيّها المؤمنون المذنبون .

و يدفعه أنّ قوله : «يا عبادي الّذين أسرفوا» إلى تمام سبع آيات ذوسياق واحد متّصل يفصح عن دعوتهم و قوله في ذيل الآيات : « بلى قد جاءتك آياتي فكذّبت بها و استكبرت » الخ كالصريح أو هو صريح في شمول العباد للمشركين .

و ما ورد في كلامه تعالى من لفظ «عبادي» و المراد به المؤمنون بضعة عشر مورداً جميعها محفوفة بالقرينة وليس بحيث ينصرف عند الإطلاق إلى المؤمنين كما أنّ الموارد الّتي اُطلق فيها و اُريد به الأعمّ من المشرك والمؤمن في كلامه كذلك .

و بالجملة شمول « عبادي » في الآية للمشركين لاينبغي أن يرتاب فيه، و القول بأنّ المراد به المشركون خاصّة نظراً إلى سياق الآيات كما نقل عن ابن عبّاس أقرب إلى القبول من تخصيصه بالمؤمنين .

و قوله : «لاتقنطوا من رحمة الله» القنوط اليأس، و المراد بالرحمة بقرينة خطاب المذنبين و دعوتهم هو الرحمة المتعلّقة بالآخرة دون ماهي أعمّ الشاملة للدنيا و الآخرة

و من المعلوم أنّ الّذي يفتقر إليه المذنبون من شؤن رحمة الآخرة بلاواسطة هو المغفرة فالمراد بالرحمة المغفرة و لذا علّل النهي عن القنوط من الرحمة بقوله : « إنّ الله يغفر الذنوب جميعا » .

وفي الآية التفات من التكلّم إلى الغيبة حيث قيل : « إنّ الله يغفر » و لم يقل: إنّي أغفر و ذلك للإشارة إلى أنّه الله الّذي له الأسماء الحسنى ومنها أنّه غفور رحيم كأنّه يقول لا تقنطوا من رحمتي فإنّي أنا الله أغفر الذنوب جميعا لأنّ الله هو الغفور الرحيم .

و قوله : « إنّ الله يغفر الذنوب جميعا » تعليل للنهي عن القنوط و إعلام بأنّ جميع الذنوب قابلة للمغفرة فالمغفرة عامّة لكنّها تحتاج إلى سبب مخصّص و لا تكون جزافا، و الّذي عدّه القرآن سبباً للمغفرة أمران: الشفاعة[1] و التوبة لكن ليس المراد في قوله : « إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً » المغفرة الحاصلة بالشفاعة لأنّ الشفاعة لاتنال الشرك بنصّ القرآن في آيات كثيرة و قد مرّ أيضاً أنّ قوله : «إنّ الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : ٤٨ ناظر إلى الشفاعة و الاية أعني قوله : « إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً » موردها الشرك و سائر الذنوب .

فلايبقى إلّا أن يكون المراد المغفرة الحاصلة بالتوبة وكلامه تعالى صريح في مغفرة الذنوب جميعا حتّى الشرك بالتوبة .

على أنّ الآيات السبع ـ كما عرفت ـ كلام واحد ذو سياق واحد متّصل ينهى عن القنوط ـ و هو تمهيد لما يتلوه ـ و يأمر بالتوبة و الإسلام و العمل الصالح و ليست الآية الاُولى كلاما مستقلّاً منقطعا عمّا يتلوه حتّى يحتمل عدم تقيّد عموم المغفرة فيها بالتوبة و أيّ سبب آخر مفروض للمغفرة .

و الآية أعني قوله : « إنّ الله يغفر الذنوب جميعا » من معارك الآراء بينهم فقد ذهب قوم إلى تقييد عموم المغفرة فيها بالشرك وسائر الكبائر الّتي وعدالله عليها النار مع عدم تقييد العموم بالتوبة فالمغفرة لا تنال إلّا الصغائر من الذنوب .

---

(١) و قد مر الكلام فيها فى مباحث الشفاعة فى الجزء الاول من الكتاب .

و ذهب آخرون إلى إطلاق المغفرة و عدم تقيّدها بالتوبة و لا بسبب آخر من أسباب المغفرة غير أنّهم قيّدوها بالشرك لصراحة قوله : «إنّ الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء » الآية فاستنتجوا عموم المغفرة و إن لم يكن هناك سبب مخصّص يرجّح المذنب المغفور له على غيره في مغفرته كالتوبة و الشفاعة و هي المغفرة الجزافيّة و قد استدلّوا على[1] ذلك بوجوه غير سديدة .

و أنت خبير بأنّ مورد الآية هو الشرك و سائر الذنوب ، و من المعلوم من كلامه تعالى أنّ الشرك لا يغفر إلّا بالتوبة فتقيّد إطلاق المغفرة في الآية بالتوبة ممّا لا مفرّ عنه.

قوله تعالى :«وأنيبوا إلى ربّكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لا تنصرون» عطف على قوله : « لا تقنطوا » ، و الإنابة إلى الله الرجوع إليه و هو التوبة، و قوله : « إلى ربّكم » من وضع الظاهر موضع المضمر و كان مقتضى الظاهر أن يقال : و أنيبوا إليه و الوجه فيه الإشارة إلى التعليل فإنّ الملاك في عبادة الله سبحانه صفة ربوبيّته .

و المراد بالإسلام التسليم لله و الانقياد له فيما يريد ، و إنّما قال : « و أسلموا له » و لم يقل : وآمنوا به لأنّ المذكور قبل الآية و بعدها استكبارهم على الحقّ و المقابل له الإسلام .

و قوله : « من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لا تنصرون » متعلّق بقوله : « أنيبوا و أسلموا » و المراد بالعذاب عذاب الآخرة بقرينة الآيات التالية ، و يمكن على بعد أن يراد مطلق العذاب الّذي لا تقبل معه التوبة و منه عذاب الاستئصال قال تعالى :«فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا سنّة الله الّتي قد خلت في عباده » المؤمن : ٨٥ .

و المراد بقوله: « ثمّ لا تنصرون» أنّ المغفرة لا تدرككم بوجه لعدم تحقّق سببها فالتوبة مفروضة العدم و الشفاعة لا تشمل الشرك .

---

(١) وقد استدل الالوسى فى روح المعانى على عدم تقييد اطلاق المغفرة فى الاية بالتوبة بسبعة عشر وجها لا تغنى طائلا ، و ناقش فى كون المغفرة لا عن سبب مرجح من التوبة و غيرها منافيا للحكمة ثم قيد الاية بتقدير «لمن يشاء» لوقوعه فى بعض القراآت غير المشهورة فراجعه ان شئت ـ

قوله تعالى : « و اتّبعوا أحسن ما اُنزل إليكم من ربّكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة و أنتم لاتشعرون» الخطاب عامّ للمؤمن والكافر كالخطابات السابقة والقرآن قد اُنزل إلى الفريقين جميعا .

و في الآية أمر باتّباع أحسن ما اُنزل من الله قيل : المراد به اتّباع الأحكام من الحلال و الحرام دون القصص، و قيل: اتّباع ما اُمر به و نهي عنه كاتيان الواجب و المستحبّ و اجتناب الحرام و المكروه دون المباح ، و قيل : الاتّباع في العزائم و هي الواجبات و المحرّمات ، و قيل : اتّباع الناسخ دون المنسوخ ، و قيل : ما اُنزل هو جنس الكتب السماويّة و أحسنها القرآن فاتّباع أحسن ما اُنزل هو اتّباع القرآن .

و الإنصاف أنّ قوله في الآية السابقة : « و أسلموا له » يشمل مضمون كلّ من هذه الأقوال فحمل قوله : « و اتّبعوا أحسن ما اُنزل إليكم » على شيء منها لا يخلو عن تكرار من غير موجب .

و لعلّ المراد من أحسن ما اُنزل الخطابات الّتي تشير إلى طريق استعمال حقّ العبوديّة في امتثال الخطابات الإلهيّة الاعتقاديّة و العمليّة و ذلك كالخطابات الداعية إلى ذكر الله تعالى بالاستغراق و إلى حبّه و إلى تقواه حقّ تقاته و إلى إخلاص الدين له فإنّ اتّباع هذه الخطابات يحيي الإنسان حياة طيّبة و ينفخ فيه روح الإيمان و يصلح أعماله و يدخله في ولاية الله تعالى و هي الكرامة ليست فوقها كرامة .

و قوله : «من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة و أنتم لا تشعرون» أنسب لهذا المعنى فإنّ الدعوة إلى عمل بالتخويف من مفاجاة الحرمان ومباغتة المانع إنّما تكون غالبا فيما يساهل المدعوّ في أمره و يطيّب نفسه بسوف و لعلّ ، و هذا المعنى أمسّ بإصلاح الباطن منه بإصلاح الظاهر و الإتيان بأجساد الأعمال ، و يقرب منه قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم و اعلموا أنّ الله يحول بين المرء و قلبه » الأنفال : ۲۴ .

قوله تعالى : « أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرّطت في جنب الله » الخ قال

في المجمع : التفريط إهمال ما يجب أن يتقدّم فيه حتّى يفوت وقته ، و قال : التحسّر الاغتمام ممّافات وقته لانحساره عنه بما لا يمكن استدراكه . انتهى . و قال الراغب : الجنب الجارحة. قال: ثمّ يستعار في الناحية الّتي تليها لعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين و الشمال . انتهى . فجنب الله جانبه و ناحيته و هي ما يرجع إليه تعالى ممّا يجب على العبد أن يعامله و مصداق ذلك أن يعبده وحده و لا يعصيه والتفريط في جنب الله التقصير في ذلك .

و قوله : « و إن كنت لمن الساخرين » « إن » مخفّفة من الثقيلة ، و الساخرين اسم فاعل من سخر بمعنى استهزء .

و معنى الآية إنّما نخاطبكم بهذا الخطاب حذر أن تقول أو لئلّا تقول نفس منكم ياحسرتا على ما قصّرت في جانب الله وإنّي كنت من المستهزئين ، و موطن القول يوم القيامة .

قوله تعالى : « أو تقول لو أنّ الله هداني لكنت من المتّقين » ضمير تقول للنفس ، و المراد بالهداية الإرشاد و إراءة الطريق ، و المعنى ظاهر وهو قطع للعذر .

قوله تعالى : « أو تقول حين ترى العذاب لو أنّ لي كرّة فأكون من المحسنين» لو للتمنّي والكرّة الرجعة والمعنى أوتقول نفس متمنّية حين ترى العذاب يوم القيامة: ليت لي رجعة إلى الدنيا فأكون من المحسنين .

قوله تعالى : « بلى قد جاءتك آياتي فكذّبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » ردّ لها و جواب لخصوص قولها ثانيا : لو أنّ الله هداني لكنت من المتّقين » و موطن الجواب يوم القيامة كما أنّ موطن القول ذلك و لسياق الجواب شهادة عليه .

وقد فصل بين قولها وجوابه بقوله : « أو تقول حين ترى » الخ ولم يجب إلّا عن قولها : « لو أنّ الله هداني » الخ .

و الوجه في الفصل أنّ الأقوال الثلاثة المنقولة عنها مرتّبة على ترتيب صدورها عن المجرمين يوم القيامة فإذا قامت القيامة و رآى المجرمون أنّ اليوم يوم الجزاء بالأعمال وقد فرّطوا فيها و فاتهم وقتها تحسّروا على ما فرّطوا و نادوا بالحسرة على

تفريطهم « يا حسرتا على ما فرّطت » قال تعالى : « حتّى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرّطنا فيها » الأنعام : ٣١ .

ثمّ إذا حوسبوا و اُمر المتّقون بدخول الجنّة و قيل « و امتازوا اليوم أيّها المجرمون » يس : ٥٩ تعلّلوا بقولهم : « لو أنّ الله هداني لكنت من المتّقين».

ثمّ إذا اُمروا بدخول النار فاُوقفوا عليها ثمّ اُدخلوا فيها تمنّوا الرجوع إلى الدنيا ليحسنوا فيها فيسعدوا « أو تقول حين ترى العذاب لو أنّ لي كرّة » قال تعالى: « و لو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردّ ولانكذّب بآيات ربّنا و نكون من المؤمنين» الأنعام : ٢٧ ، وقال حاكياعنهم : «ربّنا أخرجنامنها فإن عدنا فإنّاظالمون» المؤمنون : ١٠٧ .

ثمّ لمّا نقل الأقوال على ما بينها من الترتيب أخذ في الجواب ولو اُخّر القول المجاب عنه حتّى يتّصل بالجواب أو قدّم الجواب حتّى يتّصل به اختلّ النظم [١] .

وقد خصّ قولهم الثاني : « لوأنّ الله هداني » الخ بالجواب و أمسك عنجواب قولهم الأوّل و الثالث لأنّ في الأوّل حديث استهزائهم بالحقّ و أهله و في الثالث تمنّيهم للرجوع إلى الدنيا و الله سبحانه يزجر هؤلاء يوم القيامة ويمنعهم أن يكلّموه ولايجيب عن كلامهم كمايشير إلى ذلك قوله : « قالوا ربّنا غلبت علينا شقوتنا و كنّا قوما ضالّين ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فانّا ظالمون قال اخسؤا فيها ولا تكلّمون إنّه كان فريق منعبادي يقولونربّنا آمنّا فاغفرلنا وارحمنا وأنتخير الراحمين فاتّخذتموهم سخريّا حتّى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إنّي جزيتهم اليوم بماصبروا أنّهم هم الفائزون » المؤمنون : ١١١ .

قوله تعالى : « و يوم القيامة ترى الّذين كذبوا على الله وجوههم مسودّةأليس في جهنّم مثوى للمتكبّرين » الكذب على الله هو القول بأنّ له شريكا و أنّ له ولدا ومنه البدعة في الدين .

---

(١) وأصل الوجه مأخوذ من تفسير أبيالسعود باصلاح منا .

و سواد الوجه آية الذلّة وهي جزاء تكبّرهم ولذا قال : « أليس في جهنّم مثوى للمتكبّرين » .

قوله تعالى : «وينجّي الله الّذين اتّقوا بمفازتهم لا يمسّهم السوء ولا هم يحزنون» الظاهر أنّ مفازة مصدر ميميّ بمعنى الفوز وهو الظفر بالمراد ، و الباء في « بمفازتهم» للملابسة أو السببيّة فالفوز الّذي يقضيه الله لهم اليوم سبب تنجيتهم .

وقوله : « لا يمسّهم » الخ بيان لتنجيتهم كأنّه قيل : ينجّيهم لا يمسّهم السوء من خارج ولا هم يحزنون في أنفسهم .

و للآية نظر إلى قوله تعالى في ذيل آيات سورة المؤمنون المنقولة آنفا : «إنّي جزيتهم اليوم بما صبروا أنّهم هم الفائزون » فتدبّر و لا تغفل .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع عن أمير المؤمنين عليه‌السلام أنّه قال : ما في القرآن آية أوسع من « يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم » الآية .

اقول : ورواه في الدرّ المنثور عن ابن جرير عن ابن سيرين عنه عليه‌السلام ،وستأتي إن شاء الله في تفسير سورة الليل الرواية عنه عليه‌السلام أنّ قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » أرجى من هذه الآية .

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد و ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقيّ في شعب الإيمان عن ثوبان قال : سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : ما اُحبّ أنّ لي الدنيا و ما فيها بهذه الآية « يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم » إلى آخر الآية . فقال رجل : يا رسول الله فمن أشرك ؟ فسكت النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ثمّ قال : إلّا من أشرك.

أقول : في الرواية شيء فقد تقدّم أنّ مورد الآية هو الشرك و أنّ الآية مقيّدة بالتوبة .

و فيه أخرج ابن أبي شيبة و مسلم عن أبي أيّوب الأنصاريّ سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : لولا أنّكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم .

اقول :ما في الحديث من المغفرة لايأبى التقيّد بأسباب المغفرة كالتوبة و الشفاعة.

و في المجمع قيل : هذه الآية يعني قوله : « ياعبادي الّذين أسرفوا» الخ نزلت في وحشيّ قاتل حمزة حين أراد أن يسلم و خاف أن لا تقبل توبته فلمّا نزلت الاية أسلم فقيل : يا رسول الله هذه له خاصّة أم للمسلمين عامّة ؟ فقال صلى الله عليه وآله: بل للمسلمين عامّة.

و عن كتاب سعد السعود لابن طاوس نقلا عن تفسير الكلبيّ: بعث وحشيّ و جماعة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه ما يمنعنا من دينك إلّا أنّنا سمعناك تقرء في كتابك أنّ من يدعو مع الله إلها آخر و يقتل النفس و يزني يلق أثاما و يخلد في العذاب و نحن قد فعلنا ذلك كلّه فبعث إليهم بقوله تعالى : « إلّا من تاب وآمن و عمل صالحا » فقالوا : نخاف أن لا نعمل صالحاً .

فبعث إليهم « إنّ الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء » فقالوا نخاف أن لا ندخل في المشيّة . فبعث إليهم « ياعبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعا » فجاؤا و أسلموا .

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله لوحشيّ قاتل حمزة : غيّب وجهك عنّي فإنّي لا أستطيع النظر إليك . قال : فلحق بالشام فمات في الخمر .

اقول : و روى ما يقرب منه في الدرّ المنثور بعدّة طرق و في بعضها أنّ قوله : « يا عبادي الّذين أسرفوا » الخ نزل فيه كما في خبر المجمع السابق ، و يضعّفه أنّ السورة مكّيّة و قد أسلم وحشيّ بعد الهجرة . على أنّ ظاهر الخبر عدم تقيّد إطلاق المغفرة في الآية بالتوبة و قد عرفت أنّ السياق يأباه .

و قوله: فمات في الخمر لعلّه بفتح الخاء و تشديد الميم موضع من أعراض المدينة و لعلّه من غلط الناسخ و الصحيح الحمص،و لعلّ المراد به موته عن شرب الخمر فإنّه كان مدمن الخمر و قد جلد في ذلك غير مرّة ثمّ ترك .

و اعلم أنّ هناك روايات كثيرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في تطبيق هذه الآيات على شيعتهم و تطبيق جنب الله عليهم و هي جميعا من الجري دون التفسير و لذا تركنا إيرادها ههنا .

✩✩✩

اَللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰاتِ وَ الْاَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ اُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ اَفَغَيْرَ اللّٰهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَ لَقَدْ اُوحِىَ اِلَيْكَ وَ اِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللّٰهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَ مَا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْاَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَ السَّمٰوٰاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوٰاتِ وَمَنْ فِى الْاَرْضِ اِلَّا مَنْ شَاءَ اللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ اُخْرٰى فَاِذَاهُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَ أَشْرَقَتِ الْاَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَ وُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيىءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا اِلٰى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتّٰى اِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا بَلٰى وَ لٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ اِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا

حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَ قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(٧٣) وَ قَالُوا الْحَمْدُلِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَ تَرَى الْمَلٰئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) .

﴿بيان﴾

فصل من الآيات به تختتم السورة يذكر فيه خلاصة ما تنتجه الحجج المذكورة فيها قبل ذلك ثمّ يؤمر صلى الله عليه وآله أن يخاطب المشركين أنّ ما اقترحوا به عليه أن يعبد آلهتهم ليس إلّا جهلا بمقامه تعالى و يذكّر النبيّ صلى الله عليه وآله ما اُوحي إليه و إلى الّذين من قبله : لئن أشرك ليحبطنّ عمله .

ثمّ يذكر سبحانه أنّ المشركين ماعرفوه واجب معرفته وإلّا لم يرتابوا في ربوبيّته لهم و لاعبدوا غيره ثمّ يذكر تعالى نظام الرجوع إليه وهو تدبير جانب المعاد من الخلقة ببيان جامع كاف لا مزيد عليه و يختم السورة بالحمد .

قوله تعالى : « الله خالق كلّ شيء » هذا هو الّذي ذكر اعتراف المشركين به من قبل في قوله : « و لئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولنّ الله » الآية ٣٨ من السورة و بنى عليه استناد الأشياء في تدبيرها إليه .

و الجملة في المقام تمهيد لما يذكر بعدها من كون التدبير مستنداً إليه لما تقدّم مراراً أنّ الخلق لاينفكّ عن التدبير فانتقل في المقام من استناد الخلق إليه إلى اختصاص الملك به و هو قوله : « له مقاليد السماوات و الأرض » و من اختصاص الملك به إلى كونه هو الوكيل على كلّ شيء القائم مقامه في تدبير أمره .

و قد تقدّم في ذيل قوله : « ذلكم الله ربّكم لا إله إلّا هو خالق كلّ شيء »

الأنعام : ١٠٢ في الجزء السابع من الكتاب كلام في معنى عموم الخلقة لكلّ شيء.

قوله تعالى : « و هو على كلّ شيء وكيل » و ذلك لأنّ انتهاء خلق كلّ شيء و وجوده إليه يقتضي أن يكون تعالى هو المالك لكلّ شيء فلا يملك شيء من الأشياء لانفسه ولا شيأ ممّا يترشّح من نفسه إلّا بتمليك الله تعالى ، فهو لفقره مطلقا لا يملك تدبيرا و الله المالك لتدبيره .

و أمّا تمليكه تعالى له نفسه و عمله فهو أيضاً نوع من تدبيره تعالى مؤكّد لملكه غير ناف له ولا مناف حتّى أنّ توكيله الملائكة على شيء من الأمر من شؤن وكالته تعالى عليهم لا تفويض للأمر وإبطال للوكالة فافهم ذلك .

و بالجملة إذكان كلّ شيء من الأشياء لا يملك لنفسه شيأ كان سبحانه هو الوكيل عليه القائم مقامه المدبّر لأمره والأسباب والمسبّبات في ذلك سواء فالله سبحانه هو ربّها وحده .

فقد تبيّن أنّ الجملة مسوقة للإشارة إلى توحّده في الربوبيّة و هو المقصود بيانه فقول بعضهم إنّ ذكر ذلك بعد قوله : « الله خالق كلّ شيء » للدلالة على أنّه هو الغنيّ المطلق و أنّ المنافع والمضارّ راجعة إلى العباد ، أو أنّ المراد أنّه تعالى حفيظ على كلّ شيء فيكون إشارة إلى الأشياء محتاجة إليه في بقائها كما أنّها محتاجة إليه في حدوثها ، أجنبيّ عن معنى الآية بالمرّة .

قوله تعالى : « له مقاليد السماوات والأرض » الخ المقاليد ـ كما قيل ـ بمعنى المفاتيح ولا مفرد له من لفظه .

و مفاتيح السماوات والأرض مفاتيح خزائنها قال تعالى : « ولله خزائن السماوات والأرض » المنافقون : ٧ و خزائنها غيبها الّذي يظهر منه الأشياء والنظام الجاري فيها فتخرج إلى الشهادة قال تعالى : « و إن من شيء إلّا عندنا خزائنه و ما ننزّله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

و ملك مقاليد السماوات و الأرض كناية عن ملك خزائنها الّتي منها وجودات الأشياء و أرزاقها و أعمارها وآجالها و سائرما يواجهها في مسيرها من حين تبتدىء

منه تعالى إلى حين ترجع إليه .

و هو أعني قوله : « له مقاليد » الخ في مقام التعليل لقوله : « و هو على كلّ شيء وكيل » ولذا جيء به مفصولا من غير عطف .

وقوله : « والّذين كفروا بآيات ربّهم اُولئك هم الخاسرون » قد تقدّم أنّ قوله: « الله خالق كلّ شيء ـ إلى قوله ـ والأرض » ذكر خلاصة ما تفيده الحجج المذكوة في خلال الآيات السابقة ، و عليه فقوله : « والّذين كفروا بآيات ربّهم » الخ معطوف على قوله : « الله خالق كلّ شيء » والمعنى الّذي تدلّ عليه الآيات والحجج المتقدّمة أنّ الله سبحانه خالق فمالك فوكيل على كلّ شيء أي متوحّد في الربوبيّة والاُلوهيّة والّذين كفروا بآيات ربّهم فلم يوحّدوه ولم يعبدوه اُولئك هم الخاسرون .

وقد اختلفوا فيما عطف عليه قوله : « والّذين كفروا » الخ فذكروا فيه وجوها مختلفة كثيرة لاجدوى فيها من أرادها فليرجع إلى المطوّلات .

قوله تعالى : « قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيّها الجاهلون » لمّا أورد سبحانه خلاصة ما تنطق به الحجج المذكورة في السورة من توحّده تعالى بالخلق والملك والتدبير و لازم ذلك توحّده تعالى في الربوبيّة والاُلوهيّة أمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يخاطب المشركين المقترحين عليه أن يعبد آلهتهم أنّه لا يبقى مع هذه الحجج الباهرة الظاهرة محلّ لعبادته غير الله و إجابة اقتراحهم و هل هي إلّا الجهل ؟

فقوله : « أفغير الله تأمرونّي أعبد » الفاء لتفريع مضمون الجملة على قوله : « الله خالق كلّ شيء » إلى آخر الآيتين ، والاستفهام إنكاريّ ، و « غير الله » مفعول « أعبد » قدّم عليه لتعلّق العناية به ، و « تأمرونّي » معترض بين الفعل ومفعوله و أصله تأمرونني اُدغمت فيه إحدى النونين في الاُخرى .

و قوله : « أيّها الجاهلون » خطابهم بصفة الجهل للإشارة إلى أنّ أمرهم إيّاه بعبادة غير الله و اقتراحهم بذلك مع ظهور آيات وحدته في الربوبيّة والاُلوهيّة ليس إلّا جهلا منهم .

قوله تعالى : « ولقد اُوحي إليك وإلى الّذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ

عملك » الخ فيه تأييد لمدلول الحجج العقليّة المذكورة بالوحي كأنّه قيل : لا تعبد غير الله فإنّه جهل و كيف يسوغ لك أن تعبده وقد دلّ الوحي على النهي عنه كما دلّ العقل على ذلك .

فقوله : « ولقد اُوحي إليك » اللاّم للقسم ، و قوله : « لئن أشركت ليحبطنّ عملك » بيان لما اُوحي إليه ، وتقدير الكلام واُقسم لقد اُوحي إليك لئن أشركت الخ و إلى الّذين من قبلك من الأنبياء والرسل لئن أشركتم ليحبطنّ عملكم و لتكوننّ من الخاسرين .

و خطاب النبيّ صلى الله عليه وآله و سائر الأنبياء عليهم السلام بالنهي عن الشرك و إنذارهم بحبط العمل والدخول في زمرة الخاسرين خطاب و إنذار على حقيقة معناهما كيف ؟ و غرض السورة ـ كما تقدّمت الإشارة إليه ـ بيان أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله مأمور بالإيمان بما يدعو المشركين إلى الإيمان به مكلّف بما يكلّفهم ولا يسعه أن يجيبهم إلى ما يقترحون به عليه من عبادة آلهتهم .

و أمّا كون الأنبياء معصومين بعصمة إلهيّة يمتنع معها صدور المعصية عنهم فلا يوجب ذلك سقوط التكليف عنهم وعدم صحّة توجّهه إليهم ولو كان كذلك لم تتصوّر في حقّهم معصية كسائر من لا تكليف عليه فلم يكن معنى لعصمتهم .

على أنّ العصمة ـ و هي قوّة يمتنع معها صدور المعصية ـ من شؤن مقام العلم ـ كما تقدّمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى : «وما يضلّون إلّا أنفسهم وما يضرّونك من شيء » النساء : ١١٣ ـ لا تنافي ثبوت الاختيار الّذي هو من شؤن مقام العمل وصحّة صدور الفعل و الترك عن الجوارح .

فمنع العلم القطعيّ بمفسدة شيء منعاً قطعيّاً عن صدوره عن العالم به كمنع العلم بأثر السمّ عن شربه لا ينافي كون العالم بذلك مختاراً في الفعل لصحّة صدوره ولا صدوره عن جوارحه فالعصمة لا تنافي بوجه التكليف .

و ممّا تقدّم يظهر ضعف ما يستفاد من بعضهم أنّ نهيه صلى الله عليه وآله عن الشرك و نحوه نهي صوريّ و المراد به نهي اُمّته فهو من قبيل « إيّاك أعني و اسمعي ياجارة » .

و وجه الضعف ظاهر ممّا تقدّم ، و أمّا قولنا كما ورد في بعض الروايات أنّ هذه الخطابات القرآنيّة من قبيل « إيّاك أعني و اسمعي يا جارة » فمعناه أنّ التكليف لمّا كان من ظاهر أمره أن يتعلّق بمن يجوز عليه الطاعة و المعصية فلو تعلّق بمن ليس منه إلّا الطاعة مع مشاركة غيره له كان ذلك تكليفا على وجه أبلغ كالكناية الّتي هي أبلغ من التصريح .

و قوله : « و لتكوننّ من الخاسرين » ظهر معناه ممّا تقدّم و يمكن أن يكون اللّام في الخاسرين مفيداً للعهد و المعنى و لتكوننّ من الخاسرين الّذين كفروا بآيات الله و أعرضوا عن الحجج الدالّة على وحدانيّته .

قوله تعالى : « بل الله فاعبدوكن من الشاكرين » إضراب عن النهي المفهوم من سابق الكلام كأنّه قيل : فلاتعبدغير الله بلالله فاعبد ، وتقديم اسم الجلالةللدلالة على الحصر .

والفاء في « فاعبد » زائدةللتأكيد على ماقيل ، و قيل : هي فاء الجزاء وقدحذف شرطه و التقدير بل إن كنت عابدا أو عاقلا فاعبدالله .

و قوله : « و كن من الشاكرين » أي وكن بعبادتك له من الّذين يشكرونهعلى نعمه الدالّة على توحّده في الربوبيّة و الاُلوهيّة ، و قد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « و سيجزي الله الشاكرين » آل عمران : ١٤٤ و قوله : « و لا تجد أكثرهم شاكرين » الأعراف : ١٧ أنّ مصداق الشاكرين بحقيقة معنى الكلمة هم المخلصون بفتح اللاّم فراجع .

قوله تعالى : « و ما قدروا الله حقّ قدره » إلى آخر الآية قدر الشيء هو مقداره و كميّتّه من حجم أو عدد أووزن و ما أشبه ذلك ثمّ استعير للمعنويّات من المكانة و المنزلة .

فقوله : « و ما قدروا الله حقّ قدره» تمثيل اُريدبه عدم معرفتهم به تعالىواجب المعرفة إذلم يعرفوه من حيث المعاد و رجوع الأشياء إليه كمايدلّ عليه تعقيب الجملة بقوله : « و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة » إلى آخر السورة حيث ذكر فيه انقطاع

كلّ سبب دونه يوم القيامة ، وقبضه الأرض وطيّه السماوات و نفخ الصور لإماتة الكلّ ثمّ لإحيائهم و إشراق الأرض بنور ربّها ووضع الكتاب و المجيىء بالنبيّين والشهداء و القضاء و توفية كلّ نفس ما عملت و سوق المجرمين إلى النار و المتّقين إلى الجنّة فمن كان شأنه في الملك و التصرّف هذا الشأن و عرف بذلك أوجبت هذه المعرفة الاقبال إليه بعبادته وحده والإعراض عن غيره بالكلّيّة .

لكنّ المشركين لمّا لم يؤمنوا بالمعاد و لم يقدروه حقّ قدره و لم يعرفوه واجب معرفته أعرضوا عن عبادته إلى عبادة من سواه .

و قوله : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » أي الأرض بما فيها من الأجزاء و الأسباب الفعّالة بعضها في بعض ، و القبضة مصدر بمعنى المقبوضة ، و القبض على الشيء و كونه في القبضة كناية عن التسلّط التامّ عليه أو انحصار التسلّط عليه في القابض و المراد ههنا المعنى الثاني كما يدلّ عليه قوله تعالى : «والأمر يومئذ لله »الانفطار:١٩ وغيره من الآيات .

وقد مرّ مرارا أنّ معنى انحصار الملك و الأمر و الحكم و السلطان وغير ذلك يوم القيامة فيه تعالى ظهور ذلك لأهل الجمع يومئذ و إلّا فهي له تعالى دائما فمعنى كون الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ظهور ذلك يومئذ للناس لا أصله .

و قوله : « والسماوات مطويّات بيمينه » يمين الشيء يده اليمنى وجانبه القويّ ويكنّى بها عن القدرة ، ، ويستفاد من السياق أنّ محصّل الجملتين أعني قوله : « و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويّات بيمينه » تقطّع الأسباب الأرضيّة و السماويّة و سقوطها و ظهور أن لا مؤثّر في الوجود إلّا الله سبحانه .

و قوله : « سبحانه و تعالى عمّا يشركون » تنزيه له تعالى عمّا أشركوا غيره في ربوبيّته و اُلوهيّته فنسبوا تدبير العالم إلى آلهتهم و عبدوها .

قوله تعالى : « و نفخ في الصور فصعق من في السماوات و من في الأرض إلّا من شاء الله » الخ ظاهر ما ورد في كلامه تعالى في معنى نفخ الصور أنّ النفخ نفختان نفخة للإماتة و نفخة للإحياء، و هو الّذي تدلّ عليه روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام وبعض

ماورد من طرق أهل السنّة عن النبيّ صلى الله عليه وآله و إن كان بعض آخر من رواياتهم لا يخلو عن إبهام و لذا اختار بعضهم أنّها ثلاث نفخات نفخة للإماتة و نفخة للإحياء و البعث و نفخة للفزع و الصعق و قال بعضهم : إنّها أربع نفخات و لكن دون إثبات ذلك من ظواهر الآيات خرط القتاد .

و لعلّ انحصار النفخ في نفختي الإماتة و الإحياء هو الموجب لتفسيرهم الصعق في النفخة الاُولى بالموت مع أنّ المعروف من معنى الصعق الغشية قال في الصحاح : يقال : صعق الرجل صعقا و تصعاقاً أي غشي عليه و أصعقه غيره، ثمّ قال: و قوله تعالى: « فصعق من في السماوات و من في الأرض » أي مات . انتهى .

و قوله : « إلّا من شاء الله » استثناء من أهل السماوات و الأرض و اختلف في من هم ؟

فقيل: هم جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و عزرائيل سادة الملائكة فإنّهم إنّما يموتون بعد ذلك، و قيل: هم هؤلاء الأربعة و حملة العرش، و قيل : هم رضوان والحور و مالك و الزبانية ، و قيل : و هو أسخف الأقوال : إنّ المراد بمن شاء الله هو الله سبحانه . و أنت خبير بأنّ شيأ من هذه الأقاويل لا يستند إلى دليل من لفظة الآيات يصحّ الاستناد إليه .

نعم لو تصوّر لله سبحانه خلق وراءالسماوات و الأرض جاز استثناؤهم من أهلهما استثناء منقطعا أوقيل: إنّ الموت إنّما يلحق الأجساد بانقطاع تعلّق الأرواح بها وأمّا الأرواح فإنّها لا تموت فالأرواح هم المستثنون استثناء متّصلا ، و يؤيّد هذا الوجه بعض[1] الروايات المرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام .

و قوله : « و نفخ فيه اُخرى فإذاهم قيام ينظرون » ضمير « فيه » للصور ، و « اُخرى » صفة محذوف موصوفها أي نفخة اُخرى ، و قيام جمع قائم و « ينظرون » أي ينتظرون أو من النظر بمعناه المعروف .

---

(١) و هو ما ورد فى قوله تعالى : « لمن الملك اليوم » المومن : ١٦ أن الجواب بقوله : « لله الواحد القهار» منأرواح الانبياء و غير ذلك من الروايات .

والمعنى ونفخ في الصور نفخة اُخرى فإذاهم قائمون من قبورهم ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون ماذا يفعل بهم أو فإذاهم قائمون ينظرون نظر المبهوت المتحيّر .

ولا ينافي ما في هذه الآية من كونهم بعد النفخ قياما ينظرون ما في قوله : « ونفخ في الصور فإذاهم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون » يس : ٥١ أي يسرعون ، و قوله : « يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا» النبأ :١٨ ، و قوله : « و يوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات و من في الأرض » النمل :٨٧ فإنّ فزعهم بالنفخ و إسراعهم في المشي إلى عرصة المحشر و إتيانهم إليها أفواجا كقيامهم ينظرون حوادث متقارنة لا يدفع بعضها بعضا .

قوله تعالى : « و أشرقت الأرض بنور ربّها » إلى آخر الآية إشراق الأرض إضاءتها، والنور معروف المعنى وقد استعمل النور في كلامه تعالى في النور الحسيّ كثيرا و اُطلق أيضا على الإيمان و على القرآن بعناية أنّ كلّاً منهما يظهر للمتلبّس به ما خفي عليه لولاه قال تعالى : « الله وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » البقرة : ٢٥٧ ، و قال : « فآمنوا بالله و رسوله و النور الّذي أنزلنا » التغابن : ٨ .

و قد اختلفوا في معنى إشراق الأرض بنور ربّها فقيل : إنّها تضيء بنور يخلقه الله بلا واسطة أجسام مضيئة كالشمس و القمر وإضافته إليه تعالى من قبيل « روحي » و « ناقة الله » .

و فيه أنّه لا يستند إلى دليل يعتمد عليه .

و قيل : المراد به تجلّي الربّ تعالى لفصل القضاء كما ورد في بعض الأخبار من طرق أهل السنّة .

و فيه أنّه على تقدير صحّة الرواية لا يدلّ على المدّعى .

و قيل: المراد به إضاءة الأرض بعدل ربّها يوم القيامة لأنّ نور الأرض بالعدل كما أنّ نور العلم بالعمل .

و فيه أنّ صحّة استعارة النور للعدل في نفسه لا تستلزم كون المراد بالنور في الآية هو العدل إلّا بدليل يدلّ عليه و لم يأت به .

و في الكشّاف : قد استعار الله عزّوجلّ النور للحقّ و البرهان في مواضع من التنزيل و هذا من ذاك ، و المعنى و أشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحقّ و العدل و يبسطه من القسط في الحساب و وزن الحسنات والسيّئات .

و ينادي عليه بأنّه مستعار إضافته إلى اسمه لأنّه هو الحقّ العدل ، و إضافة اسمه إلى الأرض لأنّه يزيّنها حيث ينشر فيها عدله و ينصب فيها موازين قسطه ، و يحكم بالحقّ بين أهلها ، و لا ترى أزين للبقاع من العدل و لا أعمر لها منه ، و في هذه الإضافة أنّ ربّها و خالقها هو الّذي يعدل فيها و إنّما يجور فيها غير ربّها ، ثمّ ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب و المجيىء بالنبيّين و الشهداء و القضاء بالحقّ وهو النور المذكور،و ترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك و أضاءت الدنيا بقسطك كما تقول : أظلمت البلاد بجور فلان قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : الظلم ظلمات يوم القيامة و كما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم . انتهى .

و فيه أوّلا أنّ قوله إنّ النور مستعار في مواضع كثيرة من القرآن للحقّ والقرآن و البرهان فاستعارته للحقّ و البرهان غير ظاهر في شيء من الآيات .

و ثانيا أنّ الحقّ و العدل مفهومان متغايران و إن كانا ربّما يتصادقان و كون النور في الآية مستعاراً للحقّ لا يستلزم كون العدل مراداً به ، و لذا لمّا أراد بيان إرادة العدل من النور ذكر الحقّ مع العدل ثمّ استنتج للعدل دون الحقّ .

و لا يبعد أن يراد - و الله أعلم - من إشراق الأرض بنور ربّها ما هو خاصّة يوم القيامة من انكشاف الغطاء و ظهور الأشياء بحقائقها و بدوّ الأعمال من خير أو شرّ أو طاعة أو معصية أو حقّ أو باطل للناظرين ، و إشراق الشيء هو ظهوره بالنور و لا ريب أنّ مظهرها يومئذ هو الله سبحانه إذ الأسباب ساقطة دونه فالأشياء مشرقة بنور مكتسب منه تعالى .

و هذا الإشراق و إن كان عامّا لكلّ شيء يسعه النور لكن لمّا كان الغرض بيان ما للأرض و أهله يومئذ من الشأن خصّها بالبيان فقال:« و أشرقت الأرض بنور ربّها»

وذكره تعالى بعنوان ربوبيّة الأرض تعريضاً للمشركين المنكرين لربوبيّته تعالى للأرض و ما فيها .

و المراد بالأرض مع ذلك الأرض وما فيها و ما يتعلّق بها كما تقدّم أنّ المراد بالأرض في قوله : « و الأرض جميعا قبضته » ذلك .

و يستفاد ما قدّمناه من مواضع كثيرة من كلامه تعالى كقوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ و قوله : « يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا و ما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ ، و قوله : « يومئذ تحدّث أخبارها بأنّ ربّك أوحى لها يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » الزلزال : ٨ وآيات اُخرى كثيرة تدلّ على ظهور الأعمال و تجسّمها و شهادة الأعضاء و غير ذلك .

وقوله : « و وضع الكتاب » قيل : المراد به الحساب وهو كما ترى وقيل : المراد به صحائف الأعمال الّتي يحاسب عليها و يقضى بها ، و قيل : المراد به اللوح المحفوظ و يؤيّده قوله تعالى: « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون» الجاثية : ٢٩ .

و قوله : « وجيىء بالنبيّين و الشهداء » أمّا النبيّون فليسألوا عن أداء رسالتهم كما يشعر به السياق قال تعالى : « و لنسألنّ الّذين اُرسل إليهم و لنسألنّ المرسلين » الأعراف : ٦ ، و أمّا الشهداء وهم شهداء الأعمال فليؤدّوا ما تحمّلوه من الشهادة قال تعالى : « فكيف إذا جئنا من كلّ اُمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا» النساء: ٤١.

و قوله : « و قضي بينهم بالحقّ وهم لا يظلمون » ضميرا الجمع للناس المعلوم من السياق ، و القضاء بينهم هو القضاء فيما اختلفوا فيه الوارد كراراً في كلامه تعالى قال : « إنّ ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يونس : ٩٣ .

قوله تعالى :«و وفّيت كلّ نفس ما عملت و هو أعلم بما يفعلون» التوفية الإعطاء بالتمام و قد علّقت بنفس ما عملت دون جزائه و يقطع ذلك الريب في كونه قسطا و عدلا من أصله و الآية بمنزلة البيان لقوله : «وهم لا يظلمون » .

و قوله : «و هو أعلم بما يفعلون» أي ليس حكمه بهذا النمط من وضع الكتاب و المجيء بالنبيّين و الشهداء عن جهل منه و حاجة بل لأن يجري حكمه على القسط و العدل فهو أعلم بما يفعلون .

و الآية السابقة تتضمّن القضاء و الحكم و هذه الآية إجراءه و الآيات اللاّحقة تفصيل إجرائه .

قوله تعالى : « و سيق الّذين كفروا إلى جهنّم » إلى آخر الآية السوق بالفتح فالسكون ـ على ما في المجمع ـ الحثّ على السير ، و الزمر جمع زمرة و هي ـ كما في الصحاح ـ الجماعة من الناس .

و المعنى « وسيق » وحثّ على السير « الّذين كفروا إلى جهنّم زمرا» جماعة بعد جماعة « حتّى إذا جاؤها» بلغوها « فتحت أبوابها» لأجل دخولهم و هي سبعة قال تعالى: « لها سبعة أبواب » الحجر : ٤٤ « و قال لهم خزنتها » و هم الملائكة الموكّلون عليها يقولون لهم تهجيناً وإنكاراً عليهم«ألم يأتكم رسل منكم» من نوعكم من البشر«يتلون» و يقرؤن«عليكم آيات ربّكم»من الحجج الدالّة على وحدانيّته و وجوب عبادته «قالوا بلى » قد جاؤا و تلوا « ولكن »كفرنا وكذّبنا و « حقّت كلمة العذاب على الكافرين » وكلمة العذاب هي قوله تعالى حين أمر آدم بالهبوط : « و الّذين كفروا و كذّبوا بآياتنا اُولئك أصحاب النارهم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ .

قوله تعالى :«قيل ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبّرين» القائل ـ على ما يفيده السياق ـ خزنة جهنّم ، و في قوله : « فبئس مثوى المتكبّرين » دلالة على أنّ هؤلاء الّذين كفروا هم المكذّبون بآيات الله المعاندون للحقّ .

قوله تعالى : « وسيق الّذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زمرا حتّى إذا جاؤها و فتحت أبوابها » لم يذكر في الآية جواب إذا إشارة إلى أنّه أمر فوق ما يوصف و وراء ما يقدّر بقدر ، و قوله: «و فتحت أبوابها » حال أي جاؤها و قد فتحت أبوابها، وقوله: « خزنتها » هم الملائكة الموكّلون عليها .

و المعنى «وسيق» وحثّ على السير «الّذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زمرا»جماعة

بعد جماعة « حتّى إذا جاؤها و » قد « فتحت أبوابها و قال لهم خزنتها » الموكّلون عليها مستقبلين لهم « سلام عليكم » أنتم في سلام مطلق لا يلقاكم إلّا ما ترضون « طبتم » و لعلّه تعليل لإطلاق السلام « فادخلوها خالدين » فيها . و هو أثر طيبهم .

قوله تعالى : « و قالوا الحمدلله الّذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض » إلى آخر الآية . القائلون هم المتّقون والمراد بالوعد ما تكرّر في كلامه تعالى و فيما اُوحي إلى سائر الانبياء من وعد المتّقين بالجنّة قال تعالى : « للّذين اتّقوا عند ربّهم جنّات » آل‌عمران : ١٥ . و قال : « إنّ للمتّقين عند ربهم جنّات النعيم » القلم : ٣٤ ، كذا قيل ، و قيل : المراد بالوعد الوعد بالبعث و الثواب .

ولا يبعد أن يراد بالوعد الوعد بإيراث الجنة كما في قوله : «اُولئك هم الوارثون الّذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » المؤمنون : ١١ و يكون قوله : « و أورثنا الأرض » عطف تفسير لقوله « صدقنا وعده » .

و قوله : « وأورثنا الأرض » المراد بالأرض ـ على ما قالوا ـ أرض الجنة وهي الّتي عليها الاستقرار فيها وقد تقدّم في أوّل سورة المؤمنون أنّ المراد بوراثتهم الجنّة بقاؤها لهم بعدما كانت في معرض أن يشاركها غيرهم أو يملكها دونهم لكنّهم زالوا عنها فانتقلت إليهم .

و قوله : «نتبوّء من الجنّة حيث نشاء» بيان لإيراثهم الأرض، و تبديل ضمير الأرض بالجنّة للإشارة إلى أنّها المراد بالأرض .

و قيل : المراد بالأرض هي أرض الدنيا و هو سخيف إلّا أن يوجّه بأنّ الجنّة هي عقبى هذه الدار قال تعالى : «اُولئك لهم عقبى الدار » الرعد : ٢٢ .

والمعنى و قال المتّقون بعد دخول الجنّة : الحمد لله الّذى صدقنا وعده أن سيدخلنا أوأن سيورثنا الجنّة نسكن منها حيث نشاء و نختار ـ فلهم مايشاؤن فيها ـ .

و قوله : « فنعم أجر العاملين » أي فنعم الأجر أجر العاملين لله تعالى ، و هو على ما يعطيه السياق قول أهل الجنّة ، و احتمل أن يكون من قوله تعالى .

قوله تعالى : « وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبّحون بحمد ربّهم »

إلى آخر الآية . الحفّ الإحداق و الإحاطة بالشيء ، والعرش هو المقام الّذي يصدر منه الفرامين والأوامر الإلهيّة الّتي يدبّر بها العالم ، والملائكة هم المجرون لمشيّته العاملون بأمره ، و رؤية الملائكة على تلك الحال كناية عن ظهور ذلك و قد طويت السماوات .

والمعنى وترى يومئذ الملائكة والحال أنّهم محدقون بالعرش مطيفون به لإجراء الأمر الصادر منه و هم يسبّحون بحمد ربّهم .

و قوله : « و قضي بينهم » احتمل رجوع الضمير إلى الملائكة ، و رجوعه إلى الناس و الملائكة جميعا ، و رجوعه إلى جميع الخلائق ، و رجوعه إلى الناس فالقضاء بين أهل الجنّة و أهل النار منهم أو بين الأنبياء و اُممهم .

و يضعّف الاحتمال الأخير أنّ القضاء بين الناس قد ذكر قبلا في قوله : « وقضي بينهم بالحقّ وهم لا يظلمون » فذكر القضاء بينهم ثانياً تكرار من غير موجب .

لكن ظاهر القضاء بين جماعة هو الحكم لبعضهم على بعض لوجود اختلاف مّا بينهم ولا تحقّق للاختلاف بين الملائكة ، وهذا يؤيّد أن يكون الضمير لغيرهم والقضاء بين الناس غير أنّ القضاء كما يطلق على نفس حكم الحاكم يصحّ إطلاقه على مجموع الحكم و مقدّماته و تبعاته من حضور المتخاصمين و طرح الدعوى و شهادة الشهود و حكم الحاكم وإيفاء المحقّ حقّه فمن الممكن أن يكون المراد بالقضاء المذكور أوّلا نفس الحكم الإلهيّ و بهذا القضاء المذكور ثانيا هو مجموع ما يجري عليهم من حين يبعثون إلى حين دخول أهل النار النار و أهل الجنة الجنة واستقرارهم فيهما و بذلك يندفع إشكال التكرار من غير موجب .

و قوله : « وقيل الحمد لله ربّ العالمين » كلمة خاتمة للبدء و العود و ثناء عامّ له تعالى أنّه لم يفعل ولا يفعل إلّا الجميل .

قيل : قائله المتّقون وكان حمدهم الأوّل على دخولهم الجنّة و الثاني للقضاء بينهم و بين غيرهم بالحقّ ، و قيل : قائله الملائكة ولم ينسب إليهم صريحاً لتعظيم أمرهم ، و قيل : القائل جميع الخلائق .

و يؤيّد الأوّل قوله تعالى في صفة أهل الجنّة : « و آخر دعواهم أن الحمدلله ربّ العالمين » يونس : ۱۰ و هو حمد عامّ خاتم للخلقة كما سمعت .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « لئن أشركت ليحبطنّ عملك و لتكوننّ من الخاسرين » فهذه مخاطبة النبيّ صلى الله عليه وآله و المعنى لاُمّته ، و هو ما قال الصادق عليه السلام : إنّ الله عزّ وجلّ بعث نبيّه بإيّاك أعني و اسمعي يا جارة .

و عن كتاب التوحيد بإسناده إلى الفضيل بن يسار قال : سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول : إنّ الله عزّ وجلّ لا يوصف .

قال : و قال زرارة : قال أبوجعفر عليه السلام : إنّ الله لا يوصف وكيف يوصف و قد قال في كتابه : « و ما قدروا الله حقّ قدره ؟ » فلا يوصف بقدر إلّا كان أعظم من ذلك .

و فيه بإسناده عن سليمان بن مهران قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » قال : ملكه لا يملكها معه أحد .

والقبض عن الله تعالى في موضع آخر المنع و البسط منه الإعطاء و التوسّع كما قال عزّ وجلّ : « والله يقبض و يبسط و إليه ترجعون » يعني يعطي و يوسّع و يضيّق، و القبض منه عزّ وجلّ في وجه آخر الأخذ و الأخذ في وجه القبول منه كما قال : « و يأخذ الصدقات » أي يقبلها من أهلها و يثيب عليها .

قلت : فقوله عزّ وجلّ : « و السماوات مطويّات بيمينه » ؟ قال : اليمين اليد و اليد القدرة و القوّة يقول عزّ وجلّ : «والسماوات مطويّات بيمينه» أي بقدرته وقوّته سبحانه و تعالى عمّا يشركون .

أقول : و روى في الدرّ المنثور عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: « فصعق من في السماوات و من في الأرض إلّا من شاء الله» أنّهم الشهداء مقلّدون بأسيافهم حول عرشه الخبر و ظاهره أنّ النفخة غير نفخة الإماتة و قد تقدّم أنّ الآية ظاهرة في خلافه .

و روى عن أنس عنه صلى الله عليه وآله أنّهم جبريل و ميكائيل و إسرافيل و ملك الموت و حملة العرش و أنّهم يموتون بعدها الخبر والآية ظاهرة في خلافه .

و روى عن جابر : استثنى موسى لأنّه كان صعق قبل ، الخبر و فيه أنّ الصعق سواء اُخذ بمعنى الموت أو بمعنى الغشية لايختصّ الصعق قبل ذلك بموسى عليه السلام.

و في المجمع في قوله تعالى : « لها سبعة أبواب » فيه قولان أحدهما ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ جهنّم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض و وضع إحدى يديه على الاُخرى فقال : هكذا وأنّ الله وضع الجنان على العرض ، و وضع النيران بعضها فوق بعض فأسفلها جهنّم ، و فوقها لظى ، وفوقها الحطمة ، و فوقها سقر ، وفوقها الجحيم ، و فوقها السعير ، و فوقها الهاوية و في رواية الكلبيّ أسفلها الهاوية و أعلاها جهنّم .

و في الخصال عن أبي عبدالله عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليهم السلام قال : إنّ للجنّة ثمانية أبواب : باب يدخل منه النبيّون و الصدّيقون ، و باب يدخل منه الشهداء و الصالحون ، و خمسة أبواب يدخل منها شيعتنا و محبّونا .

فلا أزال واقفا على الصراط أدعو و أقول : ربّ سلّم شيعتي و محبّيّ و أنصاري و من تولّاني في دار الدنيا فإذا النداء من بطنان العرش قد اُجيبت دعوتك وشفّعت في شيعتك و يشفع كلّ رجل من شيعتي و من تولّاني و نصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه .

وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن يشهد أن لاإله إلّاالله ولم يكن في قلبهمثقال ذرّة من بغضنا أهل البيت .

سورة المؤمن مكيّة وهي خمس و ثمانون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حٰمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غٰافِرِ الذَّنْبِ وَ قٰابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقٰابِ ذِي الطَّوْلِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) مٰا يُجٰادِلُ فِي آيٰاتِ اللّٰهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاٰ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاٰدِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزٰابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جٰادَلُوا بِالْبٰاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كٰانَ عِقٰابِ (٥) وَ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحٰابُ النّٰارِ (٦) .

﴿ بيان ﴾

تتكلّم السورة في استكبار الكافرين و مجادلتهم بالباطل ليدحضوا به الحقّ الّذي يُدعون إليه و لذلك نراها تذكر جدالهم و تعود إليه عودة بعد عودة « ما يجادل في آيات الله إلاّ الّذين كفروا فلايغررك تقلّبهم في البلاد » « الّذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا » « ألم ترإلى الّذين يجادلون في آيات الله أنّى يصرفون» .

فتكسر سورة استكبارهم وجدالهم بذكر ماعاقب الله به الماضين من الاُمم المكذّبين وما أعدّ الله لهم من العذاب المهين بذكر طرف ممّا يجري عليهم في الآخرة .

وتدحض باطل أقاويلهم بوجوه من الحجج الناطقة بتوحّده في الربوبيّة والاُلوهية وتأمر النبيّ صلّى الله عليه وآله بالصبر و تعده و المؤمنين به بالنصر ، و تأمره أن يؤذنهم أنّه مسلم لربّه غير تارك لعبادته فلييأسوا منه .

و السورة مكيّة كلّها لاتّصال آياتها و شهادة مضامينها بذلك ، و ما قيل فيه من الآيات أنّه نزل بالمدينة لايعبؤبه و سيجيىء الإشارة إليها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : «حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » التنزيل مصدر بمعنى المفعول فقوله : « تنزيل الكتاب » من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها و التقدير هذا كتاب منزّل من الله .

و تخصيص الوصفين : «العزيز العليم » بالذكر قيل : للإشارة إلى ما في القرآن من الإعجاز وأنواع العلوم الّتي يضيق عنها نطاق الأفهام ،و قيل : هومن باب التفنّن.

والوجه أن يقال : إنّ السورة لمّا كانت تتكلّم حول جحد الجاحدين ومجادلتهم في آيات الله بالباطل جهلا و هم يحسبونه علما و يعتزّون به كما حكى ذلك عنهم في خاتمة السورة بقوله : «فلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم»وكما حكى عن فرعون قوله لقومه في موسى : « إنّي أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » و قوله لهم : « ما اُريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد».

افتتح الكلام في السورة بما فيه إشارة إلى أنّ هذا الكتاب النازل عليهم تنزيل ممّن هو عزيز على الإطلاق لا يغلبه غالب حتّى يخاف على ما نزّله من استعلائهم و استكبارهم بحسب أوهامهم ، عليم على الإطلاق لايداخل علمه جهل و ضلال فلايقاوم جدالهم بالباطل مانزّله من الحقّ و بيّنه بحججه الباهرة .

و يؤيّد هذا الوجه ما في الآية التالية من قوله : « غافر الذنب و قابل التوب» الخ على ما سنبيّن .

قوله تعالى : « غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلّا هو إليه المصير » الإتيان بصيغة اسم الفاعل في « غافر الذنب و قابل التوب » ـ لعلّه ـ للدلالة على الاستمرار التجدّديّ فإنّ المغفرة و قبول التوب من صفاته الفعليّة و لا يزال تعالى يغفر الذنب ثمّ يغفر و يقبل التوب ثمّ يقبل .

و إنّما عطف قابل التوب على ما قبله دون « شديد العقاب ذي الطول » لأنّ غافرالذنب وقابل التوب مجموعهماكصفة واحدة متعلّقة بالعباد المذنبين يغفر لهم تارةبتوبة

و تارة بغيرها كالشفاعة .

والعقاب و المعاقبة المؤاخذة الّتي تكون في عاقبة الذنب قال الراغب : والعُقُب و العقبى يختصّان بالثواب نحو خير ثوابا و خير عقبا ، و قال تعالى : اُولئك لهم عقبى الدار ، و العاقبة إطلاقها يختصّ بالثواب نحو و العاقبة للمتّقين ، وبالإضافة قدتستعمل في العقوبة نحو ثمّ كان عاقبة الّذين أساؤا ، وقوله : فكان عاقبتهما أنّهما في النار يصحّ أن يكون ذلك استعارة من ضدّه ، والعقوبة والمعاقبة والعقاب تختصّ بالعذاب .انتهى.

فشديد العقاب كذي انتقام من أسماء الله الحسنى تحكي صفته تعالى في جانب العذاب كما يحكي الغفور و الرحيم صفته تعالى في جانب الرحمة .

و الطول ـ على ما في المجمع ـ الإنعام الّذي تطول مدّته على صاحبه فذو الطول من أسمائه الحسنى في معنى المنعم لكنّه أخصّ من المنعم لعدم شموله النعم القصار.

و ذكر هذه الأسماء الأربعة : غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذي الطول بعد اسم العليم للإشارة إلى أنّ تنزيل هذا الكتاب المشتمل على دعوته الحقّة المبنيّ على العلم مبنيّ على أساس ما تقتضيه مضامين هذه الأسماء الأربعة .

و ذلك أنّ العالم الإنسانيّ كما يتّحد قبيلا واحداً في نيل الطول الإلهيّ و التنعّم بنعمه المستمرّة المتوالية مدى الحياة الدنيا ينقسم من حيث حياته الآخرة قسمين وينشعب إلى شعبتين : سعيد وشقيّ والله سبحانه عالم بتفاصيل خلقه وكيف لا يعلم ؟وهو خالقها و فاعلها ، و مقتضى كونه غافراً للذنب قابلا للتوب أن يغفر لمن استعدّ للمغفرة و أن يقبل توبة التائب إليه ، و مقتضى كونه شديد العقاب أن يعاقب من استحقّ ذلك.

و مقتضى ذلك أن يهدي الناس إلى صراط السعادة كما قال : « إنّ علينا للهدى و إنّ لنا للآخرة و الاُولى » الليل : ١٣ ، و قال: « و على الله قصد السبيل» النحل:٩. لينقسم الناس بذلك قسمين ويتميّز عنده السعيد من الشقيّ والمهتدي من الضالّ فيرحم هذا ويعذّب ذلك.

فتنزيل الكتاب من الله العزيز العليم مبنيّ على علمه المحيط بخلقه أنّهم في حاجة إلى دعوة يهتدي بها قوم و يضلّ بردّها آخرون ليغفر لقوم ويعذّب آخرين ،

وفي حاجة إليها لينتظم بها نظام معاشهم في الدنيا فينعّموا بطوله ونعمته في الدنيا ثمّ في دار القرار .

فهذا شأن كتابه المنزّل بعلمه الّذي لا يشوبه جهل والمبنيّ على الحقّ الّذي لايداخله باطل ، و أين هو من تكذيب الّذين لايعلمون إلّا ظاهراً من الحياة وجدالهم بالباطل ليدحضوا به الحقّ .

وعلى هذا الّذي ذكرنا من العناية بالعلم يشهد ماسيذكره تعالى من دعاء الملائكة للمؤمنين بالمغفرة : «ربّنا وسعت كلّ شيء رحمة وعلما فاغفر للّذين تابوا واتّبعوا سبيلك» فتدبّر فيه .

وقوله : « لاإله إلّا هو إليه المصير» ذكر كلمة التوحيد للإشارة إلى وجوب عبادته وحده فلاتلغو الدعوة الدينيّة بتنزيل الكتاب ، و ذكر كون مصير الكلّ و رجوعهم إليه وهو البعث للإشارة إلى أنّه هو السبب العمدة الداعي إلى الإيمان بالكتاب واتّباعه فيما يدعو إليه لأنّ الاعتقاد بيوم الحساب هو الّذي يستتبع الخوف و الرجاء خوف العقاب و رجاء الثواب الداعيين إلى عبادة الله سبحانه .

قوله تعالى : «ما يجادل في آيات الله إلّا الّذين كفروا فلايغررك تقلّبهم في البلاد» لمّا ذكر تنزيل الكتاب و أشار إلى الحجّة الباهرة على حقّيّته ، المستفادة من صفاته الكريمة المعدودة في الآيتين ، الدالّة على أنّه منزّل بعلمه الّذي لا يشوبه جهل وبالحقّ الّذي لايدحضه باطل تعرّض لحال الّذين قابلوا حججه الحقّة بباطل جدالهم فلوّح إلى أنّ هؤلاء أهل العقاب وليسوا بفائتين و لامغفولا عنهم فإنّه كما نزّل الكتاب ليغفر الذنب و يقبل التوب كذلك نزّله ليعاقب أهل العقاب فلايسوءنّ النبيّ صلى الله عليه وآله جدالهم ولايغرّنّه ما يشاهده من حالهم .

فقوله : « ما يجادل في آيات الله » لم يقل : ما يجادل فيه أي في القرآن ليدلّ على أنّ الجدال في الحقّ الّذي تدلّ عليه الآيات بماهي آيات . على أنّ طرف جدالهم هو النبيّ صلى الله عليه وآله وهو داع إلى الحقّ الّذي تدلّ عليه الآيات فجدالهم لدفع الحقّ لا للدفاع عن الحقّ . على أنّ الجدال في الآية التالية مقيّدة بالباطل لإدحاض الحقّ .

فالمراد بالمجادلة في آيات الله هي المجادلة لإدحاضها و دفعها و هي المذمومة و لا تشمل الجدال لإثبات الحقّ و الدفاع عنه كيف؟ و هو سبحانه يأمر نبيّه صلى الله عليه و آله بذلك إذا كان جدالا بالّتي هي أحسن قال تعالى: « و جادلهم بالّتي هي أحسن » النحل: ١٢٥.

و قوله: « إلّا الّذين كفروا » ظاهر السياق أنّهم الّذين رسخ الكفر في قلوبهم فلا يرجى زواله، وقد قيل: « ما يجادل » و لم يقل: لا يجادل، و كذا ظاهر قوله: « فلا يغررك تقلّبهم في البلاد » أنّ المراد بهم الكفّار المعاصرون للنبيّ صلى الله عليه و آله و إن لم يكونوا من أهل مكّة.

و تقلّبهم في البلاد انتقالهم من طور من أطوار الحياة إلى طور آخر و من نعمة إلى نعمة في سلامة و صحّة و عافية، و توجيه النهي عن الغرور إلى تقلّبهم في البلاد كناية عن نهي النبيّ صلى الله عليه و آله عن الاغترار بما يشاهده منهم أن يحسب أنّهم أعجزوه سبحانه.

قوله تعالى: « كذّبت قبلهم قوم نوح و الأحزاب من بعدهم » الخ في مقام الجواب عمّا يسبق إلى الوهم أنّهم استكبروا و جادلوا في آيات الله فلم يكن بهم بأس و سبقوا في ذلك.

و محصّل الجواب أنّ الاُمم الماضين كقوم نوح و الأحزاب من بعدهم كعاد و ثمود و قوم لوط و غيرهم سبقوا هؤلاء إلى مثل صنيعهم من التكذيب و الجدال بالباطل و همّوا برسولهم ليأخذوه فحلّ بهم العقاب و كذلك قضى في حقّ الكفّار العذاب فتوهّم أنّ هؤلاء سبقوا الله إلى ما يريد توهّم باطل.

فقوله: « كذّبت قبلهم قوم نوح و الأحزاب من بعدهم » دفع للدخل السابق و لذا جيىء بالفصل، و قوله: « و همّت كلّ اُمّة برسولهم ليأخذوه » يقال: همّ به أي قصده و يغلب فيه القصد بالسوء أى قصدوا رسولهم ليأخذوه بالقتل أو الإخراج أو غيرهما كما قصّه الله تعالى في قصصهم.

و قوله: « و جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقّ » الإدحاض الإزالة و الإبطال

و قوله : « فأخذتهم » أي عذّبتهم، و فيه التفات من الغيبة إلى التكلّم وحده و النكتة فيه الإشارة إلى أنّ أمرهم في هذا الطغيان و الاستكبار إلى الله وحده لا يدخل بينه و بينهم أحد بنصرة أو شفاعة كما قال:«فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب إنّ ربّك لبالمرصاد» الفجر : ١٤ .

و قوله : « فكيف كان عقاب » توجيه لذهن المخاطب إلى ما يعلمه من كيفيّة إهلاكهم و قطع دابرهم ليحضر شدّة ما نزل بهم و قد قصّه الله فيما قصّ من قصصهم .

قوله تعالى : «وكذلك حقّت كلمة ربّك على الّذين كفروا أنّهم أصحاب النار» ظاهر السياق أنّ المشبّه به هو ما في الآية السابقة من أخذهم و عقابهم،و المراد بالّذين كفروا مطلق الكفّار من الماضين و المعنى كما أخذ الله المكذّبين من الماضين بعذاب الدنيا كذلك حقّت كلمته على مطلق الكافرين بعذاب الآخرة ، و الّذين كفروا من قومك منهم .

و قيل: المراد بالّذين كفروا كفّار مكّة،و لا يساعد عليه السياق و التشبيه لا يخلو عليه من اختلال .

و في قوله : «كلمة ربّك » و لم يقل :كلمتي تطييب لنفس النبيّ صلى الله عليه وآله و تأييد له بالإشارة إلى أنّ الركن الّذي يركن إليه هو الشديد القويّ .

✩ ✩ ✩

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ أَزْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ انَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) انَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللّٰهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ اذْتُدْعَوْنَ الَى الْايمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ الَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ اذَا دُعِيَ اللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ انْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) .

﴿ بيان ﴾

لمّا ذكر سبحانه تكذيب الّذين كفروا وجدالهم في آيات الله بالباطل ولوّح إلى أنّهم غيرمعجزين ولامغفول عنهم بل معنيّون في هذه الدعوة و العناية فيهم أن يتميّزوا فيحقّ عليهم كلمة العذاب فيعاقبوا عاد إلى بدء الكلام الّذي أشار فيه إلى أنّ تنزيل الكتاب و إقامة الدعوة لمغفرة جمع و قبول توبتهم و عقاب آخرين فذكر أنّ الناس قبال هذه الدعوة قبيلان:قبيل تستغفر لهم حملة العرش والحافّون به من الملائكة وهم التائبون إلى الله المتّبعون سبيله و من صلح من آبائهم و أزواجهم و ذرّيّاتهم ، و قبيل ممقوتون

معذّبون وهم الكافرون بالتوحيد .

قوله تعالى :«الّذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به » إلى آخر الآية . لم يعرّف سبحانه هؤلاء الحاملين للعرش من هم ؟ و لا في كلامه تصريح بأنّهم من الملائكة لكن يشعر عطف قوله: «و من حوله » عليهم و قد قال فيهم: « و ترى الملائكة حافّين من حول العرش » الزمر : ٧٥ أنّ حملة العرش أيضا من الملائكة .

و قد تقدم تفصيل الكلام في معنى العرش في الجزء الثامن من الكتاب .

فقوله : «الّذين يحملون العرش ومن حوله» أي الملائكة الّذين يحملون العرش الّذي منه تظهر الأوامر و تصدر الأحكام الإلهيّة الّتي بها يدبّر العالم،و الّذين حول العرش من الملائكة و هم المقرّبون منهم .

وقوله : «يسبّحون بحمد ربّهم » أي ينزّهون الله سبحانه والحال أنّ تنزيههم له يصاحب ثناءهم لربّهم فهم ينزّهونه تعالى عن كلّ ما لا يليق بساحة قدسه و من ذلك وجود الشريك في ملكه و يثنون عليه على فعله و تدبيره .

و قوله : « و يؤمنون به » إيمانهم به - و الحال هذه الحال عرش الملك والتدبير لله وهم حاملوه أو مطيفون حوله لتلقّي الأوامر و ينزّهونه عن كلّ نقص ويحمدونه على أفعاله - معناه الإيمان بوحدانيّته في ربوبيّته و اُلوهيّته ففي ذكر العرش و نسبة التنزيه والتحميد والإيمان إلى الملائكة ردّ للمشركين حيث يعدّون الملائكة المقرّبين شركاء لله في ربوبيّته و اُلوهيّته و يتّخذونهم أربابا آلهة يعبدونهم .

و قوله : « و يستغفرون للّذين آمنوا » أي يسألون الله سبحانه أن يغفر للّذين آمنوا .

و قوله : « ربّنا وسعت كلّ شيء رحمة و علما » الخ حكاية متن استغفارهم و قد بدؤا فيه بالثناء عليه تعالى بسعة الرحمة والعلم ، و إنّما ذكروا الرحمة وشفّعوها بالعلم لأنّه برحمته ينعم على كلّ محتاج فالرحمة مبدء إفاضة كلّ نعمة ، و بعلمه يعلم حاجة كلّ محتاج مستعدّ للرحمة .

وقوله : « فاغفر للّذين تابوا و اتّبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » تفريع على ما أثنوا به من سعة الرحمة و العلم ، و المراد بالسبيل الّتي اتّبعوها هو ما شرع لهم من الدين و هو الإسلام و اتّباعهم له هو تطبيق عملهم عليه فالمراد بتوبتهم رجوعهم إليه تعالى بالإيمان والمعنى فاغفر للّذين رجعوا إليك بالإيمان بوحدانيّتك وسلوك سبيلك الّذي هو الإسلام وقهم عذاب الجحيم و هو غاية المغفرة وغرضها .

قوله تعالى : « ربّنا و أدخلهم جنّات عدن الّتي وعدتهم » إلى آخر الآية تكرار النداء بلفظة ربّنا لمزيد الاستعطاف و المراد بالوعد وعده تعالى لهم بلسان رسله و في كتبه .

وقوله : « و من صلح من آبائهم و أزواجهم و ذرّيّاتهم » عطف على موضع الضمير في قوله : « و أدخلهم » و المراد بالصلوح صلاحية دخول الجنّة ، و المعنى و أدخل من صلح لدخول الجنّة من آبائهم و أزواجهم و ذرّيّاتهم جنّات عدن .

ثمّ من المعلوم من سياق الآيات أنّ استغفارهم لعامّة المؤمنين ، و من المعلوم أيضاً أنّهم قسّموهم قسمين اثنين قسّموهم إلى الّذين تابوا و اتّبعوا سبيل الله وقد وعدهم الله جنّات عدن ، و إلى من صلح وقد جعلوا الطائفة الاُولى متبوعين و الثانية تابعين .

ويظهر منه أنّ الطائفة الاُولى هم الكاملون في الإيمان والعمل على ما هو مقتضى حقيقة معنى قولهم : « الّذين تابوا و اتّبعوا سبيلك » فذكروهم و سألوه أن يغفر لهم و ينجز لهم ما وعدهم من جنّات عدن ، و الطائفة الثانية دون هؤلاء في المنزلة ممّن لم يستكمل الإيمان و العمل من ناقص الإيمان و مستضعف وسيّىء العمل من منسوبي الطائفة الاُولى فذكروهم وسألوه تعالى أن يلحقهم بالطائفة الاُولى الكاملين في جنّاتهم ويقيهم السيّآت .

فالآية في معنى قوله تعالى : « و الّذين آمنوا و اتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرّيّتهم و ما ألتناهم من عملهم من شيء » الطور : ٢١ غير أنّ الآية الّتي نحن فيها أوسع و أشمل لشمولها الآباء والأزواج بخلاف آية سورة الطور ، و المأخوذ فيها الصلوح و هو أعمّ من الإيمان المأخوذ في آية الطور .

وقوله : « إنّك أنت العزيز الحكيم » تعليل لقولهم : « فاغفر للّذين تابوا » إلى آخر مسألتهم ، و كان الّذي يقتضيه الظاهر أن يقال : إنّك أنت الغفور الرحيم لكنّه عدل إلى ذكر الوصفين : العزيز الحكيم لأنّه وقع في مفتتح مسألتهم الثناء عليه تعالى بقولهم : « ربّنا وسعت كلّ شيء رحمة و علما » . و لازم سعة الرحمة وهي عموم الإعطاء أنّ له أن يعطي ما يشاء لمن يشاء و يمنع ما يشاء ممّن يشاء و هذا معنى العزّة الّتي هي القدرة على الإعطاء و المنع ، ولازم سعة العلم لكلّ شيء أن ينفذ العلم في جميع أقطار الفعل فلا يداخل الجهل شيأ منها و لازمه إتقان الفعل وهو الحكمة .

فقوله : « إنّك أنت العزيز الحكيم » في معنى الاستشفاع بسعة رحمته وسعة علمه تعالى المذكورتين في مفتتح المسألة تمهيدا وتوطئة لذكر الحاجة وهي المغفرة والجنّة .

قوله تعالى : « وقهم السيّآت و من تق السيّآت يومئذ فقد رحمته » الخ ظاهر السياق أنّ الضمير في « قهم » للّذين تابوا ومن صلح جميعا .

و المراد بالسيّآت ـ على ما قيل ـ تبعات المعاصي وهي جزاؤها وسمّيت التبعات سيّآت لأنّ جزاء السيّىء سيّىء قال تعالى : «وجزاء سيّئة سيّئة مثلها » الشورى: ٤٠.

و قيل : المراد بالسيّآت المعاصي والذنوب نفسها و الكلام على تقدير مضاف و التقدير وقهم جزاء السيّآت أو عذاب السيّآت .

والظاهر أنّ الآية من الآيات الدالّة على أنّ الجزاء بنفس الأعمال خيرها وشرّها ، وقد تكرّر في كلامه تعالى أمثال قوله : « إنّما تجزون ما كنتم تعملون » التحريم: ٧ .

و كيف كان فالمراد بالسيّآت الّتي سألوا وقايتهم عنها هي الأهوال و الشدائد الّتي تواجههم يوم القيامة غير عذاب الجحيم فلا تكرار في قوليهم : « وقهم عذاب الجحيم» « وقهم السيّآت» .

و قيل : المراد بالسيّآت نفس المعاصي الّتي في الدنيا ، وقولهم : « يومئذ » إشارة إلى الدنيا ، و المعنى واحفظهم من اقتراف المعاصي و ارتكابها في الدنيا بتوفيقك .

وفيه أنّ السياق يؤيّد كون المراد بيومئذ يوم القيامة كما يشهد به قولهم :«وقهم عذاب الجحيم » و قولهم : « و أدخلهم جنّات عدن » الخ فالحقّ أنّ المراد بالسيّآت

مايظهر للناس يوم القيامة من الأهوال و الشدائد .

ويظهر من هذه الآيات المشتملة على دعاء الملائكة ومسألتهم :

أوّلا أنّ من الأدب في الدعاء أن يبدء بحمده والثناء عليه تعالى ثمّ يذكر الحاجة ثمّ يستشفع بأسمائه الحسنى المناسبة له .

و ثانيا أنّ سؤال المغفرة قبل سؤال الجنّة و قد كثر ذكر المغفرة قبل الجنّة في كلامه تعالى إذا ذكرا معاً ، و هو الموافق للاعتبار فإنّ حصول استعداد أيّ نعمة كانت بزوال المانع قبل حصول نفس النعمة .

و ذكر بعضهم أنّ في قوله : « فاغفر للّذين تابوا » الآية دلالة على أنّ إسقاط العقاب عند التوبة تفضّل من الله تعالى إذ لو كان واجبا لكان لا يحتاج فيه إلى مسألتهم بل كان يفعله الله سبحانه لا محالة .

وفيه أنّ وجوب صدور الفعل عنه تعالى لاينافي صحّة مسألته و طلبه منه تعالى كما يشهد به قولهم بعد الاستغفار : « ربّنا و أدخلهم جنّات عدن الّتي وعدتهم » فقد سألوا لهم الجنّة مع اعترافهم بأنّ الله وعدهم إيّاها و وعده تعالى واجب الإنجاز فإنّه لا يخلف الميعاد ، و أصرح من هذه الآية قوله يحكي عن المؤمنين : « ربّنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك و لا تخزنا يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد » آل عمران : ١٩٤.

وقبول التوبة ممّا أوجبه الله تعالى على نفسه و جعله حقّا للتائبين عليه قال تعالى: « إنّما التوبة على الله للّذين يعملون السوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب فاُولئك يتوب الله عليهم » النساء : ١٧ فطلب كلّ حقّ أوجبه الله تعالى على نفسه منه كسؤال المغفرة للتائب هو في الحقيقة رجوع إليه لاستنجاز ما وعده و إظهار اشتياق للفوز بكرامته .

وكذا لا يستلزم التفضّل منه تعالى كون الفعل جائز الصدور غير واجبه فكلّ عطيّة من عطاياه تفضّل سواء كانت واجبة الصدور أم لم تكن إذ لو كان فعل من أفعاله واجب الصدور عنه لم يكن إيجابه عليه بتأثير من غيره فيه و قهره عليه إذ هو المؤثّر في كلّ شيء لا يؤثّر فيه غيره بل كان ذلك بإيجاب منه تعالى على نفسه و يؤل معناه إلى قضائه تعالى فعل شيء من الأفعال و إفاضة عطيّة من العطايا قضاء حتم فيكون سبحانه

إنّما يفعله بمشيّة من نفسه منزّهاً عن إلزام الغير إيّاه عليه متفضّلاً به فالفعل تفضّل منه وإن كان واجب الصدور ، وأمّا لو لم يكن الفعل واجب الصدور فكونه تفضّلاً أوضح .

قوله تعالى : « إنّ الّذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » المقت أشدّ البغض . لمّا ذكر المؤمنين ببعض ما لهم من جهة إيمانهم رجع إلى ذكر الكافرين ببعض ما عليهم من جهة كفرهم .

و ظاهر الآية و الآية التالية أنّ هذا النداء المذكور فيها إنّما ينادون به في الآخرة بعد دخول النار حين يذوقون العذاب لكفرهم فيظهر لهم أنّ كفرهم في الدنيا إذ كانوا يدعون من قبل الأنبياء إلى الإيمان كان مقتاو شدّة بغض منهم لأنفسهم حيث أوردوها بذلك مورد الهلاك الدائم .

و ينادون من جانب الله سبحانه فيقال لهم : اُقسم لمقت الله وشدّة بغضه لكم أكبر من مقتكم أنفسكم وشدّة بغضكم لها إذ تدعون - حكاية حال ماضية - إلى الإيمان من قبل الأنبياء فتكفرون .

قوله تعالى : « قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين و أحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » سياق الآية و ما قبلها يشعر بأنّهم يقولون هذا القول بعد استماع النداء السابق ، و إنّما يقولونه و هم في النار بدليل قولهم : « فهل إلى خروج من سبيل » .

و تقديم هذا الاعتراف منهم نوع تسبيب و توسّل إلى التخلّص من العذاب و لات حين مناص ؛ و ذلك أنّهم كانوا - و هم في الدنيا - في ريب من البعث و الرجوع إلى الله فأنكروه و نسوا يوم الحساب و كان نسيان ذلك سبب استرسالهم في الذنوب و ذهابهم لوجوههم في المعاصي و نسيان يوم الحساب مفتاح كلّ معصية و ضلال قال تعالى : « إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ص : ٢٦ .

ثمّ لمّا أماتهم الله إماتة بعد إماتة وأحياهم إحياءة بعد إحياءة زال ارتيابهم في أمر البعث و الرجوع إلى الله بما عاينوا من البقاء بعد الموت والحياة بعد الحياة و قد كانوا

يرون أنّ الموت فناء ، و يقولون إن هي إلّا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين .

و بالجملة زال عنهم الارتياب بحصول اليقين وبقيت الذنوب و المعاصي و لذلك توسّلوا إلى التخلّص من العذاب بالاعتراف فتارة اعترفوا بحصول اليقين كما حكاه الله عنهم في قوله : « ولو ترى إذالمجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربّهم ربّنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنّا موقنون » الم السجدة : ١٢ ، و تارة اعترفوا بذنوبهم كما في الآية المبحوث عنها و قدكانوا يرون أنّهم أحرار مستقلّون في إرادتهم و أفعالهم لهم أن يشاؤا ما شاؤا و أن يفعلوا ما فعلوا و لا حساب و لاذنب .

و من ذلك يظهر وجه ترتّب قولهم : « فاعترفنا بذنوبنا » على قولهم :« أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » فالاعتراف في الحقيقة مترتّب علىحصول اليقين بالمعاد الموجب لحصول العلم بكون انحرافاتهم عن سبيل الله ضلالات و ذنوبا .

والمراد بقولهم : « أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » ـكما قيل ـ الإماتة عن الحياة الدنيا و الإحياء للبرزخ ثمّ الإماتة عن البرزخ و الإحياء للحساب يومالقيامة فالآية تشير إلى الإماتة بعد الحياة الدنيا و الإماتة بعد الحياة البرزخيّة و إلى الإحياء في البرزخ والإحياء ليوم القيامة و لولا الحياة البرزخيّة لم تتحقّق الإماتة الثانية لأنّ كلّامن الإماتة و الإحياء يتوقّف تحقّقه على سبق خلافه .

ولم يتعرّضوا للحياة الدنيا ولم يقولوا : وأحييتنا ثلاثا و إن كانت إحياءلكونها واقعة بعد الموت الّذي هو حال عدم ولوج الروح لأنّ مرادهم ذكر الإحياء الّذي هو سبب الإيقان بالمعاد وهو الإحياء في البرزخ ثمّ في القيامة وأمّا الحياة الدنيويّة فإنّها وإنكانت إحياء لكنّها لاتوجب بنفسها يقينا بالمعاد فقدكانوا مرتابينفي المعاد وهمأحياء في الدنيا .

و بما تقدّم منالبيان يظهر فساد مااعترض عليه بأنّه لو كان المراد بالإحياءتين ما كان في البرزخ وفي الآخرة لكان منالواجب أن يقال : « أمتّنااثنتين وأحييتناثلاثا » إذ ليس المراد إلّا ذكر ما مرّ عليهم من الإماتة و الإحياءة و ذلك إماتتان اثنتان و إحياءآت ثلاث .

و الجواب أنّه ليس المراد هو مجرّد ذكر الإماتة و الإحياءة اللّتين مرّتا عليهم كيفما كانتا بل ذكر ما كان منهما مورثا لليقين بالمعاد ، و ليس الإحياء الدنيويّ على هذه الصفة .

و قيل : المراد بالإماتة الاُولى حال النطفة قبل ولوج الروح ، و بالإحياءة الاُولى ماهوحال الإنسان بعد ولوجها ، وبالإماتة الثانية إماتته في الدنيا ، وبالاحياءة الثانية إحياءته بالبعث للحساب يوم القيامة ، والآية منطبقة على مافي قوله تعالى:«كيف تكفرون بالله و كنتم أمواتا فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم » البقرة : ٢٨ .

و لمّا أحسّوا بعدم صدق الإماتة على حال الإنسان قبل ولوج الروح في جسده لتوقّفها على سبق الحياة تمحّلوا في تصحيحه تمحّلات عجيبة من أراد الوقوف عليها فليراجع الكشّاف وشروحه .

على أنّك قد عرفت أنّ ذكرهم مامرّ عليهم من الإماتة و الإحياءة إشارة إلى أسباب حصول يقينهم بالمعاد و الحياة الدنيا و الموت الّذي قبلها لاأثر لهما في ذلك.

و قيل : إنّ الحياة الاُولى في الدنيا والثانية في القبر ، و الموتة الاُولى في الدنيا و الثانية في القبر ولاتعرّض في الاية لحياة يوم البعث ، و يرد عليه ما تقدّم أنّ الحياة الدنيا لاتعلّق لها بالغرض فلاموجب للتعرّض لها ، والحياة يوم القيامة بالخلاف من ذلك.

و قيل : المراد بالإحياءتين إحياء البعث و الإحياء الّذي قبله و إحياء البعث قسمان إحياء في القبر وإحياء عند البعث ولم يتعرّض لهذا التقسيم في الاية فتشمل الاية الإحياءات الثلاث و الإماتتين جميعا .

و يرد عليه مايرد على الوجهين السابقين عليه مضافا إلى ما اُورد عليه أنّ ذكر الإماتة الثانية الّتي في القبر دليل على أنّ التقسيم ملحوظ و المراد التعدّد الشخصيّ لا النوعيّ .

و قيل : المراد إحياء النفوس في عالم الذّر ثمّ الإماتة ثمّ الإحياء في الدنيا ثمّ الإماتة ثمّ الإحياء للبعث ، ويرد عليه مايرد على سوابقه .

و قيل : المراد بالتثنية التكرار كما في قوله تعالى : « فارجع البصر كرّتين »

الملك : ٤ ، و المعنى أمتّنا إماتة بعد إماتة وأحييتنا إحياءة بعد إحياءة .

و اُورد عليه أنّه إنّما يتمّ لوكان القول : أمتّنا إماتتين و أحييتنا إحياءتين أو كرّتين مثلا لكنّ المقول نفس العدد وهو لايحتمل ذلك كما قيل في قوله :«إلهين اثنين» النحل : ٥١ .

و قولهم : « فهل إلى خروج من سبيل » دعاء ومسألة في صورة الاستفهام ، و في تنكير الخروج و السبيل إشارة إلى رضاهم بأيّ نوع من الخروج كان من أيّ سبيل كانت فقد بلغ بهم الجهد واليوم يوم تقطّعت بهم الأسباب فلاسبب يرجى أثره في تخلّصهم من العذاب .

قوله تعالى : « ذلكم بأنّه إذا دعي الله وحده كفرتم و إن يشرك به تؤمنوا» الخ خطاب تشديد للكفّار موطنه يوم القيامة ، و يحتمل أن يكون موطنه الدنيا خوطبوا بداعي زجرهم عن الشرك .

و الإشارة بقوله : « ذلكم » إلى ماهم فيه من الشدّة ، و في قوله : « وإن يشرك به » دلالة على الاستمرار ، و الكلام مسوق لبيان معاندتهم للحقّ و معاداتهم لتوحيده تعالى فهم يكفرون بكلّ مايلوح فيه أثر التوحيد ويؤمنون بكلّ ما فيه سمة الشرك فهم لايراعون لله حقّا ولايحترمون له جانبا فالله سبحانه يحرّم عليهم رحمته ولايراعي في حكمه لهم جانبا .

و بهذا المعنى يتّصل قوله : « فالحكم لله العليّ الكبير » بأوّل الاية ويتفرّع عليه كأنّه قيل : فإذا قطعتم عن الله بالمرّة و كفرتم بكلّ ما يريده و آمنتم بكلّ ما يكرهه فهو يقطع عنكم و يحكم فيكم بما يحكم من غير أيّ رعاية لحالكم .

فالآية في معنى قوله : « نسوا الله فنسيهم » التوبة : ٦٧ ، و الجملة أعني قوله : « فالحكم لله العليّ الكبير» خاصّة بحسب السياق وإن كانت عامّة في نفسها ، وفيها تهديد و يتأكّد التهديد باختتامها بالاسمين العليّ الكبير .

✡ ✡ ✡

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَ مَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠).

(بيان)

احتجاج على التوحيد و إنذار بعد تقسيم الناس إلى راجع إلى الله متّبع سبيله مكذّب بالآيات مجادل بالباطل .

قوله تعالى : « هو الّذي يريكم آياته » إلى آخر الآية المراد بالآيات هي العلائم والحجج الدالّة على وحدانيّته تعالى في الربوبيّة و الاُلوهيّة بدليل ماسيجييء من تفريع قوله : «فادعوا الله مخلصين له الدين» عليه ، و الآيات مطلقة شاملة للآيات الكونيّة المشهودة في العالم لكلّ إنسان صحيح الإدراك و الآيات الّتي تجري على

أيدي الرسل و الحجج القائمة من طريق الوحي.

و الجملة مشتملة على حجّة فإنّه لو كان هناك إله تجب عبادته على الإنسان و كانت عبادته كمالاً للإنسان و سعادة له كان من الواجب في تمام التدبير و كامل العناية أن يهدي الإنسان إليه، و الّذي تدلّ الآيات الكونيّة على ربوبيّته و اُلوهيّته و يؤيّد دلالتها الرسل و الأنبياء بالدعوة و الإتيان بالآيات هو الله سبحانه، و أمّا آلهتهم الّذين يدعونهم من دون الله فلا آية من قبلهم تدلّ على شيء فالله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له، و إلى هذه الحجّة يشير عليّ عليه السلام بقوله فيما روي عنه: «لو كان لربّك شريك لأتتك رسله».

و قوله: «و ينزّل لكم من السماء رزقا» حجّة اُخرى على وحدانيّته تعالى من جهة الرزق فإنّ رزق العباد من شؤن الربوبيّة و الاُلوهيّة و الرزق من الله دون شركائهم فهو الربّ الإله دونهم.

و قد فسّروا الرزق بالمطر، و السماء بجهة العلو، و لا يبعد أن يراد بالرزق نفس الأشياء الّتي يرتزق بها و بنزولها من السماء بروزها من الغيب إلى الشهادة على ما يفيده قوله: «و إن من شيء إلّا عندنا خزائنه و ما ننزّله إلّا بقدر معلوم» الحجر: ٢١.

و قوله: «و ما يتذكّر إلّا من ينيب» معترضة تبيّن أنّ حصول التذكّر بهذه الحجج إنّما هو شأن إحدى الطائفتين المذكورتين من قبل و هم المنيبون الراجعون إلى ربّهم دون المجادلين الكافرين فإنّ الكفر والجحود يبطل استعداد التذكّر بالحجّة و الاتّباع للحقّ.

قوله تعالى: «فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» الأنسب للسياق أن يكون الخطاب عامّاً للمؤمنين وغيرهم منفرّعا على الحجّة السابقة غير أنّه لا يشمل الكافرين المذكورين في آخر الآية و هم المكذّبون المجادلون بالباطل.

كأنّه قيل: إذا كانت الآيات تدلّ على وحدانيّته تعالى و هو الرازق فعلى غير الكافرين الّذين كذّبوا وجادلوا أن يدعوا الله مخلصين له الدين، وأمّا الكافرون الكارهون

للتوحيد فلامطمع فيهم و لاآية تفيدهم و لا حجّة تقنعهم فاعبدوه بالإخلاص و دعوا الكافرين يكرهون ذلك .

قوله تعالى : « رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » الخ صفات ثلاث له تعالى و كلّ منها خبر بعد خبر للضمير في قوله : « هو الّذي يريكم آياته » و الآية و ما بعدها مسوقة للإنذار .

و قد أوردوا لقوله : « رفيع الدرجات» تفاسير شتّى فقيل : معناه رافع درجات الأنبياء و الأولياء في الجنّة ، و قيل: رافع السماوات السبع الّتي منها تصعد الملائكة إلى عرشه ، و قيل : رفيع مصاعد عرشه ، و قيل :كناية عن رفعة شأنه و سلطانه .

و الّذي يعطيه التدبّر أنّ الآية و ما بعدها يصفان ملكه تعالى على خلقه أنّ له عرشا تجتمع فيه أزمّة اُمور الخلق و يتنزّل منه الأمر متعالياً بدرجات رفيعة هي مراتب خلقه و لعلّها السماوات الّتي وصفها في كلامه بأنّها مساكن ملائكته و أنّ أمره يتنزّل بينهنّ و هي الّتي تحجب عرشه عن الناس .

ثمّ إنّ له يوما هو يوم التلاقي يرفع فيه الحجاب ما بينه و بين الناس بكشف الغطاء عن بصائرهم وطيّ السماوات بيمينه و إظهار عرشه لهم فينكشف لهم أنّه هو المليك على كلّ شيء لا ملك إلّا ملكه فيحكم بينهم .

فالمراد بالدرجات الدرجات الّتي يرتقى منها إلى عرشه و يعود قوله : « رفيع الدرجات ذوالعرش كناية استعاريّة عن تعالي عرش ملكه عن مستوى الخلق و غيبته و احتجابه عنهم قبل يوم القيامة بدرجات رفيعة و مراحل بعيدة .

وقوله : «يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده» إشارة إلى أمر الرسالة الّتي من شأنها الإنذار ، و تقييد الروح بقوله : « من أمره » دليل على أنّ المراد بها الروح الّتي ذكرها في قوله : «قل الروح من أمر ربّي» أسرى : ٨٥ ، وهي الّتي تصاحب ملائكة الوحي كما يشير إليه قوله : « ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا » النحل :٢ .

فالمراد بالقاء الروح على من يشاء تنزيلها مع ملائكة الوحي عليه ، والمراد

بقوله : « من يشاء من عباده » الرسل الّذين اصطفاهم الله لرسالته ، و في معنى الروح الملقاة على النبيّ أقوال اُخر لايعبؤ بها .

و قوله : « لينذر يوم التلاق » وهو يوم القيامة سمّي به لالتقاء الخلائق فيه أو لالتقاء الخالق و المخلوق أولالتقاء أهل السماء و الأرض أو لالتقاء الظالم و المظلوم أو لالتقاء المرء وعمله و لكلّ من هذه الوجوه قائل .

ويمكن أن يتأيّد القول الثاني بما تكرّر في كلامه تعالى من حديث اللقاء كقوله: «بلقاء ربّهم كافرون » الروم : ٨ ، و قوله : « إنّهم ملاقوا ربّهم » هود : ٢٩ ، وقوله: « يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحا فملاقيه » الانشقاق : ٦ و معنى اللقاء تقطّع الأسباب الشاغلة و ظهور أنّ الله هو الحقّ المبين و بروزهم لله .

قوله تعالى : « يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شيء » الخ تفسير ليوم التلاق ، و معنى بروزهم لله ظهور ذلك لهم و ارتفاع الأسباب الوهمية الّتي كانت تجذبهم إلى نفسها وتحجبهم عن ربّهم وتغفلهم عن إحاطة ملكه وتفرّده في الحكم وتوحّده في الربوبيّة و الاُلوهيّة .

فقوله : « يوم هم بارزون » إشارة إلى ارتفاع كلّ سبب حاجب ، وقوله:«لا يخفى على الله منهم شيء » تفسير لمعنى بروزهم لله وتوضيح فقلوبهم وأعمالهم بعين الله وظاهرهم و باطنهم وماذكروه ومانسوه مكشوفة غير مستورة .

وقوله : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار » سؤال وجواب من ناحيته سبحانه تبيّن بهما حقيقة اليوم وهي ظهور ملكه و سلطانه تعالى على الخلق على الإطلاق .

وفي توصيفه تعالى بالواحد القهّار تعليل لانحصار الملك فيه لأنّه إذقهر كلّ شيء ملكه و تسلّط عليه بسلب الاستقلال عنه و هو واحد فله الملك وحده .

قوله تعالى : «اليوم تجزى كلّ نفس بماكسبت لاظلم اليوم إنّ الله سريع الحساب» الباء في « بماكسبت » للصلة و المراد بيان خصيصة اليوم و هي أنّ كلّ نفس تجزى عين ماكسبت فجزاؤها عملها قال تعالى : « يا أيّها الّذين كفروا لاتعتذروا اليوم إنّما تجزون ماكنتم تعملون » التحريم :٧ .

وقوله : « إنّ الله سريع الحساب » تعليل لنفي الظلم في قوله: « لاظلم اليوم » أي إنّه تعالى سريع في المحاسبة لايشغله حساب نفس عن حساب اُخرى حتّى يخطىء فيجزي نفسا غير جزائها فيظلمها .

و هذا التعليل ناظر إلى نفي الظلم الناشي عن الخطاء و أمّا الظلم عن عمد وعلم فانتفاؤه مفروغ عنه لأنّ الجزاء لمّا كان بنفس العمل لم يتصوّر معه ظلم .

قوله تعالى : « و أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » إلى آخر الآية. الآزفة من أوصاف القيامة ومعناها القريبة الدانية قال تعالى : « إنّهم يرونه بعيداً ونراه قريبا » المعارج :٧ .

و قوله : « إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » الحناجر جمع حنجرة و هي رأس الغلصمة من خارج و كون القلوب لدى الحناجر كناية عن غاية الخوف كأنّها تزول عن مقرّها و تبلغ الحناجر من شدّة الخوف ، و كاظمين من الكظم وهو شدّة الاغتمام.

وقوله : « ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع » الحميم القريب أي ليس لهم قريب يقوم بنصرهم بحميّة القرابة قال تعالى : « فلاأنساب بينهم يومئذ » المؤمنون : ١٠١ ، و لاشفيع يطاع في شفاعته .

قوله تعالى : « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » قيل : الخائنة مصدر كالخيانة نظيرة الكاذبة واللاغية بمعنى الكذب و اللغو ، وليس المراد بخائنة الأعين كلّ معصية من معاصيها بل المعاصي الّتي لا تظهر للغير كسارقة النظر بدليل ذكرها مع ما تخفي الصدور .

و قيل : « خائنة الأعين » من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف ، ولازمه كون العلم بمعنى المعرفة والمعنى يعرف الأعين الخائنة ، و الوجه هو الأوّل .

وقوله : « وما تخفي الصدور » و هو ما تسرّه النفس و تستره من وجوه الكفر و النفاق وهيآت المعاصي .

قوله تعالى : « والله يقضي بالحقّ و الّذين يدعون من دونه لايقضون بشيء » الخ هذه حجّة اُخرى على توحّده تعالى بالاُلوهيّة أقامها بعد ماذكر حديث انحصار

الملك فيه يوم القيامة و علمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور تمهيداً وتوطئة .

و محصّلها أنّ من اللّازم الضروريّ في الاُلوهية أن يقضي الإله في عباده وبينهم والله سبحانه هو يقضي بين الخلق وفيهم يوم القيامة و الّذين يدعون من دونه لايقضون بشيء لأنّهم عباد مملوكون لايملكون شيأ .

و من قضائه تعالى تدبيره جزئيّات اُمور عباده بالخلق بعد الخلق فإنّه مصداق القضاء و الحكم قال تعالى : « إنّما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٣ ، و قال : « إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون » آل عمران : ٤٧ و لا نصيب لغيره تعالى في الخلق فلا نصيب له في القضاء .

و من قضائه تعالى تشريع الدين و ارتضاؤه سبيلا لنفسه قال تعالى:«و قضى ربّك أن لا تعبدوا إلّا إيّاه » الآية أسرى : ٢٣ .

و قوله : «إنّ الله هو السميع البصير»أي له حقيقة العلم بالمسموعات والمبصرات لذاته ، و ليس لغيره من ذلك إلّا ما ملّكه الله و أذن فيه لا لذاته .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « يلقي الروح من أمره على من يشاء عباده » قال : روح القدس و هو خاصّ برسول الله و الأئمّة صلوات الله وسلامه عليهم .

و في المعاني بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء و أهل الأرض .

اقول : و رواه القمّي في تفسيره مضمرا مرسلا .

وفي التوحيد بإسناده عن ابن فضّال عن الرضا عن آبائه عن علي عليه‌السلام في حديث قال : و يقول الله عزّ وجلّ : « لمن الملك اليوم » ثمّ ينطق أرواح أنبيائه و رسله و حججه فيقولون : « لله الواحد القهّار » ثمّ يقول الله جلّ جلاله : « اليوم تجزى كلّ نفس بما كسبت » الآية .

وفي نهج البلاغة : و إنّه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه، كما كان

قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها ، بلا وقت و لا زمان و لا حين و لا مكان ، عدمت عند ذلك الآجال و الأوقات ، و زالت السنون و الساعات ، فلا شيء إلّا الله الواحد القهّار الّذي إليه مصير جميع الاُمور ، بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها ، و بغير امتناع منها كان فناؤها ، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها .

و في تفسير القمّي بإسناده عن ثوير بن أبي فاختة عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال : سئل عن النفختين كم بينهما ؟ قال : ما شاء .

ثمّ ذكر عليه السلام كيفيّة النفخ و موت أهل الأرض والسماء إلى أن قال ـ فيمكثون في ذلك ما شاء الله ثمّ يأمر السماء فتمور ويأمر الجبال فتسير و هو قوله : « يوم تمور السماء مورا و تسير الجبال سيرا » يعني يبسط وتبدّل الأرض غير الأرض يعني بأرض لم تكسب عليها الذنوب بارزة ليس عليها جبال و لا نبات كما دحاها أوّل مرّة ، ويعيد عرشه على الماء كما كان أوّل مرّة مستقلاّ بعظمته و قدرته .

قال: فعند ذلك ينادي الجبّار جلّ جلاله بصوت من قبله جهوريّ يسمع أقطار السماوات و الأرضين « لمن الملك اليوم » فلم يجبه مجيب فعند ذلك يقول الجبّار عزّوجلّ مجيباً لنفسه « لله الواحد القهّار » الحديث .

اقول :التدبّر في الروايات الثلاث الأخيرة يهدي إلى أنّ الّذي يفنى من الخلق استقلال وجودها و النسب و روابط التأثير الّتي بينها كما تفيده الآيات القرآنيّة وأنّ الأرواح لا تموت ، و أن لا وقت بين النفختين فلا تغفل ، و في الروايات لطائف من الإشارات تظهر للمتدبّر ، و فيها ما يخالف بظاهره ما تقدّم .

و في روضة الكافي بإسناده عن ابن أبي عمير عن موسى بن جعفر عليه السلام في حديث قال: يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنبا إلّا ساءه ذلك و ندم عليه و قد قال النبيّ صلى الله عليه وآله: « كفى بالندم توبة » و قال : « من سرّته حسنته و ساءته سيّئته فهو مؤمن » فإن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن و لم تجب له شفاعة وكان ظالما و الله تعالى يقول : « ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع » .

و في المعاني بإسناده إلى عبدالرحمان بن سلمة الحريريّ قال : سألت أباعبدالله

عليه السلام عن قول الله عزّ و جلّ : « يعلم خائنة الأعين » فقال : ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنّه لا ينظر فذلك خائنة الأعين .

و في الدرّ المنثور أخرج أبوداود و النسائيّ و ابن مردويه عن سعد قال : لمّا كان يوم فتح مكّة أمّن رسول الله ﷺ الناس إلّا أربعة نفر وامرأتين، و قال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة منهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح فاختبأ عند عثمان بن عفان .

فلمّا دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به فقال : يا رسول الله بايع عبدالله فنظر إليه ثلاثاً كلّ ذلك يأبى أن يبايعه ثمّ بايعه ثمّ أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلّا أومأت إلينا بعينك . قال : إنّه لا ينبغي لنبيّ أن يكون له خائنة الأعين .



☆ ☆ ☆

اَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الْاَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ اَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثَاراً فِى الْاَرْضِ فَاَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وَاقٍ (۲۱) ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ كَانَتْ تَاْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَاَخَذَهُمُ اللّٰهُ اِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۲۲) وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا مُوسٰى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (۲۳) اِلٰى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (۲۴) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا اَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ اِلَّا فِى ضَلَالٍ (۲۵) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى اَقْتُلْ مُوسٰى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ اِنِّى اَخَافُ اَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ اَوْ اَنْ يُظْهِرَ فِى الْاَرْضِ الْفَسَادَ (۲۶) وَ قَالَ مُوسٰى اِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَايُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (۲۷) وَ قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ اِيمَانَهُ اَتَقْتُلُونَ رَجُلاً اَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللّٰهُ وَ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ اِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ اِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ اِنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (۲۸) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الْاَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَاْسِ اللّٰهِ اِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا اُرِيكُمْ اِلَّا مَا

اَرٰى وَ مٰا اَهْدِيكُمْ اِلاّٰ سَبِيلَ الرَّشٰادِ (٢٩) وَ قٰالَ الَّذِى آمَنَ يٰا قَوْمِ اِنِّى اَخٰافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْاَحْزٰابِ (٣٠) مِثْلَ دَاْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبٰادِ (٣١) وَ يٰا قَوْمِ اِنِّى اَخٰافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنٰادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مٰالَكُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ (٣٣) وَ لَقَدْ جٰاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِمّٰا جٰاءَكُمْ بِهِ حَتّٰى اِذٰا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتٰابٌ (٣٤) اَلَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِى آيٰاتِ اللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطٰانٍ أَتٰيهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَاللّٰهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلٰى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّٰارٍ (٣٥) وَقٰالَ فِرْعَوْنُ يٰاهٰامٰانُ ابْنِ لِى صَرْحاً لَعَلِّى اَبْلُغُ الْاَسْبٰابَ (٣٦) اَسْبٰابَ السَّمٰوٰاتِ فَاَطَّلِعَ اِلٰى اِلٰهِ مُوسٰى وَ اِنِّى لَاَظُنُّهُ كٰاذِباً وَ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ مٰا كَيْدُ فِرْعَوْنَ اِلاّٰ فِى تَبٰابٍ (٣٧) وَ قٰالَ الَّذِى آمَنَ يٰا قَوْمِ اتَّبِعُونِ اَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشٰادِ (٣٨) يٰا قَوْمِ اِنَّمٰا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيٰا مَتٰاعٌ وَ اِنَّ الْاٰخِرَةَ هِىَ دٰارُ الْقَرٰارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاٰ يُجْزٰى اِلاّٰ مِثْلَهٰا وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ اُنْثٰى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَاُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهٰا بِغَيْرِ حِسٰابٍ (٤٠) وَ يٰا قَوْمِ مٰالِى اَدْعُوكُمْ اِلَى

النجوة و تدعوننى الى النار (٤١) تدعوننى لاكفر بالله و اشرك به ماليس لى به علم و انا ادعوكم الى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم انما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا و لا فى الاخرة و ان مردنا الى الله و ان المسرفين هم اصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما اقول لكم و افوض امرى الى الله ان الله بصير بالعباد (٤٤) فوقيه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب (٤٥) النار يعرضون عليها غدوا و عشيا و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون اشد العذاب (٤٦) و اذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفؤا للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (٤٧) قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد (٤٨) و قال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩) قالوا او لم تك تاتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا و ما دعؤا الكافرين الا فى ضلال (٥٠) انا لننصر رسلنا و الذين آمنوا فى الحيوة الدنيا و يوم يقوم الاشهاد (٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم و لهم اللعنة و لهم سوء الدار (٥٢) و لقد آتينا موسى الهدى و اورثنا بنى اسرائيل الكتاب (٥٣) هدى و ذكرى لاولى الالباب (٥٤) .

﴿ بيان ﴾

في الآيات موعظتهم بالإرجاع إلى آثار الاُمم الماضين و قصصهم للنظر والاعتبار فلينظروا فيها و ليعتبروا بها و يعلموا أنّ الله سبحانه لاتعجزه قوّة الأقوياء و استكبار المستكبرين ومكر الماكرين وتذكر منهامن باب الاُنموذج طرفامن قصص موسى وفرعون وفيها قصّة مؤمن آل فرعون .

قوله تعالى : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا » إلى آخر الآية الاستفهام إنكاريّ ، والواقي اسم فاعل من الوقاية بمعنى حفظ الشيء ممّا يؤذيه و يضرّه .

و المعنى « أولم يسيروا» هؤلاء الّذين أرسلناك إليهم « في الأرض فينظروا »نظر تفكّر و اعتبار « كيف كان عاقبة الّذين كانوا من قبلهم » من الاُمم الدارجة المكذّبين لرسلهم «كانواهم أشدّ منهم قوّة» أي قدرة وتمكّنا وسلطة « وآثارا » كالمدائن الحصينة و القلاع المنيعة والقصور العالية المشيدة « في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم » وأهلكهم بأعمالهم « و ماكان لهم من الله من واق » يقيهم وحافظ يحفظهم .

قوله تعالى : « ذلك بأنّهم كانت تأتيهم رسلهم بالبيّنات » الخ الإشارة بذلك إلى الأخذ الإلهيّ ، و المراد بالبيّنات الآيات الواضحات ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا و سلطان مبين » لعلّ المرادبالآيات الخوارق المعجزة الّتي اُرسل بها كالعصا واليد و غيرهما و بالسلطان المبين السلطة الإلهيّة القاهرة الّتي اُيّد بها فمنعت فرعون أن يقتله و يطفيء نوره ، و قيل : المراد بالآيات الحجج و الدلالات و بالسلطان معجزاته من العصا واليد و غيرهما ، و قيل : غير ذلك .

قوله تعالى : « إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذّاب » فرعون جبّار القبط و مليكهم ، و هامان وزيره و قارون من طغاة بني إسرائيل ذوالخزائن المليئة ؟ و إنّما اختصّ الثلاثة من بين الاُمّتين بالذكر لكونهم اُصولاً ينتهي إليهم كلّ فساد و فتنة فيهما .

قوله تعالى : « فلمّا جاءهم بالحقّ من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الّذين آمنوا معه » الخ مقايسة بين ماجاءهم به موسى و دعاهم إليه و بين ما قابلوه به من كيدهم فقد جاءهم بالحقّ و كان من الواجب أن يقبلوه لأنّه حقّ وكان ماجاء به من عندالله وكان من الواجب أن يقبلوه ولايردّوه فقابلوه بالكيد وقالوا ما قالوا لئلّايؤمن به أحد لكنّ الله أضلّ كيدهم فلم يصب المؤمنين معه .

ويشعر السياق أنّ من القائلين بهذا القول قارون وهو من بني إسرائيل ولاضير فيه لأنّ الحكم بقتل الأبناء واستحياء النساء كان قبل الدعوة صادراً في حقّ بني إسرائيل عامّة وهذا الحكم في حقّ المؤمنين منهم خاصّة فلعلّ قارون وافقهم عليه لعداوته وبغضه موسى و المؤمنين من قومه .

وفي قوله : « الّذين آمنوا معه » ولم يقل : آمنوا به إشارة إلى مظاهرتهم موسى في دعوته .

قوله تعالى : « و قال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربّه » الخ « ذروني » أي اتركوني ، خطاب يخاطب به ملأه ، و فيه دلالة على أنّه كان هناك قوم يشيرون عليه أن لا يقتل موسى و يكفّ عنه كما يشير إليه قوله تعالى : « قالوا أرجه وأخاه » الشعراء : ٣٦ .

وقوله : «وليدع ربّه» كلمة قالها كبراً وعتوّاً يقول : اتركوني أقتله وليدع ربّه فلينجه من يدي وليخلّصه من القتل إن قدر .

و قوله : « إنّي أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » تعليل لما عزم عليه من القتل وقد ذكر أنّه يخافه عليهم من جهة دينهم و من جهة دنياهم: أمّا من جهة دينهم ـ وهو عبادة الأصنام ـ فأن يبدّله ويضع موضعه عبادة الله وحده ، وأمّا من جهة دنياهم فكأن يعظم أمره و يتقوّى جانبه و يكثر متّبعوه فيتظاهروا بالتمرّد و المخالفة فيؤل الأمر إلى المشاجرة و القتال و انسلاب الأمن .

قوله تعالى : « و قال موسى إنّي عذت بربّي وربّكم من كلّ متكبّر لايؤمن بيوم الحساب» مقابلة منه عليه‌السلام لتهديد فرعون إيّاه بالقتل واستعاذة منه بربّه ، وقوله:

« عذت بربّي و ربّكم » فيه مقابلة منه أيضا لفرعون في قوله : « وليدع ربّه » حيث خصّ ربوبيّته تعالى بموسى فأشار موسى بقوله : « عذت بربّي و ربّكم » إلى أنّه تعالى ربّهم كما هو ربّه نافذ حكمه فيهم كما هو نافذفيه فله أن يقي عائذه من شرّهم وقد وقى .

و من هنايظهر أنّ الخطاب في قوله : « و ربّكم » لفرعون ومن معه دون قومه من بني إسرائيل .

وقوله : « من كلّ متكبّر لايؤمن بيوم الحساب » يشيربه إلى فرعون وكلّ من يشاركه في صفتي التكبّر وعدمالإيمان بيوم الحساب ولايؤمن ممّن اجتمعتفيهاالصفتان شرّ أصلا .

قوله تعالى : « و قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » إلى آخرالآية. ظاهر السياق أنّ « من آل فرعون » صفة رجل و « يكتم إيمانه » صفة اُخرى فكان الرجل من القبط من خاصّة فرعون وهم لايعلمون بإيمانه لكتمانه إيّاهمذلكتقيّة .

وقيل : قوله : « من آل فرعون » مفعولثان لقوله : «يكتم» قدّم عليه ، والغالب فيه و إن كان التعدّي إلى المفعول الثاني بنفسه كما في قوله : « ولايكتمون اللهحديثا» النساء : ٤٢ لكنّه قد يتعدّى إليه بمن كماصرّح به في المصباح .

و فيه أنّ السياق يأباه فلانكتة ظاهرة تقتضي تقدّم المفعول الثاني على الفعلمن حصر ونحوه . على أنّ الرجل يكرّر نداء فرعون وقومه بلفظة « ياقومي » ولولميكن منهم لم يكن له ذلك .

وقوله : « أتقتلون رجلا أن يقول ربّيالله وقد جاءكم بالبيّنات من ربّكم»إنكار لعزمهم على قتله ، و في قوله : « من ربّكم » دليل على أنّ في البيّنات الّتي جاءبها دلالة على أنّ الله ربّهم أيضا كما اتّخذه ربّا فقتله قتل رجل جاء بالحقّ من ربّهم .

وقوله : « و إن يك كاذبا فعليه كذبه » قيل : إنّ ذكره هذا التقدير تلطّفمنه لا أنّه كان شاكّا في صدقه .

و قوله : « و إن يك صادقا يصبكم بعض الّذي يعدكم » فيه تنزّل في المخاصمة

بالاكتفاء على أيسر التقادير وأقلّها كأنّه يقول : و إن يك صادقا يصبكم ما وعدكم من أنواع العذاب ولا أقلّ من إصابة بعض مايعدكم مع أنّ لازم صدقه إصابة جميع ماوعد .

و قوله : « إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب » تعليل للتقدير الثاني فقط و المعنى إن يك كاذبا كفاه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الّذي يعدكم لأنّكم حينئذ مسرفون متعدّون طوركم كذّابون في نفي ربوبيّة ربّكم و اتّخاذ أرباب من دونه والله لا يهدي من هو مسرف كذّاب ، و أمّا على تقدير كذبه فلاربوبيّة لمن اتّخذه ربّا حتّى يهديه أولا يهديه .

ومن هنا يظهر أنّ ماذكره بعضهم من كون الجملة تعليلا للتقديرين جميعامتعلّقة بكلتا الجملتين غير مستقيم .

قوله تعالى : « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا » ظهورهم غلبتهم و علوّهم في الأرض ، و الأرض أرض مصر ،و بأس الله أخذه و عذابه و الاستفهام للإنكار .

والمعنى يا قوم لكم الملك حالكونكم غالبين عالين في أرض مصر على من دونكم من بني إسرائيل فمن ينصرنا من أخذ الله و عذابه كما يعدنا به موسى إن جاءنا ؟ و قد أدخل نفسه فيهم على تقدير مجيىء البأس ليكون أبلغ في النصح و أوقع في قلوبهم أنّه يريد لهم من العافية ما يريده لنفسه .

قوله تعالى :«قال فرعون ما اُريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد» أي طريق الصواب المطابقة للواقع يريد أنّه على يقين ممّا يهدي إليه قومه من الطريق و هي مع كونها معلومة له مطابقة للواقع ، و هذا كان تمويها منه و تجلّدا .

قوله تعالى : « و قال الّذي آمن يا قوم إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ـ إلى قوله ـ للعباد » المراد بالّذي آمن هو مؤمن آل فرعون ، و لا يعبؤ بما قيل :إنّه موسى لقوّة كلامه ، و المراد بالأحزاب الاُمم المذكورون في الآية التالية قوم نوح و عاد و ثمود و الّذين من بعدهم ، و قوله : « مثل دأب قوم نوح » بيان للمثل السابق و الدأب هو العادة .

و المعنى يا قوم إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأقوام الماضين مثل العادة الجارية من العذاب عليهم واحداً بعد واحد لكفرهم و تكذيبهم الرسل ، أو مثل جزاء عادتهم الدائمة من الكفر والتكذيب و ما الله يريد ظلما للعباد .

قوله تعالى : « و يا قوم إنّي أخاف عليكم يوم التناد ـ إلى قوله ـ من هاد » يوم التناد يوم القيامة ، و لعلّ تسميته بذلك لكون الظالمين فيه ينادي بعضهم بعضا و ينادون بالويل و الثبور على ما اعتادوا به في الدنيا .

و قيل : المراد بالتنادي المناداة الّتي تقع بين أصحاب الجنّة وأصحاب النارعلى ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف ، و هناك وجوه اُخر ذكروها لا جدوى فيها .

و قوله : « يوم تولّون مدبرين مالكم من الله من عاصم » المراد به يوم القيامة و لعلّ المراد أنّهم يفرّون في النار من شدّة عذابها ليتخلّصوا منها فردّوا إليها كما قال تعالى : « كلّما أرادوا أن يخرجوا منها اُعيدوا فيها و ذوقوا عذاب الحريق » الحجّ : ٢٢ .

و قوله : « و من يضلل الله فما له من هاد » بمنزلة التعليل لقوله : « مالكم من الله من عاصم » أي تفرّون مدبرين مالكم من عاصم ولوكان لكان من جانب الله و ليس وذلك لأنّ الله أضلّهم و من يضلل الله فما له من هاد .

قوله تعالى : « و لقد جاءكم يوسف من قبل بالبيّنات » إلى آخر الآية . لمّا ذكر أنّ الله أضلّهم و لاهادي لهم استشهد له بما عاملوا به يوسف عليه السلام في رسالته إليهم حيث شكّوا في نبوّته ما دام حيّا ثمّ إذا مات قالوا : لا نبيّ بعده .

فالمعنى و اُقسم لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات البيّنات الّتي لا تدع ريبا في رسالته من الله فما زلتم في شكّ ممّا جاءكم به مادام حيّا حتّى إذا هلك و مات قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا فناقضتم أنفسكم و لم تبالوا .

ثمّ أكّده ـ و هو في معنى التعليل ـ بقوله : « كذلك يضلّ الله من هو مسرف مرتاب » .

قوله تعالى : «الّذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم» الخ وصف لكلّ مسرف مرتاب فإنّ من تعدّى طوره بالإعراض عن الحقّ و اتّباع الهوى و استقرّ في نفسه الارتياب فكان لا يستقرّ على علم و لا يطمئنّ إلى حجّة تهديه إلى الحقّ جادل في آيات الله بغير برهان إذا خالفت مقتضى هواه .

و قوله : «كذلك يطبع الله على كلّ قلب متكبّر جبّار» يفيد أنّ قلوبهم مطبوع عليها فلا يفقهون حجّة و لا يركنون إلى برهان .

قوله تعالى : « و قال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً - إلى قوله - في تباب » أمر منه لوزيره هامان أن يبني له بناء يتوصّل به إلى الاطّلاع إلى إله موسى ولعلّه أصدر هذا الأمر أثناء محاجّة الّذي آمن و بعد الانصراف عن قتل موسى و لذلك وقع ذكره بين مواعظ الّذي آمن و احتجاجاته .

و الصرح - على ما في المجمع - البناء الظاهر الّذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد ، والأسباب جمع سبب وهو ما تتوصّل به إلى ما يبعد عنك .

و قوله : « لعلّي أبلغ الأسباب » في معنى التعليل لأمره ببناء الصرح و المعنى آمرك ببنائه لأنّي أرجو أن أبلغ بالصعود عليه الأسباب ثمّ فسّر الأسباب بقوله : « أسباب السماوات » و فرّع عليه قوله : « فأطّلع إلى إله موسى » كأنّه يقول : إنّ الإله الّذي يدعوه ويدعو إليه موسى ليس في الأرض إذ لا إله فيها غيري فلعلّه في السماء فابن لي صرحاً لعلّي أبلغ بالصعود عليه الأسباب السماويّة الكاشفة عن خبايا السماء فأطّلع من جهتها إلى إله موسى وإنّي لأظنّه كاذبا .

و قيل : إنّ مراده أن يبني له رصدا يرصد فيه الأوضاع السماويّة لعلّه يعثر فيها على ما يستدلّ به على وجود إله موسى بعد اليأس عن الظفر عليه بالوسائل الأرضيّة وهو حسن ، و على أيّ حال لا يستقيم ما ذكره على شيء من مذاهب الوثنيّة فلعلّه كان منه تمويها على الناس أوجهلا منه وما هو من الظالمين ببعيد .

وقوله : « و كذلك زيّن لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل » مفاد السياق أنّه في معنى إعطاء الضابط لما واجه به فرعون الحقّ الّذي كان يدعوه إليه موسى فقد زيّن

الشيطان له قبيح عمله فرآه حسنا و صدّه عن سبيل الرشاد فرآى انصداده عنها ركوبا عليها فجادل في آيات الله بالباطل و أتى بمثل هذه الأعمال القبيحة و المكائد السفهيّة لإدحاض الحقّ .

و لذلك ختمت الآية بقوله : « وما كيد فرعون إلّا في تباب » أي هلاك و انقطاع .

قوله تعالى : « و قال الّذي آمن ياقوم اتّبعون أهدكم سبيل الرشاد » يدعوهم إلى اتّباعه ليهديهم ، و اتّباعه اتّباع موسى ، و سبيل الرشاد السبيل الّتي في سلوكها إصابة الحقّ و الظفر بالسعادة ، و الهداية بمعنى إراءة الطريق ، و في قوله : « أهدكم سبيل الرشاد » تعريض لفرعون حيث قال : « و ما أهديكم إلّا سبيل الرشاد » و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « يا قوم إنّما هذه الحياة الدنيا متاع و إنّ الآخرة هي دار القرار » هذا هو السناد الّذي يستند إليه سلوك سبيل الرشاد و التديّن بدين الحقّ لاغنى عنه بحال وهو الاعتقاد بأنّ للإنسان حياة خالدة مؤبّدة هي الحياة الآخرة وأنّ هذه الحياة الدنيا متاع في الآخرة ومقدّمة مقصودة لأجلها ، ولذلك بدءبه في بيان سبيل الرشاد ثمّ ذكر السيّئة و العمل الصالح .

قوله تعالى : « من عمل سيّئة فلايجزى إلّا مثلها » إلى آخر الآية . أي إنّ الّذي يصيبه ويعيش به في الآخرة يشاكل ما أتى به في هذه الحياة الدنيا الّتي هي متاع فيها فإنّما الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء .

من عمل في الدنيا سيّئة ذات صفة المساءة فلايجزى في الآخرة إلّا مثلها ممّا يسوؤه ومن عمل صالحا من ذكر أو اُنثى من غير فرق بينهما في ذلك والحال أنّه مؤمن فاُولئك يدخلون الجنّة يرزقون فيها بغير حساب .

و فيه إشارة إلى المساواة بين الذكر والاُنثى في قبول العمل وتقييد العمل الصالح في تأثيره بالإيمان لكون العمل حبطا بدون الإيمان قال تعالى : «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله » المائدة : ٥ إلى غيرها من الآيات .

وقد جمع الدين الحقّ وهو سبيل الرشاد في أوجز بيان وهو أنّ للإنسان دارقرار يجزى فيها بما عمل في الدنيا من عمل سيّىء أوصالح فليعمل صالحا ولايعمل سيّأ،وزاد بيانا إذ أفاد أنّه إن عمل صالحا يرزق بغير حساب .

قوله تعالى : « و يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة و تدعونني إلى النار ـ إلى قوله ـ العزيز الغفّار » كأنّه لمّا دعاهم إلى التوحيد قابلوه بدعوته إلى عبادة آلهتهم أو قدّرها لهم لمّا شاهد جدالهم بالباطل و إصرارهم على الشرك فنسب إليهم الدعوة بشهادة حالهم فأظهر العجب من مقابلتهم دعوته الحقّة بدعوتهم الباطلة .

فقال : و يا قوم مالي أدعوكم إلىالنجاة أي النجاة منالنار وتدعونني إلى النار و قد كان يدعوهم إلى سبب النجاة و يدعونه إلى سبب دخول النار فجعل الدعوة إلى السببين دعوة إلى المسبّبين أو لأنّ الجزاء هو العمل بوجه .

ثمّ فسّرما دعوه إليه و ما دعاهم إليه فقال : تدعونني لأكفر أي إلى أن أكفر بالله و اُشرك به ماليس لي به علم أي اُشرك به شيأ لاحجّة لي على كونه شريكافأفتري على الله بغير علم ، و أنا أدعوكم إلى العزيز الّذي يغلب ولايغلب ، الغفّار لمن تابإليه و آمن به أي أدعوكم إلى الإيمان به و الإسلام له .

قوله تعالى : « لاجرمأنّ ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولافيالاخرة» الخ لاجرم بمعنى حقّاً أو بمعنى لابدّ ، و مفاد الآية إقامة الحجّة على عدم كون ما يدعون إليه إلهاً من طريق عدم الدعوة إليه و في ذلك تأييد لقوله في الآية السابقة «ما ليس لي بهعلم ».

و المعنى ثبت ثبوتا أنّ ما تدعونني إليه ممّن تسمّونه شريكاله سبحانه ليس له دعوة في الدنيا إذلم يعهد نبيّ اُرسل إلى الناس من ناحيته ليدعوهم إلى عبادته ، ولافي الآخرة إذلا رجوع إليه فيها من أحد ، و أمّا الّذي أدعوكم إليه وهو الله سبحانه فإنّ له دعوة فيالدنياوهي الّتي تصدّاها أنبياؤه ورسله المبعوثون من عنده المؤيّدونبالحجج و البيّنات ، و في الآخرة وهي الّتي يتبعها رجوع الخلق إليه لفصل القضاء بينهم قال تعالى : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » أسرى : ٥٢ .

و من المعلوم كما قرّرناه في ذيل قوله تعالى : « هو الّذي يريكم آياته » الآية ١٣ من السورة أنّ الربوبيّة لاتتمّ بدون دعوة في الدنيا و نظيرتها الدعوة في الآخرة ، و إذ كان الّذي يدعوهم إليه ذادعوة في الدنيا والآخرة دون مايدعونه إليه فهو الإله دون مايدعون إليه .

وقوله : « وأنّ مردّنا إلى الله وأنّ المسرفين هم أصحاب النار » معطوف على قوله: «أنّ ماتدعونني » أي لاجرم أنّ مردّنا إلى الله فيجب الإسلام له و اتّباع سبيله ورعاية حدود العبوديّة ، و لاجرم أنّ المسرفين و هم المتعدّون طور العبوديّة ـ وهم أنتم ـ أصحاب النار فالّذي أدعوكم إليه فيه النجاة دون ماتدعونني إليه .

قوله تعالى : « فستذكرون ما أقول لكم و اُفوّض أمري إلى الله إنّ الله بصير بالعباد » صدر الآية موعظة و تخويف لهم ، وهو تفريع على قوله : « و أنّ مردّنا إلى الله » الخ أي إذ كان لابدّ من الرجوع إلى الله و حلول العذاب بالمسرفين و أنتم منهم ولم تسمعوا اليوم ما أقول لكم فستذكرون ما أقول لكم حين عاينتم العذاب و تعلمون عند ذاك أنّي كنت ناصحاً لكم .

و قوله : « و اُفوّض أمري إلى الله » التفويض على ما فسّره الراغب هو الردّ فتفويض الأمر إلى الله ردّه إليه فيقرب من معنى التوكّل و التسليم و الاعتبار مختلف : فالتفويض من العبد ردّه ما نسب إليه من الأمر إلى الله سبحانه و حال العبد حينئذ حال من هو أعزل لا أمر راجعا إليه ، و التوكّل من العبد جعله ربّه وكيلا يتصرّف فيما له من الأمر ، و التسليم من العبد مطاوعته المحضة لما يريده الله سبحانه فيه و منه من غير نظر إلى انتساب أمر إليه فهي مقامات ثلاث من مقامات العبوديّه : التوكّل ثمّ التفويض وهو أدقّ من التوكّل ثمّ التسليم وهو أدقّ منهما .

و قوله : « إنّ الله بصير بالعباد » تعليل لتفويضه أمره إلى الله ، و في وضع اسم الجلالة موضع ضميره ـ و كان مقتضى الظاهر الإضمار إشارة إلى علّة بصيرته بالعباد كانّه قيل : إنّه بصير بالعباد لأنّه الله عزّ اسمه .

قوله تعالى : « فوقاه الله سيّآت مامكروا » تفريع على تفويضه الأمر إلى الله

فكفاه الله شرّهم و وقاه سيّآت مكرهم ، و فيه إشارة إلى أنّهم قصدوه بالسوء لكنّ الله دفعهم عنه .

قوله تعالى : « و حاق بآل فرعون سوء العذاب - إلى قوله - أشدّ العذاب » أي نزل بهم و أصابهم العذاب السيّىء فسوء العذاب من إضافة الصفة إلى موصوفها وفي التوصيف بالمصدر مبالغة ، و آل فرعون أشياعه و أتباعه ، و ربّما يقال آل فلان و يشمل نفسه .

و قوله : « النار يعرضون عليها غدوّاً و عشيّاً و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب » ظاهر السياق أنّه بيان لسوء العذاب وليس من الاستئناف في شيء.

و الآية صريحة أوّلا في أنّ هناك عرضا على النار ثمّ إدخالا فيها و الإدخال أشدّ من العرض ، و ثانيا في أنّ العرض على النار قبل قيام الساعة الّتي فيها الإدخال وهو عذاب البرزخ - عالم متوسّط بين الموت والبعث - ، وثالثا أنّ التعذيب في البرزخ و يوم تقوم الساعة بشيء واحد وهو نار الآخرة لكنّ البرزخيّين يعذّبون بها من بعيد وأهل الاخرة بدخولها .

و في قوله : « غدوّاً و عشيّاً » إشارة إلى التوالي من غير انقطاع ، ولعلّ لأهل البرزخ لعدم انقطاعهم عن الدنيا بالكلّيّة نسبة مّا إلى الغداة و العشيّ .

وفي قوله : « ويوم تقوم الساعة أدخلوا » إيجاز بالحذف والتقدير يقال : أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب .

قوله تعالى : « و إذ يتحاجّون في النار فيقول الضعفاء للّذين استكبروا - إلى قوله - بين العباد » يفيد السياق أنّ الضمير في « يتحاجّون » لآل فرعون ومن الدليل على ذلك تغيير السياق في قوله بعد : « وقال الّذين في النار » والمعنى وحاق بآل فرعون سوء العذاب إذ يتحاجّون في النار أو واذكر من سوء عذابهم إذ يتحاجّون في النار فيقول الضعفاء منهم للّذين استكبروا إنّا كنّا في الدنيا لكم تبعاً و كان لازم ذلك أن تكفونا في الحوائج وتنصرونا في الشدائد ولاشدّة أشدّ ممّا نحن فيه فهل أنتم مغنون عنّا نصيبا من النار و إن لم يكن جميع عذابها فقد قنعنا بالبعض .

وهذا ظهور ممّا رسخ في نفوسهم في الدنيا من الالتجاء بكبرائهم و متبوعيهم من دون الله يظهر منهم ذلك يوم القيامة و هم يعلمون أنّهم في يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيأ و الأمر يومئذ لله وله نظائر محكيّة عنهم في كلامه تعالى من كذبهم يومئذ وحلفهم و إنكارهم أعمالهم وتكذيب بعضهم لبعض وغير ذلك .

وقوله : « قال الّذين استكبروا إنّا كلّ فيها إنّ الله قدحكم بين العباد »جواب من مستكبريهم عن قولهم و محصّله أنّ اليوم يوم جزاء لايوم عمل فالأسباب ساقطةعن التأثير وقدطاحت منّاماكنّا نتوهمّه لأنفسنا فيالدنيامن القوّة والقدرة فحالناوحالكم ـ ونحن جميعا في النار ـ واحدة .

فقولهم : « إنّاكلّ فيها إنّ الله قد حكم بين العباد » مفاده أنّ ظهور الحكم الإلهيّ قد أبطل أحكام سائر الأسباب و تأثيراتها و أثبتنا على ما نحن فيه من الحال في حدّ سواء فلسنا نختصّ دونكم بقوّة حتّى نغني عنكم شيأ من العذاب .

و ممّا قيل في الآية أنّ الضمير في قوله : « يتحاجّون » لمطلق الكفّار من أهل النار و هو بعيد كما عرفت ، و قيل : الضمير لقريش و هو أبعد .

قوله تعالى : « و قال الّذين في النار لخزنة جهنّم ادعوا ربّكم يخفّف عنّا يوما من العذاب» مكالمة بين أهل النار ـ و منهمآل فرعون ـ و بين خزنة جهنّم أوردها سبحانه تلوقصّةآلفرعون ، وهم إنّما سألوا الخزنة أن يدعوالهم ليأسهممن أنيستجاب منهم أنفسهم .

و المراد باليوم من العذاب ما يناسب من معنى اليوم لعالمهم الّذي هم فيه، ويؤل معناه إلى قطعة من العذاب .

قوله تعالى : « قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرينإلّا في ضلال » . أجابوهم بالاستخبار عن إتيان رسلهم إيّاهم بالبيّنات فاعترفوا بذلك وهو اعتراف منهمبأنّهمكفروا بهممع العلم بكونهمعلى الحقّوهو الكفر بالنبوّة فلم يجبهم الخزنة فيما سألوهم من الدعاء إثباتا و لانفيابل ردّوهم إلى أنفسهم مشيرين إلى أنّهم لا يستجاب لهم دعاء .

و قوله : « و ما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال» أي إنّ دعاءهم قد أحاط به الضلال فلا يهتدي إلى هدف الإجابة و هو تتمّة كلام الخزنة على ما يعطيه السياق ، و يحتمل أن يكون من كلامه تعالى ، على بعد .

و الجملة على أيّ حال تفيد معنى التعليل و المحصّل : ادعوا فلا يستجاب لكم فإنّكم كافرون ، و الكافرون لا يستجاب لهم دعاء .

و تعليق حكم عدم الاستجابة بوصف الكفر مشعر بعلّيّته و ذلك أنّ الله سبحانه و إن وعد عباده وعداً قطعيّاً أن يجيب دعوة من دعاه منهم فقال: « اُجيب دعوة الداع إذا دعان » البقرة ١٨٦ ، و الدعاء إذا كان واقعا على حقيقته لا يردّ البتّة لكنّ الّذي يتضمّنه متن هذا الوعد هو أن يكون هناك دعاء وطلب حقيقة وأن يتعلّق ذلك بالله حقيقة أي يدعوا الداعي ويطلب جدّاً وينقطع في ذلك إلى الله عن سائر الأسباب الّتي يسمّيها أسبابا .

و الكافر بعذاب الآخرة وهو الّذي ينكرها و يستر حقيقتها لا يتمشّى منه طلب جدّيّ لرفعه أمّا في الدنيا فظاهر ، و أمّا في الآخرة فلأنّه و إن أيقن به بالمعاينة و انقطع إلى الله سبحانه لما هو فيه من الشدّة و قد انقطعت عنه الأسباب لكنّ صفة الإنكار لزمته وبالاً و قد جوزي بها فلا تدعه يطلب ما كان ينكره طلبا جدّيّاً .

على أنّ الكلام في انقطاعه إلى الله أيضا كالكلام في طلبه الجدّيّ للتخلّص وأنّى له الانقطاع إلى الله هناك و لم يتلبّس به في الدنيا فافهمه .

وبذلك يظهر ضعف الاستدلال بالآية على أنّ دعاء الكافر لا يستجاب مطلقا فإنّك عرفت أنّ مدلول الآية عدم استجابة دعائه فيما يكفر به و ينكره لا مطلقا كيف ؟ و هناك آيات كثيرة تذكر استجابة دعائه في موارد الاضطرار .

قوله تعالى : « إنّا لننصر رسلنا و الّذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد » الأشهاد جمع شهيد بمعنى شاهد ، و الآية وعد نوعيّ لا وعد شخصيّ لكلّ واحد شخصيّ منهم في كلّ واقعة شخصيّة ، و قد تقدّم كلام في معنى النصر الإلهيّ في تفسير قوله تعالى : « إنّهم لهم المنصورون » الصافّات : ١٧٢ .

قوله تعالى : « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم و لهم اللعنة و لهم سوء الدار » تفسير ليوم يقوم الأشهاد ، و ظاهر إضافة المصدر إلى فاعله في قوله « معذرتهم » و لم يقل : أن يعتذروا ، تحقّق معذرة ما منهم يومئذ ، و أمّا قوله : « هذا يوم لا ينطقون و لا يؤذن لهم فيعتذرون » المرسلات :۳۶ فمحمول على بعض مراحل يوم القيامة و عقباته لدلالة آيات اُخرى على وقوع تكلّمٍ ما منهم يومئذ .

و قوله : « و لهم اللعنة » أي البعد من رحمة الله ، و قوله : « و لهم سوء الدار » أي الدار السيّئة و هي جهنّم .

قوله تعالى : « و لقد آتينا موسى الهدى و أورثنا بني إسرائيل الكتاب ـ إلى قوله ـ الألباب » خاتمة لما تقدّم من إرسال موسى بالآيات و السلطان المبين و مجادلة آل فرعون في الآيات بالباطل ومحاجّة مؤمن آل فرعون ، يشير بها وقد صدّرت بلام القسم إلى حقّيّة ما اُرسل به وظلمهم فيما قابلوه به .

و المراد بالهدى الدين الّذي اُوتيه موسى ، و « بإيراث بني إسرائيل الكتاب » إبقاء التوراة بينهم يعملون بها و يهتدون .

و قوله : « هدى و ذكرى لاُولي الألباب » أي حالكون الكتاب هدى يهتدي به عامّتهم و ذكرى يتذكّر به خاصّتهم من اُولي الألباب .

﴿ بحث روائی ﴾

في العلل بإسناده عن إسماعيل بن منصور أبي زياد عن رجل عن أبي عبدالله عليه السلام في قول فرعون : « ذروني أقتل موسى » ما كان يمنعه ؟ قال : منعته رشدته ، و لا يقتل الأنبياء و لا أولاد الأنبياء إلّا أولاد الزنا .

و في المجمع قال أبوعبدالله : التقيّة ديني و دين آبائي ، و لا دين لمن لا تقيّة له ، و التقيّة ترس الله في الأرض لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل .

اقول : و الروايات من طرق الشيعة فيها كثيرة والآيات تؤيّدها كقوله : « إلّا أن تتّقوا منهم تقاة » آل عمران : ۲۸ وقوله : « إلّا من اُكره و قلبه مطمئنّ بالإيمان»

النحل : ١٠٦ .

و في المحاسن بإسناده عن أيّوب بن الحرّ عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : «فوقاه الله سيّآت مامكروا » قال : أما لقدسطوا عليه وقتلوه ولكن أتدرون ماوقاه ؟ وقاه أن يفتنوه في دينه .

اقول : و في معناه بعض روايات اُخر و في بعض ماورد من طرق أهل السنّة أن الله نجّاه من القتل .

و في الخصال عن الصادق عليه السلام قال : عجبت لمن يفزع من أربع كيف لايفزع إلى أربع ؟ ـ إلى أن قال ـ وعجبت لمن مكر به كيف لايفزع إلى قوله : « و اُفوّض أمري إلى الله إنّ الله بصير بالعباد » فإنّي سمعت الله تعالى يقول بعقبها : « فوقاه الله سيّآت مامكروا » .

اقول : وهو مرويّ في غير هذا الكتاب .

و في تفسير القمّي قال رجل لأبي عبدالله عليه السلام : ماتقول في قول الله عزّوجلّ : « النار يعرضون عليها غدوّا و عشيّا » ؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام : مايقول الناس؟فقال : يقولون : إنّها في نار الخلد وهم لايعذّبون فيما بين ذلك فقال : فهم من السعداء.فقيل له : جعلت فداك فكيف هذا ؟ فقال : إنّما هذا في الدنيا فأمّا في دارالخلد فهو قوله : « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب » .

اقول : مراده عليه السلام بالدنيا البرزخ و هو كثير الورود في رواياتهم .

و في المجمع عن نافع عن ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إنّ أحدكم إذا دات عرض عليه مقعده بالغداة و العشيّ فإن كان من أهل الجنّة فمن الجنّة ، و إن كان من أهل النار فمن النار يقال: هذا مقعدك حتّى يبعثك الله يوم القيامة أورده البخاريّ ومسلم في الصحيح .

اقول : ورواه السيوطيّ في الدرّ المنثور عنهما وعن ابن أبي شيبة وابن مردويه و هذا المعنى كثير الورود في روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، و قد مرّ كثير منها في البحث عن البرزخ في الجزء الأوّل من الكتاب وغيره من المواضع .

فَاصْبِرْ اِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْاِبْكَارِ (٥٥) اِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ اَتَيٰهُمْ اِنْ فِي صُدُورِهِمْ اِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ اِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَ الْاَرْضِ اَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَ مَا يَسْتَوِي الْاَعْمٰى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ لَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَاتَتَذَكَّرُونَ (٥٨) اِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ لٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَ قَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ اِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) .

﴿ بيان ﴾

لمّا قصّ قصّة موسى وإرساله بالحقّ إلى فرعون وقومه ، و مجادلتهم في آيات الله بالباطل و مكرهم فيها ونصره تعالى لنبيّه و إبطاله كيدهم وما آل إليه أمرهم من خيبة السعي وسوء المنقلب فرّع على ذلك أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بالصبر منبّهاً له أنّ وعدالله بالنصر حقّ و أنّ كيدقومه وجدالهم بالباطل واستكبارهم عن قبول دعوته سيبطل ويعودوبالا على أنفسهم فليسوا بمعجزي الله وستقوم الساعة الموعودة و يدخلون جهنّم داخرين .

قوله تعالى : «فاصبر إنّ وعد الله حقّ » إلى آخر الاية . تفريع على ما تقدّم من الأمر بالاعتبار في قوله : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين

كانوا من قبلهم» وما أورد بعده من قصّة موسى ومآل أمر المستكبرين المجادلين بالباطل ونصره تعالى للحقّ وأهله .

و المعنى إذا كان الأمر على ذلك فاصبر على إيذاء المشركين ومجادلتهم بالباطل إنّ وعدالله حقّ وسيفي لك بماوعد ، والمراد بالوعد ما في قوله قبيل هذا : « إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا » الآية من وعد النصر .

و قوله : « واستغفر لذنبك » أمر له بالاستغفار لما يعدّ بالنسبة إليه ذنبا و إن لم يكن ذنبا بمعنى المخالفة للأمر المولويّ لمكان عصمته صلى الله عليه وآله ، وقد تقدّم كلام في معنى الذنب و المغفرة في أواخر الجزء السادس من الكتاب .

و للذنب المنسوب إليه صلى الله عليه وآله معنى آخر سنشير إليه في تفسير أوّل سورة الفتح إن شاء الله تعالى ، و قيل : المراد بذنبه صلى الله عليه وآله ذنب اُمّته اُعطي الشفاعة فيه .

و قوله : « و سبّح بحمد ربّك بالعشيّ و الإبكار » أي نزّهه سبحانه مصاحبا لحمده على جميل آلائه مستمرّا متوالياً بتوالي الأيّام أو في كلّ صباح و مساء،وكونه بالعشيّ و الإبكار على المعنى الأوّل من قبيل الكناية .

و قيل : المراد به صلاتا الصبح و العصر ، والآية مدنيّة .

وفيه أنّ المسلّم من الروايات و منها أخبار المعراج أنّ الصلوات الخمس فرضت جميعا بمكّة قبل الهجرة فلو كان المراد به الفريضتين كان ذلك بمكّة قبل فرض بقيّة الصلوات الخمس .

قوله تعالى : « إنّ الّذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلّا كبر ماهم ببالغيه » الخ تأكيد لما تقدّم في الاية السابقة من أمره صلى الله عليه وآله بالصبر و تطييب نفسه بتأييد وعد النصر و محصّله أنّ هؤلاء المجادلين لا ينالون بغيتهم و لن ينالوا فلايحزنك جدالهم وطب نفساً من ناحيتهم .

فقوله : « إن في صدورهم إلّا كبر » حصر للسبب الموجب لمجادلتهم في الكبر أي ليس عاملهم في ذلك طلب الحقّ أو الارتياب في آياتنا و الشكّ فيها حتّى يريدوا بها

ظهور الحقّ ولاحجّة ولاسلطان عندهم حتّى يريدوا إظهارها بل الّذي في صدورهم وهو الداعي لهم إلى الجدال ، الكبر ، يريدون به إدحاض الحقّ الصريح .

وقوله : « ماهم ببالغيه » الضمير لكبر باعتبار مسبّبه فإنّ الكبر سبب للجدال و الجدال يراد به إبطال الحقّ ومحق الدعوة الحقّة والمعنى ماهم ببالغي مرادهم و بغيتهم من الجدال الّذي يأتون به لكبرهم .

وقوله : « فاستعذ بالله » أي فاستعذ بالله منهم بما لهم من الكبر كما استعاذ موسى من كلّ متكبّر مجادل كما قال : « وقال موسى إنّي عذت بربّي وربّكم من كلّ متكبّر لايؤمن بيوم الحساب ».

وقوله : « إنّه هو السميع البصير» أي السميع لدعاء عباده البصير بحوائجهم والّذي يبصر ماهم فيه من شدّة أو رخاء .

قوله تعالى : « لخلق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون » اللام للقسم ، و المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم ، و معنى الآية حسب مايعطيه المقام أنّهم ليسوا ببالغي بغيتهم و ليسوا بمعجزين فإنّ الله الّذي قدر على خلق مجموع العالم و لم يعجزه ذلك على ما فيه من العظمة ليس يعجزه جزء يسير منه وهو الناس المخلوقون الّذين هم أهون عليه ولكنّ أكثر الناس جاهلون يظنّون بجهلهم أنّهم يعجزون الله بجدال يجادلونه أو أيّ كيد يكيدونه .

قوله تعالى : «ولايستوي الأعمى والبصير» الخ لمّا ذكر أنّ أكثر الناس لايعلمون أكّده بأنّهم ليسوا على وتيرة واحدة فإنّ منهم الأعمى و البصير و لايستويان و عطف عليهما الّذين آمنوا و عملوا الصالحات والمسيىء فالطائفة الاُولى اُولو بصيرة يتذكّرون بها و الثانية أعمى الله قلوبهم فلايتذكّرون .

وقوله : « قليلا ماتتذكّرون » خطاب للناس بداعي التوبيخ وهو الوجه في الالتفات من الغيبة إلى الحضور .

قوله تعالى : « إنّ الساعة لآتية لاريب فيها و لكنّ أكثر الناس لا يؤمنون »

ذكّرهم تعالى في هذه الاية باتيان الساعة وفي الاية التالية بدعوة ربّهم إيّاهم إلى دعائه وعبادته كما نبّه الّذي آمن من آل فرعون في القصّة السابقة باتيان الساعة وبأنّ لله الدعوة وليس لآلهتهم دعوة في الدنيا ولا في الاخرة .

قوله تعالى : « و قال ربّكم ادعوني أستجب لكم » دعوة منه تعالى لعباده إلى دعائه ووعد بالاستجابة ، وقد أطلق الدعوة و الدعاء و الاستجابة إطلاقا ، و قد أشبعنا الكلام في معنى الدعاء والإجابة في ذيل قوله تعالى : « اُجيب دعوة الداع إذا دعان » البقرة : ١٨٦ في الجزء الأوّل من الكتاب .

وقوله : « إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين » الدخور الذلّة ، وقد بدّل الدعاء عبادة فدلّ على أنّ الدعاء عبادة .

﴿ بحث روائي ﴾

في الصحيفة السجّاديّة : « وقلت : « ادعوني أستجب لكم إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين » فسمّيت دعاءك عبادة وتركه استكبارا وتوعّدت على تركه دخول جهنّم داخرين .

و في الكافي باسناده عن حمّاد بن عيسى عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : سمعته يقول: ادع و لا تقل : قد فرغ من الأمر فانّ الدعاء هو العبادة إنّ الله عزّ و جلّ يقول : «إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين » وقال: «ادعوني أستجب لكم » .

اقول : قوله عليه‌السلام : فانّ الدعاء ـ إلى قوله ـ داخرين احتجاج على ماندب إليه أوّلا بقوله : ادع ، و قوله : و قال : « ادعوني أستجب لكم » احتجاج على ما قاله ثانياً : و لا تقل : قد فرغ من الأمر و لذا قدّم عليه‌السلام في بيانه ذيل الآية على صدرها .

وفي الخصال عن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : يا معاوية من اُعطي ثلاثة لم يحرم ثلاثة : من اُعطي الدعاء اُعطي الإجابة ، و من اُعطي الشكر اُعطي

الزيادة ، و من اُعطي التوكّل اُعطي الكفاية فإنّ الله عزّ و جلّ يقول في كتابه : « ومن يتوكّل على الله فهو حسبه » ، وقال : « لئن شكرتم لأزيدنّكم » ، وقال: «ادعوني أستجب لكم » .

و في التوحيد بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام قال : قال قوم للصادق عليه السلام : ندعوه فلايستجاب لنا . قال : لأنّكم تدعون من لاتعرفونه .

اقول : و قد أوردنا جملة من روايات الدعاء في ذيل قوله : اُجيب دعوة الداع إذادعان » البقرة : ١٨٦ في الجزء الأوّل من الكتاب .



☆ ☆ ☆

اَللّٰهُ الَّذی جَعَلَ لَكُمُ اللَّیْلَ لِتَسْكُنُوا فیه وَ النَّهٰارَ مُبْصِراً اِنَّ اللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النّٰاسِ وَ لٰكِنَّ اَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰیَشْكُرُونَ (٦١) ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ خٰالِقُ كُلِّ شَیْءٍ لاٰ اِلٰهَ اِلاّٰ هُوَ فَاَنّٰی تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذٰلِكَ یُؤْفَكُ الَّذینَ كٰانُوا بِآیٰاتِ اللّٰهِ یَجْحَدُونَ (٦٣) اَللّٰهُ الَّذی جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ قَرٰاراً وَ السَّمٰاءَ بِنٰاءً وَ صَوَّرَكُمْ فَاَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّیِّبٰاتِ ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمینَ (٦٤) هُوَ الْحَیُّ لاٰ اِلٰهَ اِلاّٰ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصینَ لَهُ الدّینَ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمینَ (٦٥) قُلْ اِنّی نُهیتُ أَنْ اَعْبُدَ الَّذینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لَمّٰا جٰاءَنِیَ الْبَیِّنٰاتُ مِنْ رَبّی وَ اُمِرْتُ اَنْ اُسْلِمَ لِرَبِّ الْعٰالَمینَ (٦٦) هُوَ الَّذی خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ یُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا اَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُیُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ یُتَوَفّٰی مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا اَجَلاً مُسَمًّی وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذی یُحْیی وَ یُمیتُ فَاِذٰا قَضٰی اَمْراً فَاِنَّمٰا یَقُولُ لَهُ كُنْ فَیَكُونُ (٦٨) .

﴿ بيان ﴾

رجع سبحانه ثانيا إلى الإشارة إلى آيات التوحيد توحيدالربوبيّة والاُلوهيّة بعد مابدء بها في السورة أوّلا بقوله : « هو الّذي يريكم آياته » .

قوله تعالى : « هو الّذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه و النهار مبصرا » الاية. أي جعل لأجلكم الليل مظلما لتسكنوا فيه من التعب الّذي عرض لكم وجه النهارمن جهة السعي في طلب الرزق ، و النهار مبصراً لتبتغوا من فضل ربّكم وتكسبوا الرزق ، وهذا من أركان تدبير الحياة الإنسانيّة .

وقد ظهر بذلك أنّ نسبة الإبصار إلى النهار من المجاز العقليّ لكن ليس من المبالغة في شيء كما ادّعاه بعضهم .

وقوله : « إنّ الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون » امتنان عليهم بالفضل و تقريع لهم بعدم شكرهم له قبال هذا الفضل العظيم و لو شكروه لعبدوه و وضع « الناس » الثاني موضع الضمير للإشارة إلى أنّ من طبع الناس بما هم ناس كفران النعم كما قال : « إنّ الإنسان لظلوم كفّار » إبراهيم : ٣٤ .

قوله تعالى : « ذلكم الله ربّكم خالق كلّ شيء لا إله إلّا هو فأنّى تؤفكون» أيذلكم الّذي يدبّر أمرحياتكم ورزقكم بسكون الليل وسعي النهار هوالله تعالى وهو ربّكم لأنّ تدبير أمركم إليه .

وقوله : « خالق كلّ شيء » أي وربّ كلّ شيء لأنّه خالق كلّ شيء والخلق لاينفكّ عن التدبير و لازم ذلك أن لايكون في الوجود ربّ غيره لالكم و لا لغيركم و لذلك عقّبه بقوله : « لا إله إلّا هو » أي فإذن لا معبود بالحقّ غيره إذ لو كان هناك معبود آخر كان ربّ آخر فإنّ الاُلوهيّة من شؤن الربوبيّة .

و قوله : « فأنّى تؤفكون » أي فكيف تُصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره.

قوله تعالى : « كذلك يؤفك الّذين كانوا بآيات الله يجحدون » أي كمثل هذا الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله فإنّ الآيات ظاهرة غيرخفيّة فالانصراف عن مدلولها لاسبب له إلّا الجحد .

قوله تعالى : « الله الّذي جعل لكم الأرض قرارا و السماء بناء » إلى آخر الآية القرار المستقرّ الّذي يستقرّ عليه ، و البناء ـ على ما قيل ـ القبّة و منه أبنية

العرب للقباب المضروبة عليهم . يذكر تعالى نعمة استقرار الإنسان على الأرض وتحت السماء .

وقوله : «وصوّركم فأحسن صوركم » الفاء للتفسير و المعنى أحسن خلق صوركم و ذلك أنّ الإنسان جهّز من دقائق التجهيز في صورته بما يقوى به من الأعمال المتنوّعة العجيبة على ما لا يقوى عليه شيء من سائر الموجودات الحيّة ، ويلتذّ من مزايا الحياة بما لا يتيسّر لغيره أبدا .

و قوله : « و رزقكم من الطيّبات » هي الأرزاق المتنوّعة الّتي تلائم بطبائعها طبيعة الإنسان من الحبوب و الفواكه و اللحوم وغيرها ، و ليس في الحيوان متنوّع في الرزق كالإنسان .

و قوله : « ذلكم الله ربّكم » أي المدبّر لأمركم ، و قوله : « فتبارك الله ربّ العالمين » ثناء عليه عزّ وجلّ بربوبيّته لجميع العالمين، وقد فرّعه على ربوبيّته وتدبيره للإنسان إشارة إلى أنّ الربوبيّة واحدة و تدبيره لأمر الإنسان عين تدبيره لأمر العالمين جميعا فإنّ النظام الجاري نظام واحد روعي في انطباقه على كلّ ، انطباقه على الكلّ فهو سبحانه متبارك منشأ للخير الكثير فتبارك الله ربّ العالمين .

قوله تعالى : « هو الحيّ لا إله إلّا هو فادعوه مخلصين له الدين » الخ في جملة « هو الحيّ » إطلاق لا مقيّد له لا عقلا و لا نقلا مضافا إلى إفادة الحصر فمفادها أنّ له تعالى وحده حياة لا يداخلها موت ولا يزيلها فناء فهو تعالى حيّ بذاته وغيره كائنا ما كان حيّ بإحياء غيره .

و إذا فرض هناك حيّ بذاته وحيّ بغيره لم يستحقّ العبادة بذاته إلّا من كان حيّا بذاته ، و لذلك عقّب قوله : « هو الحيّ » بقوله : « لا إله إلّا هو » .

وقد سيقت الجملتان توطئة للأمر بدعائه و لا مطلق دعائه بل دعائه بالتوحيد و إخلاص الدين له وحده لأنّه الحيّ بذاته دون غيره ولأنّه المعبود بالاستحقاق الذاتيّ دون غيره ، ولذلك فرّع على قوله : « هو الحيّ لا إله إلّا هو » قوله : «فادعوه مخلصين له الدين » .

وقوله : « الحمدلله ربّ العالمين » ثناء عليه بربوبيّته للعالمين .

قوله تعالى : « قل إنّي نهيت أن أعبد الّذين تدعون من دون الله لمّا جاءني البيّنات من ربّي و اُمرت أن اُسلم لربّ العالمين » معنى الآية ظاهر ، و فيه إيآس للمشركين من موافقته صلى‌الله‌عليه‌وآله لهم في عبادة آلهتهم ، و قد تكرّر هذا المعنى في سورة الزمر ويمكن أن يستأنس منه أنّ هذه السوره نزلت بعد سورة الزمر .

قوله تعالى : « هو الّذي خلقكم من تراب ثمّ من نطفة » الخ المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإنّ خلق غيره ينتهي إليه فخلقه من تراب هو خلقهم منه أو المراد بخلقهم من تراب تكوين النطفة من البسائط الأرضيّة .

وقوله : « ثمّ من نطفة » الخ أي ثمّ خلقناكم من نطفة حقيرة معلومة الحال « ثمّ من علقة » كذلك « ثمّ يخرجكم » من بطون اُمّهاتكم « طفلا » أي أطفالا ، والطفل ـ كما قيل ـ يطلق على الواحد والجمع قال تعالى : « أو الطفل الّذين لم يظهروا على عورات النساء » النور : ٣١ .

« ثمّ لتبلغوا أشدّكم » اللاّم للغاية و كأنّ متعلّقها محذوف و التقدير ثمّ ينشئكم لتبلغوا أشدّكم وهو من العمر زمان اشتداد القوى « ثمّ لتكونوا شيوخا » معطوف على « لتبلغوا » « ومنكم من يتوفّى من قبل » فلا يبلغ أحد هذه المراحل من العمر كالشيخوخة و بلوغ الأشدّ وغيرهما .

« و لتبلغوا أجلا مسمّى » وهو النهاية من الأمد المضروب الّذي لا سبيل للتغيّر إليه أصلا ، و هو غاية عامّة لجميع الناس كيفما عمّروا قال تعالى : « و أجل مسمّى عنده » الأنعام : ٢ ، و لذلك لم تعطف الجملة بثمّ حتّى تتميّز من الغايتين المذكورتين سابقا .

و قوله : « و لعلّكم تعقلون » أي تدركون الحقّ بالتعقّل المغروز فيكم ، وهذا غاية خلقة الإنسان بحسب حياته المعنويّة كما أنّ بلوغ الأجل المسمّى غاية حياته الدنيا الصوريّة .

قوله تعالى : « هو الّذي يحيي و يميت » الخ أي هو الّذي يفعل الإحياء و

الإماتة و فيهما نقل الأحياء من عالم إلى عالم وكلّ منهما مبدء لتصرّفاته بالنعم الّتي يتفضّل بها على من يدبّر أمره .

وقوله : « فإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون » تقدّم تفسيره كراراً .

﴿بحث روائى﴾

في الدرّ المنثور أخرج عبدبن حميد و ابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبيالعالية قال : إنّ اليهود أتوا النبيّ صلى الله عليه وآله و قالوا إنّ الدجّال يكون منّا في آخر الزمان و يكون من أمره فعظّموا أمره و قالوا يصنع كذا فأنزل الله : « إنّ الّذين يجادلون في آياتالله بغير سلطان أتاهم إن فيصدورهم إلّا كبرماهم ببالغيه» قال : لايبلغ الّذييقول. « فاستعذ بالله » فأمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يتعوّذ من فتنة الدجّال« لخلق السماواتوالأرض أكبرمن خلق الناس » الدجّال .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في قوله : « إنّ الّذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان » قال : هماليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجّال.

وفيه أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله : « لخلق السماوات والأرضأكبر من خلق الناس » قال : زعموا أنّ اليهود قالوا : يكون منّاملك فيآخر الزمان البحر إلى ركبتيه ، و السحاب دون رأسه ، يأخذ الطيربين السماء و الأرض ، معه جبلخبز ونهر فنزلت : « لخلق السماوات والأرض أكبرمن خلق الناس » .

اقول : قد عرفت فيما تقدّم أنّ غرض السورة ـ كما يستفاد من سياق آياتها ـ التكلّم حول استكبارهم و مجادلتهم فى آيات الله بغير الحقّ فمنها ابتدء الكلام و إليها يعود عودةبعد عودةكقوله : «ما يجادل في آياتالله إلّا الّذين كفروا » وقوله :«وجادلوا بالباطل ليدحضوا بهالحقّ » ، وقوله : « الّذين يجادلون في آياتالله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا » ، وقوله : « إنّ الّذين يجادلون في آيات الله بغيرسلطان أتاهم إنفيصدورهم إلّا كبر » ، وقوله : « ألم تر إلى الّذين يجادلون في آيات الله أنّى يصرفون» .

فسياق آيات السورة يأبى أن يكون بعضها يختصّ بسبب في نزولها لا يشاركها فيه غيرها كما هو مؤدّى هذه الروايات الثلاث .

على أنّ ما في الروايات من قصّة إخبار اليهود بالدجّال لا ينطبق على الآيتين انطباقاً ظاهراً بعد التأمّل في مضمون الآيتين نفسهما أعني قوله : « إنّ الّذين يجادلون ـ إلى قوله ـ و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون » .

و من هنا يظهر أنّ القول بكون الآيتين مدنيّتين استناداً إلى هذه الروايات كما ترى .



☆☆☆

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَ بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ السَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) .

﴿ بيان ﴾

رجوع بعد رجوع إلى حديث المجادلين في آيات الله وقد تعرّض لبيان مآل أمرهم بذكر ما آل إليه أمر أشباههم من الاُمم الخالية و نصره تعالى لدينه في أوّل السورة إجمالا ثمّ بذكر الحال في دعوة موسى عليه السلام بالخصوص فيما قصّه من قصّته و نصره له

بالخصوص ثمّ في ضمن أمر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله بالصبر و وعده بالنصر .

و هذا آخر كرّة عليهم يذكر فيها مآل أمرهم و ما يُصرفون إليه و هو العذاب المخلّد ثمّ يأمر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله بالصبر ويعده بالنصر و يطيّب نفسه بأنّ وعد الله حقّ .

قوله تعالى : « ألم تر إلى الّذين يجادلون في آيات الله أنّى يُصرفون » «ألم تر » مفيد للتعجيب و « أنّى » بمعنى كيف ، والمعنى ألاتعجب أوألم تعجب من أمر هؤلاءالمجادلين في آيات الله كيف يُصرفون عن الحقّ إلى الباطل وعن الهدى إلى الضلال.

والتعرّض لحال المجادلين ههنا من حيث الإشارة إلى كونهم مصروفين عن الحقّ و الهدى ومآل ذلك ، و فيما تقدّم من قوله : « إنّ الّذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلّا كبر ماهم ببالغيه » من حيث إنّ الداعي لهم إلى ذلك الكبر وأنّهم لايبلغون مايريدون فلاتكرار .

و منه يظهر مافي قول بعضهم : إنّ تكرير ذكر المجادلة محمول على تعدّدالمجادل بأن يكون المجادلون المذكورون في الآية السابقةغير المذكورين في هذه الآية أو على اختلاف ما فيه المجادلة كأن يكون المجادلة هناك في أمر البعث وههنا في أمر التوحيد. على أنّ فيه غفلة عن غرض السورة كما عرفت .

قوله تعالى : « الّذين كذّبوا بالكتاب و بما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون » الّذي يعطيه سياق الآيات التالية أنّ المراد بهؤلاء المجادلين هم المجادلون من قوم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وعليه فالأنسب أن يكون المراد بالكتاب هوالقرآن الكريم ، وبقوله: « بما أرسلنا به رسلنا » ماجاءت به الرسل عليهم‌السلام من عند الله من كتاب و دين فالوثنيّة منكرون للنبوّة .

و قوله : « فسوف يعلمون » تفريع على مجادلتهم و تكذيبهم و تهديد لهم أي سوف يعلمون حقيقة مجادلتهم في آيات الله و تكذيبهم بالكتاب و بالرسل .

قوله تعالى : « إذالأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثمّ في النار يسجرون » في المجمع : الأغلال جمع غلّ وهو طوق يدخل في العنق للذلّ و الألم ، و أصله الدخول ، و قال: السلاسل جمع سلسلة وهي الحلق منتظمة في جهة الطول مستمرّة

وقال : السحب جرّ الشيء على الأرض . هذا أصله ، وقال : السجر أصله إلقاءالحطب في معظم النار كالتنّور الّذي يسجر بالوقود . انتهى .

وقوله : « إذ الأغلال في أعناقهم و السلاسل » ظرف لقوله : « فسوف يعلمون » قيل : الإتيان بإذ ـ وهو للماضي ـ للدلالة على تحقّق الوقوع وإن كان موقعه المستقبل فلاتنافي الجمع بين سوف و إذ .

و« الأغلال في أعناقهم » مبتدء و خبر ، و« السلاسل » معطوف على الأغلال ، و « يسحبون في الحميم » خبر بعد خبر ، و« في النار يسجرون » معطوف على «يسحبون».

و المعنى سوف يعلمون حقيقة عملهم حين تكون الأغلال و السلاسل في أعناقهم يجرّون في الماء الحارّ الشديد الحرارة ثمّ يقذفون في النار .

وقيل : معنى قوله : « ثمّ في النار يسجرون » ثمّ يصيرون وقود النار ، ويؤيّده قوله تعالى في صفة جهنّم : « وقودها الناس و الحجارة » البقرة : ٢٤ ، وقوله : «إنّكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنّم » الأنبياء : ٩٨ .

قوله تعالى : « ثمّ قيل لهم أين ماكنتم تشركون من دون الله قالوا ضلّوا عنّا » إلى آخر الآية . أي قيل لهم وهم يتقلّبون بين السحب و السجر : أين ماكنتم تشركون من شركائكم من دون الله حتّى ينصروكم بالإنجاء من هذا العذاب أو يشفعوا لكم كماكنتم تزعمون أنّهم سيشفعون لكم قبال عبادتكم لهم ؟

و قوله : « قالوا ضلّوا عنّا » أي غابوا عنّا من قولهم : ضلّت الدابّة إذا غابت فلم يعرف مكانها ، و هذا جوابهم عمّا قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله .

و قوله : « بل لم نكن ندعو من قبل شيأ » إضراب منهم عن الجواب الأوّل لما يظهر لهم أنّ الآلهة الّذين كانوا يزعمونهم شركاء لم يكونوا إلّا أسماء لا مسمّيات لها و مفاهيم لا يطابقها شيء ولم يكن عبادتهم لها إلّا سدى، و لذلك نفوا أن يكونوا يعبدون شيأ قال تعالى : « فزيّلنا بينهم » يونس : ٢٨ و قال : « لقد تقطّع بينكم و ضلّ عنكم ما كنتم تزعمون » الأنعام : ٩٤ .

و قيل: هذا من كذبهم يوم القيامة على حدّ قوله :«و الله ربّنا ماكنّا مشركين » الأنعام : ٢٣ .

و قوله : «كذلك يضلّ الله الكافرين» أي إضلاله تعالى للكافرين و هم الساترون للحقّ يشبه هذا الضلال وهو أنّهم يرون الباطل حقّا فيقصدونه ثمّ يتبيّن لهم بعد ضلال سعيهم أنّه لم يكن إلّا باطلا في صورة حقّ و سراباً في سيماء الحقيقة .

و المعنى على الوجه الثاني أعني كون قولهم : « بل لم نكن ندعو من قبل شيأ» كذبا منهم : كمثل هذا الاضلال يضلّ الله الكافرين فيؤل أمرهم إلى الكذب حيث لا ينفع مع علمهم بأنّه لا ينفع .

و قد فسّرت الجملة بتفاسير اُخرى متقاربة و قريبة ممّا ذكرناه .

قوله تعالى :« ذلكم بماكنتم تفرحون في الأرض بغير الحقّ وبماكنتم تمرحون» الفرح مطلق السرور،و المرح الإفراط فيه و هو مذموم ، و قال الراغب: الفرح انشراح الصدر بلذّة عاجلة و أكثر ما يكون ذلك في اللذّات البدنيّة ، و قال : المرح شدّة الفرح و التوسّع فيه . انتهى .

و قوله : « ذلكم بما كنتم » الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب و الباء في « بما كنتم » للسببيّة أو المقابلة .

والمعنى ذلكم العذاب الّذي أنتم فيه بسبب كونكم تفرحون في الأرض بغير الحقّ من اللذّات العاجلة و بسبب كونكم تفرطون في الفرح وذلك لتعلّق قلوبهم بعرض الدنيا و زينتها و معاداتهم لكلّ حقّ يخالف باطلهم فيفرحون و يمرحون بإحياء باطلهم و إماتة الحقّ و اضطهاده .

قال في المجمع : قيّد الفرح و أطلق المرح لأنّ الفرح قد يكون بحقّ فيحمد عليه و قد يكون بالباطل فيذمّ عليه ، و المرح لا يكون إلّا باطلا . انتهى .

قوله تعالى : « ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبّرين » أي ادخلوا أبوابها المقسومة لكم خالدين فيها فبئس مقام الّذين يتكبّرون عن الحقّ

جهنّم ، و قد تقدّم أنّ أبواب جهنّم دركاتها .

قوله تعالى : « فاصبر إنّ وعدالله حقّ » لمّا بيّن مآل أمر المجادلين في آيات الله و هي النار و أنّ الله يضلّهم بكفرهم فرّع عليه أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بالصبر معلّلا ذلك بأنّ وعدالله حقّ .

و قوله : « فإمّا نرينّك بعض الّذي نعدهم » هو عذاب الدنيا « أو نتوفّينّك » بالموت « فلم نرك ذلك « فإلينا يرجعون » و لا يفوتوننا فننجز فيهم ما وعدناه .

قوله تعالى : « و لقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك و منهم من لم نقصص عليك الخ بيان لكيفيّة النصر المذكور في الآية السابقة أنّ آية النصر ـ الّتي جرت سنّة الله على إنزالها للقضاء بين كلّ رسول و اُمّته و إظهار الحقّ على الباطل كما يشير إليه قوله : « و لكلّ اُمّة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط و هم لا يظلمون » يونس : ٤٧ ـ لم يفوّض أمرها إلى رسول من الرسل من قبلك بل كان يأتي بها من يأتي منهم بإذن الله ، و حالك حالهم ، فمن الممكن أن نأذن لك في الإتيان بها فنريك بعض ما نعدهم ، ومن الممكن أن نتوفّاك فلا نريك غير أنّ أمر الله إذا جاء قضي بينهم بالحقّ وخسر هنالك المبطلون . هذا ما يفيده السياق .

فقوله:«و لقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك و منهم من لم نقصص عليك » مسوق للإشارة إلى كون ما سيذكره سنّة جارية منه تعالى .

و قوله : « و ما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن الله » الآية و إن كانت أعمّ من الآية المعجزة الّتي يؤتاها الرسول لتأييد رسالته ، و الآية الّتي تنصر الحقّ و تقضي بين الرسول و بين اُمّته و الكلّ بإذن الله لكن مورد الكلام كما استفدناه من السياق القسم الثاني و هي القاضية بين الرسول و اُمّته .

و قوله : « فإذا جاء أمر الله قضي بالحقّ و خسر هنالك المبطلون» أي فإذا جاء أمر الله بالعذاب قضي بالحقّ فاُظهر الحقّ و اُزهق الباطل وخسر عند ذلك المتمسّكون بالباطل في دنياهم بالهلاك و في آخرتهم بالعذاب الدائم .

واستدلّ بالآية على أنّ من الرسل من لم تذكر قصّته في القرآن ، وفيه أنّ الآية مكّيّة لا تدلّ على أزيد من عدم ذكر قصّة بعض الرسل إلى حين نزولها بمكّة ،وقد ورد في سورة النساء : « ورسلا قد قصصنا هم عليك من قبل و رسلا لم نقصصهم عليك» النساء: ١٦٤ و لم يذكر في السور النازلة بعد سورة النساء اسم أحد من الرسل المذكورين بأسمائهم في القرآن .

و في المجمع و روي عن عليّ عليه‌السلام أنّه قال : بعث الله نبيّاً أسود لم يقصّ علينا قصّته ، و روى في الدرّ المنثور عن الطبراني في الأوسط وابن مردويه عنه ما في معناه .

☆☆☆

اللّٰهُ الّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْاَنْعٰامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهٰا وَ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَ لَكُمْ فِيهٰا مَنٰافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهٰا حٰاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهٰا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَ يُرِيكُمْ آيٰاتِهِ فَاَىَّ آيٰاتِ اللّٰهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْاَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كٰانُوا اَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثٰاراً فِى الْاَرْضِ فَمٰا أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَرِحُوا بِمٰا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨٣) فَلَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا قٰالُوا آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنٰا بِمٰا كُنّٰا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ اِيمٰانُهُمْ لَمّٰا رَأَوْا بَأْسَنٰا سُنَّتَ اللّٰهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبٰادِهِ وَ خَسِرَ هُنٰالِكَ الْكٰافِرُونَ (٨٥) .

﴿بيان﴾

رجوع بعد رجوع إلى ذكر بعض آيات التوحيد و إرجاع لهم إلى الاعتبار بحال الأمم الدارجة الهالكة و سنّة الله الجارية فيهم بإرسال رسله إليهم ثمّ القضاء بين رسلهم و بينهم المؤدّي إلى خسران الكافرين منهم ، و عند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « الله الّذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها و منها تأكلون » ذكر سبحانه ممّا ينتفع به الإنسان في حياته و يدبّر به أمره الأنعام و المراد بها الإبل و البقر و الغنم ، و قيل : المراد بها ههنا الإبل خاصّة .

فقوله : « جعل لكم الأنعام لتركبوا منها و منها تأكلون » الجعل هنا الخلق أو

التسخير ، و اللاّم في « لتركبوا » للغرض و « من » للتبعيض ، و المعنى خلق لأجلكم أو سخّر لكم الأنعام و الغرض من هذا الجعل أن تركبوا بعضها كبعض الإبل و بعضها كبعض الإبل و البقر و الغنم تأكلون .

قوله تعالى : « و لكم فيها منافع » الخ كانتفاعكم بألبانها و أصوافها و أوبارها و أشعارها و جلودها و غير ذلك ، و قوله : « و لتبلغوا عليها حاجة في صدوركم » أي و من الغرض من جعلها أن تبلغوا ، حالكونكم عليها بالركوب ، حاجة في صدوركم و هي الانتقال من مكان إلى مكان لأغراض مختلفة .

و قوله : « و عليها و على الفلك تحملون »كناية عن قطع البرّ و البحر بالأنعام والفلك .

قوله تعالى : « و يريكم آياته فأيّ آيات الله تنكرون » تقدّم معنى إراءته تعالىآياته في تفسير أوائل السورة ، وكأنّ الجملة أعني قوله : « و يريكمآياته » غير مقصودة لنفسها حتّى يلزم التكرار و إنّما هي تمهيد و توطئة للتوبيخ الّذي في قوله : «فأيّآياتالله تنكرون» أيأيّهذهالآيات الّتي يريكم الله إيّاها عياناو بيانا،تنكرون إنكاراً يمهّد لكم الإعراض عن توحيده .

قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا » إلىآخر الآية توبيخ لهم و عطف لأنظارهم إلى ماجرى من سنّة القضاء والحكم في الاُمم السالفة ، و قد تقدّمت نظيرة الآية في أوائل السورة و كان الغرض هناك أن يتبيّن لهم أنّ الله أخذ كلاّ منهم بذنوبهم لمّاكانت تأتيهم رسلهم بالبيّناتفيكفرون بهم ولذا ذيّل الآية بقوله:«فأخذهم الله بذنوبهم » ، و الغرض ههنا أن يتبيّن لهم أنّهم لم يغنهم ماكسبوا و لم ينفعهم في دفع عذاب الله ما فرحوا به من العلم الّذي عندهم ولاتوبتهم و ندامتهم ممّا عملوا .

و قد صدّرت الآية بفاء التفريع فقيل : « أفلم يسيروا » الخ مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وكأنّ الكلام تفريع على قوله : «فأيّآيات الله تنكرون» فكأنّه لمّا ذمّهم و أنكرإنكارهم لآياته رجعو انصرفعنهم إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله مشيرا إلىسقوطهم من منزلة الخطاب و قال:إذا كانتآياته تعالى ظاهرة بيّنة لا تقبل الإنكار و منجملتها

ما يرد على الأوّل .

ومنها أنّ ضمير فرحوا للكفّار وضمير « عندهم » للرسل والمعنى فرح الكفّار بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء وفيه أنّ لازمه اختلاف الضمائر المتّسقة مضافا إلى أنّ الضحك و الاستهزاء لايسمّى فرحا ولاقرينة .

و منها أنّ ضميري « فرحوا بماعندهم » للرسل ، والمعنى أنّ الرسل لمّاجاؤهم وشاهدوا ماهم فيه من الجهل والتمادي على الكفر والجحود وعلموا عاقبة أمرهم فرحوا بماعندهم من العلم الحقّ وشكروا الله على ذلك .

و فيه أنّ سياق الآيات أصدق شاهد على أنّها سيقت لبيان حال الكفّار بعد إتيان رسلهم بالبيّنات وكيف آلت إلى نزول العذاب و لم ينفعهم الإيمان بعد مشاهدة البأس ؟ و أيّ ارتباط له بفرح الرسل بعلومهم الحقّة ؟ على أنّ لازمه أيضاً اختلاف الضمائر .

قوله تعالى : «فلمّا رأوا بأسنا قالوا آمنّا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين» البأس شدّة العذاب ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا » الخ و ذلك لعدم استناد الإيمان حينئذ إلى الاختيار ، وقوله : « سنّة الله الّتي قدخلت في عباده » أي سنّها الله سنّة ماضية في عباده أن لاتقبل توبة بعد رؤية البأس « و خسر هنالك الكافرون » .

ما في آثار الماضين من الآيات الناطقة وهم قد ساروا في الأرض و شاهدوها فلم لم ينظروا فيها فيتبيّن لهم أنّ الماضين مع كونهم أقوى من هؤلاء كمّاً وكيفاً لم ينفعهم ما فرحوا به من علم و قوّة .

قوله تعالى : « فلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم » الخ ضمائر الجمع في الآية ـ وهي سبع ـ للّذين من قبلهم ، و المراد بما عندهم من العلم ما وقع في قلوبهم و شغل نفوسهم من زينة الحياة الدنيا و فنون التدبير للظفر بها وبلوغ لذائذها و قد عدّ الله سبحانه ذلك علما لهم وقصر علمهم فيه قال تعالى: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا و هم عن الآخرة هم غافلون » الروم : ۷ ، و قال : « فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا و لم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » النجم : ۳۰ .

و المراد بفرحهم بما عندهم من العلم شدّة إعجابهم بما كسبوه من الخبرة والعلم الظاهريّ و انجذابهم إليه الموجب لإعراضهم عن المعارف الحقيقيّة الّتي جاءت بها رسلهم، و استهانتهم بها و سخريّتهم لها، و لذا عقّب فرحهم بما عندهم من العلم بقوله: « و حاق بهم ماكانوا به يستهزؤن » .

و في معنى قوله : « فرحوا بما عندهم من العلم » أقوال اُخر :

منها أنّ المراد بما عندهم من العلم عقائدهم الفاسدة و آراؤهم الباطلة وتسميتها علما للتهكّم فهم كانوا يفرحون بها و يستحقرون لذلك علم الرسل ، و أنت خبير بأنّه تصوير من غير دليل .

و منها أنّ المراد بالعلم هو علوم الفلاسفة من يونان والدهريّين فكانوا إذا سمعوا بالوحي ومعارف النبوّة صغّروا علم الأنبياء وتبجّحوا بما عندهم ، وهو كسابقه على أنّه لا ينطبق على أحد من الاُمم الّتي قصّ القرآن قصّتهم كقوم نوح وعاد و ثمود و قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب و غيرهم .

ومنها أنّ أصل المعنى فلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات لم يفرحوا بما جاءهم من العلم فوضع موضعه فرحوا بما عندهم من الجهل ثمّ بدّل الجهل علما تهكّما فقيل : فرحوا بما عندهم من العلم ، وهذا الوجه ـ على ما فيه من التكلّف والبعد من الفهم ـ يرد عليه

سورة حمٓ السجدة مكيّة و هي أربع و خمسون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حٰمٓ (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ(٢) كِتٰابٌ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ (٤) وَ قٰالُوا قُلُوبُنٰا فِي أَكِنَّةٍ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَيْهِ وَ فِي آذٰانِنٰا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنٰا وَ بَيْنِكَ حِجٰابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنٰا عٰامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمٰا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدٰاداً ذٰلِكَ رَبُّ الْعٰالَمِينَ (٩) وَ جَعَلَ فِيهٰا رَوٰاسِيَ مِنْ فَوْقِهٰا وَبٰارَكَ فِيهٰا وَ قَدَّرَ فِيهٰا أَقْوٰاتَهٰا فِي أَرْبَعَةِ أَيّٰامٍ سَوٰاءً لِلسّٰائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ وَهِيَ دُخٰانٌ فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قٰالَتٰا أَتَيْنٰا طٰائِعِينَ (١١) فَقَضٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا وَ زَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيٰا بِمَصٰابِيحَ وَ حِفْظاً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) .

﴿بيان﴾

تتكلّم السورة حول إعراضهم عن الكتاب المنزل عليهم وهو القرآن الكريم فهو الغرض الأصليّ ولذلك ترى طائف الكلام يطوف حوله و يبتدىء به ثمّ يعود إليه فصلا بعد فصل فقد افتتح بقوله : « تنزيل من الرحمان الرحيم » الخ ثمّ قيل : « وقال الّذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن » الخ ، و قيل : « إنّ الّذين يلحدون في آياتنا لايخفون علينا » الخ ، وقيل : « إنّ الّذين كفروا بالذكر لمّا جاءهم » الخ ، وقيل ـ وهو في خاتمة الكلام ـ : « قل أرأيتم إن كان من عندالله ثمّ كفرتم به » الخ .

و لازم إعراضهم عن كتاب الله إنكار الاُصول الثلاثة الّتي هي أساس دعوته الحقّة وهي الوحدانيّة و النبوّة و المعاد فبسطت الكلام فيها وضمّنته التبشير و الإنذار .

و السورة مكّيّة لشهادة مضامين آياتها على ذلك وهي من السور النازلة في أوائل البعثة على مايستفاد من الروايات .

قوله تعالى : « حمٓ تنزيل من الرحمان الرحيم » خبر مبتدء محذوف ،والمصدر بمعنى المفعول ، والتقدير هذا منزّل من الرحمان الرحيم، والتعرّض للصفتين الكريمتين: الرحمان الدالّ على الرحمة العامّة للمؤمن و الكافر ، والرحيم الدالّ على الرحمة الخاصّة بالمؤمنين للإشارة إلى أنّ هذا التنزيل يصلح للناس دنياهم كمايصلح لهم آخرتهم .

قوله تعالى : « كتاب فصّلت آياته قرآنا عربيّا لقوم يعلمون » خبر بعد خبر ، والتفصيل يقابل الإحكام و الإجمال ، والمراد بتفصيل آيات القرآن تمييز أبعاضه بعضها من بعض بإنزاله إلى مرتبة البيان بحيث يتمكّن السامع العارف بأساليب البيان من فهم معانيه و تعقّل مقاصده و إلى هذا يشير قوله تعالى : « كتاب اُحكمت آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيم خبير » هود : ١ ، و قوله : « و الكتاب المبين إنّا جعلناه قرآنا عربيّا لعلّكم تعقلون وإنّه في اُمّ الكتاب لدينا لعليّ حكيم » الزخرف : ٤ .

وقوله : « قرآنا عربيّا » حال من الكتاب أومن آياته ، و قوله : « لقوم يعلمون »

اللّام للتعليل أو للاختصاص ، و مفعول « يعلمون » إمّا محذوف و التقدير لقوم يعلمون معانيه لكونهم عارفين باللسان الّذي نزّل به وهم العرب و إمّا متروك والمعنى لقوم لهم علم .

و لازم المعنى الأوّل أن يكون هناك عناية خاصّة بالعرب في نزول القرآن عربيّا وهو الّذي يشعر به أيضاً قوله الآتي : «ولوجعلناه قرآنا أعجميّا لقالوا لولافصّلت آياته ءأعجميّ و عربيّ » الآية وقريب منه قوله : « ولو نزّلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ماكانوا به يؤمنون » الشعراء : ١٩٩ .

و لا ينافي ذلك عموم دعوته صلّى الله عليه وآله لعامّة البشر لأنّ دعوته صلّى الله عليه وآله كانت مرتّبة على مراحل فأوّل مادعى دعى الناس بالموسم فقوبل بإنكار شديد منهم ثمّ كان يدعو بعد ذلك سرّاً مدّة ثمّ أمر بدعوة عشيرته الأقربين كمايشير إليه قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » الشعراء : ٢١٤ ثمّ اُمر بدعوة قومه كمايشير إليه قوله :« فاصدع بماتؤمر و أعرض عن المشركين » الحجر : ٩٤ ثمّ اُمر بدعوة الناس عامّةكما يشير إليه قوله : « قل يا أيّها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعا » الأعراف : ١٥٨ ، و قوله : « و اُوحي إليّ هذا القرآن لاُنذركم به و من بلغ » الأنعام : ١٩ .

على أنّ من المسلّم تاريخا أنّه كان من المؤمنين به سلمان و كان فارسيّا ، و بلال و كان حبشيّا ، و صهيب و كان روميّا ، و دعوته لليهود و وقائعه صلّى الله عليه وآله وسلّم معهم ، و كذا كتابه إلى ملك إيران و مصر وحبشة والروم في دعوتهم إلى الإسلام كلّ ذلك دليل على عموم الدعوة .

قوله تعالى : « بشيراً ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون » « بشيراونذيرا» حالان من الكتاب في الآية السابقة ، والمراد بالسمع المنفيّ سمع القبول كمايدلّ عليه قرينة الإعراض .

قوله تعالى : « و قالوا قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه » إلى آخر الآية . قال الراغب : الكنّ ما يحفظ فيه الشيء . قال : الكنان الغطاء الّذي يكنّ فيه الشيء و الجمع أكنّة نحوغطاء وأغطية قال تعالى: «وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه » . انتهى.

فقوله : « قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه » كناية عن كون قلوبهم بحيث لا تفقه مايدعو ﷺ إليه من التوحيد كأنّها مغطّاة بأغطية لا يتطرّق إليها شيء من خارج.

و قوله : « و في آذاننا وقر » أي ثقل من الصمم فلاتسمع شيأ من هذه الدعوة ، و قوله : « و من بيننا وبينك حجاب » أي حاجز يحجزنا منك فلانجتمع معك على شيء ممّا تريد فقد أيأسوه ﷺ من قبول دعوته بما أخبروه أوّلا بكون قلوبهم في أكنّة فلاتقع فيها دعوته حتّى يفقهوها ، وثانيا بكون طرق ورودها إلى القلوب وهي الآذان مسدودة فلاتلجها دعوة ولاينفذمنها إنذار وتبشير ، وثالثا بأنّ بينهم وبينه ﷺ حجابا مضروبا لايجمعهم معه جامع و فيه تمام الإيآس .

وقوله : « فاعمل إنّنا عاملون » تفريع على ماسبق ، و لايخلو من شوب تهديد ، وعليه فالمعنى إذاكان لاسبيل إلى التفاهم بيننا فاعمل بمايمكنك العمل به في إبطال أمرنا إنّنا عاملون في إبطال أمرك .

وقيل : المعنى فاعمل على دينك فإنّنا عاملون على ديننا ، و قيل : المعنى فاعمل في هلاكنا فإنّنا عاملون في هلاكك ، و لايخلوان من بعد .

قوله تعالى : «قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه و استغفروه » في مقام الجواب عن قولهم : « قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه » على مايعطيه السياق فمحصّله قل لهم : إنّما أنا بشر مثلكم اُعاشركم كما يعاشر بعضكم بعضا و اُكلّمكم كما يكلّم أحدكم صاحبه فلست من جنس يباينكم كالملك حتّى يكون بيني و بينكم حجاب مضروب أولا ينفذ كلامي في آذانكم أولا يرد قولي في قلوبكم غير أنّ الّذي أقول لكم وأدعوكم إليه وحي يوحى إليّ وهو أنّما إلهكم الّذي يستحقّ أن تعبدوه إله واحد لا آلهة متفرّقون .

وقوله : « فاستقيموا إليه و استغفروه » أي فإذا لم يكن إلّا إلهاً واحداً لاشريك له فاستووا إليه بتوحيده و نفي الشركاء عنه و استغفروه فيما صدر عنكم من الشرك و الذنوب .

قوله تعالى : « وويل للمشركين الّذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون»

تهديد للمشركين الّذين يثبتون لله شركاء ولا يوحّدونه ، وقد وصفهم من أخصّ صفاتهم بصفتين هما عدم إيتائهم الزكاة و كفرهم بالآخرة .

و المراد بإيتاء الزكاة مطلق إنفاق المال للفقراء و المساكين لوجه الله فإنّ الزكاة بمعنى الصدقة الواجبة في الإسلام لم تكن شرعت بعد عند نزول السورة وهي من أقدم السور المكّيّة .

و قيل: المراد بإيتاء الزكاة تزكية النفس وتطهيرها من أوساخ الذنوب وقذاراتها و إنماؤها نماء طيّبا بعبادة الله سبحانه ، و هو حسن لو حسن إطلاق إيتاء الزكاة على ذلك .

و قوله : « و هم بالآخرة هم كافرون » وصف آخر للمشركين هو من لوازم مذهبهم و هو إنكار المعاد ، و لذلك أتى بضمير الفصل ليفيد أنّهم معروفون بالكفر بالآخرة .

قوله تعالى : « إنّ الّذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون» أي غير مقطوع بل متّصل دائم كما فسّره بعضهم ، و فسّره آخرون بغير معدود كما قال تعالى: « يرزقون فيها بغير حساب » المؤمن : ٤٠ .

و جوّز أن يكون المراد أنّه لاأذى فيه من المنّ الّذي يكدّر الصنيعة، ويمكن أن يوجّه هذا الوجه بأنّ في تسمية ما يؤتونه بالأجر دلالة على ذلك لإشعاره بالاستحقاق و إن كان هذا الاستحقاق بجعل من الله تعالى لالهم من عند أنفسهم قال تعالى : «إنّ هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » الدهر : ٢٢ .

قوله تعالى : « قل ءإنّكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين و تجعلون له أندادا » الآية . أمره ثانيا أن يستفهم عن كفرهم بالله بمعنى شركهم مع ظهور آيات وحدانيّته في خلق السماوات و الأرض و تدبير أمرهما بعد ما أمره أوّلا بدفع قولهم: « قلوبنا في أكنّة » الخ .

و الاستفهام للتعجيب ولذا اُكّد المستفهم عنه بإنّ و اللّام كأنّ المستفهم لا يكاد يذعن بكفرهم بالله و قولهم بالأنداد مع ظهور الحجّة و استقامة الحجّة .

و قوله: « وتجعلون له أندادا » تفسير لقوله : « لتكفرون بالّذي خلق الأرض» الخ، والأنداد جمع ندّ و هوالمثل والمراد بجعل الأنداد له اتّخاذ شركاء له يماثلونه في الربوبيّة و الاُلوهيّة .

وقوله: «ذلك ربّ العالمين » في الإشارة بلفظ البعيد رفع لساحته تعالى وتنزيهه عن أمثال هذه الأوهام فهو ربّ العالمين المدبّر لأمر الخلق أجمعين فلا مسوّغ لأن يتوهّم ربّاً آخر سواه و إلهاً آخر غيره .

و المراد باليوم في قوله: «خلق الأرض في يومين» برهة من الزمان دون مصداق اليوم الّذي نعهده و نحن على بسيط أرضنا هذه و هو مقدار حركة الكرة الأرضيّة حول نفسها مرّة واحدة فإنّه ظاهر الفساد، و إطلاق اليوم على قطعة من الزمان تحوي حادثة من الحوادث كثير الورود شائع الاستعمال،و من ذلك قوله تعالى:«و تلك الأيّام نداولها بين الناس »آل عمران : ١٤٠ ، و قوله : « فهل ينتظرون إلاّ مثل أيّام الّذين خلوا من قبلهم » يونس : ١٠٢ ، و غير ذلك .

فاليومان اللّذان خلق الله فيهما الأرض قطعتان من الزمان تمّ فيهما تكوّن الأرض أرضا تامّة، وفي عدّهما يومين لا يوماً واحداً دليل على أنّ الأرض لاقت زمان تكوّنها الأوّلي مرحلتين متغايرتين كمرحلة النيء و النضج أو الذوبان و الانعقاد أو نحو ذلك .

قوله تعالى : « و جعل فيها رواسي من فوقها » إلى آخر الآية . معطوف على قوله : « خلق الأرض في يومين » و لاضير في تخلّل الجملتين : « و تجعلون له أندادا ذلك ربّ العالمين» بين المعطوف و المعطوف عليه لأنّ الاُولى تفسير لقوله :«لتكفرون» و الثانية تقرير للتعجيب الّذي يفيده الاستفهام .

والرواسي صفة لموصوف محذوف والتقدير جبالاً رواسي أي ثابتات على الأرض و ضمائر التأنيث الخمس في الآية للأرض .

و قوله : « وبارك فيها» أي جعل فيها الخير الكثير الّذي ينتفع به ما على الأرض من نبات و حيوان و إنسان في حياته أنواع الانتفاعات .

و قوله : « وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسائلين » قيل : الظرف أعني قوله : « في أربعة أيّام » بتقدير مضاف و هو متعلّق بقدّر ، و التقدير قدّر الأقوات في تتمّة أربعة أيّام من حين بدء الخلق ـ فيومان لخلق الأرض و يومان ـ وهما تتمّة أربعة أيّام ـ لتقدير الأقوات .

و قيل: متعلّق بحصول الأقوات وتقدير المضاف على حاله ، والتقدير قدّر حصول أقواتها في تتمّة أربعة أيّام ـ فيها خلق الأرض و أقواتها جميعا ـ .

و قيل: متعلّق بحصول جميع الاُمور المذكورة من جعل الرواسي من فوقها والمباركة فيها و تقدير أقواتها و التقدير و حصول ذلك كلّه في تتمّة أربعة أيّام و فيه حذف و تقدير كثير .

وجعل الزمخشريّ في الكشاف الظرف متعلّقا بخبر مبتدء محذوفين من غير تقدير مضاف و التقدير كلّ ذلك كائن في أربعة أيّام فيكون قوله : « في أربعة أيّام » من قبيل الفذلكة كأنّه قيل : خلق الأرض في يومين و أقواتها و غير ذلك في يومين فكلّ ذلك في أربعة أيّام .

قالوا: و إنّما لم يجز حمل الآية على أنّ جعل الرواسي وما ذكر عقيبه أو تقدير الأقوات في أربعة أيّام لأنّ لازمه كون خلق الأرض وما فيها في ستّة أيّام و قد ذكر بعده أنّ السماوات خلقت في يومين فيكون المجموع ثمانية أيّام و قد تكرّر في كلامه تعالى أنّه خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام فهذا هو الوجه في حمل الآية على أحد الوجوه السابقة على ما فيها من ارتكاب الحذف و التقدير .

و الإنصاف أنّ الآية أعني قوله: «و قدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسائلين» ظاهرة في غير ما ذكروه و القرائن الحافّة بها تؤيّد كون المراد بها تقدير أقواتها في الفصول الأربعة الّتي يكوّنها ميل الشمس الشماليّ و الجنوبيّ بحسب ظاهر الحسّ فالأيّام الأربعة هي الفصول الأربعة .

و الّذي ذكر في هذه الآيات من أيّام خلق السماوات والأرض أربعة أيّام يومان لخلق الأرض و يومان لتسوية السماوات سبعا بعد كونها دخانا وأمّا أيّام الأقوات فقد

ذكرت أيّاماً لتقديرها لا لخلقها ، و ما تكرّر في كلامه تعالى هو خلق السماوات و الأرض في ستّة أيّام لا مجموع خلقها و تقدير أمرها فالحقّ أنّ الظرف قيد للجملة الأخيرة فقط و لاحذف و لاتقدير في الآية والمرادبيان تقدير أقوات الأرض وأرزاقها في الفصول الأربعة من السنة .

و قوله :«سواء للسائلين» مفعول مطلق لفعل مقدّر أي استوت الأقوات المقدّرة استواء للسائلين أو حال من الأقوات أي قدّرها حالكونها مستوية للسائلين يقتاتون بها جميعا و تكفيهم من دون زيادة أو نقيصة .

و السائلون هم أنواع النبات و الحيوان و الإنسان فإنّهم محتاجون في بقائهم إلى الأرزاق والأقوات فهم سائلون ربّهم[1] قال تعالى : «يسأله من في السماوات والارض» الرحمان : ٢٩ ، و قال : « و آتاكم من كلّ ما سألتموه » إبراهيم : ٣٤ .

قوله تعالى : «ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها و للأرض ائتياطوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين » الاستواء ـ على ماذكره الراغب ـ إذا عدّي بعلى أفادمعنى الاستيلاء نحو الرحمان على العرش استوى ، و إذا عدّي بإلى أفاد معنى الانتهاء إليه .

وأيضاً في المفردات أنّ الكره بفتح الكاف المشقّة الّتي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه ، و الكُره بضمّ الكاف ماتناله من ذاته وهو يعافه .

فقوله : « ثمّ استوى إلى السماء » أي توجّه إليها و قصدها بالخلق دون القصد المكانيّ الّذي لايتمّ إلاّ بانتقال القاصد من مكان إلى مكان ومن جهة إلى جهة لتنزّهه تعالى عن ذلك .

و ظاهر العطف بثمّ تأخّر خلق السماوات عن خلق الأرض لكن قيل : إنّ « ثمّ » لإفادة التراخي بحسب الخبر لا بحسب الوجود والتحقّق و يؤيّده قوله تعالى: « أم السماء بناها ـ إلى أن قال ـ والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها

---

(١) ظاهر الايتين و ان كان اختصاصهما بذوى العقول لكنهما و خاصة الثانية تفيدان ان المراد بالسؤال هو الحاجة و الاستعداد و عليه فالاية تعم النبات والاتيان بضمير اولى العقل للتغليب .

و الجبال أرساها » النازعات : ٣٢ فإنّه يفيد تأخّر الأرض عن السماء خلقا .

والاعتراض عليه بأنّ مفاده تأخّر دحو الأرض عن بناء السماء و دحوها غير خلقها مدفوع بأنّ الأرض كريّة فليس دحوها و بسطها غير تسويتها كرة و هو خلقها على أنّه تعالى أشار بعد ذكر دحو الأرض إلى إخراج مائها ومرعاها و إرساء جبالها و هذه بعينها جعل الرواسي من فوقها و المباركة فيها و تقدير أقواتها الّتي ذكرها في الآيات الّتي نحن فيها مع خلق الأرض و عطف عليها خلق السماء بثمّ فلا مناص عن حمل ثمّ على غير التراخي الزماني فإنّ قوله في آية النازعات : « بعد ذلك » أظهر في التراخي الزمانيّ من لفظة « ثمّ » فيه في آية حمّ السجدة والله أعلم .

و قوله : « و هي دخان » حال من السماء أي استوى إلى السماء بالخلق حالكونها شيأ سمّاه الله دخانا و هو مادّتها الّتي ألبسها الصورة و قضاها سبع سماوات بعد مالم تكن معدودة متميّزا بعضها من بعض ، و لذا أفرد السماء فقال : « استوى إلى السماء » .

و قوله : « فقال لها و للأرض ائتيا طوعا أوكرها » تفريع على استوائه إلى السماء والمورد مورد التكوين بلا شكّ فقوله لها و للأرض : « ائتيا طوعا أو كرها » كلمة إيجاد و أمر تكوينيّ كقوله لشيء أراد وجوده : كن قال تعالى : « إنّما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن » يس : ٨٣ .

و مجموع قوله لهما : « ائتيا » الخ و قولهما له : « أتينا » الخ تمثيل لصفة الإيجاد والتكوين على الفهم الساذج العرفيّ و حقيقة تحليليّة بناء على ما يستفاد من كلامه تعالى من سراية العلم في الموجودات و كون تكليم كلّ شيء بحسب ما يناسب حاله ، وقد أوردنا بعض الكلام فيه فيما تقدّم من المباحث ، وسيجيء شطر من الكلام فيه في تفسير قوله : « قالوا أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء » الآية ٢١ من السورة إن شاء الله .

و قول بعضهم : إنّ المراد بقوله : « ائتيا » الخ أمرهما بإظهار ما فيهما من الآثار والمنافع دون الامر بأن توجدا و تكوّنا مدفوع بأنّ تكوّن السماء مذكور فيما

بعد ولا معنى لتقديم الأمر باظهار الآثار والمنافع قبل ذكر التكوّن .

و في قوله : « ائتيا طوعا أوكرها » إيجاب الإتيان عليهما و تخييرهما بين أن تفعلا ذلك بطوع أو كره ، و لعلّ المراد بالطوع و الكره ـ و هما بوجه قبول الفعل و نوع ملاءمة و عدمه ـ هوالاستعداد السابق للكون وعدمه فيكون قوله : « ائتيا طوعا أوكرها » كناية عن وجوب إتيانهما بلامناص وأنّه أمر لايتخلّف البتّة أرادتا أو كرهتا سألتاه أو لم تسألا فأجابتا أنهما يمتثلان الأمر عن استعداد سابق و قبول ذاتيّ و سؤال فطريّ إذقالتا : أتينا طائعين .

و قول بعضهم : إنّ قوله : « طوعا أو كرها » تمثيل لتحتّم تأثير قدرته تعالى فيهما و استحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات الطوع والكره لهما . مدفوع بقوله بعد : « قالتا أتينا طائعين » إذ لو كان الترديد المذكور تمثيلا فقط من غير إثبات كما ذكره لم يكن لإثبات الطوع في الجواب وجه .

و قوله : « قالتا أتينا طائعين » جواب السماء والأرض لخطابه تعالى باختيار الطوع ، والتعبير باللفظ الخاصّ باُولي العقل ـ طائعين ـ لمكان المخاطبة والجواب و هما من خواصّ اُولي العقل، و التعبير بلفظ الجمع دون أن تقولا : أتينا طائعتين لعلّه تواضع منهما بعدّ أنفسهما غير متميّزة من سائر مخلوقاته تعالى المطيعة لأمره فأجابتا عن لسان الجميع ، نظير ما قيل في قوله تعالى : « إيّاك نعبد و إيّاك نستعين » الحمد : ٥ .

ثمّ إنّ تشريك الأرض مع السماء في خطاب « ائتيا » الخ مع ذكر خلقها و تدبير أمرها قبلا لايخلو من إشعار بأنّ بينهما نوع ارتباط في الوجود واتّصال في النظام الجاري فيهما و هو كذلك فانّ الفعل و الانفعال و التأثير و التأثّر دائر بين أجزاء العالم المشهود .

و في قوله : « فقال لها و للأرض » تلويح على أيّ حال إلى كون « ثمّ » في قوله : « ثمّ استوى » للتراخي بحسب رتبة الكلام .

قوله تعالى : « فقضاهنّ سبع سماوات في يومين و أوحى في كلّ سماء أمرها »

الأصل في معنى القضاء فصل الأمر، و ضمير « هنّ » للسماء على المعنى، و « سبع سماوات » حال من الضمير و « في يومين » متعلّق بقضاهنّ فتفيد الجملة أنّ السماء لمّا استوى سبحانه إليها و هي دخان كان أمرها مبهما غير مشخّص من حيث فعليّة الوجود ففصل تعالى أمرها بجعلها سبع سماوات في يومين .

و قيل : إنّ القضاء في الآية مضمّن معنى التصيير و « سبع سماوات » مفعوله الثاني ، و قيل فيها وجوه اُخر لا يهمّنا إيرادها .

و الآية و ما قبلها ناظرة إلى تفصيل ما اُجمل في قوله : « أولم ير الّذين كفروا أنّ السماوات و الأرض كانتا رتقا ففتقناهما » الأنبياء : ٣٠ .

و قوله : « و أوحى في كلّ سماء أمرها » قيل : المراد بأمر السماء ما تستعدّ له أو تقتضيه الحكمة فيها من وجود ملك أو كوكب و ما أشبه ذلك ، و الوحي هو الخلق و الإيجاد ، و الجملة معطوفة على قوله : «قضاهنّ » مقيّدة بالوقت المذكور للمعطوف عليه ، و المعنى و خلق في كلّ سماء ما فيها من الملائكة و الكواكب و غيرها .

و أنت خبير بأنّ إرادة الخلق من الوحي و أمثال الملك و الكوكب من الأمر تحتاج إلى عناية زائدة لا تثبت إلّا بدليل بيّن ، و كذا تقيّد الجملة المعطوفة بالوقت المذكور في المعطوف عليها .

و قيل: المراد بالأمر التكليف الإلهيّ المتوجّه إلى أهل كلّ سماء من الملائكة و الوحي بمعناه المعروف و المعنى و أوحى إلى أهل كلّ سماء من الملائكة ما أمرهم به من العبادة .

و فيه أنّ ظاهر الآية و قد قال تعالى : «في كلّ سماء» و لم يقل : إلى كلّ سماء لا يوافقه تلك الموافقة .

و قيل : المراد بأمرها ما أراده الله منها ، و هذا الوجه في الحقيقة راجع إلى أحد الوجهين السابقين فإن اُريد بالوحي الخلق و الإيجاد رجع إلى أوّل الوجهين و إن اُريد به معناه المعروف رجع إلى ثانيهما .

و الّذي وقع في كلامه تعالى من الأمر المتعلّق بوجه بالسماء يلوّح إلى معنى

أدقّ ممّا ذكروه فقد قال تعالى : « يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثمّ يعرج إليه» الم السجدة : ٥ ، و قال : « الله الّذي خلق سبع سماوات و من الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ » الطلاق : ١٢ ، و قال : « و لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق و ماكنّا عن الخلق غافلين » المؤمنون : ١٧ .

دلّت الآية الاُولى على أنّ السماء مبدء لأمره تعالى النازل إلى الأرض بوجه و الثانية على أنّ الأمر يتنزّل بين السماوات من سماء إلى سماء حتّى ينتهي إلى الأرض، و الثالثة على أنّ السماوات طرائق لسلوك الأمر من عند ذي العرش أولسلوك الملائكة الحاملين للأمر إلى الأرض كما يشير إليه قوله : « تنزّل الملائكة و الروح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر » القدر : ٤ ، و قوله : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » الدخان : ٤ .

ولوكان المراد بالأمر أمره تعالى التكوينيّ و هو كلمة الإيجاد كما يستفاد من قوله : « إنّما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن » يس : ٨٣ ، أفادت الآيات بانضمام بعضها إلى بعض أنّ الأمر الإلهيّ الّذي مضيّه في العالم الأرضيّ هو خلق الأشياء و حدوث الحوادث تحمله الملائكة من عند ذي العرش تعالى و تسلك في تنزيله طرق السماوات فتنزّله من سماء إلى سماء حتّى تنتهي به إلى الأرض .

و إنّما تحمله ملائكة كلّ سماء إلى من دونهم كما يستفاد من قوله : « حتّى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذاقال ربّكم قالوا الحقّ و هو العليّ الكبير » سبا : ٢٣ وقد تقدّم الكلام فيه والسماوات مساكن الملائكة كما يستفاد من قوله : « وكم من ملك في السماوات » النجم : ٢٦ ، و قوله : « لا يسّمّعون إلى الملا الأعلى و يقذفون من كلّ جانب » الصافّات : ٨ .

فللأمر نسبة إلى كلّ سماء باعتبار الملائكة الساكنين فيها ، ونسبة إلى كلّ قبيل من الملائكة الحاملين له باعتبار تحميله لهم و هو وحيه إليهم فإنّ الله سبحانه سمّاه قولاكما قال : « إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن » النحل : ٤٠ .

فتحصّل بما مرّ أنّ معنى قوله : « و أوحى في كلّ سماء أمرها » أوحى في كلّ

سماء إلى أهلها من الملائكة الأمر الإلهي المنسوب إلى تلك السماء المتعلّق بها، وأمّا كون اليومين المذكورين في الآية ظرفا لهذا الوحي كماهما ظرف لخلق السماوات سبعا فلا دليل عليه من لفظ الآية .

قوله تعالى : « و زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح و حفظا ذلك تقدير العزيز العليم » توصيف هذه السماء بالدنيا للدلالة على أنّها أقرب السماوات من الأرض وهي طباق بعضها فوق بعض كما قال : خلق سبع سماوات طباقا » الملك :٣ .

والظاهر من معنى تزيينها بمصابيح وهي الكواكب كما قال : « إنّا زيّنّا السماء الدنيا بزينة الكواكب » الصافّات : ٦ أنّ الكواكب في السماء الدنيا أودونها كالقناديل المعلّقة ولو كانت متفرّقة في جميع السماوات من غير حجب بعضها بعضا لكون السماوات شفّافة كما قيل كانت زينة لجميعها ولم تختصّ الزينة ببعضها كما يفيده السياق فلاوجه لقول القائل : إنّها في الجميع لكن لكونها ترى متلألئة على السماء الدنيا عدّت زينة لها .

و أمّا قوله : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا و جعل القمر فيهنّ نورا و جعل الشمس سراجا » نوح : ١٦ فهو بالنسبة إلينا معاشر المستضيئين بالليل و النهار كقوله : « وجعلنا سراجا وهّاجا » النبأ :١٣.

وقوله : « و حفظا » أي و حفظناها من الشياطين حفظا كما قال : « و حفظناها من كلّ شيطان رجيم إلّا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » الحجر : ١٨ .

و قوله: « ذلك تقدير العزيز العليم » إشارة إلى ما تقدّم من النظم والترتيب .

﴿كلام فيه تتميم﴾

قد تحصّل ممّا تقدم :

أوّلا أنّ المستفاد من ظاهر الآيات الكريمة ـ وليست بنصّ ـ أنّ السماء الدنيا من هذه السبع هي عالم النجوم و الكواكب فوقنا .

و ثانيا أنّ هذه السماوات السبع المذكورة جميعا من الخلق الجسماني فكأنّها طبقات سبع متطابقة من عالم الأجسام أقربها منّا عالم النجوم و الكواكب ، ولم يصف القرآن شيأمن السماوات الستّ الباقية دون أن ذكر أنّها طباق .

وثالثا أن ليس المراد بالسماوات السبع الأجرام العلويّة أوخصوص بعضها كالشمس والقمر أوغيرهما .

و رابعا أنّ ما ورد من كون السماوات مساكن للملائكة و أنّهم ينزلون منها بأمرالله حاملين له ويعرجون إليها بكتب الأعمال ، و أنّ للسماء أبوابا لا تفتّح للكفّار وأنّ الأشياء والأرزاق تنزل منها وغير ذلك ممّا تشير إليه متفرّقات الآيات والروايات يكشف عن أنّ لهذه الاُمور نوع تعلّق بهذه السماوات لا كتعلّق ما نراه من الأجسام بمحالّها و أماكنها الجسمانيّة الموجبة لحكومة النظام المادّي فيها و تسرّب التغيّر و التبدّل والدثور والفتور إليها .

و ذلك أنّ من الضروريّ اليوم أنّ لهذه الأجرام العلويّة كائنة ماكانت كينونة عنصريّة جسمانيّة تجري فيها نظائر الأحكام و الآثار الجارية في عالمنا الأرضيّ العنصريّ و النظام الّذي يثبت للسماء و أهلها و الاُمور الجارية فيها ممّا أشرنا إليه يباين هذا النظام العنصريّ المشهود . أضف إلى ذلك ما ورد أنّ الملائكة خلقوا من نور ، و أنّ غذاءهم التسبيح ، و ما ورد من توصيف خلقهم ، و ما ورد في توصيف خلق السماوات وما خلق فيها إلى غيرذلك .

فللملائكة عوالم ملكوتيّة سبعة مترتّبة سمّيت سماوات سبعا و نسبت مالها من الخواصّ و الآثار إلى ظاهر هذه السماوات بلحاظ مالها من العلوّ و الإحاطة بالنسبة إلى الأرض تسهيلا للفهم الساذج .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبويعلى والحاكم وصحّحه و ابن مردويه وأبو نعيم و البيهقيّ كلاهما في الدلائل و ابن عساكر عن جابر بن عبدالله قال : اجتمع قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر و الكهانة و الشعر فليأت هذا الرجل الّذي قد فرّق جماعتنا ، وشتّت أمرنا و عاب ديننا فليكلّمه و لينظر ماذا يردّ عليه ؟ فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة قالوا : أنت يا أبا الوليد .

فأتاه فقال : يا محمّد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطّلب ؟ فسكت رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : فإن كنت تزعم أنّ هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة الّتي عبت و إن كنت تزعم أنّك خير منهم فتكلّم حتّى نسمع منك .

أما والله ما رأينا سلحة قطّ أشأم على قومك منك فرّقت جماعتنا ، وشتّتّ أمرنا و عبت ديننا ، و فضحتنا في العرب حتّى لقد طار فيهم أنّ في قريش ساحرا ، و أنّ في قريش كاهنا و الله ما ننتظر إلّا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف . ياأيّها الرجل إن كان نمابك الحاجة جمعنا لك حتّى تكون أغنى قريش رجلا واحداً و إن كان نمابك الباءة فاختر أيّ نساء قريش شئت فلنزوّجك عشرا .

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : فرغت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « بسم الله الرحيم حمٓ تنزيل من الرحمان الرحيم كتاب فصّلت آياته قرآنا عربيّا لقوم يعلمون» حتّى بلغ « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .

فقال عتبة : حسبك . ما عندك غير هذا ؟ قال : لا فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيأ أرى أنّكم تكلّمون به إلّا كلّمته قالوا : فهل أجابك؟قال: والّذي نصبها بنيّة مافهمت شيأ ممّا قال غير أنّه قال : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود » قالوا : ويلك يكلّمك الرجل بالعربيّة و ماتدري ما قال ؟ قال : لا والله مافهمت شيأ ممّا قال غير ذكر الصاعقة .

اقول :و رواه عن عدّة من الكتب قريبا منه ، و في بعض الطرق قالوا:ماوراءك يا أبا الوليد ؟ قال : و الله إنّي قد سمعت قولا ما سمعت بمثله قطّ ، و الله ما هو بالشعر و لا بالسحر و لا بالكهانة ، و الله ليكوننّ لقوله الّذي سمعت نبأ ، و في بعضها غير ذلك .

وفي تلاوته ﷺ آيات أوّل السورة على وليد بن المغيرة رواية اُخرى ستوافيك إن شاء الله في تفسير سورة المدّثّر في ذيل قوله تعالى : « ذرني و من خلقت وحيدا » الآيات .

و فيه أخرج ابن جرير عن أبي بكر قال : جاء اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمّد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيّام الستّة ؟ فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، و خلق الجبال يوم الثلاثا ، و خلق المدائن و الأقوات و الأنهار و عمرانها و خرابها يوم الأربعاء ، و خلق السماوات و الملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات يعني من يوم الجمعة، و خلق في أوّل ساعة الآجال و في الثانية الآفة و في الثالثة آدم . قالوا : صدقت إن تمّمت فعرف النبيّ ﷺ مايريدون فغضب فأنزل الله « و ما مسّنا من لغوب فاصبر على ما يقولون » .

اقول : و روى ما يقرب منه عن ابن عبّاس و عبدالله بن سلام و عن عكرمة و غيره و قد ورد في بعض أخبار الشيعة ، و قوله : قالوا : صدقت إن تمّمت أي تمّمت كلامك في الخلق بأن تقول : إنّه تعالى فرغ من الخلق يوم السبت و استراح فيه .

و الروايات لا تخلو من شيء :

أمّا أوّلا فمن جهة اشتمالها على تصديق اليهود ما ذكر فيها من ترتيب الخلق و هو مخالف لما ورد في أوّل سفر التكوين من التوراة مخالفة صريحة ففيها أنّه خلق النور و الظلمة ـ النهار و الليل ـ يوم الأحد ، و خلق السماء يوم الاثنين ، و خلق الأرض و البحار و النبات يوم الثلاثا ، و خلق الشمس والقمر و النجوم يوم الأربعاء وخلق دوابّ البحر و الطير يوم الخميس ، و خلق حيوان البرّ و الإنسان يوم الجمعة و فرغ من الخلق يوم السبت فاستراح فيه ، **والقول** بأنّ التوراة الحاضرة غير ما كان

في عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله كما ترى .

و أمّا ثانيا فلأنّ اليوم من الأسبوع و هو نهار مع ليلته يتوقّف في كينونته على حركة الأرض الوضعيّة دورة واحدة قبال الشمس فما معنى خلق الأرض في يومين ولم يخلق السماء و السماويّات بعد و لا تمّت الأرض كرة متحرّكة ؟ و نظير الإشكال جار في خلق السماء و السماويّات و منها الشمس و لا يوم حيث لا شمس بعد .

و أمّا ثالثا فلأنّه عدّ فيها يوم لخلق الجبال و قد جزم الفحص العلميّ بأنّها تخلق تدريجا ، و نظير الإشكال جار في خلق المدائن و الأنهار و الأقوات .

و في روضة الكافي بإسناده عن محمّد بن عطيّة عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال : و خلق الشيء الّذي جميع الأشياء منه و هو الماء الّذي خلق الأشياء منه فجعل نسب كلّ شيء إلى الماء و لم يجعل للماء نسبا يضاف إليه ، و خلق الريح من الماء .

ثمّ سلّط الريح على الماء فشقّقت الريح متن الماء حتّى ثار من الماء زبد على قدر ماشاء أن يثور فخلق من ذلك الزبد أرضا بيضاء نقيّة ليس فيها صدع و لا ثقب و لا صعود و لا هبوط و لا شجرة ثمّ طواها فوضعها فوق الماء .

ثمّ خلق الله النار من الماء فشققت النار متن الماء حتّى ثار من الماء دخان على قدر ماشاء الله أن يثور فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقيّة ليس فيها صدع ولا ثقب و ذلك قوله : « و السماء بناها » .

اقول : و في هذه المعنى بعض روايات اُخر ، و يمكن تطبيق ما في الرواية و كذا مضامين الآيات على ما تسلّمته الأبحاث العلميّة اليوم في خلق العالم و هيئته غير أنّا تركنا ذلك احترازا من تحديد الحقائق القرآنيّة بالأحداس و الفرضيّات العلميّة مادامت فرضيّة غير مقطوع بها من طريق البرهان العلميّ .

و في نهج البلاغة : فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطّدات بلا عمد قائمات بلا سند ، دعاهنّ فأجبن طائعات مذعنات غير متلكّئات و لا مبطئات ، ولو لا إقرارهنّ له بالربوبيّة ، و إذعانهنّ له بالطواعية لما جعلهنّ موضعا لعرشه، و لا مسكنا لملائكته و لا مصعداً للكلم الطيّب و العمل الصالح من خلقه .

و في كمال الدين بإسناده إلى فضيل الرسّان قال: كتب محمّد بن إبراهيم إلى أبي عبدالله عليه السلام: أخبرنا ما فضلكم أهل البيت؟ فكتب إليه أبوعبدالله عليه السلام: إنّ الكواكب جعلت أمانا لأهل السماء فإذا ذهبت نجوم السماء جاء أهل السماء ما كانوا يوعدون، و قال رسول الله صلّى الله عليه و آله: جعل أهل بيتي أمانا لاُمّتي فإذا ذهب أهل بيتي جاء اُمّتي ما كانوا يوعدون.

اقول: و ورد هذا المعنى في غير واحد من الروايات.

و في البحار عن كتاب الغارات بإسناده عن ابن نباتة قال: سئل أميرالمؤمنين عليه السلام كم بين السماء و الأرض؟ قال: مدّ البصر و دعوة المظلوم.

اقول: و هو من لطائف كلامه عليه السلام يشير به إلى ظاهر السماء و باطنها كما تقدّم.



✩ ✩ ✩

فَانْ اَعْرَضُوا فَقُلْ اَنْذَرْتُكُمْ صٰاعِقَةً مِثْلَ صٰاعِقَةِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ (١٣)
اِذْ جٰاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ اَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ اَنْ لاٰ تَعْبُدُوا اِلاَّ اللّٰهَ
قٰالُوا لَوْ شٰاءَ رَبُّنٰا لَاَنْزَلَ مَلٰئِكَةً فَاِنّٰا بِمٰا اُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ (١٤) فَاَمّٰا
عٰادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْاَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قٰالُوا مَنْ اَشَدُّ مِنّٰا قُوَّةً اَوَ لَمْ
يَرَوْا اَنَّ اللّٰهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ اَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكٰانُوا بِاٰيٰاتِنٰا يَجْحَدُونَ (١٥)
فَاَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى اَيّٰامٍ نَحِسٰاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذٰابَ الْخِزْىِ
فِى الْحَيٰوةِ الدُّنْيٰا وَ لَعَذٰابُ الْاٰخِرَةِ اَخْزٰى وَهُمْ لاٰيُنْصَرُونَ (١٦) وَ اَمّٰا
ثَمُودُ فَهَدَيْنٰاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمٰى عَلَى الْهُدٰى فَاَخَذَتْهُمْ صٰاعِقَةُ الْعَذٰابِ
الْهُونِ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكٰانُوا يَتَّقُونَ (١٨)
وَ يَوْمَ يُحْشَرُ اَعْدٰاءُ اللّٰهِ اِلَى النّٰارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتّٰى اِذٰا مٰا
جٰاؤُهٰا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَاَبْصٰارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ(٢٠)
وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا قٰالُوا اَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِى اَنْطَقَ كُلَّ
شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ اَوَّلَ مَرَّةٍ وَاِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ
اَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لاٰ اَبْصٰارُكُمْ وَلاٰجُلُودُكُمْ وَ لٰكِنْ ظَنَنْتُمْ اَنَّ
اللّٰهَ لاٰ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّٰا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ

أرديكم فأصبحتم من الخاسرين (٢٣) فإن يصبروا فالنار مثوى لهم و إن يستعتبوا فما هم من المعتبين (٢٤) و قيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم و ما خلفهم و حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن و الإنس إنهم كانوا خاسرين (٢٥) .

﴿ بيان ﴾

الآيات تتضمّن الإنذار بالعذاب الدنيويّ الّذي ابتليت به عاد و ثمود بكفرهم بالرسل و جحدهم لآيات الله ، و بالعذاب الاُخرويّ الّذي سيبتلى به أعداء الله من أهل الجحود الّذين حقّت عليهم كلمة العذاب ، و فيها إشارة إلى كيفيّة إضلالهم في الدنيا و إلى استنطاق أعضائهم في الآخرة .

قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود » قال في المجمع: الصاعقة المهلكة من كلّ شيء انتهى ، و قال الراغب : قال بعض أهل اللغة: الصاعقة على ثلاثة أوجه : الموت كقوله : « صعق من في السماوات » و قوله : « فأخذتهم الصاعقة » و العذاب كقوله : « أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود » و النار كقوله : « و يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » و ما ذكره فهو أشياء حاصلة من الصاعقة فإنّ الصاعقة هي الصوت الشديد من الجوّ ثمّ يكون نار فقط أو عذاب أو موت و هي في ذاتها شيء واحد ، و هذه الأشياء تأثيرات منها . انتهى .

و على ما مرّ تنطبق الصاعقة على عذابي عاد و ثمود و هما الريح و الصيحة ، و التعبير بالماضي في قوله : « أنذرتكم » للدلالة على التحقّق و الوقوع .

قوله تعالى : « إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم و من خلفهم أن لا تعبدوا إلّا الله » الخ ظرف لصاعقة الثانية فإنّ الإنذار بالصاعقة بالحقيقة إنذار بوقوعها و حلولها

فالمعنى مثل حلول صاعقة عاد وثمود إذجاءتهم الخ .

و نسبة المجيء إلى الرسل و هو جمع ـ مع أنّ الّذي ذكر في قصّتهم رسولان هما هود وصالح ـ باعتبار أنّ الرسل دعوتهم واحدة والمبعوث منهم إلى قوم مبعوث لآخرين وكذا القوم المكذّبون لأحدهم مكذّبون لآخرين قال تعالى :«كذّبت عاد المرسلين» الشعراء : ١٢٣ و قال : « كذّبت ثمود المرسلين » الشعراء : ١٤١ ، وقال : « كذّبت قوم لوط المرسلين » ١٦٠ إلى غير ذلك .

و قول بعضهم : إنّ إطلاق الرسل و هو جمع على هود و صالح عليهما السلام و هما اثنان من إطلاق الجمع على ما دون الثلاثة و هو شائع، و من هذا القبيل إرجاع ضمير الجمع في قوله : « إذجاءتهم » إلى عاد و ثمود .

ممنوع بما تقدّم ، و أمّا إرجاع ضمير الجمع إلى عاد و ثمود فإنّما هو لكون مجموع الجمعين جمعاً مثلهما .

و قوله : « من بين أيديهم و من خلفهم » أي من جميع الجهات فاستعمال هاتين الجهتين في جميع الجهات شائع ، و جوّز أن يكون المراد به الماضي و المستقبل فقوله: « جاءتهم الرسل من بين أيديهم و من خلفهم » كناية عن دعوتهم لهم من جميع الطرق الممكنة خلوة و جلوة و فرادى و مجتمعين بالتبشير و الإنذار و لذلك فسّر مجيئهم كذلك بعد بقوله : « أن لا تعبدوا إلاّ الله » و هو التوحيد .

و قوله : « قالوا لوشاء ربّنا لأنزل ملائكة » ردّ منهم لرسالتهم بأنّ الله لوشاء إرسال رسول إلينا لأرسل من الملائكة ، و قد تقدّم كرارا معنى قولهم هذا و أنّه مبنيّ على إنكارهم نبوّة البشر .

و قوله : « فإنّا بما اُرسلتم به كافرون » تفريع على النفي المفهوم من الجملة السابقة أي فإذا لم يشأ و لم يرسل فإنّا بما اُرسلتم به و هو التوحيد كافرون .

قوله تعالى : « فأمّا عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحقّ » الخ رجوع إلى تفصيل حال كلّ من الفريقين على حدته ، من كفرهم و وبال ذلك ، و قوله : « بغير الحقّ » قيد توضيحيّ للاستكبار في الأرض فإنّه بغير الحقّ دائما ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : «فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً في أيّام نحسات » الخ فسّر الصرصر بالريح الشديدة السموم ، و بالريح الشديدة البرد ، و بالريح الشديدة الصوت وتلازم شدّة الهبوب ، و النحسات بكسر الحاء صفة مشبهة من نحس ينحس نحسا خلاف سعد فالأيّام النحسات الأيّام المشؤمات .

وقيل : أيّام نحسات أي ذوات الغبار والتراب لايرى فيها بعضهم بعضا ، ويؤيّده قوله في سورة الأحقاف : « فلمّا رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » الأحقاف : ٢٤ .

و قوله : « و مالهم من ناصرين » أي لا منج ينجيهم و لا شفيع يشفع لهم . و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و أمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى » الخ المراد بهدايتهم إراءتهم الطريق ودلالتهم على الحقّ ببيان حقّ الاعتقاد و العمل لهم ،والمراد بالاستحباب الإيثار و الاختيار ، و لعلّه بالتضمين و لذا عدّي إلى المفعول الثاني بعلى و المراد بالعمى الضلال استعارة ، و في مقابلة الهدى له إيماء إلى أنّ الهدى بصر كما أنّ الضلالة عمى ، و الهون مصدر بمعنى الذلّ و توصيف العذاب به للمبالغة أو بحذف ذي و التقدير صاعقة العذاب ذي الهون .

و المعنى و أمّا قوم ثمود فدللناهم على طريق الحقّ و عرّفناهم الهدي بتمييزه من الضلال فاختاروا الضلال الّذي هو عمى على الهدى الّذي هو بصر فأخذتهم صيحة العذاب ذي المذلّة ـ أو أخذهم العذاب بناء على كون الصاعقة بمعنى العذاب والإضافة بيانيّة ـ بما كانوا يكسبون .

قوله تعالى : « ونجّينا الّذين آمنوا و كانوا يتّقون » ضمّ التقوى إلى الإيمان معبّراً عن التقوى بقوله : « و كانوا يتّقون » الدالّ على الاستمرار للدلالة على جمعهم بين الإيمان و العمل الصالح و ذلك هو السبب لنجاتهم من عذاب الاستئصال على ما وعدهالله بقوله : « و كان حقّا علينا نصر المؤمنين » الروم : ٤٧ .

والظاهر أنّ الآية متعلّقة بالقصّتين جميعا متمّمة لهما و إن كان ظاهر المفسّرين

تعلّقها بالقصّة الثانية .

قوله تعالى : « و يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون »الحشر إخراج الجماعة عن مقرّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب و نحوها . كذاقال الراغب ،و«يوزعون» من الوزع وهو حبس أوّل القوم ليلحق بهم آخرهم فيجتمعوا .

قيل : المراد بحشرهم إلى النار إخراجهم إلى المحشر للسؤال والحساب ،وجعل النار غاية لحشرهم لأنّ عاقبتهم إليها ، والدليل عليه ما ذكره من أمر شهادة الأعضاء فإنّها في الموقف قبل الأمر بهم إلى النار .

و قيل : المراد حشرهم إلى النار نفسها ومن الممكن أن يستشهد عليهم مرّتين مرّة في الموقف و مرّة على شفير جهنّم وهو كما ترى .

و المراد بأعداء الله ـ على ما قيل ـ المكذّبون بالنبيّ صلى الله عليه وآله من مشركي قومه لا مطلق الكفّار و الدليل عليه قوله الآتي : « و حقّ عليهم القول في اُمم قدخلت من قبلهم » الآية .

قوله تعالى : « حتّى إذا ماجاؤها شهدت عليهم سمعهم و أبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون» «ما» في « إذا ماجاؤها » زائدة للتأكيد والضمير للنار .

و شهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامة ذكرها وإخبارها ماتحمّلته في الدنيا من معصية صاحبها فهي شهادة أداء لما تحمّلته ، ولولا التحمّل في الدنيا حين العمل كما لو جعل الله لها شعوراً و نطقاً يوم القيامة فعلمت ثمّ أخبرت بما عملته أو أوجد الله عندها صوتا يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به لم يصدق عليه الشهادة ، ولاتمّت بذلك على العبد المنكر حجّة وهو ظاهر .

و بذلك يظهر فساد قول بعضهم : إنّ الله يخلق يوم القيامة للأعضاء علما وقدرة على الكلام فتخبر بمعاصي صاحبيها وهو شهادتها وقول بعضهم : إنّه يخلق عندها أصواتا في صورة كلام مدلوله الشهادة ، و كذا قول بعضهم : إنّ معنى الشهادة دلالة الحال على صدور معصية كذائيّة منهم .

و ظاهر الآية أنّ شهادة السمع و البصر أداؤهما ماتحمّلاه و إن لم يكن معصية

ماتياً بها بواسطتهما كشهادة السمع أنّه سمع آيات الله تتلى عليه فأعرض عنها صاحبه أو أنّه سمع صاحبه يتكلّم بكلمة الكفر ، و شهادة البصر أنّه رآى الآيات الدالّة على وحدانيّة الله تعالى فأعرض عنها صاحبه أو أنّه رآى صاحبه يستمع إلى الغيبة أو سائر مايحرم الإصغاء إليه فتكون الآية على حدّ قوله تعالى : « إنّ السمع والبصروالفؤاد كلّ اُولئك كان عنه مسؤلا » أسرى : ٣٦ .

و على هذا يختلف السمع والأبصار والجلود فيما شهدت عليه فالسمع والأبصار تشهد على معصية العبد وإن لم تكن بسببهما و الجلود تشهد على المعصية الّتي كانتهي آلات لها بالمباشرة ، وهذا الفرق هو السبب لتخصيصهم الجلود بالخطاب فيقولهم :« لم شهدتم علينا » على ماسيجيء .

و المراد بالجلود على ظاهر إطلاق الآية مطلق الجلود و شهادتها على أنواع المعاصي الّتي تتمّ بالجلود من التمتّعات المحرّمة كالزنا و نحوه ، و يمكن حينئذ أن تعمّم الجلود بحيث تشملشهادتهاماشهدت الأيدي والأرجل المذكورة في قوله :«اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم » يس : ٦٥ على بُعد .

و قيل : المراد بالجلود الفروج و قدكنّي بها عنها تأدّبا .

قوله تعالى :« وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا» اعتراض وعتاب منهم لجلودهم في شهادتها عليهم ، و قيل : الاستفهام للتعجّب فهو سؤال عن السبب لرفع التعجّب و إنّما خصّوها بالسؤال دون سمعهم و أبصارهم مع اشتراكها في الشهادة لأنّ الجلود شهدت على ماكانت هي بنفسها أسبابا وآلات مباشرة له بخلاف السمع و الأبصار فإنّها كسائر الشهداء تشهد بما ارتكبه غيرها .

و قيل : تخصيص الجلود بالذكر تقريع لهم و زيادة تشنيع و فضاحة و خاصّة لوكان المراد بالجلود الفروج و قيل غير ذلك .

قوله تعالى : « قالوا أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء» الخ إرجاع ضمير اُولي العقل إلى الجوارح لمكان نسبة الشهادة و النطق إليها و ذلك من شؤن اُولي العقل .

و المتيقّن من معنى النطق إذا استعمل على الحقيقة من غير تجوّز هو إظهارما

في الضمير من طريق التكلّم فيتوقّف على علم و كشفه لغيره قال الراغب : و لا يكاد يستعمل النطق في غير الإنسان إلّا تبعا و بنوع من التشبيه و ظاهر سياق الآيات و ما فيها من ألفاظ القول و التكلّم والشهادة و النطق أنّ المراد بالنطق ماهو حقيقة معناه.

فشهادة الأعضاء على المجرمين كانت نطقا و تكلّما حقيقة عن علم تحمّلته سابقا بدليل قولها : « أنطقنا الله » . ثمّ إنّ قولها : « أنطقنا الله » جوابا عن قول المجرمين : « لم شهدتم علينا » ؟ إراءة منها للسبب الّذي أوجب نطقها و كشف عن العلم المدّخر عندها المكنون في ضميرها فهي ملجأة إلى التكلّم و النطق ، و لا يضرّ ذلك نفوذ شهادتها و تمام الحجّة بذلك فإنّها إنّما اُلجئت إلى الكشف عمّا في ضميرها لا على الستر عليه و الإخبار بخلافه كذبا و زوراً حتّى ينافي جواز الشهادة و تمام الحجّة .

و قوله : « الّذي أنطق كلّ شيء » توصيف لله سبحانه و إشارة إلى أنّ النطق ليس مختصّا بالأعضاء حتّى تختصّ هي بالسؤال بل هو عامّ شامل لكلّ شيء و السبب الموجب له هو الله سبحانه .

و قوله : « و هو خلقكم أوّل مرّة و إليه ترجعون » من تتمّة الكلام السابق أو هو من كلامه ، و هو احتجاج على علمه بأعمالهم و قد أنطق الجوارح بما علم .

يقول : إنّ وجودكم يبتدىء منه تعالى و ينتهي إليه تعالى فعند ما تظهرون من كتم العدم ـ وهو خلقكم أوّل مرّة ـ يعطيكم الوجود ويملّككم الصفات والأفعال فتنسب إليكم ثمّ ترجعون و تنتهون إليه فيرجع ما عندكم من ظاهر الملك الموهوب إليه فلا يبقى ملك إلّا و هو لله سبحانه .

فهو سبحانه المالك لجميع ما عندكم أوّلا و آخرا فما عندكم من شيء في أوّل وجودكم هو الّذي أعطاكموه و ملّكه لكم و هو أعلم بما أعطى و أودع ، و ما عندكم من شيء حينما ترجعون إليه هو الّذي يقبضه منكم إليه و يملكه فكيف لا يعلمه ، و انكشافه له سبحانه حينما يرجع إليه إنطاقه لكم وشهادتكم على أنفسكم عنده .

و بما مرّ من البيان يظهر وجه تقييد قوله : « و هو الّذي خلقكم » بقوله : « أوّل مرّة » فالمراد به أوّل وجودهم .

و لهم في قوله : « قالوا أنطقنا الله » في معنى الا نطاق نظائر ما تقدّم في قوله : « شهدت عليهم » من الأقوال فمن قائل : إنّ الله يخلق لهم يومئذ العلم و القدرة على النطق فينطقون ، و من قائل : إنّه يخلق عند الأعضاء أصواتا شبيهة بنطق الناطقين و هو المراد بنطقهم ، و من قائل : إنّ المراد بالنطق دلالة ظاهر الحال على ذلك .

وكذا في عموم قوله : « أنطق كلّ شيء » فقيل : هو مخصّص بكلّ حيّ نطق إذ ليس كلّ شيء و لا كلّ حيّ ينطق بالنطق الحقيقيّ و مثل هذا التخصيص شائع ومنه قوله تعالى في الريح المرسلة إلى عاد : « تدمّر كلّ شيء » الأحقاف : ٢٥ .

و قيل : النطق في « أنطقنا » بمعناه الحقيقيّ و في قوله : « أنطق كلّ شيء » بمعنى الدلالة فيبقي الا طلاق على حاله .

و يرد عليهما أنّ تخصيص الآية أو حملها على المعنى المجازيّ مبنيّ على تسلّم كون غير ما نعدّه من الأشياء حيّا ناطقا كالا نسان و الحيوان و الملك و الجنّ فاقداً للعلم و النطق على ما نراه من حالها .

لكن لا دليل على فقدان الأشياء غير ما استثنيناه للشعور و الا رادة سوى أنّا في حجاب من بطون ذواتها لا طريق لنا إلى الاطّلاع على حقيقة حالها ، و الآيات القرآنيّة وخاصّة الآيات المتعرّضة لشؤن يوم القيامة ظاهرة في عموم العلم .

﴿ بحث اجمالى قرآنى ﴾

كرّرنا الا شارة في الأبحاث المتقدّمة إلى أنّ الظاهر من كلامه تعالى أنّ العلم سار في الموجودات عامّة كما تقدّم في تفسير قوله تعالى : « و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى : ۴۴ فا نّ قوله : « و لكن لا تفقهون » نعم الدليل على كون التسبيح منهم عن علم و إرادة لا بلسان الحال .

و من هذا القبيل قوله : « فقال لها و للأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » و قد تقدّم تفسيره في السورة .

و من هذا القبيل قوله : « و من أضلّ ممّن يدعو من دون الله من لايستحيب له إلى يوم القيامة و هم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » الأحقاف : ٦ فالمراد بمن لا يستجيب الأصنام فقط أوهي و غيرها ، و قوله: « يومئذ تحدّث أخبارها بأنّ ربّك أوحى لها » الزلزال : ٥ .

ومن هذا القبيل الآيات الدالّة على شهادة الأعضاء ونطقها و تكليمها لله والسؤال منها و خاصّة ما ورد في ذيل الآيات الماضية آنفا من قوله : « أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء » الآية .

لا يقال : لوكان غير الإنسان و الحيوان كالجماد و النبات ذاشعور و إرادة لبانت آثاره و ظهر منها ما يظهر من الإنسان و الحيوان من الأعمال العلميّة و الأفعال و الانفعالات الشعوريّة .

لأنّه يقال : لادليل على كون العلم ذاسنخ واحد حتّى تتشابه الآثار المترشّحة منه فمن الممكن أن يكون ذا مراتب مختلفة تختلف باختلافها آثارها .

على أنّ الآثار و الأعمال العجيبة المتقنة المشهودة من النبات و سائر الأنواع الطبيعيّة في عالمنا هذا لا تقصر في إتقانها و نظمها و ترتيبها عن آثار الأحياء كالإنسان و الحيوان .

﴿بحث اجمالى فلسفى﴾

حقّق في مباحث العلم من الفلسفة أنّ العلم وهو حضور شيء لشيء يساوق الوجود المجرّد لكون ماله من فعليّة الكمال حاضراً عنده من غير قوّة فكلّ وجود مجرّد يمكنه أن يوجد حاضرا لمجرّد غيره أو يوجد له مجرّد غيره و ما أمكن لمجرّد بالإمكان العامّ فهو له بالضرورة .

فكلّ عالم فهو مجرّد و كذا كلّ معلوم و ينعكسان بعكس النقيض إلى أنّ

المادّة و ما تألّف منها ليس بعالم و لا معلوم .

فالعلم يساوق الوجود المجرّد ، و الوجودات الماديّة لا يتعلّق بها علم و لالها علم بشيء لكنّ لها ، على كونها ماديّه متغيّرة متحرّكة لا تستقرّ على حال ، ثبوتا من غير تغيّر و لا تحوّل لا ينقلب عمّا وقع عليه .

فلها من هذه الجهة تجرّد و العلم سار فيها كما هو سار في المجرّدات المحضة العقليّة و المثاليّة فافهم ذلك .

قوله تعالى : « و ماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم و لا أبصاركم و لا جلودكم » الخ لا شكّ أنّ الله سبحانه خالق كلّ شيء لا موجد غيره فلا يحول بين خلقه و بينه شيء و لا يحجب خلقه منه حاجب فهو تعالى مع كلّ شيء أينماكان وكيفما كان قال تعالى : « إنّ الله على كلّ شيء شهيد » الحجّ : ١٧ و قال : « و كان الله على كلّ شيء رقيبا » الأحزاب : ٥٢ .

فالإنسان أينما كان كان الله معه ، و أيّ عمل عمله كان الله مع عمله ، و أيّ عضو من أعضائه استعمله و أيّ سبب أو أداة أوطريق اتّخذه لعمله كان معذلك العضو والسبب و الأداة و الطريق قال تعالى « و هو معكم أينماكنتم » الحديد : ٤ ، و قال : « أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت » الرعد : ٣٣ ، و قال : « إنّ ربّك لبالمرصاد » الفجر : ١٤ .

و من هنا يستنتج أنّ الإنسان ـ و هو جار في عمله ـ واقع بين مراصد كثيرة يرصده من كلّ منها ربّه و يرقبه و يشهده فمرتكب المعصية و هو متوغّل في سيّئته غافل عنه تعالى في جهل عظيم بمقام ربّه و استهانة به سبحانه و هو يرصده و يرقبه .

و هذه الحقيقة هي الّتي تشير إليه الآية أعني قوله : «و ما كنتم تستترون »الخ على ما يعطيه السياق .

فقوله : « و ماكنتم تستترون» نفي لاستتارهم و هم في المعاصي قبلا وهم في الدنيا و قوله : « أن تشهد » الخ منصوب بنزع الخافض و التقدير من أن تشهد الخ .

و قوله : « و لكن ظننتم أنّ الله لا يعلم » استدراك في معنى الإضراب عن محذوف يدلّ عليه صدر الآية و التقدير و لم تظنّوا أنّها لا تعلم أعمالكم و لكن ظننتم الخ و الآية تقريع وتوبيخ للمشركين أو لمطلق المجرمين يوجّه إليهم يوم القيامة من قبله تعالى .

و محصّل المعنى و ماكنتم تستخفون في الدنيا عند المعاصي من شهادة أعضائكم الّتي تستعملونها في معصية الله و لم يكن ذلك لظنّكم أنّها لا إدراك فيها لعملكم بل لظنّكم أنّ الله لا يعلم كثيرا ممّا تعملون أي لم تستهينوا عند المعصية بشهادة أعضائكم و إنّما استهنتم بشهادتنا .

فالاستدراك و معنى الإضراب في الآية نظير ما في قوله تعالى : « و ما رميت إذ رميت و لكنّ الله رمى » الأنفال : ١٧ ، و قوله : « و ما ظلمونا و لكن كانوا أنفسهم يظلمون » البقرة : ٥٧ .

و قوله : «كثيراً ممّا تعملون » و لم يقل: لايعلم ما تعملون و لعلّ ذلك لكونهم معتقدين بالله و بصفاته العليا الّتي منها العلم فهم يعتقدون فيه العلم في الجملة لكن حالهم في المعاصي حال من لا يرى علمه بكثير من أعماله .

و يستفاد من الآية أنّ شهادة الشهود شهادته تعالى بوجه قال تعالى: «و لا تعملون من عمل إلّا كنّا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه » يونس : ٦١ .

و لهم في توجيه معنى الآية أقوال اُخر لا يساعد عليها السياق و لا تخلو من تكلّف أضربنا عن التعرّض لها .

قوله تعالى :« وذلكم ظنّكم الّذي ظننتم بربّكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين» الإرداء من الردى بمعنى الهلاك ، و « ذلكم ظنّكم » مبتدء وخبر و « أرداكم » خبر بعد خبر ، ويمكن أن يكون « ظنّكم » بدلا من ذلكم .

و معنى الآية على الأوّل و ذلكم الظنّ الّذي ذكر ظنّ ظننتموه لا يغني من الحقّ شيأ والعلم والشهادة على حالها أهلككم ذلك الظنّ فأصبحتم من الخاسرين .

و على الثاني وظنكم الّذي ظننتم بربكم أنه لايعلم كثيرا ممّا تعملون أهلككم إذهوّن عليكم أمر المعاصي و أدّى بكم إلى الكفر فأصبحتم من الخاسرين .

قوله تعالى : « فإن يصبروا فالنار مثوى لهم و إن يستعتبوا فماهم من المعتبين » في المفردات : الثواء الإقامة مع الاستقرار . انتهى ، وفي المجمع الاستعتاب طلب العتبى وهي الرضا وهوالاسترضاء ، والإعتاب الإرضاء ، وأصل الإعتاب عندالعرب استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ ثمّ استعير فيما يستعطف به البعض بعضا لإعادته ما كان من الإلفة . انتهى .

و معنى الآية فإن يصبروا فالنارمأواهم ومستقرّهم وإن يطلبوا الرضى ويعتذروا لينجوا من العذاب فليسوا ممّن يرضى عنهم و يقبل إعتابهم و معذرتهم فالآية في معنى قوله : « اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم » الطور : ١٦ .

قوله تعالى : « و قيّضنالهم قرناء فزيّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم » إلى آخر الآية . أصل التقييض ـ كما في المجمع ـ التبديل ، و القرناء جمع قرين و هو معروف .

فقوله : « وقيّضنا لهم قرناء » إشارة إلى أنّهم لو آمنوا واتّقوا لأيّدهم الله بمن يسدّدهم و يهديهم كما قال : « اُولئك كتب في قلوبهم الإيمان و أيّدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ لكنّهم كفروا و فسقوا فبدّل الله لهم قرناء من الشياطين يقارنونهم و يلازمونهم ، و إنّما يفعل ذلك بهم مجازاة لكفرهم و فسوقهم .

و قيل : المعنى بدّلناهم قرناء سوء من الجنّ والإنس مكان قرناء الصدق الّذين اُمروا بمقارنتهم فلم يفعلوا ، و لعلّ ماقدّمناه أحسن .

وقوله : « فزيّنوا لهم ما بين أيديهم و ما خلفهم » لعلّ المرادالتمتّعات المادّيّة الّتي هم مكبّون عليها في الحال و ما تعلّقت به آمالهم و أمانيّهم في المستقبل .

و قيل : ما بين أيديهم ماقدّموه من أعمالهم السيّئة حتّى ارتكبوها ، وماخلفهم ماسنّوه لغيرهم ممّن يأتي بعدهم ، و يمكن إدراج هذا الوجه في سابقه .

و قيل : ما بين أيديهم هو ما يحضرهم من أمر الدنيا فيؤثرونه و يقبلون إليه و يعملون له ، و ما خلفهم هو أمر الآخرة حيث يدعوهم قرناؤهم إلى أنّه لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جنّة ولا نار ، وهو وجه بعيد إذلا يقال لمن ينكر الآخرة أنّها زيّنت له .

و قوله : « و حقّ عليهم القول في اُمم قد خلت من قبلهم من الجنّ و الإنس » أي ثبت ووجب عليهم كلمة العذاب حالكونهم في اُمم مماثلين لهم ماضين قبلهم من الجنّ و الإنس ، وكلمة العذاب قوله تعالى : « والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا اُولئك أصحاب النارهم فيها خالدون » البقرة : ۳۹ كقوله : « لأملأنّ جهنّم منك وممّن تبعك منهم أجمعين » صٓ : ۸۵ . وقوله : « إنّهم كانوا خاسرين » تعليل لوجوب كلمة العذاب عليهم أولجميع ما تقدّم .

و يظهر من الآية أنّ حكم الموت جار في الجنّ مثل الإنس .

﴿ بحث روائى ﴾

في الفقيه عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لابن الحنفيّة : قال الله تعالى : « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم » يعني بالجلود الفروج .

و في تفسير القمّي بإسناده عن أبي عمروالزبيري عن أبي عبدالله عليه السلام في الآية: يعني بالجلود الفروج والأفخاذ .

وفي المجمع قال الصادق عليه السلام : ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفا كأنّه يشرف على النار ، ويرجوه رجاء كأنّه من أهل الجنّة إنّ الله تعالى يقول : « و ذلكم ظنّكم الّذي ظننتم بربّكم » الآية ، ثمّ قال : إنّ الله عند ظنّ عبده إن خيرا فخير و إن شرّا فشرّ .

و في تفسير القمّي بإسناده عن عبدالرحمان بن الحجّاج عن أبي عبدالله عليه السلام في

حديث قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ليس من عبد يظنّ بالله عزّ وجلّ خيراً إلّا كان عندظنّه به و ذلك قوله عزّ وجلّ : « و ذلكم ظنّكم الّذي ظننتم بربّكم » الآية .

و في الدرّ المنثور أخرج أحمد و الطبرانيّ و عبد بن حميد و مسلم و أبو داود و ابن ماجة و ابن حبّان و ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لايموتنّ أحدكم إلّا وهو يحسن الظنّ بالله فإنّ قوما قدأرداهم سوء ظنّهم بالله عزّ وجلّ قال الله: « وذلكم ظنّكم الّذي ظننتم بربّكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

اقول : وقدروي في سبب نزول بعض الآيات السابقة مالايلائم سياقها تلك الملاءمة ولذلك أغمضنا عن إيراده :



☆☆☆

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٣٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ اَسْوَءَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذٰلِكَ جَزَاءُ اَعْدَاءِ اللّٰهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا اَرِنَا الَّذَيْنِ اَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَ الْاِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ اَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْاَسْفَلِينَ (٢٩) اِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ اَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَاَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) نَحْنُ اَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَ فِى الْاٰخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيهَا مَاتَشْتَهِى اَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَ مَنْ اَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا اِلَى اللّٰهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَ قَالَ اِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَاتَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ اِدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَاَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَ مَا يُلَقَّيهَا اِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّيهَا اِلَّا ذُوحَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَ اِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ اِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَ مِنْ آيَاتِهِ الَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لَاتَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلّٰهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ اِنْ

كُنْتُمْ اِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَاِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَسْئَمُونَ (٣٨) وَ مِنْ آيَاتِهِ اَنَّكَ تَرَى الْاَرْضَ خَاشِعَةً فَاِذَا اَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ اِنَّ الَّذِي اَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى اِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) .

﴿ بيان ﴾

رجوع إلى حديث كفرهم بالقرآن المذكور في أوّل السورة و ذكر كيدهم لإبطال حجّته ، و في الآيات ذكر الكفّار و بعض ما في عقبى ضلالتهم و أهل الاستقامة من المؤمنين و بعض مالهم في الآخرة ، ومتفرّقات اُخر .

قوله تعالى : « و قال الّذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه لعلّكم تغلبون » اللغو من الأمر مالا أصل له و من الكلام مالامعنى له يقال : لغى يلغى ويلغو لغوا أي أتى باللغو ، و الإشارة إلى القرآن مع ذكر اسمه دليل على كمال عنايتهم بالقرآن لإعفاء أثره .

والآية تدلّ على نهاية عجزهم عن مخاصمة القرآن بإتيان كلام يعادله ويماثله أو إقامة حجّة تعارضه حتّى أمر بعضهم بعضا أن لاينصتواله و يأتوا بلغو الكلام عند قراءة النبيّ صلى الله عليه وآله القرآن ليختلّ به قراءته و لا تقرع أسماع الناس آياته فيلغو أثره و هو الغلبة .

قوله تعالى : « فلنذيقنّ الّذين كفروا عذابا شديدا » الخ اللام للقسم، والمراد بالّذين كفروا بحسب مورد الآية هم الّذين قالوا : لا تسمعوا لهذا القرآن و إن كانت الآية مطلقة بحسب اللفظ .

وقوله : «ولنجزينّهم أسوء الّذي كانوا يعملون» قيل : المراد العمل السيّىء الّذي

كانوا يعملون بتجريد أفعل عن معنى التفضيل ، و قيل : المراد بيان جزاء ما هو أسوء أعمالهم و سكت عن الباقي مبالغة في الزجر .

قوله تعالى : « ذلك جزاء أعداء الله النار » الخ « ذلك جزاء » مبتدء و خبر و « النار » بدل أوعطف بيان من « ذلك» أوخبر مبتدء محذوف و التقدير هي النار أو مبتدء خبره « لهم فيها دارالخلد » .

و قوله : « لهم فيها دار الخلد » أي النار محيطة بهم جميعا و لكلّ منهم فيها دارتخصّه خالداً فيها .

وقوله : « جزاء بماكانوا بآياتنا يجحدون » مفعول مطلق لفعل مقدّر و التقدير يجزون جزاء أو للمصدر المتقدّم أعني قوله : « ذلك جزاء » نظير قوله : « فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاء موفورا » أسرى : ٦٣ .

قوله تعالى : « وقال الّذين كفروا ربّناأرنا اللّذين أضلاّنا من الجنّ والإنس» محكي قول يقولونه وهم في النار ، يسألون الله أن يريهم متبوعيهم من الجنّ والإنس ليجعلوهما تحت أقدامهم إذلالاً لهماوتشديداً لعذابهماكمايشعربه قولهم ذيلا:«نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين» .

قوله تعالى : « إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة» الخ قال الراغب : الاستقامة تقالفيالطريق الّذييكون علىخطّ مستو ، وبهشبّهطريق الحقّ نحو «اهدنا الصراط المستقيم» . قال : واستقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم نحو قوله : «إنّ الّذينقالوا ربّناالله ثمّ استقاموا » . انتهى . و في الصحاح :الاستقامة الاعتدال يقال : استقام له الأمر . انتهى .

فالمراد بقوله : « ثمّ استقاموا » لزوم وسط الطريق من غير ميل و انحراف و الثبات على القول الّذي قالوه ، قالتعالى : «فما استقاموالكم فاستقيموالهم » التوبة :٧ وقال : « واستقم كما اُمرت ولاتتّبع أهواءهم » الشورى : ١٥ وماورد فيها منمختلف التفاسير يرجع إلى ماذكر .

والآية ومايتلوها بيان حسن حال المؤمنين كما كانت الآيات قبلها بيان سوء حال الكافرين .

و قوله : « تتنزّل عليهم الملائكة أن لا تخافوا و لا تحزنوا و أبشروا بالجنّة الّتي كنتم توعدون » إخبار عمّا سيستقبلهم به الملائكة من تقوية قلوبهم وتطييب نفوسهم و البشرى بالكرامة .

فالملائكة يؤمّنونهم من الخوف و الحزن ، و الخوف إنّما يكون من مكروه متوقّع كالعذاب الّذي يخافونه و الحرمان من الجنّة الّذي يخشونه ، و الحزن إنّما يكون من مكروه واقع و شرّ لازم كالسيّآت الّتي يحزنون من اكتسابها و الخيرات الّتي يحزنون لفوتها عنهم فيطيّب الملائكة أنفسهم أنّهم في أمن من أن يخافوا شيأ أو يحزنوا لشيء فالذنوب مغفورة لهم و العذاب مصروف عنهم .

ثمّ يبشّرونهم بالجنّة الموعودة بقولهم : « و أبشروا بالجنّة الّتي كنتم توعدون» و في قولهم : «كنتم توعدون » دلالة على أنّ تنزّلهم بهذه البشرى عليهم إنّما هو بعد الحياة الدنيا .

قوله تعالى : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا و في الآخرة » الخ من تتمّة البشارة ، و على هذا فذكر ولايتهم لهم في الحياة الدنيا مع انقضاء وقتها كما تقدّم من باب التوطئة و التمهيد إلى ذكر الآخرة للإشارة إلى أنّ ولاية الآخرة مترتّبة على ولاية الدنيا فكأنّه قيل : نحن أولياؤكم في الآخرة كما كنّا ـ لما كنّا ـ أولياءكم في الحياة الدنيا و سنتولّى أمركم بعد هذا كما تولّيناه قبل .

وكون الملائكة أولياء لهم لا ينافي كونه تعالى هو الوليّ لأنّهم وسائط الرحمة و الكرامة ليس لهم من الأمر شيء ، و لعلّ ذكر ولايتهم لهم في الآية دون ولايته تعالى للمقابلة و المقايسة بين أوليائه تعالى و أعدائه إذ قال في حقّ أعدائه : « وقيّضنا لهم قرناء » الخ و قال في حقّ أوليائه عن لسان ملائكته : « نحن أولياؤكم » .

و بالمقابلة يستفاد أنّ المراد ولايتهم لهم بالتسديد و التأييد فإنّ الملائكة المسدّدين هم المخصوصون بأهل ولاية الله ، و أمّا الملائكة الحرّس و موكّلوا الأرزاق

و الآجال و غيرهم فمشتركون بين المؤمن و الكافر .

و قيل : الآية من كلام الله دون الملائكة .

و قوله : « و لكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون » ضمير « فيها » في الموضعين للآخرة ، و أصل الشهوة نزوع النفس بقوّة من قواها إلى ما تريده تلك القوّة و تلتذّ به كشهوة الطعام و الشراب و النكاح ، و أصل الادّعاء - و هو افتعال من الدعاء - هو الطلب فالجملة الثانية أعني قوله : « و لكم فيها ما تدّعون » أوسع نطاقا من الأولى أعني قوله : « لكم فيها ما تشتهي أنفسكم » فإنّ الشهوة طلب خاصّ و مطلق الطلب أعمّ منها .

فالآية تبشّرهم بأنّ لهم في الآخرة ما يمكن أن تتعلّق به شهواتهم من أكل و شرب و نكاح و غير ذلك بل ما هو أوسع من ذلك نطاقا و أعلى كعبا و هو أنّ لهم ما يشاؤن فيها كما قال تعالى : « لهم ما يشاؤن فيها » قٓ : ٣٥ .

قوله تعالى : « و من أحسن قولا ممّن دعا إلى الله و عمل صالحا وقال إنّني من المسلمين » للآية اتّصال بقوله السابق: « و قال الّذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه » الآية فإنّهم كانوا يخاصمون النبيّ ﷺ كما ينازعون القرآن ، و قد ذكر في أوّل السورة قولهم : « قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه » الآية فأيّد سبحانه في هذه الآية نبيّه بأنّ قوله و هو دعوته أحسن القول .

فقوله : « و من أحسن قولا ممّن دعا إلى الله » المراد به النبيّ ﷺ و إن كان لفظ الآية يعمّ كلّ من دعا إلى الله و لمّا أمكن أن يدعو الداعي إلى الله لغرض فاسد و ليست الدعوة الّتي هذا شأنها من القول الأحسن قيّده بقوله : « و عمل صالحا » فإنّ العمل الصالح يكشف عن نيّة صالحة غير أنّ العمل الصالح لا يكشف عن الاعتقاد الحقّ و الالتزام به ، ولا حسن في قول لا يقول به صاحبه و لذا قيّده بقوله : « و قال إنّني من المسلمين » و المراد بالقول الرأي و الاعتقاد على ما يعطيه السياق .

فإذا تمّ الإسلام لله و العمل الصالح للإنسان ثمّ دعا إلى الله كان قوله أحسن القول لأنّ أحسن القول أحقّه و أنفعه و لا قول أحقّ من كلمة التوحيد و لا أنفع منها

و هي الهادية للإنسان إلى حاقّ سعادته .

قوله تعالى : « لا تستوي الحسنة و لا السيّئة » الآية لمّا ذكر أحسن القول و أنّه الدعوة إلى الله و القائم به حقّا هو النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم التفت إليه ببيان أحسن الطريق إلى الدعوة و أقربها من الغاية المطلوبة منها و هي التأثير في النفوس فخاطبه بقوله : « لا تستوي » الخ .

فقوله : « لا تستوي الحسنة و لا السيّئة» أي الخصلة الحسنة و السيّئة من حيث حسن التأثير في النفوس ، و « لا » في « ولا السيّئة » زائدة لتأكيد النفي .

و قوله : « ادفع بالّتي هي أحسن » استئناف في معنى دفع الدخل كأنّ المخاطب لمّا سمع قوله : « لا تستوي » الخ قال : فما ذا أصنع ؟ فقيل : « ادفع » الخ و المعنى ادفع بالخصلة الّتي هي أحسن الخصلة السيّئة الّتي تقابلها وتضادّها فادفع بالحقّ الّذي عندك باطلهم لا بباطل آخر وبحلمك جهلهم و بعفوك إساءتهم و هكذا .

وقوله:«فإذا الّذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم» بيان لأثر الدفع بالأحسن و نتيجته ، و المراد أنّك إن دفعت بالّتي هي أحسن فاجأك أنّ عدوّك صار كأنّه وليّ شفيق . قيل : « الّذي بينك و بينه عداوة » أبلغ من « عدوّك » و لذا اختاره عليه مع اختصاره .

ثمّ عظّم الله سبحانه الدفع بالّتي هي أحسن ومدحه أحسن التعظيم وأبلغ المدح بقوله : « و ما يلقّاها إلّا الّذين صبروا و ما يلقّاها إلّا ذو حظّ عظيم » أي ذو نصيب وافر من كمال الإنسانيّة و خصال الخير .

و في الآية مع ذلك دلالة ظاهرة على أنّ الحظّ العظيم إنّما يوجد لأهل الصبر خاصّة .

قوله تعالى : « و إمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنّه هو السميع العليم » النزغ النخس وهو غرز جنب الدابّة أو مؤخّرها بقضيب ونحوه ليهيج ، و«ما» في « إمّا ينزغنّك » زائدة و الأصل و إن ينزغك فاستعذ .

و النازغ هو الشيطان أو تسويله و وسوسته ، و الأوّل هو الأنسب لمقام النبيّ

صلّى الله عليه وآله فإنّه لا سبيل للشيطان إليه بالوسوسة غير أنّه يمكن أن يقلّب له الاُمور بالوسوسة على المدعوّين من أهل الكفر والجحود فيبالغوا في جحودهم و مشاقّتهم و إيذائهم له فلا يؤثّر فيهم الدفع بالأحسن و يؤل هذا إلى نزغ من الشيطان بتشديد العداوة في البين كما في قوله : « من بعد أن نزغ الشيطان بيني و بين إخوتي » يوسف : ١٠٠ ، قال تعالى : « و ما أرسلنا من رسول و لا نبيّ إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطان في اُمنيّته » الآية الحجّ : ٥٢ .

ولو حمل على الوجه الثاني فالمتعيّن حمله على مطلق الدستور تتميماً للأمر ، و هو بوجه من باب « إيّاك أعني و اسمعي يا جارة » .

و قوله : « فاستعذ بالله إنّه هو السميع العليم » العوذ و العياذ بكسر العين و المعاذ و الاستعاذة بمعنى و هو الالتجاء و المعنى فالتجىء بالله من نزغه إنّه هو السميع لمسألتك العليم بحالك أو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم .

قوله تعالى : « و من آياته الليل و النهار و الشمس و القمر » الخ لمّا ذكر سبحانه كون دعوته صلّى الله عليه وآله أحسن القول و وصّاه أن يدفع بأحسن الخصال عاد إلى أصل الدعوة فاحتجّ على الوحدانيّة و المعاد في هذه الآيات الثلاث .

فقوله : « و من آياته الليل و النهار » الخ احتجاج بوحدة التدبير و اتّصاله على وحدة الربّ المدبّر ، و بوحدة الربّ على وجوب عبادته وحده ، و لذلك عقّبه بقوله « لا تسجدوا للشمس و لا للقمر » الخ .

فالكلام في معنى دفع الدخل كأنّه لمّا قيل : « و من آياته الليل و النهار » الخ فأثبت وحدته في ربوبيّته قيل : فما ذا نصنع ؟ فقيل: لا تسجدوا للشمس و لا للقمر هما مخلوقان مدبّران من خلقه بل خصّوه بالسجدة و اعبدوه وحده ، و عامّة الوثنيّين كانوا يعظّمون الشمس و القمر و إن لم يعبدهما غير الصابئين على ما قيل ، و ضمير « خلقهنّ » للّيل و النهار و الشمس و القمر .

و قوله : « إن كنتم إيّاه تعبدون » أي إنّ عبادته لاتجامع عبادة غيره .

قوله تعالى : « فإن استكبروا فالّذين عند ربّك يسبّحون له باللّيل و النهار

لا يسأمون » السأمة الملال ، و المراد « بالّذين عند ربّك » الملائكة و المخلصون من عباد الله ، و قد تقدّم كلام في ذلك في تفسير قوله : «إنّ الّذين عند ربّك لايستكبرون عن عبادته و يسبّحونه وله يسجدون » الأعراف : ٢٠٦ .

و قوله : « يسبّحون له » ولم يقل : يسبّحونه للدلالة على الحصر و الاختصاص أي يسبّحونه خاصّة ، و قوله : « باللّيل و النهار » أي دائما لا ينقطع فإنّ الملائكة ليس عندهم ليل و لا نهار .

و المعنى فإن استكبر هؤلاء الكفّار عن السجدة لله وحده فعبادته تعالى لا ترتفع من الوجود فهناك من يسبّحه تسبيحا دائما لا ينقطع من غير سأمة وهم الّذين عند ربّك .

قوله تعالى : « و من آياته أنّك ترى الأرض خاشعة » الخ الخشوع التذلّل ، و الاهتزاز التحرّك الشديد ، و الربو النشوء و النماء و العلوّ ، و اهتزاز الأرض و ربوها تحرّكها بنباتها و ارتفاعه .

و في الآية استعارة تمثيليّة شبّهت فيها الأرض في جدبها و خلوّها عن النبات ثمّ اخضرارها و نموّ نباتها و علوّه بشخص كان وضيع الحال رثّ الثياب متذلّلا خاشعا ثمّ أصاب مالاً يقيم أوده فلبس أفخر الثياب و انتصب ناشطا متبختراً يعرف في وجهه نضرة النعيم .

و الآية مسوقة للاحتجاج على المعاد ، و قد تكرّر البحث عن مضمونها في السور المتقدّمة .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « أرنا اللّذين أضلّانا » يعنون إبليس الأبالسة وقابيل بن آدم أوّل من أبدع المعصية . روي ذلك عن عليّ عليه السلام .

اقول : و لعلّه من نوع الجري فالآية عامّة .

و فيه في قوله تعالى : « إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا » روي عن أنس

قال : قرء علينا رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآ ية ثمّ قال : قد قالها ناس ثمّ كفر أكثرهم فمن قالها حتّى يموت فقد استقام عليها .

و فيه في قوله تعالى : « تتنزّل عليهم الملائكة » يعني عند الموت عن مجاهد و السدّي و روي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » قال : كنّا نحرسكم من الشياطين « و في الآ خرة » أي عند الوت .

و في المجمع في الآ ية قيل : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » أي نحرسكم في الدنيا و عند الموت في الاخرة .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « ادفع بالّتي هي أحسن » قال : ادفع سيّئة من أساء إليك بحسنتك حتّى يكون الّذي بينك و بينه عداوة كأنّه وليّ حميم .



☆☆☆

إنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءٌ وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ مَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَ لَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨) لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ

قَنُوطٌ (۴۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (۵۰) وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (۵۱) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (۵۲) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۵۳) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (۵۴) .

﴿ بيان ﴾

عودة اُخرى إلى حديث القرآن و كفرهم به على ظهور آيته و رفعة درجته و ما فرّطوا في جنبه و رميهم النبيّ صلّى الله عليه وآله و جحدهم الحقّ و كفرهم بالآيات ومايتبع ذلك ، وتختتم السورة .

و الآية الاُولى أعني قوله : « إنّ الّذين يلحدون في آياتنا » الاية كالبرزخ الرابط بين هذا الفصل و الفصل السابق من الآيات لما وقعت بين قوله : « إنّ الّذين كفروا بالذكر لمّا جاءهم » الآية وبين قوله : « وقال الّذين كفروا لاتسمعوا لهذاالقرآن» الآية وقوله : « ومن آياته الليل و النهار » الخ .

قوله تعالى : « إنّ الّذين يلحدون في آياتنا لايخفون علينا » الخ سياق تهديد

لملحدي هذه الاُمّة كما يؤيّده الآية التالية ، و الإلحاد الميل .

و إطلاق قوله : « يلحدون » و قوله : « آياتنا » يشمل كلّ إلحاد في كلّ آية فيشمل الإلحاد في الايات التكوينيّة كالشمس و القمر و غيرهما فيعدّونها آيات لله سبحانه ثمّ يعودون فيعبدونها ، و يشمل آيات الوحي و النبوّة فيعدّون القرآن افتراء على الله وتقوّلاً من النبيّ ﷺ أو يلغون فيه لتختلّ تلاوته فلا يسمعه سامع أو يفسّرونه من عند أنفسهم أو يؤوّلونه ابتغاء الفتنة فكلّ ذلك إلحاد في آيات الله بوضعها في غير موضعها والميل بها إلى غير مستقرّها .

وقوله : « أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة » إيذان بالجزاء وهو الإلقاء في النار يوم القيامة قسرا من غير أيّ مؤمّن متوقّع كشفيع أو ناصر أو عذر مسموع فليس لهم إلّا النار يلقون فيها ، و الظاهر أنّ قوله « أم من يأتي آمنا يوم القيامة » لإبانة أنّهما قبيلان لا ثالث لهما فمستقيم في الإيمان بالآيات وملحد فيها ويظهر به أنّ أهل الاستقامة في أمن يوم القيامة .

و قوله : « اعملوا ماشئتم إنّه بما تعملون بصير » تشديد في التهديد .

قوله تعالى : « إنّ الّذين كفروا بالذكر لمّا جاءهم ـ إلى قوله ـ من حكيم حميد » المراد بالذكر القرآن لما فيه من ذكر الله ، و تقييد الجملة بقوله : « لمّا جاءهم» يدلّ على أنّ المراد بالّذين كفروا هم مشركوا العرب المعاصرين للقرآن من قريش وغيرهم .

و قد اختلفوا في خبر «إنّ» و يمكن أن يستظهر من السياق أنّه محذوف يدلّ عليه قوله : «إنّ الّذين يلحدون في آياتنا » الخ فإنّ الكفر بالقرآن من مصاديق الإلحاد في آيات الله فالتقدير إنّ الّذين كفروا بالذكر لمّا جاءهم يلقون في النار يوم القيامة ، و إنّما حذف ليذهب فيه وهم السامع أيّ مذهب ممكن والكلام مسوق للوعيد.

و إلى هذا المعنى يرجع قول الزمخشريّ في الكشّاف : إنّ قوله :« إنّ الّذين كفروا » الخ بدل من قوله : « إنّ الّذين يلحدون في آياتنا » .

و قيل : خبر إنّ قوله الآتي : « اُولئك ينادون من مكان بعيد » ، و قيل :

الخبر قوله : « لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه » بحذف ضمير عائد إلى اسم إنّ و التقدير لا يأتيه منهم أي لا يأتيه من قبلهم ما يبطله و لا يقدرون على ذلك أو بجعل أل في الباطل عوضا من الضمير و المعنى لا يأتيه باطلهم .

و قيل : إنّ قوله : « و إنّه لكتاب عزيز » الخ قائم مقام الخبر و التقدير إنّ الّذين كفروا بالذكر كفروا به و إنّه لكتاب عزيز .

و قيل : الخبر قوله : « ما يقال لك » الخ بحذف الضمير و هو « فيهم » والمعنى ما يقال لك في الّذين كفروا بالذكر إلّا ما قد قيل للرسل من قبلك إنّ لهم عذاب الاستئصال في الدنيا و عذاب النار في الآخرة ، و وجوه التكلّف في هذه الوجوه غير خفيّة على المتأمّل البصير .

و قوله : « و إنّه لكتاب عزيز » الضمير للذكر و هو القرآن ، و العزيز عديم النظير أو المنيع الممتنع من أن يغلب ، و المعنى الثاني أنسب لما يتعقّبه من قوله : « لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه » .

و قوله : «لا يأتيه الباطل من بين يديه و لامن خلفه » إتيان الباطل إليه وروده فيه و صيرورة بعض أجزائه أوجميعها باطلا بأن يصير ما فيه من المعارف الحقّة أوبعضها غير حقّة أو ما فيه من الأحكام و الشرائع و ما يلحقها من الأخلاق أوبعضها لغىً لا ينبغي العمل به .

و عليه فالمراد بقوله : « من بين يديه و لا من خلفه » زمانا الحال و الاستقبال أي زمان النزول و ما بعده إلى يوم القيامة ، و قيل : المراد بما بين يديه و من خلفه جميع الجهات كالصباح و المساء كناية عن الزمان كلّه فهو مصون من البطلان من جميع الجهات ، و هذا العموم على الوجه الأوّل مستفاد من إطلاق النفي في قوله : « لا يأتيه » .

و المدلول على أيّ حال أنّه لا تناقض في بياناته ، و لاكذب في أخباره ، و لا بطلان يتطرّق إلى معارفه و حكمه و شرائعه ، و لا يعارض و لايغيّر بإدخال ما ليس منه فيه أو بتحريف آية من وجه إلى وجه .

فالآية تجري مجرى قوله : « إنّا نحن نزّلنا الذكر و إنّا له لحافظون » الحجر : ٩ .

و قوله : « تنزيل من حكيم حميد » بمنزلة التعليل لكونه كتابا عزيزا لا يأتيه الباطل الخ أي كيف لا يكون كذلك و هو منزّل من حكيم متقن في فعله لا يشوب فعله وهن ، محمود على الإطلاق .

قوله تعالى : « ما يقال لك إلّا ما قد قيل للرسل من قبلك » الخ «ما» في « ما يقال لك» نافية ، و القائلون هم الّذين كفروا حيث قالوا : إنّه ساحر أو مجنون أو شاعر لاغ في كلامه أو يريد أن يتأمّر علينا ، و القائلون لما قد قيل للرسل اُممهم .

و المعنى ما يقال لك من قبل كفّار قومك حيث اُرسلت إليهم فدعوتهم فرموك بما رموك إلّا ما قد قيل للرسل من قبلك أي مثل ما قد قيل لهم .

و قوله : « إنّ ربّك لذو مغفرة و ذو عقاب أليم » في موضع التهديد و الوعيد أي إنّ ربّك ذو هاتين الصفتين أي فانظر أو فلينظروا ماذا يصيبهم من ربّهم وهم يقولون ما يقولونه لرسوله ؟ أهو مغفرة أم عقاب ؟ فالآية في معنى قوله : « اعملوا ما شئتم إنّه بما تعملون بصير » أي ما عملتم من حسنة أو سيّئة أصابكم جزاؤه بعينه .

و قيل: المعنى ما يوحى إليك في أمر هؤلاء الّذين كفروا بالذكر إلّا ما قد اُوحي للرسل من قبلك و هو أنّ ربّك لذو مغفرة و ذو عقاب أليم فالمراد بالقول الوحي ، و « إنّ ربّك » الخ بيان لما قد قيل .

قوله تعالى : « ولو جعلناه قرآنا أعجميّا لقالوا لولا فصّلت آياته ءأعجميّ و عربيّ » قال الراغب : العجمة خلاف الإبانة. قال:و العجم خلاف العرب و العجميّ منسوب إليهم ، و الأعجم من في لسانه عجمة عربيّا كان أو غير عربيّ اعتبارا بقلّة فهمهم عن العجم . انتهى فالأعجميّ غير العربيّ البليغ سواء كان من غير أهل اللغة العربيّة أو كان منهم و هو غير مفصح للكنة في لسانه ، و إطلاق الأعجميّ على الكلام كإطلاق العربيّ من المجاز .

فالمعنى و لو جعلنا القرآن أعجميّا غير مبين لمقاصده غير بليغ في نظمه لقال

الّذين كفروا من قومك : هلاّ فصّلت و بيّنت آياته و أجزاؤه فانفصلت و بانت بعضها من بعض بالعربيّة و البلاغة أكتاب مرسل أعجميّ و مرسل إليه عربيّ ؟ أي يتنافيان و لا يتناسبان .

و إنّما قال : « عربيّ » و لم يقل : عربيّون أو عربيّة مع كون من اُرسل إليه جمعا و هم جماعة العرب ، إذ القصد إلى مجرّد العربيّة من دون خصوصيّة للكثرة بل المراد بيان التنافي بين الكلام و بين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحدا أوكثيرا .

قال في الكشاف : فان قلت : كيف يصحّ أن يراد بالعربيّ المرسل إليهم و هم اُمّة العرب ؟ قلت : هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لورآى كتابا عجميّاً كتب إلى قوم من العرب يقول: كتاب أعجميّ و مكتوب إليه عربيّ و ذلك لأنّ مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب و المكتوب إليه لا على أنّ المكتوب إليه واحد أو جماعة فوجب أن يجرّد لما سيق إليه من الغرض و لا يوصل به ما يخلّ غرضا آخر ألا تراك تقول و قد رأيت لباسا طويلا على امرأة قصيرة : اللباس طويل و اللابس قصير ولو قلت: و اللابسة قصيرة جئت بما هو لكنة و فضول قول لأنّ الكلام لم يقع في ذكورة اللابس و اُنوثته إنّما وقع في غرض وراءهما .

و قوله : « قل هو للّذين آمنوا هدى و شفاء » بيان أنّ أثر القرآن و خاصّته لا يدور مدار لغته بل الناس تجاهه صنفان وهم الّذين آمنوا و الّذين لا يؤمنون ، و هو هدى و شفاء للّذين آمنوا يهديهم إلى الحقّ و يشفي ما في قلوبهم من مرض الشكّ و الريب . وهو عمى على الّذين لا يؤمنون ـ وهم الّذين في آذانهم وقر ـ يعميهم فلا يبصرون الحقّ و سبيل الرشاد .

و في توصيف الّذين لا يؤمنون بأنّ في آذانهم وقرا إيماء إلى اعترافهم بذلك المنقول عنهم في أوّل السورة : « و في آذاننا وقر » .

وقوله : « اُولئك ينادون من مكان بعيد » أي فلا يسمعون الصوت ولا يرون الشخص وهو تمثيل لحالهم حيث لا يقبلون العظة و لا يعقلون الحجّة .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه » الخ تسلية للنبيّ صلّى الله عليه وآله

عن جحود قومه وكفرهم بكتابه .

وقوله : « ولولا كلمة سبقت من ربّك لقضي بينهم » الكلمة هي قوله : « و لكم في الأرض مستقرّ و متاع إلى حين » الأعراف: ٢٤ .

وقوله : « وإنّهم لفي شكّ منه مريب » أي في شكّ مريب من كتاب موسى عليه السلام. بيان حال قومه ليتسلّى به النبيّ صلى الله عليه وآله فيما يرى من قومه .

قوله تعالى : « من عمل صالحا فلنفسه و من أساء فعليها » الخ أي إنّ العمل قائم بصاحبه ناعت له فلو كان صالحاً نافعاً انتفعت به نفسه وإن كان سيّئاً ضارّاً تضرّرت به نفسه فليس في إيصاله تعالى نفع العمل الصالح إلى صاحبه و هو الثواب ولا في إيصال ضرر العمل السيّء إلى صاحبه وهو العقاب ظلم و وضع للشيء في غير موضعه .

ولو كان ذلك ظلما كان تعالى في إثابته و تعذيبه من لا يحصى من العباد في ما لا يحصى من الأعمال ظلّاما للعبيد لكنّه ليس بظلم و لا أنّه تعالى ظلّام لعبيده و بذلك يظهر وجه التعبير باسم المبالغة في قوله : « و ما ربّك بظلّام للعبيد » و لم يقل : و ما ربّك بظالم .

قوله تعالى : « إليه يردّ علم الساعة ـ إلى قوله ـ إلّا بعلمه » ارتداد علم الساعة إليه اختصاصه به فلا يعلمها إلّا هو ، و قد تكرّر ذلك في كلامه تعالى .

و قوله : « و ما تخرج من ثمرات من أكمامها » « ثمرات » فاعل « تخرج » و « من » زائدة للتأكيد كقوله : « و كفى بالله شهيدا » النساء : ٧٩ ، و أكمام جمع كمّ وهو وعاء الثمرة و « ما » مبتدء خبره « إلّا بعلمه » و المعنى و ليس تخرج ثمرات من أوعيتها ولا تحمل اُنثى ولا تضع حملها إلّا مصاحباً لعلمه أي هو تعالى يعلم جزئيات حالات كلّ شيء .

فهو تعالى على كونه خالقاً للأشياء محوّلاً لأحوالها عالم بها وبجزئيّات حالاتها مراقب لها ، و هذا هو أحسن التدبير فهو الربّ وحده ، ففي الآية إشارة إلى توحّده تعالى في الربوبيّة و الاُلوهيّة ، و لذا ذيّل هذا الصدر بقوله : « و يوم يناديهم أين شركائي » الخ .

قوله تعالى : « و يوم يناديهم أين شركائي قالوا آذنّاك مامنّا من شهيد ـ إلى قوله ـ من محيص » الظرف متعلّق بقوله : « قالوا » و قيل : ظرف لمضمر مؤخّر قد ترك إيذانا بقصور البيان عنه كما في قوله تعالى : « و يوم يجمع الله الرسل » ، و قيل: متعلّق بمحذوف نحو اذكر ، و لعلّ الوجه الأوّل أنسب لصدر الآية بالمعنى الّذي ذكرناه فتكون الآية مسوقة لنفي الشركاء ببيان قيام التدبير به‌تعالى واعتراف‌المشركين بذلك يوم القيامة .

والإيذان الإعلام ، و المراد بالشهادة الشهادة القوليّة أو الشهادة بمعنى‌الرؤية الحضوريّة و على الثاني فقوله : « و ضلّ عنهم ما كانوا يدعون من قبل » عطف تفسير يبيّن به سبب انتفاء الشهادة .

و قوله : « و ظنّوا مالهم من محيص » الظنّ ـ على ما قيل ـ بمعنى اليقين ، و المحيص المهرب و المفرّ ، و المعنى و يوم ينادي‌الله المشركين : أين شركائي ؟ ـ على زعمكم ـ قالوا : أعلمناك مامنّا من‌يشهد عليك بالشركاء ـ أو مامنّا من يشاهد الشركاء و غاب عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في الدنيا ، و أيقنوا أن ليس لهم مهرب من العذاب .

قوله تعالى : « لايسأم الإنسان من دعاء الخير و إن مسّه الشرّ فيؤس قنوط » السأمة الملال ، و اليأس و القنوط بمعنى وهو انقطاع الرجاء ، والدعاء الطلب.

شروع في ختم الكلام في السورة ببيان ما هو السبب في جحودهم و دفعهم الحقّ الصريح ، وهو أنّ الإنسان مغترّ بنفسه فإذا مسّه شرّ يعجز عن دفعه يئس من الخير وتعلّق بذيل الدعاء والمسألة وتوجّه إلى‌ربّه ، وإذا مسّه خير اشتغل به وأعجب‌بنفسه و أنساه ذلك كلّ حقّ وحقيقة .

و المعنى لايملّ الإنسان من طلب الخير وهو مايراه نافعا لحياته و معيشته وإن مسّه الشرّ فكثير اليأس والقنوط لمايرى‌من سقوط الأسباب الّتي‌كان يستند إليها،وهذا لاينافي تعلّق رجائه إذ ذاك بالله سبحانه‌كما سيأتي .

قوله تعالى : « و لئن أذقناه رحمة منّا من بعد ضرّاء مسّته ليقولنّ هذالي »

الخ الأصل بالنظر إلى مضمون الآية السابقة أن يقال : و إن ذاق خيرا قال : هذالي لكن بدّل ذاق من « أذقناه » و « خيراً » من قوله : « رحمة منّا » ليدلّ على أنّ الخير الّذي ذاقه هو رحمة من الله أذاقه إيّاها وليس بمصيبه برأسه ولاهو يملكه ولوكان يملكه لم ينفكّ عنه ولم يمسسه الضرّاء ، ولذا قيّد قوله : « ولئن أذقناه » الخ بقوله :« من بعد ضرّاء مسّته » .

وقوله : « ليقولنّ هذالي » أي أنا أملكه فلي أن أفعل فيه ما أشاء وأتصرّف فيه كيف اُريد ، فليس لأحد أن يمنعني من شيء منه أويحاسبني على فعل ، ولهذا المعنى عقّبه بقوله : « وما أظنّ الساعة قائمة » فإنّ الساعة هي يوم الحساب .

و قوله : « و لئن رجعت إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى » أي للمثوبة الحسنى أو للعاقبة الحسنى ، وهذا مبنيّ على مايراه لنفسه من الكرامة واستحقاق الخير كأنّه يقول : ماملكته من الخير لوكان من الله فإنّما هو لكرامة نفسي عليه و على هذافإن قامت الساعة و رجعت إلى ربيّ كانت لي عنده العاقبة الحسنى .

فالمعنى واُقسم لئن أذقنا الإنسان رحمة هي منّا ولايستحقّها ولايملكها فأذقناها من بعد ضرّاء مسّته و ذلك يدلّه على أنّه لايملك ما اُذيقه نسي ما كان من قبل وقال: هذالي ـ يشير إلى شخص النعمة ولايسمّيها رحمة ـ وليس لأحد أن يمنعني عمّاأفعل فيه ويحاسبني عليه وما أظنّ الساعة ـ وهي يوم الحساب ـ قائمة ، و اُقسم لئن رُجعت إلى ربّي و قامت ساعة كانت لي عنده العاقبة الحسنى لكرامتي عليه كما أنعم عليّ من النعمة .

و الآية نظيرة قوله في قصّة صاحب الجنّة : « ما أظنّ أن تبيد هذه أبدا و ما أظنّ الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها منقلبا » الكهف:٣٦ . وقد تقدّم بعض الكلام فيه .

و قوله : فلننبّئنّ الّذين كفروا بما عملوا ولنذيقنّهم من عذاب غليظ »تهديد و وعيد .

قوله تعالى : « و إذا أنعمنا علي الإنسان أعرض و نآ بجانبه و إن مسّه الشرّ

فذو دعاء عريض » النأي الابتعاد ، و المراد بالجانب الجارحة و هي الجنب أو المراد الجهة و المكان فقوله : « نآى بجانبه » كناية عن الابتعاد بنفسه وهو كناية عن التكبّر و الخيلاء ، و المراد بالعريض الوسيع ، و الدعاء العريض كالدعاء الطويل كناية عمّا استمرّ و أصرّ عليه الداعي ، و الآية في مقام ذمّ الإنسان و توبيخه أنّه إذا أنعم الله عليه أعرض عنه وتكبّر و إذا سلب النعمة ذكر الله وأقبل عليه بالدعاء مستمرّاً مصرّاً .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عندالله وكفرتم به من أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد » « أرأيتم » أي أخبروني ، و الشقاق و المشاقّة الخلاف ، و الشقاق البعيد الخلاف الّذي لا يقارب الوفاق و هو شديده ، و قوله : «ممّن هو في شقاق بعيد » كناية عن المشركين ولم يقل : منكم بل أتى بالموصول و الصلة وذلك في معنى الصفة ليدلّ على علّة الحكم وهو الشقاق البعيد من الحقّ .

و المعنى قل للمشركين أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله ثمّ كفرتم به من أضلّ منكم ؟ أي لا أضلّ منكم لأنّكم في خلاف بعيد من حقّ مافوقه حقّ .

فمفاد الآية أنّ القرآن يدعوكم إلى الله ناطقا بأنّه من عند الله فلا أقلّ من احتمال صدقه في دعواه وهذا يكفي في وجوب النظر في أمره دفعاً للضرر المحتمل وأيّ ضرر أقوى من الهلاك الأبديّ فلامعنى لإعراضكم عنه بالكلّيّة .

قوله تعالى : «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ» الخ الآفاق جمع اُفق و هو الناحية ، و الشهيد بمعنى الشاهد أو بمعنى المشهود و هو المناسب لسياق الآية .

و ضمير « إنّه » للقرآن على مايعطيه سياق الآية و يؤيّده الآية السابقة الّتي تذكر كفرهم بالقرآن ، و على هذا فالاية تعد إراءة آيات في الآفاق و في أنفسهم حتّى يتبيّن بهاكون القرآن حقّا ، والآيات الّتي شأنها إثبات حقّيّة القرآن هي الحوادث و المواعيد الّتي أخبر القرآن أنّها ستقع كإخباره بأنّ الله سينصر نبيّه صلى الله عليه وآله والمؤمنين و يمكّن لهم في الأرض و يظهر دينهم على الدين كلّه و ينتقم من مشركي قريش إلى غير ذلك .

فأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله بالهجرة إلى المدينة وقد اشتدّ الأمر عليه وعلى من آمن به غايتها فلاسماء تظلّهم و لا أرض تقلّهم ثمّ قتل صناديد قريش في بدر و لم يزل يرفع ذكره و يفتح على يديه حتّى فتح مكّة و دانت له جزيرة العرب ثمّ فتح بعد رحلته للمسلمين معظم المعمورة فأرى سبحانه المشركين آياته في الآفاق و هي النواحي الّتي فتحها للمسلمين ونشر فيها دينهم ، وفي أنفسهم و هو قتلهم الذريع في بدر .

وليست هذه آيات في أنفسها فكم من فتح و غلبة يذكره التاريخ و مقاتل ذريعة يقصّها لكنّها آيات بما أنّ الله سبحانه وعدبها والقرآن الكريم أخبر بها قبل وقوعها ثمّ وقعت على ما أخبر بها .

و يمكن أن يكون المراد باراءة الآيات و تبيّن الحقّ بذلك ما يستفاد من آيات اُخرى أنّ الله سيظهر دينه بتمام معنى الظهور على الدين كلّه فلا يعبد على الأرض إلّا الله وحده و تظلّ السعادة على النوع الإنسانيّ و هي الغاية لخلقتهم ، وقد تقدّم استفادة ذلك من قوله تعالى : « وعدالله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض » الآية النور : ٥٥ و غيره و أيّدناه بالدليل العقليّ .

والفرق بين الوجهين أنّ وجه الكلام على الأوّل إلى مشركي مكّة و من يتبعهم خاصّة وعلى الثاني إلى مشركي الاُمّة عامّة والخطاب على أيّ حال اجتماعيّ ،ويمكن الجمع بين الوجهين .

و يمكن أن يكون المراد ما يشاهده الإنسان في آخر لحظة من لحظات حياته الدنيا حيث تطير عنه الأوهام و تضلّ عنه الدعاوي و تبطل الأسباب و لا يبقى إلّا الله عزّ اسمه ، و يؤيّده ذيل الآية و الآية التالية ، و ضمير « أنّه الحقّ » على هذا لله سبحانه .

و لهم في الآية أقوال اُخرى أغمضنا عن إيرادها .

و قوله : « أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد » فاعل « لم يكف » هو « بربّك » و الباء زائدة ، و « إنّه على كلّ شيء شهيد » بدل من الفاعل ، و الاستفهام للإنكار ، و المعنى أولم يكف في تبيّن الحقّ كون ربّك مشهوداً على كلّ شيء إنما

من شيء إلّا و هو فقير من جميع جهاته إليه متعلّق به و هو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكلّ شيء و إن لم يعرفه بعض الأشياء .

و اتّصال الجملة أعني قوله : « أولم يكف بربّك » الخ بقوله : «سنريهم » الخ على الوجه الأخير من الوجوه الثلاثة الماضية ظاهر،وأمّا على الوجهين الأوّلين فلعلّ الوجه فيه أنّ المشركين إنّما كفروا بالقرآن لدعوته إلى التوحيد فانتقل من الدلالة على حقّيّة القرآن للدلالة على حقّيّة ما يدعو إليه إلى الدلالة على حقّيّة ما يدعو إليه مستقيماً من غير واسطة كأنّه قيل : سنريهم آياتنا ليتبيّن لهم أنّ القرآن الّذي يخبرهم بها حقّ فيتبيّن أنّ ربّك واحد لاشريك له ثمّ قيل : و هذا طريق بعيد هناك ما هو أقرب منه أولم يكفهم أنّ ربّك مشهود على كلّ شيء ؟

قوله تعالى : « ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم » الخ الّذي يفيده السياق أنّ في الآية تنبيها على أنّهم لا ينتفعون بالاحتجاج على وحدانيّته تعالى بكونه شهيدا على كلّ شيء و هو أقوى براهين التوحيد و أوضحها لمن تعقّل لأنّهم في مرية و شكّ من لقاء ربّهم و هوكونه تعالى غير محجوب بصفاته و أفعاله عن شيء من خلقه .

ثمّ نبّه بقوله : «ألا إنّه بكلّ شيء محيط» على ما ترتفع به هذه المرية و تنبتّ من أصلها و هو إحاطته تعالى بكلّ شيء على ما يليق بساحة قدسه و كبريائه فلا يخلو عنه مكان و ليس في مكان و لا يفقده شيء و ليس في شيء .

و للمفسّرين في الآية أقوال لوراجعتها لرأيت عجبا .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن عساكر عن عكرمة في قوله : « أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة » نزلت في عمّار بن ياسر و في أبي جهل .

أقول : و رواه أيضاً عن عدّة من الكتب عن بشر بن تميم ، و روى أيضاً عن ابن مردويه عن ابن عبّاس « أفمن يلقى في النار » قال : أبوجهل بن هشام ، و «أم من يأتي آمناً يوم القيامة » قال : أبوبكر الصدّيق ، و الروايات من التطبيق .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم » يعني القرآن « لا يأتيه الباطل من بين يديه » قال : لا يأتيه الباطل من قبل التوراة و لا من قبل الإنجيل و الزبور « و لا من خلفه » قال : لا يأتيه من بعده كتاب يبطله .

و في المجمع في الآية قيل فيه أقوال ـ إلى أن قال ـ و ثالثها معناه أنه ليس في إخباره عما مضى باطل و لا في إخباره عما يكون في المستقبل باطل بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها ، و هو المروي عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « ءأعجمي و عربي » قال : لو كان هذا القرآن أعجمياً لقالوا : كيف نتعلمه و لساننا عربي و أتيتنا بقرآن أعجمي فأحب الله أن ينزله بلسانهم و قد قال الله عز وجل : « و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » .

وفي روضة الكافي بإسناده عن الطيار عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عز وجل : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » قال : خسف ومسخ و قذف . قال : قلت : « حتى يتبين لهم » ؟ قال : دع ذا ذاك قيام القائم .

و في إرشاد المفيد عن علي بن أبي حمزة عن أبي الحسن موسى عليه السلام في الآية قال : الفتن في آفاق الأرض و المسخ في أعداء الحق .

وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام في الآية قال : يريهم في أنفسهم المسخ ، و يريهم في الآفاق انتقاض الآفاق عليهم فيرون قدرة الله عز و جل في أنفسهم و في الآفاق . قلت له : حتى يتبين لهم أنه الحق ؟ قال : خروج القائم هو الحق عندالله عز وجل يراه الخلق .

تم و الحمدلله

فهرس بعض المواضيع المبحوث عنها في هذا الجزء

جدول الخطأ و الصواب

ص	س	خطأ	صواب
١٣	٢٣	الاِشرك	الاِشراك
٣١	٣	ُيحمَلُ	ُيحملْ
٤٣	٤٢	عملو	عملوا
٤٨	١٥	منهم	عنهم
٥٢	٨	ليكونَنّ	ليكونُنّ
٥٣	١٣	منه	عنه
٦٠	٤	لا يقادمه	لا يقاومه
٦٤	٤	فتتلخّص	فتلخّص
٦٦	٩	و إنّ	و انّ
٧٤	٧	و السعاوة	و السعادة
٧٧	١٦	و فيه	و فيها
٨٨	١٤	و تمرا	و ثمرا
٩٨	٢٤	اليل	الليل
١٠٣	١٨	و اظها	و اظهار
١٠٧	٢١	كسبوها	كسبوها بها
١١٥	١٤	المعفى	المعنى
١٣٤	١٠	إنّ	أنّ
١٣٥	١٨	و إذا	ءإذا
١٣٩	٣	عنّا	منّا
١٣٩	٣	لقوله	كقوله
١٤٣	١٧	غيرهنّ	غيرهم
١٥١	٣	ابرهيم	ابراهيمُ
١٦١	١٠	انّ	ان
١٦٨	٣	ابنه	اللّٰه
١٩٢	١٣	قيله	قبله
٢٠١	١٩	عن الشر	من الشر
٢١٣	١٠	حسنُ	حسنَ
٢٣٠	٢	لحسنُ	لحسنَ
٢٣٤	٤	لي	لِيَ
٢٧١	١٦	كلامة	كلامه
»	١٩	و نطمئن	و تطمئن
٢٧٤	٩	اليقامة	القيامة
٢٨٠	٤	يتوكّلَ	يتوكّلُ
٢٨٢	٤	نظم	و هو نظم
»	١٠	بفيد	يفيد
٢٩١	١٦	و يرزق	و ترزق

ص	س	خطأ	صواب
٢٩١	١٦	يشاء	تشاء
٣٠٣	٩	ينظرون	ينظَرون
٣٠٥	١٥	الاشياء	انّ الاشياء
٣٣٤	١٤	مكذب	و مكذب
٣٤١	٩	امّا	اما
٣٤٢	٩	اقتُلُ	اقتُلْ
٣٤٥	١٦	المبين	المبين
٣٤٩	١٩	ريتا	ريبا
٣٥٠	١٢	يبعد	يبتعد
٣٧٢	٥	الجميع	في الجميع
٣٨٤	٢٤	و استقامة	و استقامة
		الحجة	المحجّة
٣٩٤	٢٠	بنيّة	بنية
٤٠٧	٢٣	ان تشهد مرتين	ان يشهد
٤٣١	٢٣	إنّه	أنّه

